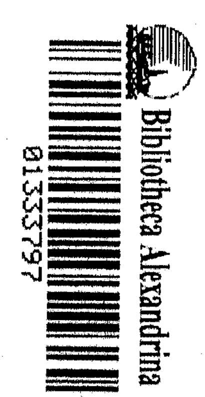
الخوارج في بلاد المغرب

حتى منتصف القرن الرابع الهجري

تأليف

الدكتور محمود اسماعيل عبد الرازق





الخوارج في بلاد المغرب

حتى منتصف القرن الرابع الهجري

14278

الدكتور محمود اسماعيل عبد الرازق

أستاذ بكلية الآداب — فاس

الخوارج في بلاد المغرب

حتى منتصف القرن الرابع الهجري

رسالة دكتورة

نشر وتوزيع



دار الثقافة

32 – 34 شارع فكتور هيكو

الهاتف 30.76.44 / 30.23.75

ص ب 4038 الدار البيضاء المغرب



الطبعة الثانية 1406 ــ 1985

مقدمة

لعب الخوارج دورا بارزا فى تاريخ بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، واثروا فى احوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كما كانت بلاد المغرب اكثر بقاع العالم الاسلامى تقبلا لعقائد الخوارج واكثرها حماسا لنصرتهم • فباعتناق المغاربة مذهب الخوارج ، رفعوا علم الثورة على الأمويين والعباسيين ، وانتهى بهم الأمر الى اقامة امارتين مستقلتين هما امارة بنى مدرار وامارة بنى رستم •

وبقيامهما شهدت بلاد المغرب عصرا من الاستقلال السياسى والازدهار الاقتصادى والثقافى كان لها عوضا عن فترة القلاقل والاضطرابات السياسية والأزمات الاقتصادية التى صحبت عصر الثورة .

ثم قامت الدولة الفاطمية ، وقضت على دول المغرب المستقلة ، فهب الخوارج من جديد ضد الفاطميين وسياستهم القائمة على التعصب للمذهب الشيعى ، وهددوا بازالة النفوذ الفاطمى من بلاد المغرب • حقيقة لم يقدر لثوراتهم النجاح ، الا انها ارغمت الفاطميين على التحول من سياسة العنف والتعصب الى اللين والاعتدال .

قصارى القول — ان تاريخ المغرب الاسلامى حتى منتصف القرن الرابع الهجرى تاثر بحركات الخوارج تاثرا كبيرا • وعلى الرغم من ذلك ، نفتقر الى دراسة متكاملة عن الخوارج فى المغرب واثرهم فى تطوره السياسى ، ودورهم فى تاريخه من بدء الثورة الى تحقيق الاستقلال ، ثم العودة الى الثورة مرة اخرى . لا ننكر انه ظهرت بعض الدراسات الخاصة بثورات الخوارج ، لكنها عولجت فى ثنايا التاريخ العام للمغرب الاسلامى ، أو فى ثنايا الحديث عن سياسة عمال الخلافة فى البلاد • كما ظهرت كتب تعرض لدول الخوارج فى المغرب لكنها لم تتناول اكثر من ظروف قيامها فقط . هذا هو ما قرره ثقاة الدارسين من امثال

جوتييه (1) وفورنل (2) وجوليان (3) وبيكيه (4) وجورج مارسيه (5) .

والواقع ان عديدا من المصاعب تعتور سبيل من يتصدى للتاريخ لهذا الموضوع ، ففى بعض الاحيان تندر المادة التاريخية كما هو الحال بالنسبة لظهور الخوارج فى المغرب ، وكذلك دولة بنى مدرار بسجلماسة ، فعلى الرغم من كثرة ما دون عن تواريخ الخوارج لم يصل الينا منهـا الا القليل النادر (6) ·

وما وصلنا من معلومات كان اغلبها من مصادر معادية للخوارج داب اصحابها على تشويه سيرهم والطعن فى مبادئهم وافكارهم ، وليس ادل على ذلك من افتعال الاحاديث النبوية واصطناعها لخدمة اغراضهم فى تسفيه الخوارج وتحقير شأنهم (7) ·

ومن ناحية اخرى فان ما وصلنا من تواريخ الخوارج يقتصر فقط على الاباضية منهم دون الصفرية ، وتنطوى على التعصب الشديـد للمذهب الاباضى وائمته ، وتتحامل على الفرق الاخرى من الخوارج ، ناهيك عن عدائها المقيت للمذاهب والفرق الاسلامية من غير الخوارج · وفضلا عن ذلك تمتلىء بالأساطير والخوارق والكرامات التى لا تستقيم مع منطق التاريخ .

ولا مناص للباحث عن دراسة مصادر هذا التاريـخ وتقييمهـا والكشف عن ميولها واتجاهاتها قبل الاقدام على استقاء معلوماته منها .

ولما كان تاريخ الخوارج فى المغرب قاسما مشتركا بين الخلافة السنية والشيعية ، فمن المفيد أن ندرس مصادر هذا التاريخ ونصنفها الى مصادر سنية وشيعية وخارجية ·

اولا : المصادر السنيـة :

المادة التاريخية المتعلقـة بالخوارج فى المصادر السنية متفرقـة

---

(1) Les siecles obscurs du Maghreb. P. 292.

(2) Les Berbers. Vol. 2. P. 4.

(3) Histoire de l'Afrique du Nord. P. 339.

(4) Histoire de l'Afrique Septentrionale. P. 67.

(5) مادة بنى رستم بدائرة المعارف الاسلامية ص 93 ·

(6) انظر ابن النديم : الفهرست ص 258 .

(7) راجع : البلاذرى : أنساب الاشراف ج 11 ص 106 .

ومبعثرة فى الحوليات العامة أو التواريخ الاقليمية · وأقدم التصانيف فى تاريخ المغرب عبثت بها يد الدهر ، فلم يصلنا منها سوى شذرات متفرقات نقلها المتأخرون . لعل من أهمها كتاب مسالك افريقية وممالكها ، والمؤلفات الخاصة بأخبار تيهرت وسجلماسة وغيرها من المدن المغربية ، تلك التى نسبت الى محمد بن يوسف الوراق (291 — 362 هـ) « الحافظ لاخبار المغرب » كما ذكر ابن حيان (8) · والوراق مؤرخ اندلسى نشأ بالقيروان وتوفى بقرطبة (9) ، وقد فقد تاريخه كله ، وان وجدت فقرات منه عند البكرى .

وينسحب نفس القول على ابن القطان (ت 628 هـ) صاحب كتاب نظم الجمان ، وان كان بروفنسال قد عثر على جزء منه خاص بنهاية عصر المرابطين وأوليات سنى الموحدين ، وكذلك الحال بالنسبة لكتاب « العبر » لابن أبى الفياض (ت 459 هـ) (10) . والى عهد قريب كان تاريخ الرقيق القيروانى (ت أوائل القرن الخامس الهجرى) فى حكم المفقود ، لكن لحسن الحظ قدر لنا الوقوف على جزء منه عثر عليه الأستاذ محمد المنونى المكناسى سنة 1965 م بالخزانة العامة بالرباط ، استفدنا منه أيما فائدة فى دراسة ثورات الخوارج فى بلاد المغرب ·

وهذا الجزء الذى يقع فى مائة وخمسين صحيفة حققه الأستاذ المنجى الكعبى التونسى ونشره سنة 1968 م بعنوان تاريخ افريقية والمغرب · ومؤلفه هو ابو اسحق عمر بن القاسم المعروف بالرقيق القيروانى · ولا نعلم كثيرا عن نشأته ، انما نعرف انه تولى رئاسة ديوان الرسائل فى البلاط الصنهاجى ، ومن ثم فقد أتيح له الاطلاع على كثير من الوثائق والتواليف فى تاريخ المغرب قل أن توافرت لغيره ، بفضلها كتب تاريخه المشهور ابتداء بالفتح الاسلامى للمغرب حتى أوائل القرن الخامس فى عدة مجلدات لا نعلم عنها شيئا قط .

ولا شك فى ان الرقيق كان سنى المذهب بدليل اشتغاله فى بلاط بنى زيرى ، لكن اتجاهاته المذهبية — والحق يقال — لم تنعكس على كتاباته بشكل يسترعى النظر · وقد نقل عنه معظم من صنف بعده فى

---

(8) المقتبس فى اخبار بلد الاندلس ، تحقيق الحجى ص 33 ·

(9) بغية الملتمس فى تاريخ رجال الاندلس ص 131 ·

(10) انظر : عبيد الله ابن صالح : نص جديد من فتح العرب للمغرب . نشره بروفنسال · ص 198 .

تاريخ المغرب الاسلامى كابن عذارى والنويرى وابن خلدون وغيرهم وعلى الرغم من ذلك فقد حفل الجزء الذى نشر بتفصيلات كثيرة لم توجد عند من نقلوا عنه ، كتلك التى تتعلق بمعركتى القرن والاصنام ، وثورة ابن عطاف الاسدى على عبد الرحمن بن حبيب ، وامامة الحارث وعبد الجبار الاباضيين ، وحصار عمر بن حفص بطبنه سنة 152 هـ ٠ وقدر لنا اعتمادا على هذه المادة الجديدة ان نكون أول من استفاد بها فى التاريخ لثورات الخوارج ببلاد المغرب ٠

والراجح ان جزء آخر من تاريخ الرقيق وصل الينا عن طريق ابن حماد فى كتابه المعروف باخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ، اذ ذكر فاندرهيدن (11) الذى نشره أن ابن حماد نقل النص برمته عن الرقيق . وجدير بالذكر ان هذا النص يتعلق بحركة أبى يزيد مخلد بن كيداد اساسا وليس تاريخا للخلافة الفاطمية فى المغرب كما يوحى العنوان . على كل حال ، فلو صح قول فاندر هيدن نكون قد استفدنا فى دراستنا للخوارج فى المغرب بمعلومات مستقاة من تاريخ الرقيق لم تتوفر للدارسين من قبل ٠

وثمة مصدر سنى آخر غاية فى الاهمية ، وهو سيرة الائمة الرستميين لابن الصغير المالكى (12) ، والواقع انه ليس لدينا ثمة ما يشير الى اصل ابن الصغير أو نشأته ، وكل ما نعرفه انه أقام بتاهرت فى العصر الرستمى الأخير ، كشيخ من شيوخ المالكية ، كانله نشاط بارز فى المساجلات والمحاورات التى شهدتها تاهرت بين مشايخ الطوائف المذهبية المختلفة ، اذ يصور فى كتابه جدله فى المسائل الفقهية والدينية مع رؤساءالاباضية والمعتزلة ، كما نعلم من تاريخه انه كان يعمل تاجرا ويملك « دكانا فى الرهادنة » ، (13) على أن اهميته كمؤرخ دقيق نابه امر لا يرقى اليه الشك ٠ والراجح انه صنف تواليف اخرى لم تصل الينا ، فاسلوبه ومنهجه كما يتضح فى تاريخه للدولة الرستمية ينم عن طول باع فى ميدان التاريخ . على كل حال وقف المستشرق Motylinski على كتابه عن سيرة الائمة الرستميين ونشره سنة 1905

---

(11) انظر : Histoires des Rois Obeidides. P. 9.

(12) صنفه الدكتور سعد زغلول — خطأ — ضمن مؤرخى الاباضية . انظر : تاريخ المغرب العربى ص 27 م ٠

(13) ابن الصغير : ص 46 .

تحت عنوان :

Chronique d'Ibn Saghir sur les Imams Rostimides des Tahert. (14)

ويخيل الينا ان تاريخ ابن الصغير أهم مصادرنا عن دولة بني رستم ، فهو معاصر لاحداث العصر الرستمي الاخير وشاهد عيان لها ، كما استمد معلوماته عن بني رستم الاوائل من معاصريه من شيوخ الاباضية وغير الاباضية . ولكونه سنيا مالكيا فقد كشف لنا عن كثير من أسرار عصره ، مما تغاضى عنه مؤرخو الاباضية ، كما قدم لنا وجهة النظر المقابلة لتلك التي تتعصب للامامة الرستمية . ومن الانصاف أن نذكر أن ابن الصغير كان موضوعيا في تاريخه ، اذ كثيرا ما أبدى اعجابه بسيرة الراشدين من الائمة الرستميين ، ولم يثنه خلافه المذهبي عن الاشادة بسياساتهم . ولم يقدر لابن الصغير أن يشهد نهاية دولة بني رستم مما يرجح انه مات في التسعينات من القرن الثالث الهجري اذ يقف تاريخه عند امامة ابي حاتم يوسف بن محمد (ت 294 هـ) .

اما ابن عذارى وتاريخه المعروف بالبيان المغرب ، فيجمع الدارسون (15) على اهميته كتاريخ عام للمغرب الاسلامي اقرب ما يكون الى التكامل ، على الرغم من تأخره النسبي ، فقد ألفه ابن عذارى سنة712 هـ . وهو لذلك من اكثر مراجع تاريخ المغرب الاسلامي تفصيلا، واثراها مادة ، وذلك راجع بطبيعة الحال الى استفادته من تواريخ السابقين كالرقيق وابن عبد البر وابن القطان والوراق وغيرهم ممن اشار اليهم فيما نقل عنهم ، ونحن في غنى عن التعريف بابن عذارى وتاريخه على وجه العموم ، فقد تناول ذلك كثير من الدارسين . انما نكتفي بتقييم ما أورده متعلقا بالخوارج في المغرب ، فالملاحظ أنه أفاض في حديثه عن ثورات الخوارج ، لكنه عزف عن التاريخ لدولهم في المغرب واكتفى باشارات متناثرة عن أمرائهم وسني حكمهم . ومع ذلك ، فقد اسدى خدمة طيبة باثباته للتواريخ في دقة تامة ، وذلك امر اغفلته تماما كل تواريخ الخوارج تقريبا .

---

(14) Actes du 14 Congrés international des orientalistes Algiers, 1905. Vol. 3. Part 2.

(15) انظر : بروفنسال : نص جديد ص 195 ، حسين مؤنس : رياض النفوس . المقدمة ص 6 ،

Hopkins : Medieval Moslem government in Barbary.. P. xi.

ومعلوماتنا المستقاة عن ابن عذارى بخصوص الخوارج والفاطميين لا تختلف كثيرا عن نظائرها فى سائر المصادر العامة التقليدية كابن الأثير وابن خلدون والنويرى ، اذ انها جميعا تنقل اساسا عن الرقيق فيما يرجح .

ولا مشاحة فى ان جغرافيا مثل البكرى (ت 487 هـ) فى كتابه المغرب ، فضلا عن قيمته الكبرى فى دراسة البلدان ومواقعها والمسالك اليها .. الخ من المعلومات الجغرافية ، فقد زودنا بمادة تاريخية هامة — ان لم تكن فريدة فى بعض الاحيان — عن خوارج المغرب . وحسبنا ان كثيرا مما كتبه الوراق عن صفرية سجلماسة ما كان ليصل الينا لولا البكرى . وتلك المعلومات — على ندرتها — عظيمة القيمة بالنسبة لدولة بنى مدرار ، فلولاها لظل تاريخ تلك الدولة فى طى الابهام . على انه يؤخذ على البكرى افراطه فى ذكر روايات ذات طابع اسطورى ، بالاضافة الى عدم دقة معلوماته الخاصة بتاريخ الرستميين .

ومن الاهمية بمكان ان نشير الى كتاب ابن عبد الحكم « فتوح مصر والمغرب والاندلس » . وعلى الرغم من انه مؤرخ مصرى الف اساسا فى المغازى ، فان كتابه حافل بفيض من المعلومات الخاصة بخوارج المغرب . وابن عبد الحكم المؤرخ فى غنى عن التعريف فهو من خيرة مؤرخى الاسلام دقة وموضوعية ، ومن انضجهم اسلوبا ومنهجا . وتبدو اهميته بالنسبة لموضوع البحث كمعاصر للاحداث من ناحية (توفى سنة 257 هـ) ، وكموثق يهتم باسناد رواياته الى من سمع منهم او اخذ عنهم . ولا غرو فقد أتيح له الاتصال عن كثب بكثير من مشاهير المغاربة الذين كانوا يفدون الى مصر لدراسة مذهب مالك ، واستفاد من معلوماتهم فيما يتعلق بأخبار بلاد المغرب . وحسبنا ما اورده من معلومات — فريدة — حول ثورات الاباضية ، فضلا عن تقديمه صورة واضحة لاحوال بلاد المغرب قبيل ظهور دعوة الخوارج .

اما الجزء الثالث من كتاب اعمال الاعلام لابن الخطيب الذى حققه الدكتور احمد مختار العبادى ونشره بعنوان « تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط » فيحوى معلومات عن ثورات الخوارج استمدها — فيما يرجح — من ابن عذارى ، كما امدنا بمعلومات هامة — على ضآلتها — عن بنى مدرار . وعلى الرغم من اخطائه الكثيرة فى اسماء الاعلام والتواريخ ، وبرغم اسرافه فى ذكر روايات اسطورية ، فقد

زودنا بكثير من الاشارات عن بنى مدرار ، لا نجد لها نظيرا عند البكرى أو من نقل عنه كابن خلدون والقلقشندى ، مما يرجح اعتماد ابن الخطيب فى هذا الصدد على كتابات محمد بن يوسف الوراق مباشرة وعدم نقله عن البكرى كما فعل غيره من المؤرخين المتاخرين .

ويقدم ابن الاثير فى تاريخه « الكامل » مادة طيبة ماخوذة عن الطبرى فيما يتعلق بخوارج المشرق . اما ما يخص منها خوارج المغرب فهى منقولة — فى تحقيق وتمحيص وتنسيق — عن تواليف المغاربة كالرقيق والورق وغيرهما ، شأنه فى ذلك شأن النويرى فى الجزاين الثانى والعشرين والسادس والعشرين من موسوعته المعروفة بنهاية الارب .

ولا يفوتنا أن نعرض بايجاز لما ورد من اشارات الى خوارج المغرب عند البلاذرى والمؤرخ الاندلسى المجهول صاحب كتاب « اخبار مجموعة فى فتح الاندلس » ، وكذلك عند ابن حيان وابن سعيد وابن بطوطة . فالبلاذرى فى انساب الاشراف يفيض بمادة وفيرة ويقدم وجهة نظر مغايرة لرواية ابى مخنف المتحيزة ، التى نقل عنها الطبرى وغيره فيما يتعلق بالخوارج فى الشرق . أما كتابه « فتوح البلدان » فلا يخلو من اشارات عابرة عن بلاد المغرب قبيل ظهور الخوارج ، فضلا عن ثورات الخوارج فى بلاد المغرب .

اما صاحب الأخبار المجموعة ، فهو مشايع لبنى امية متحامل على الخوارج ، لكنه أورد تفصيلات فريدة بخصوص ثورات الخوارج الصفرية فى بلاد المغرب .

وفى النصوص التى وصلتنا عن ابن حيان — شيخ مؤرخى الاندلس — سواء تلك التى نشرها ملشور انطونيه او نشرها الحجى ببيروت سنة 1965 ، نجد اشارات عابرة لكنها مفيدة فى توضيح علاقات بنى مدرار وبنى رستم بأموى الاندلس . ونفس الشيء يقال عن كتاب المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد .

اما « رحلة » ابن بطوطة فتحفل بمعلومات وفيرة عن علاقات دول الخوارج ببلاد السودان .

ثانيا : المصادر الشيعية :

كان سقوط دولتى الخوارج ببلاد المغرب مرتبطا بقيام الدولة

الفاطمية ، لذلك عرض مؤرخو الشيعة لاخبار الخوارج — بطريقة عارضة — فى ثنايا تاريخهم للدولة الفاطمية فى المغرب ومع قلة المعلومات الخاصة بالخوارج عند مؤرخى الشيعة ، وبرغم تحاملهم على الخوارج لما بينهم من عداء مذهبى ، فقد خلفوا معلومات طيبة عن علاقة الخوارج بالفاطميين .

ويعد ابو حنيفة النعمان المعروف بابن حيون المغربى (ت 363 هـ) من أهم من تناول هذا الموضوع ، ففضلا عن معاصرته الاحداث، كان على قرب منها أو معاين لها فى اغلب الاحيان لعمله كقاضى قضاة المعز الفاطمى . ولابن حيون مؤلفات كثيرة عن الفاطميين وعقائدهم وتواريخهم ، أطلعنا على ثلاثة منها هى : اساس التاويل الباطنى وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ولا يفيد كثيرا فى دراسة الخوارج ، اما شرح الاخبار فهو مخطوط أيضا بدار الكتب المصرية نشر منه المستشرق الروسى ايفانوفا مقتطفات جعلها ملاحق كتابه

Ismaili tradition concerningthe rise of the Fatimids.

ويلقى من الاضواء عن حياة المهدى فى سجلماسة حتى الغزو الشيعى ما يفيد فى معرفة أحوال دولة بنى مدرار فى عهد أميرها اليسع بن مدرار ، فضلا عن اهميته فى توضيح سقوط دولة بنى مدرار سنة 297 هـ على يد أبى عبد الله الشيعى .

وأهم ما خلفه ابن حيون كتابه المسمى بالمجلس والمسايرات ، وهو مخطوط من جزأين بمكتبة جامعة القاهرة ، عرض فيه ان حيون لاحاديث المعز فى مجالسه مع معاصريه من الحكام وكبار الشخصيات . وقد اتيح لابن حيون حضور هذه المجالس ، واستطاع تدوين وتسجيل ما كان يدور فيها . وبرغم تحيزه الظاهر للفاطميين ، ومع أن الكتاب لا يعد تاريخا بقدر ما هو مذكرات خاصة تقريبا ، فقيمته عظيمة فى التاريخ للمدراريين الاواخر وعلاقتهم بالفاطميين ، ونعتقد انه اهم مصدر فى هذا الصدد ، اذ يعرض ابن حيون لاعداد المعز حملته على المغرب الاقصى سنة 347 هـ التى كان من بين اهدافها تأديب الامير المدرارى الشاكر لله الثائر على الحكم الفاطمى ، كما يتناول تفاصيل وقائعها ونتائجها . ومن خلال عرضه لمجالس المعز مع الشاكر لله بعد اسره — تلك التى قصد المعز منها « معرفة اخبار سجلماسة واهلها وسيرته فيهم وما يقال عنه من قبوله » — أمكن الوقوف على كثير من أخبار تلك

الدولة التى نفتقر الى معلومات عنها · وجدير بالتنويه أن أحدا ممن درسوا تاريخ المغرب الاسلامى لم يقدر له من قبل الاستفادة من تلك المادة التاريخية فى التاريخ لدولة بنى مدرار ·

وثمة مصدران شيعيان آخران عظيما الفائدة فى تصوير مجتمع سجلماسة فى أواخر العصر المدرارى ــ من خلال تناول حياة المهدى فى سجلماسة ــ وهما : «كتاب استتار الامام» لابراهيم بن احمد النيسابورى (ت أواخر القرن الرابع الهجرى) ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية نشر ايفانوفا أجزاء منه بمجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الاول (مجلد 4 ــ ج 2) تحت عنوان مذكرات فى حركة المهدى الفاطمى . وكتاب « سيرة جعفر الحاجب » التى رواها محمد بن محمد اليامنى، وقد نشرها ايفانوفا ايضا فى نفس العدد من مجلة كلية الآداب . وسيرة جعفر تعد من قبيل المذكرات الخاصة ، اذ كان صاحبها حاجبا للمهدى ومرافقا له فى رحلته الى المغرب ، وسجن معه فى سجلماسة ، ومن هنا تبدو اهمية سيرته كشاهد عيان للاحداث .

اما ابو عبد الله محمد بن على بن حماد (ت 628 هـ) ، فكتابه المعروف بأخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم غاية فى الاهمية بخصوص ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد برغم تحامله الشديد على الخوارج والتعصب للفاطميين ، ولا غرو فابن حماد شيعى اسماعيلى ، اذ يذكر المهدى مسبوقا بعبارة « سيدنا الخليفة الاول امير المؤمنين » (16) · وقد ذكر فاندر هيدن الذى نشر الكتاب وقدم له أن ابن حماد نقل مباشرة عن الرقيق نصه عن ثورة أبى يزيد . ومن هنا تبرز قيمة تلك المعلومات برغم نسبتها الى ابن حماد الذى عاش عصرا متأخرا عن الاحداث ·

أما اليعقوبى المتوفى سنة 284 هـ فقد صنف فى التاريخ والجغرافيا ، وتاريخه حافل بدراسة الخوارج فى الشرق ، ويلقى بعض الضوء على دوافع نزوحهم الى المغرب · لكن جغرافيته المعروفة بكتاب البلدان اكثر اهمية من تاريخه ، اذ هى العمدة فى دراسة مشاكل الحدود بين دول الخوارج وجيرانهم فى بلاد المغرب ، ومعلوماته عن وضع تلمسان والنزاع عليها بين المدراريين والرستميين والأدارسة جد قيمة فى دراسة العلاقات الخارجية لدول الخوارج ، وغير ذلك أمدنا اليعقوبى بمعلومات

(16) انظر : اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص 10 ·

هامة عن دولتى الخوارج على الرغم من اقتضابها ، ووجه الاهمية انه عاصر هاتين الدولتين وعاين بعض وقائعها عن كثب ، وقدر له الاتصال ببعض افراد البيت الرستمى ، وفى هذا الصدد يقول « .. وحدثنى أبو معبد عبد الرحمن بن محمد بن ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم التاهرتى » (17) . كما عرف بالموضوعية وعدم الانحياز الى جانب الحرص فى التحقق من مصادره ، ولا مبالغة البتة فيما ذكره عن منهجه الذى حدده بقوله : « .. وقد اتصلت أسفارى ودام تغربى ، فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره وبلده وساكنيه ودياناتهم ومقالاتهم .. ثم اثبت كل ما يخبرنى به من أثق بصدقه، واستظهر بمسألة قوم بعد قوم حتى سألت خلقا كثيرا من الناس .. »

وفى كتاب المسالك والممالك للجغرافى المعروف ابن حوقل — وهو شيعى المذهب — نجد معلومات طيبة عن تاهرت وسجلماسة عاصمتى دولتى الخوارج ، اغلب الظن أنه نقل كثيرا منها عن مصادر مغربية غير دقيقة اعتمد عليها ايضا أبو عبيد البكرى بدليل وقوعه فى نفس الاخطاء التى نجدها عند البكرى فيما بعد . ومع ذلك فما أورده ابن حوقل عن الخوارج ، وصلاتهم ببلاد السودان يعد عظيم الاهمية لمعاصرته الأحداث اذ توفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى .

وابن خلدون سواء فى مقدمته او فى تاريخه يبدى تعاطفا واضحا مع الشيعة الزيدية (الأدارسة) والاسماعيلية (الفاطميين) . وما كتبه عن المغرب الاسلامى لا غنى عنه لاى دارس لذلك التاريخ ، فضلا عن استفادة ابن خلدون من مؤرخى المغرب السابقين ، كان لاشتغاله بالسياسة وتقلبه فى خدمة الدول المعاصرة له ما اتاح له القدرة على الكشف عن القوى المحركة للتاريخ والاسباب والعلل الكامنة وراء أحداثه . ولا غرو فقد تفرد عن جمهرة مؤرخى الاسلام بفلسفته للتاريخ ، وله نظرية اقرب ما تكون الى نظرية « البيولوجية التطورية » فى تفسير أحداثه وتعليل وقائعه . ولا حاجة بنا للخوض فى تقييم ابن خلدون المؤرخ ، ويعنينا ما اورده عن الخوارج فى المغرب . والذى لا شك فيه ان ابن خلدون امدنا بمعلومات فريدة عن القبائل وانسابها ومذاهبها ومقالاتها افادت كثيرا فى دراسة انتشار مذهب الخوارج فى بلاد المغرب . وفى

(17) انظر : البلدان ص 358 .

تأريخه لثورات الخوارج ودولهم وموقفهم من الفاطميين لا يختلف كثيرا عن غيره من المؤرخين الذين تناولوا تاريخ المغرب العام كابن عذارى وابن الاثير والنويرى · لكن ابن خلدون ، فضلا عن عدم دقة تواريخه ، كثيرا ما تختلط معلوماته ، مثل خلطه بين الاباضية والصفرية فى احيان كثيرة حتى ان مؤرخا ما سكراى نبه الى ضرورة اتخاذ الحذر فى تناول كتابات ابن خلدون فى هذا الصدد · ويخيل الينا ان اهتمامه بالتفسير والتحليل أوقعه فى مزالق الخطأ ، اذ كثيرا ما نجد تناقضا واضحا حين يتناول موضوعا ما فى تأريخه العام وبين ذات الموضوع حين يعرض له اثناء عرضه لتواريخ القبائل ، ومع ذلك فحسبه أن فصلا من فصول البحث لم يخل من كتاباته ، سواء فى مقدمته او تاريخه ·

ثالثا : مصادر الخوارج :

خلف الخوارج الكثير عن عقائدهم وسيرهم وتاريخهم وطبقاتهم ، لكن لم يصلنا منها سوى النذر اليسير ، وقد اورد البرادى فى رسالته عن كتب الاباضية عديدا من هذه التصانيف للمشارقة والمغاربة على السواء ، كما اورد ابن النديم فى « الفهرست » مزيدا منها ، وذكر أنها « مستورة محفوظة » ، فلم نقف لها على اثر ، ومن هذه الكتب ما دونه اليمان بن الرباب ويحى بن كامل والصيرفى وعبد الله بن زيد وابراهيم ابن اسحق الاباضى والهيثم بن الهيثم والربيع بن حبيب وغيرهم من المشارقة . كذلك نعلم من سير الشماخى أن مؤرخا اباضيا مغربيا شهيرا يدعى ابن سلام عاش حول منتصف القرن الثالث الهجرى وصنف كتابا فى السير لم يصلنا بعد ، وقد اعتمد عليه الشماخى فيما يتعلق بثورات الاباضية وطبقات مشايخ المذهب حتى عصر ابن سلام .

ومن المغاربة الاباضية كذلك ابى الربيع سليمان بن يخلف الذى نقل عن ابى زكريا ومعبد بن افلح ممن نقل عنهم الوسيانى .

ومن المحقق ان كثيرا من هذه الكتب ابيدت او احرقت نظرا لما تعرض له الخوارج فى الاشرق والغرب من اضطهاد ، فقد اخبرنا الدرجينى (18) ان مكتبة الائمة الرستميين المعروفة « بالمعصومة » أحرقها أبو عبد الله الشيعى سنة 297 هـ ، ومن المحقق ان كتب الصفرية

---

(18) طبقات الاباضية ج 2 ورقة 125 ظهر ·

بسجلماسة لاقت نفس المصير .

وجدير بالذكر ان كافة كتب الصفرية لم نقف لها على اثر ، بينما وصلنا بعض كتب الاباضية ، وتفسير ذلك ان ابا عبد الله الشيعى الذى اقام بسجلماسة اربعين يوما ، اجهز على ما بها تواليف وتصانيف ، بينما لم تطل اقامته بتاهرت ، اذ غادرها على التو لتحرير المهدى من سجنه بسجلماسة ، فتسربت بعض كتب الاباضية مع بعض افراد البيت الرستمى الذين هربوا الى وارجلان ، ومعروف انها استعصت على الغزو الشيعى . كذلك سلم جبل نفوسة من عبث الفاطميين بديوان الاباضية الحافل بتصانيف المذهب ، ويخبرنا البرادى (19) ان ديوان نفوسة كان مشتملا على اكداس هائلة من الكتب بلغ ما ورد منها من الشرق فقط نحو ثلاثمائة وثلاثين الف جــزء .

وبعد أن فتح المرابطون وارجلان رحل اباضيتها بكتبهم واقاموا بوادى ميزاب — جنوبى الجزائر — حيث لا تزال محفوظة لدى مشايخ المذهب الى الآن ، وقد ذكر ماسكراى ان ثروة جبل نفوسة من كتب الاباضية اكثر وفرة منــها فى وادى الميزاب . وقد حــاول لفيف مــن المستشرقين المهتمين بتاريخ المغرب زيارة مشايخ الاباضيـــة بوادى الميزاب وجبل نفوسة ، والاطلاع على خزائن الكتب هناك ، ومن هؤلاء ماسكراى وموتايلنسكى ولويسكى وباسيه وغيرهم . ونجحوا بالفعل فى الوقوف على قدر ضئيل من تراث الاباضية ، اذ ان مشايخ المذهــب يرفضون اظهار ما لديهم من الكتب المتعلقة بأسرار المذهب ولا يتيحون سوى الاطلاع على الكتب المتواترة الخاصة بالعموميات ، كما ذكر برسى سميث (20) وماسكراى (21) .

ومع ذلك فقد حصلنا على بعض تلك التصانيف الخاصة بالعقائد والنوازل والفتاوى ، وكذلك بعض التواريخ والسير وكتب الطبقات .

ومن اهم مصادرنا فى كتب الفتيا رسالة فى احكام الزكاة لابــى عبيدة مسلم بن ابى كريمة (ت اواخر القرن الثانى الهجرى) ، وهى مخطوطة بدار الكتب المصرية غاية فى الأهمية لأن صاحبها كان شيخا لاباضية

---

(19) رسالــة فى ذكــر كتب الاباضيــة .

(20) The Ibadites. P. 267. The Moslem World. Vol 12, July ; 1922.

(21) انظــر : Chronique d'abou Zakaria. P. VII.

البصرة ورئيسا لتنظيم المذهبى السياسى بعد جابر بن زيد ، واليه يعزى الفضل فى بث دعاة المذهب الى أطراف الدولة الاسلامية ومن بينهـا بلاد المغرب . كما كان رؤساء المذهب فى المغرب يلتحقون بحضرته للتفقه فى المذهب والاعداد لاقامة الدولة الاباضية . وتكشف لنا الرسالة عـن حقيقة تطور افكار الخوارج السياسية فى الشرق أواخر العصر الأموى ، ولجوئهم الى أساليب التنظيم والدعوة كبديل لاسلوب الثورات الهوجاء الذى اثبت فشلا ذريعا . وتمدنا بمعلومات هامة — على ضآلتها — عن صلة التنظيم الام فى البصرة بمشايخ المذهب فى المغرب بعد قيام امامة أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح بطرابلس سنة 140 هـ .

ومن كتب العقائد والفقــه ، نشر المستشرق موتايلنسكــى (22) نصا للشيخ الاباضى عمرو بن جميع بعنوان « متن عقيدة التوحيد » ، يلقى بعض الضوء على الفكر السياسى عند الخوارج ، فضلا عن آراء الاباضية فى كثير من المسائل الفقهية . ونفس المعلومات نجدها فى « مقدمة اصول الفقه» للشماخى «ومدونة ابى غانم الصفرى» «وشرح السؤالات» للسوفى ، وهى جميعا مخطوطات بدار الكتب المصرية .

اما عن كتب التاريخ والسير ، فأهمها على الاطلاق « كتاب السيرة واخبار الائمة » لأبى زكريا يحيى بن ابى بكر (ت النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) . ولا يزال الكتاب مخطوطا بدار الكتب المصرية ، وقد ترجمه ماسكراى الى الفرنسية وقدم له وعلق عليه ونشره تحت عنوان :

Chronique d'Abou Zakaria

وابو زكريا من اهل وارجلان ، ولا نعلم شيئا عن نشأته ، بينما ندرك انه اعتمد فى تاريخه لثـورات الاباضية والرستميين الأوائل على مؤرخ اباضى يدعى ابو الربيع سليمان بن يخلف ، ويبدو أنه عاصر العهد الرستمى الأخير او استمد معلوماته عنه من الجيل السابق له ، بينما نقل عنه كل من لحقه من مؤرخى الاباضية ، وصدق فيه قول أبـى الربيع (23) الوسيانى « أن أبا زكريا له الفضل فى السبق الى كتابـة اخبار اهل الدعوة » . وقد ارخ ابو زكريا اساسا للدولة الرستمية ، لذلك

---

(22) انظـر : Actes du 14 Congrés international des orientalistes. Algiers, 1905. Vol. 3, Part 2.

(23) سير ابى الربيع بن عبد السلام الوسيانى ورقة 1 وجه .

يسرف فى تصوير فضل الفرس على الاسلام ، حتى أنه انتحل كثيرا من الاحاديث والمأثورات عن الصحابة والتابعين تمجيدا لنسب أئمة بنى رستم . وفى تاريخه لهم اتبع منهجا طيبا ، فمع حرصه على التسلسل الزمنى للأحداث خلال عهود الائمة ، تصور خمسة مراحل للامامة تعرضت الجماعة الاباضية فى كل منها لانشقاق مذهبى . وبعد ذلك يعرض لاخبار الاباضية بعد سقوط دولة بنى رستم ، أى علاقتهم بالفاطميين الذين أطلق عليهم « المسودة » . ومن خلال كتابات أبى زكريا عن اباضية المغرب نقف على معلومات خاصة بالخوارج الصفرية كتلك التى تتعلق بانتشار مذهبهم ببلاد المغرب ، وعلاقة بنى رستم ببنى مدرار .. الخ وقد أمدنا بتاريخ شبه متكامل لدولة بنى رستم يعاب عليه فيه تعصبه التام للائمة وتحامله على الحركات المناوئة لهم ، واغفاله ذكر احداث كثيرة لان فيها ما يشين سياسة الائمة وقد دفعه هذا التعصب احيانا اخرى الى تزييف الوقائع والاخبار . كما يؤخذ على تاريخ ابى زكريا اسرافه فى ايراد روايات خرافية واسطورية ، وافاضته فى نسبة اعمال خارقة ومعجزات الى من ترجم لهم من مشايخ المذهب . وفيما يختص بمعلوماته عن الخوارج والفاطميين ، ففضلا عن الشذرات المتفرقة التى تلقى ضوءا على ثورات الاباضية ، امدنا بمادة طيبة تفيد فى توضيح موقف الاباضية الوهبية من حركة ابى يزيد النكارى ، هذا بالاضافة الى معلومات عن سقوط دولة بنى مدرار الصفرية على الرغم مما تتسم به من طابع روائى .

وغير سيرة أبى زكريا ، وقفنا بدار الكتب المصرية على مخطوطة عن « سير أبى الربيع الوسيانى » تلك التى اعتبرها لويسكى (24) فى حكم المفتودة ، وعلق على النصوص التى اوردها الشماخى عن أبى الربيع بأنها « غاية فى الأهمية » . ونعتقد ان اهمية سير أبى الربيع تكمن فى كونه عاش قريبا من الأحداث اذ توفى سنة 418 هـ ، فضلا عن اقامته بوارجلان من اهم معاقل الاباضية بعد سقوط الدولة الرستمية . كذلك اثبت أبو الربيع مصادره ، فسمع عن شيخه أبى محمد عبد الله بن محمد العاصمى ، كما اخذ ايضا عن المؤرخ الاباضى معبد بن افلح وغيرهما ممن

(24) Une chronique ibadite "Kitab-as-Syar" d'As-Samachi. P. 74. Revue des etudes Islamiques, Vol. VII, 1934.

لم نقف على كتبهما الاصلية ، فحفظ لنا قبسا مما دونوه . وجدير بالذكر ان سير أبى الربيع تلقى أضواء باهرة على أخبار الاباضية فى العصر الفاطمى ، فضلا عما ورد بها من معلومات عارضة عن العصور السابقة ، بالاضافة الى مسائل واجوبتها فى الفقه الاباضى جد مفيدة فى معرفة فكر الاباضية وفلسفتهم فى الحكم والادارة .

وثمة مؤرخ اباضى شهير هو ابو العباس احمد بن سعيد الشماخى (ت 928 هـ) الذى ينتمى الى اسرة معروفة بجبل نفوسة أخرجت كثيرين من أعلام الاباضية . وله فضلا عن كتابه « شرح مقدمة اصول الفقه » ــ وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ــ كتابه المعروف بالسير . وسير الشماخى تعد تاريخا شبه متكامل لاباضية المغرب ، فلكونه عاش فى عصر متأخر ، قدر له الاطلاع على تواليف سابقيه كابن سلام وابى زكريا والربيع بن حبيب والسوفى ومقرين بن محمد البغطورى الذى الف عن سير مشايخ نفوسة سنة 599 هـ . وامتازت سير الشماخى عن غيرها من سير الاباضية بأخذ مؤلفها عن مؤرخين من غير الاباضية كالرقيق وابن الصغير . كما يلحظ الدارس حرص الشماخى على مناقشة وتحليل الروايات المختلفة والمفاضلة بينها واثبات ما يراه صحيحا ومقنعا. ولا غرو فكثيرا ما خالف سابقيه من مؤرخى الاباضية ، ورجع روايات السنة الأمر الذى يجعله اكثر مؤرخى الاباضية حيادا وموضوعية فى نظرنا .

اما كتب الطبقات ، فقد وقفنا على اثنين منها ، اولهما لابى العباس احمد الدرجينى (ت حوالى منتصف القرن السابع الهجرى) ويسمى « طبقات الاباضية » ، وهو مخطوط فى ثلاثة أجزاء بدار الكتب المصرية ، يعرض فيه الدرجينى تراجم لمشايخ المذهب الاباضى جيلا بعد جيل فى المشرق والمغرب على السواء . وفيما يتعلق بالمشارقة اعتمد الدرجينى على كتاب الكامل لابى العباس المبرد ، بينما نقل كثيرا عن ابى زكريا فى اخبار المغاربة . ومن ثم فما تضمنه كتابه من معلومات فى هذا الصدد مكررة ولا تقدم جديدا . اكثر من ذلك فان الدرجينى ورث نفس مثالب سابقيه ولم يبذل ثمة محاولة لتحقيق معلوماته ، وان كان من الانصاف ان نثبت له أمانته فى اسناد هذه المعلومات الى من نقلها عنهم . كما وقع فى كثير من الاخطاء ، واغفل كثيرا من مشايخ المذهب ولم يترجم لهم وهذا هو ما حدا بأبى القاسم البرادى الى تدارك ذلك الاغفال وتصحيح تلك

الاخطاء التى فاتت على الدرجينى ·

فابو القاسم البرادى (ت 697 هـ) سمى طبقاته لذلك « الجواهر المنتقاه فى اتمام ما اخل به كتاب الطبقات لابى العباس الدرجينى » · وهذا الكتاب مخطوط بدار الكتب عالج فيه صاحبه كثيرا من الموضوعات وعرض لعديد من عيون المذهب واعلامه ممن اهملهم الدرجينى ، كما حلل وناقش كثيرا من روايات سابقيه بطريقه نقدية من مؤرخى الاباضية وغير الاباضية على السواء · ومن الملاحظ ان نقل كثيرا عن ابن الصغير فيما يتعلق بالعهد الرستمى الاخير . ومع ذلك فكتب الطبقات تزخر بمعلومات هامة عن اثر الخوارج فى المجتمع المغربى · وعلى تلك المصادر الاباضية الاصلية اعتمد جمهرة المحدثين من مؤرخى الاباضية فيما كتبوه عن تواريخ الاباضية فى المغرب · ومن هؤلاء البارونى والورجلانى واطفيش والجربى والطاهر الزاوى . على ان كتاباتهم جميعا تتسم الى جانب التعصب للمذهب الاباضى بطابع الاسفاف والسطحية ·

والى جانب تلك المصادر لم ندخر وسعا فى البحث عن المادة التاريخية التى تخدم موضوع الدراسة والتى تمسه من قريب او بعيد فى المراجع التاريخية وكتب الجغرافيا والرحلات ، وكتب الطبقات والتراجم والتصانيف الادبية ، وكتب الفرق المختلفة · كما استفدنا بكتب السكة فى تحقيق كثير من الالقاب وتحديد عديد من التواريخ التى كان يشوبها الخلط ويكتنفها الابهام ·

كذلك لم نغفل دراسات المحدثين من العرب والمستشرقين فيما الفوه من مراجع او نشروه بالموسوعات والدوريات العلمية ، فاطلعنا على كتابات الدكاترة حسن محمود وحسين مؤنس ومحمود مكى ، وأحمد مختار العبادى وسعد زغلول عبد الحميد وغيرهم من المتخصصين فى تاريخ المغرب والاندلس · كما استفدنا كثيرا من دراسات جوتييه وبل وبروفنسال ودوزى وبرنشويج ولويسكى ومارسيه وباسيه وسميث وغيرهم سواء ما تضمنته كتبهم او ما نشروه بالدوريات والموسوعات مثل : Actes du congres internationales des orientalistes, Andalus, Islamic review, Moslem World, Journal Asiatique, Revue des etudes Islamiques, Studia Islamica. وغيرها ·

وبفضل تلك المادة التاريخية التى توافرت للبحث أمكن دراسة الموضوع ولم شتاته فى أبواب خمسة وخاتمة ·

تناول الباب الاول دعوة الخوارج فى بلاد المغرب · وتضمن ظروف الخوارج فى الشرق الاسلامى التى دفعت بهم الى الهجرة والانتشار فى بلاد المغرب · وعرض لاحوال بلاد المغرب قبيل ظهور الخوارج وملاءمتها لدعوتهم . ثم عالجت كيفية انتشار مبادىء الخوارج الصفرية والاباضية فى بلاد المغرب واقبال البربر على اعتناق هذه المبادىء ·

وخصص الباب الثانى لثورات الخوارج فى بلاد المغرب ، حيث تضمن دراسة لاسباب ثورات الخوارج — صفرية واباضية — ووقائع تلك الثورات وتبيان نتائجها وآثارها ·

أما الباب الثالث فقد تضمن تاريخا لدول الخوارج فى بلاد المغرب ، تناولت فيه دولتى بنى مدرار الصفرية وبنى رستم الاباضية من حيث ظروف قيامهما وعرض سياستهما الداخلية ، وتحديد علائقهما الخارجية ·

وافرد الباب الرابع لدراسة الخوارج والفاطميين ، حيث عرضت فيه لدور الفاطميين فى اسقاط دولتى بنى مدرار وبنى رستم ، ثم ثورات الصفرية والاباضية على الحكم الفاطمى ·

ونظرا لما احدثه الخوارج من آثار اقتصادية واجتماعية وثقافية فضلا عن آثارهم السياسية فى بلاد المغرب ، ولما كانت تلك الجوانب تحتاج لدراسة مستفيضة متعمقة ، فقد اثرنا أن نفرد لها الباب الخامس من البحث ·

وفى الخاتمة أوجزنا ما انتهينا اليه من نتائج تمخضت عنها هذه الدراسة ·

ولا يسعنى فى هذا المقام الا أن انتقدم بخالص شكرى وعظيم الامتنان لاستاذى الدكتور حسن احمد محمود الذى تولى الاشراف على هذا البحث وتعهده برعايته وتوجيهه مذ كان فكرة حتى صار حقيقة ·

ويعلم الله — كم تكبدت من عناء ، وكم من جهد بذلت .. وأساله التوفيق ·

فاس فى اغسطس 1976

الباب الاول

دعوة الخوارج في بلاد المغرب

اولا :

أحوال الخوارج في المشرق الاسلامى

حتى اوائل القرن الثاني الهجري

ارتبط ظهور مذهب الخوارج وانتشاره فى بلاد المغرب بعاملين اساسيين :

اولهما : التطور السياسى الذى حدث للخوارج فى المشرق الاسلامى فى اواخر القرن الاول الهجرى بعد فشل ثوراتهم واضطرارهم الى اتباع اسلوب الدعوة والتنظيم السياسى ، واختيار أطراف العالم الاسلامى ميدانا لنشاطهم بعد أن تعرضوا للمطاردة والاضطهاد ·

وثانيهما : ملاءمة الاحوال السياسية والاجتماعية فى بلاد المغرب فى اواخر القرن الاول الهجرى واوائل القرن الثانى لتقبل هذا المذهب وانتشاره ·

وليس من شك فى ان ما لحق بالخوارج من فشل فى المشرق يعزى الى اسباب عدة ، منها تطرف عقائدهم وقصور فكرهم السياسى الظاهر من الثورات التى قاموا بها طوال العصر الاموى ، ثم يقظة الخلافة ورجالها فى مناهضة هذه الثورات ومواجهتها فى سرعة وحزم ·

فعلى الرغم من كثرة الثورات التى قام بها الخوارج فى المشرق

الاسلامى ، وما أبدوه فيها من ضروب الشجاعة (1) ، وبرغم ما انطوت عليه مبادئهم من دعوة الى العدل والحرية (2) ، فقد عجزوا عن تحقيق اهدافهم ، واصبحوا هدفا للبطش والاضطهاد . ومن امثلة تطرفهم ، اجماع كافة فرقهم على تكفير على وعثمان واصحاب الجمل والحكمين وكل من رضى بالتحكيم (3) ، واتفاقها فى الخروج على الامام الجائر وتكفير مرتكبى الكبائر باستثناء النجدات (4) ، وكذلك الاجماع على جواز الامامة لكل مسلم عالم بالكتاب والسنة (5) .

فاتفاقهم على تكفير على وعثمان واصحاب الجمل وضعهم فى موقف العداء للجماعة الاسلامية برمتها (6) ، فتعرضوا لسخط كافة الحكومات الاسلامية ، اذ حاربهم على بن أبى طالب وفل شوكتهم فى موقعتى النهروان والنخيلة (7) ، ولم يستمر تحالفهم مع الزبيريين ضد الأمويين طويلا ، فقد انقلب ابن الزبير عليهم حين آنس من نفسه القوة على مواجهة بنى امية (8) . ولم يتوان الأمويون فى تعقب حركاتهم وقمعها بعد حروب طويلة وقف الشيعة فى معظمها الى جانب بنى امية على ما بينهما من عداء متأصل (9) .

وبسبب تكفيرهم مرتكبى الكبائر ، انقسموا على أنفسهم اشد الانقسام فى كثير من المسائل الفقهية ، واعتبرت كل فرقة ما عداها مارقة ، وعاملت انصارها معاملة الكفار فى استباحة الدماء واستحلال الأموال والذرارى (10) .

---

(1) انظر : الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج 6 ص 172 ، المبرد : الكامل ج 1 ص 546 ، ج 3 ص 954 ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ج 1 ص 256 .

(2) الرازى : اعتقادات فرق المسلين ص 42 ،
Dozy. Spanish Islam. P. 86.
Lammens : Etudes sur le siecle des omyyades. P. 187.

(3) الاسفرائينى : التبصير فى الدين ص 146 ، البغدادى : الفرق بين الفرق ص 273 .

(4) البغدادى : نفس المصدر والصحيفة ، المسعودى : مروج الذهب ج 3 ص 145 ، جعفر بن عبد السلام : ابانة المناهج ورقة 154 مخطوط .

(5) النوبختى : فرق الشيعة ص 31 ، الاسفرائينى : المرجع السابق ص 46 ، جعفر ابن عبد السلام : المرجع السابق ورقة 166 .

(6) الاسفرائينى : نفس المصدر والصحيفة ، Gibb : Mohammedanism. P. 170.

(7) عن على والخوارج انظر : الطبرى ج 5 ص 76 وما بعدها ، الدينورى : الاخبار الطوال ص 210 وما بعدها .

(8) الطبرى : نفس المصدر ص 563 ، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 69 .

(9) ابن خلدون : العبر ج 3 ص 142 .

(10) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ص 46 .

وكان من المتوقع أن يقبل الموالى على مذهب الخوارج لسماحة رأيهم فى الامامة ، فقد اعتبرت حقا متاحا لكل مسلم بغض النظر عن اصله وجنسه — وهو مبدأ تفرد به الخوارج دون سائر الفرق الاسلامية الأخرى — لكن أعداد الموالى فى صفوف الخوارج كانت قليلة ، ولم يقبل بعضهم على مذهبهم الا فى اواخر العصر الأموى (11) · حين أسرف بنو امية فى اضطهاد الموالى واذلالهم . ويعزى هذا الاعراض عن مذهب الخوارج الى افراطه فى التطرف (12) واسراف انصاره فى استخدام العنف ، وتشدد زعمائهم فى قبول المهاجرة — وهم الأتباع الجدد — وذلك باجراء اختبارات قاسية للتأكد من صدقهم وحسن نواياهم · كما رفض الخوارج مبدأ التقية — باستثناء الصفرية (13) — ولم يعمدوا الى التنظيم والدعوة وما يرتبط بها من وسائل الترغيب وكسب الأنصار ، ولم يفطنوا الى ذلك الا فى وقت متأخر ·

ولعل افتقار المذهب الى زعامة قريشية او شخصية مرموقة يلتف حولها الانصار ويدعون لها دعوة منظمة كان سببا فى تفرق كلمتهم وانقسامهم الى طوائف تلتف حول قيادات محلية أو قبلية لايجمعها رابط فى العمل أو تشملها وحدة فى الخطط والأهداف ، فما أن تجتمع جماعة منهم حتى يتواعدوا على اللقاء ، فاذا التقوا اظهروا العصيان (14) · الأمر الذى سهل على الحكام ملاحقتهم واستئصال شأفتهم جماعة فى اثر اخرى · ولعل هذا هو ما يعنيه فلهوزن بقوله (15) « أن سياسة الخوارج كانت غير سياسية » ·

على أن من أهم أسباب اخفاق حركات الخوارج وفشل ثوراتهم ، تفشى الخلافات داخل جماعتهم وهى خلافات كان الباعث عليها فى الغالب

---

(11) المبرد : الكامل ج 3 ص 1151 ، سرور : الحياة السياسية فى الدولة العربية الاسلامية ص 126 · وقد أسرف بعض الدارسين فى تقدير الاثار الناجمة عن اعتناق الموالى مذهب الخوارج حتى ذهبوا الى أن عقائد الخوارج تنتمى الى اصول مسيحية ومجوسية . انظر : عمر ابو النصر : الخوارج فى الاسلام ص 245 · فالواقع ان عقائد الخوارج تفردت بطابعها العربى الاسلامى الخالص وخلوها من اى اثر لفلسفة اليونان أو الفرس . انظر : احمد امين : ضحى الاسلام ج 3 صفحة 335 ، 344 ·

(12) المبرد : الكامل ج 3 ص 967 ·

(13) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص 51 ·

(14) الطبرى : ج 5 ص 211 ، طه حسين : الفتنة الكبرى ج 2 ص 113 ·

(15) تاريخ الدولة العربية ص 372 ·

الاختلاف فى المبدأ والرأى (16) · فقد تباينت آراؤهم فى مسائل جوهرية كمسألة القعدة والاستعراض (17) · وأدى ذلك الى انقسامهم الى فرق الأزارقة والاباضية والصفرية والنجدات وتشعبت هذه الخلافات لتشتت شمل المذهب فى أكثر من عشرين فرقة (18) ·

ومما زاد من خطورة هذا الانقسام انه كان يحدث فى الأوقات العصيبة ابان حروبهم فكان يحرمهم من جنى ثمار النصر ويؤدى بهم الى الهزائم · ومن امثلة ذلك خروج عبد ربه الكبير على قطرى بن الفجاءة وهو يقاتل المهلب بن أبى صفرة سنة 77 هـ (696 م) لأن قطرى « تأول فأخطأ » (19)، فانفصل عنه عبد ربه بمعظم الجيش بعد ان كان النصر وشيكا ، واتيح للمهلب سحقهما واحدا بعد الآخر (20) ·

وقد انقسم النجدات على انفسهم كما انقسم الأزارقة ، فخالف عطية بن الأسود نجدة بن عامر الحنفى (21) وانفصل عنه وغادر البحرين الى المشرق وازداد الأمر سوءا بخروج أبى فديك عبد الله بن ثور على نجدة وقتله ، وتفرق النجدات لذلك الى ثلاث شيع متناحرة ، مما ادى فى النهاية الى اضمحلالهم وزوال دولتهم فى البحرين وحضر موت والطائف واليمن سنة 72 هـ (22) (691 م) ·

ولم يسلم الصفرية كذلك من آفة الانقسام ، فقد خالف مصقلة بن مهلهل الضبى شبيب بن يزيد الشيبانى سنة 77 هـ (696 م) وفوت عليه انتصاراته الحافلة على جيوش الحجاج الثقفى لانسحابه بمعظم الجيش احتجاجا على ما أعلنه شبيب من البراءة من سلفه صالح بن مسرح (23) ·

وقد استغل خصومهم هذا الانقسام فى ملاحقتهم والقضاء عليهم ، فلم

---

(16) نفس المصدر ص 61 ، ليفى ديللافيدا : مادة الصفرية — دائرة المعارف الاسلامية صفحة 229 ·

(17) الورجلانى : الدليل لاهل العقول ج 1 ص 15 ، مجهول : قطعة من كتاب فى الاديان والفرق ورقة 97 — مخطوط ·

(18) عن هذه الفرق ومعتقداتها انظر : الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ص 46 — 51·

(19) ابن خلدون : العبر ج 3 ص 161 ·
من تفصيلات أسباب خروج عبد ربه الكبير على قطرى راجع : الطبرى : ج 6 صفحة 300 — 301 ·

(20) الطبرى : ج 6 ص 300 ، ابن قتيبة : المعارف ص 411 ، ابن كثير : البداية والنهاية ج 9 ص 30 ·

(21) عن أسباب هذا الخلاف انظر : البلاذرى : انساب الاشراف ج 11 ص 144 ·

(22) الطبرى : ج 6 ص 174 ، اليعقوبى : تاريخه ج 3 ص 18 ·

(23) الطبرى : نفس المصدر ص 275 ·

يدخر الخلفاء والولاة وسعا فى مناهضتهم ، واتبعوا فى ذلك شتى الوسائل من عنف وخداع واستنفار للجماعة الاسلامية لمواجهة ثوراتهم والتربص باية حركة او نشاط لهم . كما استخدموا اسلوب اللين والاقناع والمحاجاة ، واتبعوا سياسة الترغيب ، واغراء زعمائهم بالمراكز المرموقة والمناصب الرسمية ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . فمعاوية بن ابى سفيان كثيرا ما استنفر اهل الكوفة للمشاركة فى قتال الأزارقة (24) كما أن عامليه على الكوفة والبصرة ــ المغيرة بن شعبة وابن عامر ــ جندا كتائب من الشيعة من اهل المصريين لقتالهم (25) . وكان هذا العمل من البراعة بمكان ، اذ كفل ضرب الشيعة بالخوارج ــ وكلاهما عدو لبنى امية ــ ليضعف بعضهما بعضا فيسهل بعد ذلك استئصال شأفتهما كل على حدة . والى المغيرة بن شعبة خاصة يعزى الفضل فى تطبيق تلك السياسة بنجاح فكان يستخدم اسلوب التهديد والترغيب ويلزم القبائل نفسها بالقضاء على اى نشاط للخوارج داخلها (26) ليكفى نفسه مؤنة قتالهم .

واثمرت تلك السياسة فى عهد زياد بن ابيه « فكانت القبائل اذا أحست بخارجى فيهم أوثقوه وأتوا به زيادا ، فمنهم من يحبسه ومنهم من يقتله » (27) كما انحلت سياسته فى الترغيب والترضية ، فكان يستميل من يقبل عليه من زعماء الخوارج ويتخذهم صنائع وعمالا ، ويغدق عليهم الهبات والعطايا (28) . لكنه لم يتورع عن البطش والتنكيل بمن يعرض عنه ويناوىء حكمه ، حتى النساء لم يسلمن من اذاه فكان يقتلهن ويمثل بهن (29) .

وقد اسرف ابنه عبيد الله فى سياسة العنف هذه وبالغ فيها (30) ، فكان القتل جزاء من يشتبه فى ميله لمذهب الخوارج . ويذكر الدينورى (31)

---

(24) ابن خلدون : ج 3 ص 142 .

(25) ابن الاثير : الكامل ج 3 ص 171 .

(26) ورد فى خطاب له فى هذا الصدد قوله « . . ايها الناس ، انى لم ازل أحب لجماعتكم العافية واكف منكم الاذى . وانى والله لقد خشيت ان يكون ذلك أدب سوء لسفهائكم ، واما الحلماء الاتقياء فلا ' وايم الله . لقد خشيت الا اجد بدا من ان يعصب الحليم التقى بذنب السفيه « الجاهل » فكفوا ايها الناس سفهائكم قبل ان يشمل البلاء عوامكم . وقد ذكر لى ان رجالا منكم يريدون أن يظهروا فى المصر بالشقاق والخلاف ، وايم الله ــ لا يخرجون فى حى بين أحياء العرب فى هذا المصر الا ابدتهم ، وجعلتهم نكالا لمن بعدهم . . » راجع الطبرى : ج 5 ص 184 .

(27) المبرد : الكامل ج 3 ص 985 ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ج 1 ص 259 .

(28) المبرد : نفس المصدر ص 1006 .

(29) ابن عبد ربه : المرجع السابق ص 259 .

(30) الطبرى : ج 5 صفحة 312 .

(31) الاخبار الطوال صفحة 270 .

انه قتل تسعمائة رجل « بالتهمة والظنة » ، عدا ما لاقاه الالاف فى السجون من صنوف الارهاب والتعذيب (32) واستمرأ عبيد الله هذه السياسة وتفنن فيها ، حتى انه كان يرغم المسجونين من الخوارج على قتل بعضهم بعضا امعانا فى التنكيل والتشفى (33) .

ولما آل الأمر لعبد الله بن الزبير فى العراق عول على القضاء على الخوارج واستئصال شأفتهم ، فرماهم بالمهلببن ابى صفرة الذى كان « يسير فى طلبهم من بلد الى بلد ويواقعهم وقعة بوقعة » (34) .

على ان محنة الخوارج الشديدة كانت فى عهد عبد الملك بن مروان ، فقد رماهم بالحجاج والمهلب فى آن واحد . وتفيض المصادر بأمثلة عن قسوة الحجاج وعسفه ، فكان يأمر بقتلهم جماعات « بالتهمة لا بالخطيئة » (35) .

وكان سيافه يضرب اعناقهم فى حضرته وبين يديه (36) ، ثم تصلب اجسادهم بعد التمثيل بها (37) . اما المهلب فقد اعتمد فى حروبه مع الخوارج على الخداع والدهاء اكثر من اعتماده على السيف ، وحقق بذلك انتصارات لم يستطع احرازها فى ميادين القتال ، فاستطاع ان يحدث تصدعا فى جيوشهم عن طريق بث الخلاف والشقاق بين زعمائهم بما كان يثيره من مسائل فقهية يشغل بها الخوارج عن قتاله بقتال بعضهم البعض ، فاذا ما وهنت شوكتم تمكن من هزيمتهم طائفة فى اثر اخرى . وحسبه انه استطاع بذلك أن يضع حدا لحركات الأزارقة فى المشرق الاسلامى (38) .

---

(32) المبرد : الكامل ج 3 ص 1004 ، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 63 .

(33) ابن الاثير : الكامل ج 3 ص 203 ، ابن خلدون : العبر ج 3 ص 144 .

(34) الدينورى : الاخبار الطوال ص 275 وفى هذا الصدد ارتجز احد الخوارج هذا القول : حتى يتبعنا المهلب ، ليس لنا فى الارض منه مهرب ، ولا السما اين المذهب ؟ الدينورى : نفس المصدر ص 276 .

(35) ابن العربى : القواصم والعواصم ورقة 107 مخطوط .

(36) مجهول : العيون والحدائق فى اخبار الحقائق ص 22 .

(37) البلاذرى : انساب الاشراف ج 11 ص 63 .

(38) المبرد : الكامل ج 3 ص 1064 ، سرور : الحياة السياسية فى الدولة العربية ص 121 — 123 . قال قطرى بن الفجاءة فى هذا الصدد : « .. أما المهلب فهو من عرفتموه ، ان اخذتم بطرف ثوب ، اخذ بطرفه الاخر ، يمده اذا ارسلتموه ، ويرسله اذا امددتموه ، لايبدؤكم الا أن تبدؤه ، الا أن يرى فرصة فينتهزها ، فهو الليث المبز ، والثعلب المراوغ ، والبلاء المقيم » . انظر : المبرد : الكامل ج 3 صفحة 1086 .

وانحسرت موجة العنف ابان خلافة عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ، فقد نجح عمر بن عبد العزيز فى تجميد نشاط الخوارج فى عصره بسياسة المجاجاة والحسنى والاقناع (39) . بينما عمد هشام الى اسلوب الاغراء بالاموال والمناصب ، وشراء زعمائهم بالمال ايثارا للعافية (40) . وذلك كان دليلا على فتور همة الخوارج واضمحلال شأنهم حتى أن مروان بن محمد لم يجد صعوبة فى القضاء على حركاتهم فى بلاد العراق والجزيرة ثم فى مدن الحجاز واليمن « فركدت ريح الخوارج من يومئذ الى ان ظهرت الدولة العباسية » (41) .

هكذا وصلت احوال الخوارج فى المشرق الاسلامى فى اواخر القرن الأول الهجرى وأوائل القرن الثانى الى مثل هذا الضعف والانحلال ، بحيث لم يعد فى وسعهم مواصلة نشاطهم فى قلب العالم الاسلامى وكان عليهم أن يغيروا فى اسلوبهم بنبذ طريق الثورات السافرة واتباع أسلوب الدعوة والتنظيم السياسى ، والانتقال الى أطراف العالم الاسلامى بعيدا عن حاضرة الخلافة فاتجهوا الى بلاد المغرب .

---

(39) الطبرى : ج 5 ص 409 ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج 2 صفحة 260 .

(40) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج 1 ص 251 .

(41) ابن خلدون : العبر ج 3 ص 167 .

ثانيـا :

بلاد المغرب قبيل ظهور الخوارج

نجم عن سياسة الامويين الاواخر موجة من السخط عمت كافة الولايات الاسلامية ، وقد استغل الهاشميون والخوارج حالة السخط هذه فى تاليب الجماعة الاسلامية ضد الحكم الأموى ، فبينما اتجه الهاشميون بدعوتهم نحو المشرق فى فارس وخراسان عمد الخوارج الى بث دعاتهم فى بلاد المغرب التى كانت اذ ذاك ميدانا خصبا لتقبل مبادئهم ·

فقد عانت بلاد المغرب كغيرها من الولايات الاسلامية من الفتن السياسية الناجمة عن الخصومات القبلية بين القيسية واليمنية حتى ليذهب بعض الدارسين (42) الى اعتبارها دافعا اساسيا لثورات البربر على الحكم الأموى · فالثابت ان غالبية عرب الفتح الذين استقروا بالمغرب كانوا من اليمنية (43) ، وهم الذين آزروا موسى بن نصير خلال ولايته استمرت حتى عام 96 هـ · ولما عزل موسى واستبدله الخليفة سليمان بن عبد الملك بمحمد بن يزيد — وكان قيسيا (44) — كان هم الوالى الجديد وشغله الشاغل تصفية نفوذ آل موسى ، فأخذ يتتبعهم ويبطش بهم ويستولى

---

(42) انظر حسين مؤنس : فجر الاندلس ص 144 ،
Marcais, G : La Berberie Musulmane. P. 141.

(43) ابن عذارى : ج 1 ص 39 ، البوعياشى : الريف بعد الفتح الاسلامى ص 15 ·

(44) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص 38 ·

على أموالهم بتحريض من الخليفة لنقمته على موسى بن نصير (45) . فأودع محمد بن يزيد عبد الله بن موسى السجن وفرض عليه من المغارم ما هو فوق طاقته (46) ، وما فتىء يعذبه حتى مات (47) .

وفى ولاية يزيد بن ابى مسلم (101 — 103 هـ) (720 — 723 م) عاد نفوذ اليمنية من جديد (48) ، وانتقم يزيد بن ابى مسلم من سلفه محمد بن يزيد ، فرمى به فى السجن واشبعه جلدا وتعذيبا انتقاما لما حل باليمنية على يديه من عسف واضطهاد .

وآلت ولاية المغرب الى بشر بن صفوان بعد مقتل يزيد بن ابى مسلم ، وكان بشر من غلاة اليمنية (49) فأمعن فى اضطهاد القيسية ، وبلغ به التعصب لعشيرته انه استخلف على البلاد قبل موته نغاش بن قرط الكلبى (50) ، فعاث فيها (51) واسرف فى اذلال القيسية .

وعاودت القيسية الظهور حين ولى هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن القيسى ، فبيت النية على البطش بعمال بشر بن صفوان (52) ،

---

(45) نقم الخليفة على موسى لعدم استجابته لطلبه قبل توليه الخلافة بأن ينتظر بما معه من هدايا المغرب حتى يموت الخليفة الوليد بن عبد الملك — الذى كان يلفظ انفاسه الاخيرة — فقد سلم موسى الهدايا للوليد الذى فارق الحياة بعد ثلاثة ايام . فلما آلت الخلافة الى سليمان ، نكب موسى وأودعه السجن وبعث فى قتل ابنيه عبد العزيز بالاندلس وعبد الله بالمغرب .
راجع : ابن القوطية : المرجع السابق ص 36 ، الرقيق : تاريخ افريقية والمغرب ص 294 .

(46) اليعقوبى : تاريخه ج 3 ص 255 .

(47) ابن عذارى : ج 2 ص 47 ، النويرى : نهاية الارب ج 22 ورقة 13 — مخطوط .

(48) وثمة رواية للبلاذرى وابن عبد الحكم تذهب الى ان عبد الله بن موسى قتل سنة 102 هـ فى ولاية بشر بن صفوان . راجع : فتوح البلدان ص 273 ، فتوح مصر والمغرب ص 290 . وعن مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير انظر : ابن القوطية : ص 37 ، الرقيق : ص 295 .

(48) ابن الابار : الحلة السيراء ص 336 .

(49) اليعقوبى : ج 3 ص 59 .

(50) ابن عبد الحكم : ص 216 . واورد الرقيق بدلا منه العباس بن ناصحة الكلبى . راجع : تاريخ افريقية والمغرب ص 105 .

(51) ابن ابى دينار : المؤنس صفحة 34 .

(52) وقد استصرخ احد زعماء اليمنية هشام بن عبد الملك لانقاذهم من بطش عبيدة بن عبد الرحمن بهذه الابيات :

اساءت بنو مروان فينا وما لنا ... وفى الله ان لم يعدلوا حكم عدل
كانهم لم يشهدوا لى وقعة ... ولم يعلموا من كان قبل له الفضل
وقيناكم حر القنا بسيوفنا ... وليس لكم خيل سوانا ولا رجل
فلما تيقنتم نيل ما قد اردتموا ... وطاب لكم فينا المشارب والاكل
تغافلتم منا كان لم يكن لكم ... صديقا وانتم ما علمتم لنا وصل

انظر : الرقيق : ص 105 — 106 .

وامعن فى اقتفاء آثر آل موسى بن نصير حتى استأصل شأفتهم (54) . واستمرت محنة اليمنية فى المغرب فى عهد عبيد الله بن الحبحاب الذى تقلد الولاية سنة 116 هـ (735 م) ، ولاقى اشياعهم على يديه عنتا شديدا (55) .

والى جانب انشغال الولاة بالخصومات القبلية ، كانوا يتنافسون فى جمع الاموال ارضاء للخلافة من ناحية ، وكسبا للانصار واشباعا لنهمهم من ناحية اخرى . فعكفوا على ارسال الحملات والجيوش تضرب فى اطراف المغرب او تهاجم الجزر البحرية فى البحر المتوسط بغية السلب والنهب . فيزيد ابن ابى مسلم غزا صقلية سنة 101 هـ (56) (719 م) فى وقت كان الموقف بالمغرب عصيبا . وفى سنة 109 هـ (727 م) غزا بشر ابن صفوان نفس الجزيرة « واصاب منها سبيا كثيرا » (57) بعد أن « هلك من جيشه خلق كثير » (58) . وغرق الاسطول الذى بعثه عبيدة ابن عبد الرحمن الى صقلية فى العام التالى بقيادة المستنير بن الحبحاب (59) . وغزا عبيد الله بن الحبحاب فى بلاد السوس وأرض السودان ، لكنه لم يجن من وراء غزواته سوى مغانم الذهب والفضة وسبايا البربر (60) . كما بعث بجنده الى جزيرة سردينية سنة 117 هـ (736 م) « فنهبوا وغنموا وعادوا » (61) ، ثم غزا صقلية وعادت حملته بالاموال والسبايا (62) . و فى كل تلك الجيوش كان البربر يشكلون غالبية رجالها ، فكانوا اداة لخدمة اطماع الولاة .

ويجمع كثيرون من المؤرخين (63) على سوء معاملة عمال العصر

---

(54) ابن الابار : صفحة 48 .
(55) ابن عبد الحكم : ص 293 ، مؤنس : ثورات البربر فى افريقية والاندلس ص 165 .
(56) ابن عبد الحكم : ص 289 ، ابن عذارى : ج 1 ص 49 .
(57) الرقيق : ص 102 ، السلاوى : ج 1 ص 293 ، الباجى المسعودى : الخلاصة النقية صفحة 13 .
(58) ابن عبد الحكم : صفحة 191 .
(59) نفس المصدر والصحيفة .
(60) البلاذرى : فتوح البلدان ص 273 ، الرقيق : ص 108 .
(61) ابن الاثير : ج 5 صفحة 69 .
(62) الرقيق : ص 109 ، السلاوى : ج 1 ص 95 .
(63) انظر : مجهول : اخبار مجموعة ص 23 ، الورجلانى ج ا ص 27 ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج 2 ص 204 ، مؤنس : ثورات البربر ص 147 ، دبوز : المغرب الكبير ج 2 ص 234 ، 235 ،
Marcais : La Berberie Musulmane. P. 43, Hopkins : Medieval Mulim government ; P. 27.

الاموى الاخير للبربر وارهاقهم بالمغارم والجبايات ، واعتبر بعضهم بلاد البربر دار حرب حتى بعد اعتناقهم الاسلام جريا على سياسة الخلافة الاموية فى سائر الامصار الاسلامية (64) . وحاول الخليفة عمر بن عبد العزيز وضع حد لتسلط الولاة واستعادة ثقة البربر فى الحكومة الاسلامية ، فعين على المغرب واليا تقيا هو اسماعيل بن عبيد الله (65) . وامره باسقاط الجزية على من أسلم من البربر وتحرير من استرق من نسائهم ، كما أمره « باقرار القرى فى يد غنامها بعد اخذ الخمس » (66) ، لتئول الارض الى اصحابها فيجنون ثمارها ويدفعون عنها خراجها المعلوم (67) . وقد حرص عمر بن عبد العزيز على أن يجمع اسماعيل بن عبيد الله بين أعباء الادارة والحرب الى جانب جمع الخراج والصدقات (68) ليحول دون جور الجباة واستبدادهم .

لكن هذه السياسة انتهت بوفاته ، وعادت الخلافة الاموية الى سيرتها الاولى . فقد استبدل الخليفة يزيد بن عبد الملك اسماعيل بن عبيد الله بيزيد بن ابى مسلم سنة 102 هـ 720 م ، فاستبد بالبربر ، وقضى على الاصلاحات التى انجزها سلفه ، وكان يزيد بن ابى مسلم ينفذ مشيئة الخلافة الاموية التى اعادت فرض الجزية على من اسلم من الموالى (69) ليتسنى لها الحصول على مزيد من الاموال والتنصل من دفع مزيد من الاعطيات للجند المسلمين من الموالى ومهما كان الامر فقد اشتط يزيد فى معاملة البربر ، ونسب اليه أنه اهدر كبرياءهم بوشم حرسه من البربر فكان يشم الرجل فى يده اليمنى باسمه وفى اليسرى بكلمة « حرسى » ، وادى ذلك الى شعور البربر بالمهانة ، فانفوا منه وانكروه (70) .

وجرى عبيدة بن عبد الرحمن على سياسة العسف هذه حتى

---

(64) عن هذا الموضوع انظر : فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 275 وما بعدها .
(65) اخبار مجموعة ص 23 ، البلاذرى : فتوح البلدان ص 273 .
(66) اخبار مجموعة صفحة 23 .
(67) فلهوزن : المرجع السابق صفحة 280 .
(68) ابن عبد الحكم : صفحة 287 .
(69) الطبرى : ج 6 ص 617 ، ابن تغرى بردى : ج 1 ص 245 ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية صفحة 235 .
(70) البلاذرى : فتوح البلدان ص 273 ، ابن عبد الحكم : ص 289 ، الرقيق : ص 99 ، مؤنس : ثورات البربر ص 163 .

« جمع من الاماء والجوارى والعبيد والخصيان والدواب والذهب » (71) الشىء الكثير . وتفاقمت الاحوال وازدادت سوءا ابان ولاية عبيد الله بن الحبحاب الذى أسرف فى سياسته فجند الجيوش لسلب البربر وسبيهم فى اقاصى المغرب (72) ، ونشر الهلع والرعب فى تلك الاصقاع . وعين ابنه اسماعيل عاملا على طنجة وجعل معه عمر بن عبد الله المرادى ، فأساءا السيرة واعتبرا البربر فيئا — اسلموا أم لم يسلموا — وعاملوهم معاملة الرقيق (73) . وهكذا تسبب الولاة الامويون فى المغرب فى اثارة مشاعر الحقد والكراهية عند البربر على الولاة والخلفاء على السواء مما اوجد مناخا ملائما لانتشار مذهب الخوارج .

ويحاول بعض الدارسين الدفاع عن الخلافة الاموية وتبرئتها من تبعات ما حدث فى المغرب من مساوىء ، بالقاء اللوم على الولاة وحدهم . فيذكر دبوز (74) أن « سليمان بن عبد الملك أنكر على موسى بن نصير سلوكه فى المغرب وانه كان حانقا عليه لمبالغته فى السبى وعدم عدله فى البربر » . ويمضى الدكتور السيد عبد العزيز سالم (75) فى نفس الاتجاه فيقول « .. وكان سليمان بن عبد الملك يستهجن سياسة عبد الله بن موسى القائمة على العنف والتسلط فى معاملة البربر .. » ويستشهد بعبارة أوردها الرقيق (76) مدللا بها على نزاهة الخليفة وعدله اذ أوصى واليه الجديد على المغرب بقوله « يا محمد بن يزيد ، اتق الله وحده لا شريك له ، وقم فيما وليتك بالحق والعدل » . ويظهر نفس هذا الاتجاه عند الدكتور مؤنس (77) اذ يقول « .. وليس الى الشك سبيل فى أن خلفاء بنى امية لم يكونوا ليرضوا عن سياسة يزيد بن أبى مسلم

---

(71) ابن عبد الحكم : ص 292 .

(72) الرقيق : ص 108 البلاذرى : فتوح البلدان ص 223 .

(73) نفس المصدر ص 109 ، ابن الاثير : ج 5 ص 69 ، ابن عذارى : ج 1 ص 52 ، ابن خلدون : ج 4 ص 189 ،

Mercier : Histoire de l'Afrique septentrionale. vol. I.P. 71, Provencal : Histoire de l'Espagne Musulmane vol. I.P. 29, Hopkins : Medieval Moslem government. P. 28.

(74) المغرب الكبير ج 2 صفحة 165 .

(75) المغرب الكبير صفحة 288 .

(76) تاريخ افريقية والمغرب ص 63 ، النويرى : ج 22 ورقة 13 .

(77) فجر الاندلس ص 145 ، ثورات البربر ص 151 ، 152 .

وبشر بن صفوان فى افريقية ، اذ انهم لم يكونوا يعلمون شيئا عـــن الوسائل التى كانا يلجان اليها فى عسف البربر والاستبداد بهم . ومـــن دلائل ذلك ان يزيد بن عبد الملك لم يغضب حين علم بقتل البربر يزيد ابـــن ابـــى مسلم » (78) .

ونعتقد ان المحدثين قد تاثروا فى هذا الصدد برواية لصاحب كتاب اخبار مجموعة فى فتح الاندلس تقول « .. وقد يقول من يطعن على الائمة انهم انما خرجوا ضيقا من سير عمالهم ، وان الخليفة وولده كانوا يكتبون الى عمال طنجة فى جلود الخرفان العسلية .. وهو قول اهل البغض للائمة (يقصد الخوارج) » ومن المعروف ان هذا المؤرخ المجهول يعـــد الوحيد بين المؤرخين القدامى الذى تصدى للدفاع عن بنى امية . ولا غرابة فى ذلك اذا علمنا انه كان اندلسيا يعيش فى كنف الدولة الاموية بالاندلس ، وبديهى ان يتعصب لبنى امية ضد أعدائهم .

اما ما ذكره دبوز عن حنق سليمان بن عبد الملك على موسى بـــن نصير لعدم عدله فى البربر ، فقول يؤخذ بحذر . فمن الثابت ان حقده هذا يرجع لاسباب شخصية اوردناها سلفا . ونفس الشىء يقـــال فى تفسير حنق سليمان بن عبد الملك على عبد الله بن موسى ، وليس الحال كما ذكر الدكتور سالم استهجانا لتسلط عبد الله على البربر . فما أورده من دليل فى هذا الصدد لا يؤيد ما ساقه ، اذ ان نصيحة الخليفة لواليه الجديد باتباع « الحق والعدل » أمر تقليدى اصطلح عليه فى تعيين الولاة والعمال .

وتؤكد الوقائع هذا التفسير ، فقد اسرف الوالى الجديد فى اضطهاد اليمنية وتعقب آل موسى بن نصير واتباعهم ومصادرة اموالهم وسبى ذراريهم مرضاة للخليفـــة (79) .

ولا نشك فى ان ولاة المغرب كانوا يمثلون مشيئة الخلافة وينفذون سياستها ، وان الخلفاء درجوا على اختيار عمال يأتمرون بأمرهم ، والا فما تفسير سنى الاصلاح والعدل التى شهدها المغرب ابان ولاية اسماعيل ابن عبيد الله ؟ ؟ لقد حرص الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى عـــرف

---

(78) وقد ذكر الدكتور مؤنس فى هذا الصدد قولا آخر هاك نصه : « اعتاد الخلفاء مـــن عمال افريقية كثرة الهدايا والالطاف والاموال ، ولم يستطيعوا الامتناع من الالحاح على العمال فى طلبها .. » راجع ثورات البربر ص 144 ، 145 .

(79) ابـــن عـــذارى : ج 1 صفحـــة 47 .

بالورع والتقى على اختيار عماله من العدول الاتقياء ، وكان اسماعيل احدهم . والظلم الذى حاق بالبربر على يد يزيد بن ابى مسلم انما تم تحت سمع الخلافة وبصرها ، فالخليفة يزيد بن عبد الملك عرف بالطمع والجشع وحب المال « الذى جمع له عماله منه ما لم يجمع لاحد من قبل » (80) . ولا غرو فقد كان ممتنا لسياسة عامله فى المغرب الذى اشبع له اطماعه فقال فيه عبارته الشهيرة « ما مثلى ومثل الحجاج وابن ابى مسلم بعده الا كرجل ضاع منه درهم فوجد دينارا » (81) . وتسليم الخليفة بما حدث من قتله سنة 102 هـ (721 م) واختيار محمد بن يزيد بدلا منه لا يؤيد وجهة نظر الدكتور مؤنس ، فقد كان عليه أن يسلم بالامر الواقع ريثما تهدأ الخواطر من جراء الآثار السيئة لحكم يزيد فى نفوس البربر ، ثم رماهم بعد شهور ببشر بن صفوان الذى انتقم من قتلة يزيد . وبعد موت يزيد بن عبد الملك تولى اخوه هشام الخلافة فاقر بشرا على المغرب لانه « بعث اليه بأموال عظام وهدايا فاخرة » (82) . ولا يخامرنا شك فى أن اشتطاط ابن الحبحاب فى سياسته المالية بالمغرب كان مرضاة للخليفة ، فقد كان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ويبعثون فى طلبها الى عمال افريقية . ويذكر ابن عذارى (83) انه لما افضى الامر الى ابن الحبحاب مناهم بالكثير . ويخبرنا ابن خلدون (84) أن الخلفاء كانوا يطالبون الولاة بالوصائف البربريات والاردية العسلية الالوان وانواع طرف المغرب ، فكانوا يتغالون فى جمع ذلك وانتحاله حتى « كانت الصرمة من الغنم تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ولا يوجد منها مع ذلك الا الواحد وما قرب منه » .

ولدينا من الروايات ما تؤكد أن الخليفة رفض السماح لوفد من البربر جاء اليه يشكو جور ابن الحبحاب وعسفه ، وعاد بعد أن تيقن رجاله من تواطؤ الخليفة مع عماله (85) ، وان الخليفة بسبب جشعه

---

(80) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 337 . عن صاحب كتاب الصلة الاسبانى الذى اكمل تاريخ ايزيدور .
(81) السلاوى : ج 1 صفحة 91 .
(82) اليعقوبى : تاريخه ج 3 صفحة 59 .
(83) البيان المغرب ج 1 صفحة 53 .
(84) العبر ج 6 صفحة 119 .
(85) الطبرى : ج 4 صفحة 264 .

للحصول على الاموال « هو الذى يكره العمال على امتصاص دم الرعايا » على حد قول فلهوزن (86) . ولعل ما حدث فيما بعد من رفض عبد الرحمن ابن حبيب الاذعان لمشيئة المنصور قائلا عبارته المتواترة « ان افريقية اليوم اسلامية كلها وقد انقطع السبى منها والمال » (87) ما يشير الى ما كان سائدا فى العصر الاموى الاخير من طمع الخلفاء فى اموال البربر وسباياهم ، ويؤكد مسؤولية الخلافة الأموية عما كان يقوم به عمالها فى بلاد المغـــرب .

كان الظلم الاجتماعى الذى استشرى فى بلاد المغرب اذن من صنع الخلافة وعمالها ، وهو امر ساعد البربر الذين كانوا قد اسلموا وصلح اسلامهم على اعتناق مبادىء الخوارج التـــى تحض على الثـــورة على الجائرين من الحكام (88) .

لقد بدا انتشار الاسلام بين البربر منذ وطات اقدام العرب بلاد المغرب ، وكان لعقبة بن نافع دور بارز فى هذا الصدد (89) ، فقد بنـــى مدينة القيروان سنة 55 هـ (675 م) فدخل كثير من البربر فى الاسلام وثبت الاسلام بها (90) وواصل ابو المهاجر سياسة عقبة فى نشر الاسلام وتعريب البربر ، وحسبه اكتساب كسيلة وقومه الى الاســـلام واتخاذه حليفا (91) ، كما صالـــح عجم افريقية وادخلهـــم حظيرة الاســـــلام والعـــروبـــة (92) .

والى حسان بن النعمان يعزى الفضل فى المؤاخاة بين البربر والعرب، فقد جند من البربر اجنادا وعهد الى ثلاثة عشر فقيها من كبار التابعين بتعليمهم القرآن واصول الاسلام واللغة العربية ، وخدم هؤلاء فى الجيش العربى جنبا الى جنب مع العرب المسلمين . ومنذ ذلك الحـــين اطردت حركة بناء المساجد فى سائر ارجاء المغرب (93) ، واصبحت بمثابة مراكز

---

(86) تاريـــخ الدولـــة العربيـــة صفحـــة 331 .

(87) ابـــن الاثيـــر : ج 5 صفحـــة 117 .

(88) البغدادى : الفرق بين الفرق ص 273 ، حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيـــة صفحـــة 231 .

(89) ابـــن الاثيـــر : ج 3 صفحـــة 234 .

(90) نفس المصـــدر صفحـــة 235 .

(91) ابـــن عـــذارى : ج 1 صفحـــة 28 .

(92) المـــالكـــى : ريـــاض النفـــوس ج 1 صفحـــة 21 .

(93) عبيد الله بن صالح : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ص 224 ، المالكـــى : ص 36 ، الدباغ ج 1 ص 61 .

ثابتة لنشر الاسلام والحضارة العربية بين البربر (94) . أما موسى بن نصير فقد بث الاسلام فى بلاد المصامدة (95) وفقه البربر فى تلك الانحاء فى قواعد الدين وأصول الشريعة (96) . كما أشرك البربر المسلمين فى فتح الاندلس وجعل لاحدهم قيادة الجيش وهو طارق بن زياد (97) ، وفى ذلك دلالة على رسوخ الاسلام عند البربر وقيامهم بحمل رسالته الى اوربا فى اواخر القرن الاول الهجرى (98) .

وفى خلافة عمر بن عبد العزيز تعاظمت حركة اسلام البربر وتعريبهم ، اذ بعث الى المغرب واليه اسماعيل بن عبيد الله ، وجعل برفقته عشرة من كبار الفقهاء لتبصير المغاربة بأصول الاسلام وفروعه وتعليمهم اللغة العربية (99) واستجاب البربر لتعاليم الفقهاء واقبلوا على الاسلام حتى « غلب على المغرب » (100) « ولم يبق يومئذ من البربر احد الا اسلم » (101) ، باستثناء جماعات طفيفة العدد متناثرة من المسيحيين الذين ظلوا على دينهم (102) .

وهكذا جرى اسلام البربر وتعريبهم « فى سرعة وعمق

---

(94) نفس المصدر السابق ص 223 ، ابن عذارى ج 1 ص 27 .

(95) ابن عذارى : ج 1 صفحة 43 .

(96) ابن عبد الحكم : صفحة 204 .

(97) مجهول : أخبار مجموعة صفحة 6 .

(98) انظر : حسن ابراهيم : انتشار الاسلام فى القارة الافريقية ص 89 — 90 ، Brunschvig : La Tunisie dans le haut moyen age. P. 7, Dragué : Esquisse d'histoire religeuse du Maroc, P. 17.
حيث يعتقد أولئك المؤرخون أن اسلام البربر كان سطحيا حتى ذلك الحين .

(99) المالكى : ج 1 ص 67 ، الدباغ : معالم الايمان ج 1 ص 142 ، حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ص 99 .

(100) البلاذرى : فتوح البلدان ص 273 ، ابن كثير : البداية والنهاية ج 9 ص 185 ، النويرى : ج 22 ورقة 14 .

(101) ابن عبد الحكم : ص 87 ، الرقيق : ص 297 ، الدباغ : ج 1 ص 154 . ابن خلدون : ج 4 ص 188 ، السلاوى : ج 1 ص 90 .

(102) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية ص 31 ، Marcais : La Berberie musulmane. P. 36.
وقد زعم بعض المستشرقين ان عمر بن عبد العزيز خير مسيحى المغرب بين الدخول فى الاسلام أو الرحيل عن البلاد ، فآثر بعضهم اعتناق الاسلام بينما رحل البعض الاخر الى اوربا . انظر : Bonte : l'Islamisme et le christianisme en Afrique. P. 72.
وقد أنكر البعض الاخر هذا التجنى « فعمر لم يكره النصارى على اعتناق الاسلام مهددا اياهم بالطرد والقتل ، وذلك لانه كان مسلما حقا متمسكا بما ورد فى الشريعة الاسلامية فى معاملة أهل الذمة ، وليس من المعقول ان يتجاهل أو يخرج عن هذه الشريعة » . انظر : فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 289 ، Mercier : Histoire de Constantine. P. 86.

وشمول » (103) على عكس دعاوى بعض المستشرقين (104) الذين ذهبوا الى ان حركة التعريب لم تساير انتشار الاسلام فى المغرب ، وأن البربر لم يتعلموا العربية الا فى وقت متأخر .

ووجد البربر المسلمون تناقضا صارخا بين تعاليم الاسلام ومبادئه بما تنطوى عليه من عدل ومساواة وبين سياسة الأمويين الأواخر الجائرة ، فاقبلوا على اعتناق مذهب الخوارج وهو فى جوهره مذهب « ثورى ديمقراطى اشتراكى » على حد تعبير ميور (105) .

وليس الى الشك سبيل فى ان مبادىء الخوارج بما تنطوى عليه من تمسك بالشريعة فى جانبها العقائدى (106) ، وثورية فى قوامها السياسى وبساطة ووضوح فى جوانبها الفكرية ، وجدت مناخا ملائما فى ظروف المغرب الاسلامى وطبيعة سكانه .

فاذا كانت الديمقراطية هى محور مذهب الخوارج وقوامه على اعتبار ان الامامة حق متاح لكل مسلم (107) ، فبديهى ان يلقى ذلك المذهب قبولا لدى البربر الذين طال حرمانهم من المساواة مع العنصر العربى الحاكم . ومن الطبيعى ان تتولد لديهم نزعة قومية مغربية تتطلع لازاحة نفوذ الاقلية العربية عن مكان الصدارة والحكم فى اطار شرعى يكفله الدين ، ولما كان مذهب الخوارج يقول بالثورة على الجائرين من الحكام (108) فقد وجد البربر فى اعتناقه مبررا لانتفاضهم على الحكم العربى .

وبمعنى آخر ، اكتسبت نزعة الاستقلال عند البربر — بفضل مذهب الخوارج — طابعا ثوريا دينيا (109) ، فالتقى البربر مع الخوارج فى موقفهم من عدو مشترك ممثل فى السلطة الاموية .

---

(103) Brunschvig : Op. Cit. P. 7.

(104) انظر Marcais, W : Comment L'Afrique du Nord à ete arabisee. P. 3, Hudas : Essai sur l'ecriture Maghrebine, P. 86, Marcais, G : La Berberie Musulmane, P. 41.

(105) The caliphate, its rise, decline and Fall : P. 407.

(106) انظر : ابو زكريا : السيرة ورقة 8 مخطوط ، Smith : The Ibadites. P. 279.

(107) الاسفرائينى : التبصير فى الدين ص 46 .

(108) البغدادى : الفرق بين الفرق ص 273 .

(109) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية ص 164 ، Vonderheyden : La Berberie Orientale. P. 4.

وفضلا عن ذلك فان وضوح فكر الخوارج والتزامه بظاهر الدين وعدم ميله للفلسفة والتأويل (110) جعله يتلاءم مع عقلية البربر (111). وبعبارة اخرى كان فكر الخوارج متسقا مع طبيعة البربر المعروفين «باقامتهم لمراسم الشريعة واخذهم بأحكام الملة ونصرهم لدين الله » (112).

ومن مظاهر هذا الاتساق أيضا ان صفات الصلابة والقوة ممثلة فى قول الخوارج بالاستعراض ورفض التقية والامر بالمعروف والنهى عن المنكر (113) يقابلها عند البربر شدة المراس وقوة البأس والميل الغريزى للتطرف (114) .

وهكذا كانت مبادىء الخوارج متوائمة مع طباع البربر الفطرية ومتمشية مع أهدافهم السياسية ونزعتهم القومية . وهو ما عبر عنه السلاوى (115) فى ايجاز رائع بقوله : « .. وحسن موقعها (يعنى مبادىء الخوارج) لديهم بسبب ما كانوا يعانون منه من وطأة الخلافة القرشية ، وجور بعض عمالها ، فلقنهم أهل البدع أن الخلافة لا يشترط فيها القرشية بل ولا العربية .. ودسوا اليهم مع ذلك بعض تشديدات الخوارج وتعمقاتهم ، واروهم ما هم عليه من التصلب فى دينهم ، فظهر للبربر ببادىء الراى أن تعمقهم ذلك انما هو من آثار الخشية لله والخوف منه ، وأن ذلك هو عين التقوى المأمور بها شرعا .. »

قصارى القول — ساعدت أحوال بلاد المغرب فى أواخر القرن الاول الهجرى وأوائل القرن الثانى على نزوح الخوارج المضطهدين فى المشرق الى بلاد المغرب (116) لنشر دعوتهم بين البربر وتحقيق ما فشلوا فيه من قبل من أهداف .

---

(110) انظر : الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ص 40 وما بعدها ، احمد امين : ضحى الاسلام ج 3 ص 335 .

(111) صاعد الاندلسى : طبقات الامم ص 12 ، ابن زيدان : اتحاف اعلام الناس ج 1 صفحة 72 — 73 ، Dozy : Op.cit. P. 131. Smith : Op. Cit. P. 279

(112) ابن خلدون : ج 6 ص 105 ، ولذلك طلق عليهم دوزى « كلافنة الاسلام » ودى بوا «بيوريتان الاسلام » Spanish Islam. P. 130, Le Djebel Nefousa. P. 137.

(113) انظر : الاسفرائينى : التبصير فى الدين ص 142 وما بعدها .

(114) صاعد الاندلسى : طبقات الامم ص 12 ، Cam. Med. hist. Vol. 2 P. 376, Draguge : Op. Cit. P. 23.

(115) الاستقصا ج 1 صفحة 123 .

(116) ابن خلدون : العبر ج 5 ص 11 ، Le Tourneau : La revolte, d'Abou-Yazid. P. 105 Mercier : Histoire de L'etablissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale. P. 70.

ثالثا :

انتشار مذهب الخوارج في بلاد المغرب

كان فشل الخوارج فى المشرق فى تحقيق أهدافهم سببه أن حركاتهم كانت تفتقر الى التنظيم السياسى (117) ، وتعمد الى القيام بثورات هوجاء دون تنظيم او اعداد سابق (118) مما سهل على الخلافة الاموية وولاتها مهمة مناهضتها واستئصال شأفتها اولا بأول . وبانتهاء القرن الأول الهجرى اختفت فرقتا الازارقة والنجدات وهما من أهم فرق الخوارج . وكان من الطبيعى أن تلجأ فرقتا الصفرية والاباضية الى اسلوب مغاير

---

(117) ما يقال من الاتفاق السرى بين ثلاثة من الخوارج لاغتيال على ومعاوية وعمرو بن العاص لا ينفى صحة ما ذهبنا اليه . فهو تآمر انتقامى لا يخدم أهدافا بعيدة للخوارج . واسلوب التآمر السرى ليس تيارا أصيلا فى فكر الخوارج السياسى بل انه « لا يتفق مع عادات الخوارج » على حد قول بعض الدارسين .
راجع : فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 98 ،
Hitti : History of the Arabs. P. 182.

(118) تخالف ما ذهبت اليه الدكتورة سهير القلماوى فى تفسيرها اختلاف الخوارج على نافع بن الازرق وظهور فرق الازارقة والنجدات والصفرية والاباضية بأنه خطة محكمة من الخوارج للهجوم على الدولة الاموية التى كانت تجتاز اذ ذاك ازمة خطيرة فيتجه فريق منهم الى الشمال وآخر الى الجنوب لتكوين خط هجوم شرقى يمتد من الجزيرة شمالا الى اليمامة والبحرين جنوبا ، بينما يتوغل فريق ثالث فى فارس لاتخاذها ملجأ ساعة الشدة . انظر : أدب الخوارج فى العصر الاموى ص 35 . والواقع أن المصادر لا تشير الى شىء من هذا البتة ، والذى يفهم من الروايات ان ما حدث كان محض خلاف فقهى انتهى الى انشقاق مذهبى وسياسى فى جماعة الخوارج . ولم يحدث قط ثمة تعاون مشترك بين هذه الفرق فى صراعها مع الدولة الاموية .
من ظهور فرق الخوارج راجع ، الاسفرائينى : التبصير فى الدين ص 49 وما بعدها ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ج 2 ص 191 وما بعدها ، البياسى : الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام ج 2 ص 169 — مخطوط .

قوامه تنظيم الدعوة السرية وبث الدعاة فى أطراف العالم الاسلامى لنشر تعاليم المذهب ، فاذا ما ازداد الانصار عددا وانسوا من انفسهم قدرة على الثورة بادروا بالخروج .

كانت بلاد المغرب اهم اقاليم الاطراف التى اتجهت اليها جهود دعاة الخوارج العراقيين (119) فمتى تم ذلك ؟ وأى فرق المذهب قدر لها أن تنتشر فى البلاد ؟

لا نستطيع ان نحدد فى وضوح تاريخ بدء دعوة الخوارج بالمغرب بسبب تضارب الروايات واختلاطها ، فابن حوقل (120) يرجع بداية الدعوة الى معركة النهروان سنة 38 هـ (658 م) فيذكر أن « عبد الله بن وهب الراسبى وعبد الله بن اباض لجأ الى جبل نفوسة منذ وقت انصرافهم عن امير المؤمنين على بن أبى طالب بمن سلم معهم من اهل النهروان .. واقاموا هذا الجبل دار هجرة » لكن المعروف أن الراسبى قتل فى النهروان (121) ، كما أن ابن اباض لم يرد له ذكر بين من نجوا من القتل فى المعركة (122) ، الامر الذى يشكك فى صحة هذه الرواية . ليس ببعيد أن يكون بعض من فروا بعد معركة النهروان قد اعتصموا بجبل نفوسة ، لكنهم لم يتركوا هناك اثرا يذكر . لكن الظهور الحقيقى لمذهب الخوارج فى بلاد المغرب يعود الى أواخر القرن الاول ، وأوائل القرن الثانى الهجريين (123) .

اما عن فرق الخوارج التى انتشرت ببلاد المغرب ، فانه قد اختلط امر تحديدها على بعض المحدثين الذين ارخوا للخوارج فى المغرب ، اذ زعم بعضهم (124) أن البلاد شهدت انتشار فرق الخوارج جميعها ، وتشكك البعض (125) الآخر فى وجود فرقتى الاباضية والصفرية

---

(119) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 110 .

(120) المسالك والممالك ص 68 .

(121) المسعودى : مروج الذهب ج 2 ص 417 .

(122) نفس المصدر والصحيفة ، ابن خلدون : العبر ج 3 ص 142 .

(123) ابن خلدون : ج 6 ص 110 ، السلاوى : ج 1 ص 123 ، عنان : دولة الاسلام فى الاندلس ج 1 ص 116 .

(124) انظر : Basset : Recherches sur la religion des Berberes. P. 331, الطاهر الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ص 118 . Dozy : Op. Cit. P. 131.

(125) انظر : مؤنس : فجر الاندلس ص 148 ، ثورات البربر ص 154 — 155 .

على أساس « أن مبادىء الفرقتين ليست مما يجذب البربر ، فهما أكثر فرق الخوارج ميلا للمسالمة والتسامح مع المخالفين » ، علما بأن الصفرية من أكثر فرق الخوارج تطرفا ، لا ننكر أنهم اتخذوا موقفا وسطا بين الازارقة المسرفين فى التطرف والاباضية المعتدلين (126) لكن ثوراتهم اتسمت بالقسوة والعنف سواء فى المشرق أو المغرب ، فلم يكونوا اقل حدة من الازارقة فى هذه الناحية (127) .

ونعتقد أن من اشرت اليهم من المؤرخين المحدثين انما تاثروا بقول صاحب كتاب أخبار مجموعة (128) ، « فما بال التحكيم فشا فيهم ورفع المصاحف وحلق الرؤوس اقتداء بالأزارقة وأهل النهروان » . لكن الذى نؤكده أن الازارقة قضى عليهم نهائيا بعد قتل قائديهما قطرى بن الفجاءة وعبيدة بن هلال سنة 77 هـ (696 م) على يد المهلب بن أبى صفرة واختلفوا نهائيا بعدئذ من مسرح السياسة (129) أما النجدات ، فقد فتك عمر بن عبيد الله بن معمر قائد عبد الملك بن مروان بزعيمهم أبى فديك سنة 72 هـ (691 م) وقتل معه ستة آلاف من أصحابه بالبحرين ، فتضاعل شأنهم بعد ذلك (130) .

معنى هذا أن فرقتين فقط من فرق الخوارج الكبرى ظهرتا ظهورا واضحا فى أحداث بلاد المغرب وهما فرقة الصفرية ، وفرقة الاباضية ، فما تاريخ ظهور الفرقتين ؟ ؟

ينتسب الخوارج الصفرية الى عبد الله بن الصفار (131) ، وان كانت كتب الفرق (132) ترجع بهذا النسب الى شخص يقال له زياد بن

---

(126) الشهرستانى : الملل والنحل ص 121 — 123 ، ذكر جوليان انه اذا كان الازارقة يمثلون اليسار المتطرف فى مذهب الخوارج والاباضية اليمين ، فان الصفرية يمثلون اليسار . بينما يشبه جوتييه الاباضية بالمونشفيك والصفرية بالبولشفيك . انظر : Histoire de l'Afrique du Nord. P. 329. Les Siecles obscurs. P. 269,

(127) Gautier : Loc. Cit.
عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج 2 ص 288 .

(128) صفحة 32 .

(129) الطبرى : ج 6 ص 308 ، ابن خلدون : 3 ص 161 ، الاسفرائينى : ص 51 ، البغدادى : ص 87 ، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 109 .

(130) ابن الاثير : ج 4 ص 140 ، البغدادى : ص 90 .

(131) البلاذرى : انساب الاشراف ج 11 ص 83 .

(132) انظر : الرازى : ص 51 ، الاسفرائينى : ص 52 ، البغدادى ص 90 ، الشهرستانى : ص 123 .

الاصفر · وأيا ما كان الامر فلا محل لتصديق روايات أخرى ترجع تسميتهم لصفرة وجوههم من كثرة العبادة (133) ، او لانهم أخرجوا من الديــن صفرا (134) فكثرة العبادة من صفات الخوارج عموما وليست حكرا على الصفرية ، كما أن التفسير الثانى من نسج فقيه أباضى معاد للصفرية · ولا صحة للقول الذى ينسبهم الى المهلب بن ابى صفرة (135) اعدى اعداء الخوارج · ولا يمكن ان نقبل الروايات التى تنسبهم الى عبد الله بن وهب الراسبى وحرقوص بن زهير او ابى بلال مرادس (136) ، فلم يكن الخوارج قد افترقوا بعد الى فرقهم المعروفة ، بل اطلق عليهم اذ ذاك « المحكمة الاولى » (137) انما ظهر الصفرية حين خالف عبد الله بن الصفار نافعا بن الازرق حول مسألة القعدة سنة 65 هـ (684 م) وهو خلاف فقهى بالدرجة الاولى (138) اتخذوا فيه موقفا وسطا بين الازارقة المتطرفين والاباضيــة المعتدلين ، « فلم يكفروا القعدة عن القتال اذا كانوا موافقين فى الديــن والاعتقــاد » (139) ·

والواقع ان عقائد الصفرية تمثل تطورا عمليا ملحوظا فى فكر الخوارج وعقائدهم ، اذ تجنح الى التخفيف من غلواء التطرف الذى افضى بحركاتهم الى الفشل من قبل فهم لم يسقطوا الرجم ولم يحكموا بقتل اطفال المشركين وتكفيرهم كالازارقة ، كما نادوا بجواز التقية فى القول دون العمل (140) ، واجاز بعض زعمائهم تزويج المسلمات من كفار قومهم فى دار التقية (141)· وقد كفل لهم ذلك معايشة الجماعة الاسلامية بدلا من اشهار عدائهم لها ، الامر الذى اتاح لهم القدرة على الدعوة السرية المنظمة ، وحقق لمذهبهم الانتشار · لكنهم كانوا اكثر تطرفا من الاباضية فى موقفهم من مرتكبى الكبائر ومن ثم من مسألة « الكفر والايمان » ، فبينما رأى الاباضية أنهم موحدون قال الصفرية بتكفيرهم · (142) وفى ذلك تفسير لنزعة القسوة والعنف التى

---

(133) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج 1 ص 216 ·
(134) السوفى : شرح السؤالات ورقة 114 · مخطوط ·
(135) ابن تغرى بردى : ج 1 ص 289 ·
(136) المبــرد : الكامــل ج 3 ص 1006 ·
(137) البغــدادى : صفحــة 91 ·
(138) ليفى ديلافيدا : مادة الصفرية ــ دائرة المعارف الاسلامية ص 229 ·
(139) الشهرستــانــى : صفحــة 123 ·
(140) الــرازى : صفحــة 51 ·
(141) المرجــع السابــق صفحــة 122 ·
(142) نفس المصدر ص · 121 ·

لازمت سياسة الصفرية فى معاملة اعدائهم ·

وعلى كل حال ـــ استفاد الصفرية من اخطاء الازارقة والنجدات ومن كان قبلهم مـــن المحكمة الاولى ، فتريثوا قبـــل دخولهم معتـــرك الحياة السياسية ، فلم نسمع عن حركات لهم قبل ثورة صالح بن مسرح ضـــد الامويين سنة 76 هـ (143) (695 م) · كما امتازت ثوراتهم بالتركيـــز على منطقة الموصل والجزيـــرة وديار بكر ، واتخذوهـــا مقرا تتجمع فيه قواتهم لتتجه فى أعداد كبيرة نحو البصرة والكوفة ، وقد سقطت الكوفـــة نفسها فى ايديهم مرتين الاولى ابان ثورة شبيب سنة 77 هـ (144) (696 م) والثانية أثناء ثورة بسطام بن يشكر المعروف بشوذب سنة 100 هـ (145) (718 م) ، الامر الذى يؤكد أن حركاتهم كانت تهدف الى اقامة دولة للخوارج

ان التطور الجديد فى فكر الخوارج الصفرية بتجويز مبدأ التقية ، والاتجاه العملى فى حركاتهم بالمشرق (146) يؤكد جنوحهم الى اسلوب الدعوة السرية المنظمة فى المغرب · لا ننكر ان هذه الناحية اكثر وضوحا عند الاباضية بسبب وفرة المادة التاريخية المتعلقة بهم ، لكن تاريخ الصفرية لا يخلو من اشارات تؤكد الاتجاه الذى اشرت اليه ، هذا الاتجاه الذى يتجلى فى جهود دعاتهم فى نشر مذهبهم ببلاد المغرب ·

تذكر المصادر الاباضية (147) أن « أول من جاء بطلب مذهب الاباضية ونحن بقيروان افريقية سلمة بن سعيد قال ، قدم علينا من أرض البصرة ومعه عكرمة مولى ابن عباس على بعير ، سلمة يدعو الى مذهب الاباضية وعكرمة يدعو الى مذهب الصفرية » ·

معنى هذا أن القيروان كانت مركز الدعوة فى المغرب (148) ، لكننا لا نعرف

---

(143) الطبـــرى : ج 6 صفحـــة 215 ·

(144) عن حركة شبيب بن يزيد الشيبانى انظر : الطبرى : ج 6 ص 223 وما بعدها ·

(145) عن حركة شوذب راجع : الطبرى : ج 6 ص 556 وما بعدها ·

(146) هذه الحركات هى : ثورة بهلول بن بشر الشيبانى بالموصل سنة 119 · انظـــر : ابـــن الاثيـــر : ج 5 ص 77 وما بعدها ·
ثورة الصحارى بن شبيب سنة 119 هـ · انظر : الطبرى ج 7 ص 137 وما بعدها
ثورة الضحاك بن قيس الشيبانى : انظر : ابن قتيبة : المعارف ص 412 ·
ثورة الخيبرى الصفرى سنة 128 هـ · انظر الطبرى : ج 7 ص 347 ·
ثورة شيبان بن عبد العزيز سنة 129 هـ · وهى آخر ثورات الصفرية فى العصر الاموى انظر : الطبرى : ج 7 ص 349 ·

(147) أبو زكريا : السيرة ورقة 2 · مخطوط ، الدرجينى : طبقات الاباضية ج 1 ورقة 6 مخطـــوط ·

على وجه الدقة متى حضر عكرمة — راس دعاة الصفرية — الى افريقية · والراجح انه وصلها خلال السنوات الخمس الاولى من القرن الثانى الهجرى (149) ·

كان عكرمة هذا من أصل مغربى (150) ، وكان من موالى ابن عباس الفقيه ذائع الصيت وقد اتاح له ذلك مخالطة كبار الفقهاء والمحدثين كأبى هريرة والسيدة عائشة ، فسمع منهم واخذ عنهم حتى أضحى من الأعلام الثقاة فى الفقه والحديث (151) ثم أخذ بالمذهب الصفرى وصار من فحول فقهائه · ومن الغريب الا نجد له ذكرا فى حركات الصفرية فى شمال العراق ، وقد يفهم من ذلك انه مال الى تعاليم الصفرية فى وقت متأخر · وقد عهد اليه بنشر المذهب فى بلاد المغرب بعد اتجاه الخوارج الصفرية الى اتباع أسلوب التنظيم والدعوة ·

ولا يستفاد من النص السابق أن الصفرية والاباضية التاما فى نظام واحد او ان دعاتهما تلازما فى نشر تعاليمهما ، فلم نقف على ما يشير الى مثل هذا العمل المشترك فى الجهود التى قاموا بها بين البربر · بل ان كلا من الجماعتين اختطت لنفسها طريقا خاصا ، ولم تتورعا عن التنافس والصراع الذى انتهى باقتتالهما فى بعض الاحيان · كما أن دعاة الفرقة الاباضية اتجهوا الى الاقاليم الشرقية من بلاد المغرب بينما اتجهت الدعوة الصفرية الى قبائل المغرب الاقصى (152) ·

على كل حال نزل عكرمة بالقيروان حيث أمكنه الاتصال برؤساء القبائل من أمثال ميسرة المطغرى — زعيم مطغرة — الذى تلقى العلم على يديه مختفيا ، فقد اشتغل بالسقاية فى سوق القيروان حتى لا يكتشف أمره · وعلى الرغم من كونه سيدا لعصبية لها خطرها لم يتورع عن الاشتغال بتلك المهنة امعانا فى التستر والحيطة · وقد تسنى له بذلك اخذ تعاليم المذهب عن عكرمة ، ثم عاد فنشرها بين قومه من بربر مطغرة (153) ·

---

(148) ابن خلدون : ج 7 ص 11 ، Marcais : La Berberie Musulmane, P. 48.

(149) العينى : عقد الجمان ج 11 قسم 3 ورقة 46 — مخطوط · Fournel ; Les Berbers. Vol I. P. 352.

(150) نفس المصدر والصحيفة

(151) المبرد : الكامل ج 3 ص 949 ، العينى : المرجع السابق ورقة 464 ، دبوز : المغرب الكبير ج 2 ص 279 ، Fournel : Op. Cit. P. 352.

(152) ابن خلدون : العبر ج 7 ص 11 ·

(153) نفس المصدر ج 6 ص 118 ·

كما اتصل أبو القاسم سمكو بن واسول شيخ مكناسة بعكرمة فى القيروان (154) كذلك وليس بالمشرق كما اعتقد البعض (155) · ولازمه حتى موته فى سنة 105هـ (723م) أو سنة 107هـ (725م) حسبما يرجح (156)، وتبحر فى اصول المذهب وفروعه حتى وصف بأنه من « مشاهير حملة العلم » (157) ، وبأنه « مقدم الصفرية » (158) بعد وفاة عكرمة · واستطاع أبو القاسم نشر المذهب بين قومه من مكناسة ، ثم اتجه نحو المناطق الصحراوية الجنوبية لبث الدعوة فيها ، وعمد — شأنه شأن ميسرة — الى اتباع أسلوب التستر والتخفى ، فرحل الى واحة تافيللت — وهى ملتقى القبائل الرعوية جنوبى المغرب الاقصى — وتظاهر بتربية قطعان الماشية وعكف على بث تعاليم المذهب بين الرعاة حتى تحولت خيمته الى مجمع للخوارج الصفرية فى تلك النواحى (159) ·

ولم يقتصر انتشار المذهب الصفرى على بربر مطغرة ومكناسة ، ذلك أن بربر برغواطة اعتنقوا هذا المذهب فى وقت مبكر على يد طريف ابن شمعون الذى لقى عكرمة بالقيروان كذلك (160) · واذا كانوا قد تخلوا عنه بعد ذلك واتبعوا تعاليم صالح بن طريف (161) ، فلا يمكن اغفال دورهم البارز فى ثورة الصفرية الكبرى بالمغرب الاقصى التى تزعمها ميسرة المطغرى سنة 121 هـ (739 م) ·

---

(154) ابن خلدون : ج 6 ص 105 ، ابن زيدان : اتحاف اعلام الناس ج 1 ص 76 ·

(155) مجهول : نبذ تاريخية ص 60 ، القلقشندى : صبح الاعشى ج 5 ص 165 ·

(156) العينى : عقد الجمان ج 11 قسم 3 ورقة 464 ·

(157) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 105 ·

(158) الشطيبى : الجمان فى أخبار الزمان ورقة 203 — مخطوط ·

(159) البكرى : المغرب ص 149 ، ابن خلدون : ج 6 ص 130 ،
Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 352.

(160) ابن خلدون : ج 6 ص 107 ·

(161) تسكن برغواطة اقليم تامسنا بالمغرب الاقصى واهم مدنه سلا وآزمور وآنفى وآسفى ، وكان زعيمها طريف بن شمعون من قواد ميسرة ، وقد اختلف فى نسبه فيما اذا كان مصموديا أو يهوديا أو يمنيا وعلى كل حال — فقد خلفه بعد موته ابنه صالح الذى تزندق وشرع ديانة جديدة ، وأظهر قرآنا جديدا وتسمى « بصالح المؤمنين » ولم يقدر لتعاليمه الانتشار فى حياته ، فقد غادر البلاد الى المشرق ، وادعى انه المهدى المنتظر وكان قد أعد ابنه الياس للقيام بأمر دعوته بعد ان لقنه اسرارها وفقهه بأصولها · وقد فشت الدعوة فى عهد الياس ، وحاول الادارسة القضاء عليها الا أنها ظلت قائمة حتى عصر الموحدين · راجع : ابن عذارى : ج 1 ص 61 ، ابن خلدون : ج 6 ص 207 ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ج 3 ص 118 ، البوعياشى : الريف بعد الفتح الاسلامى ص 15 ، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص 417 ،
Mercier : Histoire de l'Afrique Septentrionale. Vol. I. P. 238.

والراجح أن ميسرة كان على صلة وطيدة بطريف بن شمعون « القائم بدعوة الصفرية » (162) فى برغواطة قبل تقلده زعامة الحركة (163) ، فلما قام بثورته آزروه ووقفوا الى جانبه، لكنهم ما لبثوا أن انسحبوا من الحركة الصفرية حين نحى ميسرة عن زعامتها ، فانحازوا الى دعوة صالح بن طريف .

وانتشر المذهب الصفرى أيضا فى زناتة « فقد ضرب بنو يفرن فيه بسهم وانتحلوه » (164) ، كما اقبلت بعض بطونها فى المغرب الادنى على اعتناقه وساهمت فى حركات الصفرية بعد ذلك بصورة محدودة .

ولم يقتصر انتشاره على البربر وحدهم بل تعداهم الى العناصر الاخرى ، فبعض العرب المقيمين بافريقية دانوا بالمذهب الصفرى وقد تسرب هؤلاء الى المغرب بصحبة الجيوش القادمة من المشرق ، حتى ذاع عن بعض الولاة اعتناقهم هذا المذهب أو على الأقل تعاطفهم مع معتنقيه (165) فقد اتهم يزيد بن ابى مسلم بأنه من الخوارج الصفرية (166)، وان كان لم يستطع الجهر بذلك خوفا وتقية حتى قيل بأنه « يعلم الحق ويكتمه » (167) .

كما انتشر المذهب الصفرى بين جماعات الافارقة ، وهم أصلا من البربر الذين اختلطوا بالروم ودخلوا فى خدمتهم واعتنقوا ديانتهم أو من الاجانب المستوطنين الذين طال وجودهم فى بلاد المغرب حتى اصبحوا افارقة (168) . وهؤلاء كان لهم نمط خاص فى حياتهم باعتبارهم اكثر تحضرا من سكان البلاد الأصليين وكانت لهم لهجتهم الخاصة التى لا يعرفها غيرهم (169) . وقد أقبلوا على اعتناق الاسلام رغبة منهم فى الاحتفاظ بمكانتهم الاجتماعية المرموقة ، لكن الولاة الامويين الاواخر عاملوهم معاملة

---

(162) ابن خلدون : ج 6 صفحة 107 .

(163) عبيد الله بن صالح : نص جديد ص 224 ، Marcais, G : La Berberie Musulmane. P. 48.

(164) ابن خلدون : ج 7 ص 11 ، Masqueray : Chronique d'Abou Zakaria. P. LxxIII

(165) ابن الاثير : الكامل ج 5 ص 70 ، Le Tourneau : Op. Cit. P. 439.

(166) المبرد : الكامل ج 3 ص 949 .

(167) نفس المصدر صفحة 968 .

(168) حسن محمود : انتشار الاسلام ج 1 ص 167 .

(169) البكرى : المغرب صفحة 6 .

البربر ، فلما انتشر المذهب الصفرى بين بربر المغرب الاقصى لم يحجم الافارقة عن اعتناقه ، فقد تلقاه زعيمهم عبد الاعلى بن جريج عن عكرمة بالقيروان ثم نشره بين قومه (170) . وحسبنا دليــلا على ذلك اشتراك الأفارقة فى ثورة مسيرة سنة 121 هـ (739 م) وتقليده عبد الأعلى واليا من قبله على طنجة بعد فتحها (171) .

وامتدت تعاليم الصفرية كذلك عن طريق أبى القاسم سمكو بــن واسول الى جماعات السودان القاطنين جنوبى الصحراء . فمن المعروف أن قوافل التجارة بين بلاد المغرب وبلاد السودان كانت تمر عبر واحة تافيللت حيث اقام ابو القاسم واخذ يعمل على نشر المذهب الصفرى . وكانت جماعات منهم تقطن هذه الواحة وتعمل فى التجارة عبر الصحراء . وقد رحب هؤلاء بمبادىء الخوارج لما تنطوى عليه من مساواة دون اعتبار للعنصر او اللون . ووجد ابو القاسم سمكو فيهم اتباعا مخلصين فالتفوا حوله واعتنقوا مذهبه . واخذت جموعهم تفد وتستقر فى اقليم تافللت بصفة دائمة بعد اعتناقهم المذهب الصفرى ، وليس ادل على ذلك انه ما ان شرع الصفرية فى اقامة دولتهم بسجلماسة سنة 140 هـ (757 م) حتى اختاروا اول ائمتهم من السودان وهو عيسى بن يزيد الاسود (172) .

وهكذا تغلغل المذهب الصفرى فى سائر ارجاء المغرب الاقصى وبعض نواحى افريقية والمغرب الادنى بين البربر والعرب والافارقة والسودان على السواء . ولعل هذا الانتشار السريع وشموله كافة الاجناس والعناصر الموجودة ببلاد المغرب وتسربه حتى جنوبى افريقية هو الذى حدا بابن خلدون (173) الى القول بأن « الصفرية قد فشت مقالتها فى سائر القبائل بافريقية » « وصار لهم فيها عدد كثير وشوكة قوية » على حد قــول النــويــرى (174) .

أما المذهب الاباضى فينسب الى عبــد الله بــن ابــاض المــرى

---

(170) الســلاوى : ج 1 صفحــة 97 .
(171) ابن عبد الحكم ص 293 ، ابن عذارى : ج 1 ص 52 .
(172) البكــرى : المغــرب ص 149 ،
Fournel : Op. Cit. Vol. 2. P. 22.
(173) العبــر ج 4 ص 189 .
(174) نهايــة الارب ج 22 ورقــة 150 .

التميمى (175) ، وان كان بعض مؤرخى الاباضية ينكرون ذلك (176) ·
ويجمع المؤرخون (177) على ان المذهب الاباضى ظهر — شانه شأن الصفرية والنجدات والأزارقة — سنة 64 هـ (683 م) عندما خالف عبد الله ابن اباض نافع بن الازرق فى تفكيره القعدة عن القتال واتخذ بذلك موقفا معتدلا ·

والواقع ان الاعتدال هو السمة الواضحة لعقائد الاباضية ، اذ انهم يحرمون دماء المسلمين وسبى ذراريهم وغنيمة اموالهم (178) · كما انهم اعتبروا دور مخالفيهم دار توحيد الا معسكر السلطان فانه دار بغى (179) · واجازوا مناكحتهم وموارثتهم وغنيمة اموالهم من السلاح والكراع عند الحرب ، وحرموا قتلهم وسبيهم فى السر غيلة الا بعد نصب القتال واقامة الحجة (180) · وقالوا فى مرتكبى الكبائر انهم موحدون ، وان كفروا كفر النعمة لا كفر الملة · وتوقفوا فى أطفال المشركين وجوزوا تعذيبهم على سبيل الانتقام · ولعل طابع الاعتدال فى عقائد الاباضية هذه هو ما جعلهم اقرب فرق الخوارج الى اهل السنة (181) ·

والملاحظ ان الاباضية — كالصفرية — بداوا حركاتهم السياسية فى وقت متاخر · فقد خرج عبد الله بن اباض على مروان بن محمد (182) آخر خلفاء بنى امية ، فوجه اليه عبد الله بن محمد بن عطية فقاتله بتبالة وهزمه وقتله (183) معنى هذا أن ابن اباض لم يقدم على الثورة على اثر انفصاله عن نافع بن الازرق سنة 64 هـ (683 م) انما آثر التريث حيث وجد فى عصر مروان بن محمد الحافل بالاضطرابات فرصة مواتية للخروج· لكن فشله وقتله دفع أتباعه الى اتباع أسلوب العمل فى الكتمان ونشر

---

(175) ابن قتيبة : المعارف ص 622 ، ابن رستة : الاعلاق النفيسة ص 217 ، مجهول : قطعة من كتاب فى الاديان والفرق ورقة 97 — مخطوط ·
(176) انظر : ابو زكريا ورقة 8 ، 11 ، Masqueray : Op. Cit. P. xxx
(177) الطبرى : ج 6 ص 320 ، البغدادى : ص 105 ·
(178) السوفى : شرح السؤالات ورقة 57 — مخطوط ، ابو غانم الصفرى : مدونته ، ورقة 43 — مخطوط ·
(179) البغدادى : صفحة 106 ·
(180) الاسفرائينى : التبصير فى الدين ص 28 ·
(181) الشهرستانى : الملل والنحل ص 122 ·
(182) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ص 51 ·
(183) نفس المصدر والصحيفة ، الشهرستانى : ص 121 ·

الدعوة فى الاطراف ، فى خراسان (184) وجنوبى الجزيرة العربية (185) والمغـــرب ٠

وكانت البصرة مركزا للدعوة ، ومنها كان الدعاة ـــ الذين عرفوا بحملة العلم ـــ يتوجهون الى الامصار بعد تلقيهم اصول الدعوة على ايدى فقهاء المذهب وشيوخه ٠ والمعروف ان انصار المـــذهب بالبصرة كانـــوا يمارسون مهامهم فى طى السرية والكتمان ، فكانت مجالسهم فى سراديب تحت الارض ٠ وامعانا فى التخفى « كان يجلس امام باب السرداب رجل يعمل القفاف وعلى فمه سلسلة يحركها اذا ما راى شخصا مقبلا لينبه من بالداخل الى التزام الصمت ريثما يمر من يشتبه فى امره » (186) ٠ وغالبا ما كانت هذه المجالس تقام فى بيوت النسوة العجائز منعا للشبهة (187) ، بل ان روادها كانوا يتنكرون فى ملابس النساء (188) ٠

وتطلق المصادر الاباضية على هذه المجالس اسم « الحلقة » (189)٠

---

(184) من دعاة الاباضية فى خراسان محبوب بن الرحيـــل وبشر بـــن النير وهاشم بـــن عيلان ٠ واذا كان الغموض يكتنف مصير هؤلاء الدعاة ، فالـــذى لا شك فيـــه أن جهودهم فى نشر الدعوة بخراسان باءت بالفشل ٠ انظر : اطفيش : بعض تواريخ اهل وادى ميزاب ص 115 ٠

(185) كذلك لا نعلم شيئا من جهود دعاة الاباضية ٠ وكانوا اربعة ـــ (اطفيش : الامكان ص 110) فى عمان (Masqueray : Op. Cit. P. XLII) لكن احدهم ويدعى ابا حمزة المختار بن عوف ـــ وكان يدعو لامامة ابى عبد الله بن يحيى الكندى المعروف بطالب الحق ـــ نجح فى مهمته (المسعودى : ج 3 ص 257) ٠ وكان دائب الصلة بجماعة الاباضية فى البصرة الذين امـــدوه بالمشورة والنصائح الـــى جانب الاموال والسلاح (مجهول : كشف الغمة ورقة 307 مخطوط) وانتشرت الدعوة لطالـــب الحق فى عمان ، وخوطب بامير المؤمنين ، ثم دخل صنعاء ودانت له اعمالها (ابن تعزى بردى : ج 1 ص 309) ٠
كما تمكن ابو حمزة من دخول المدينة المنورة سنة 130 هـ بعد هرب واليها الاموى الى الشام (الطبرى : ج 7 ص 394) ، وبطش بمن خالفه من اهلها (ابن الاثير : ج 5 ص 140) ، وخطب على منبر جامعها لطالب الحق (انظر نص الخطاب فى كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ص 144 ـــ 147) ٠ وظل بها ثلاثة شهور غادرها بعدها الى بلاد الشام لكن مروان بن محمد بعث قائده محمد بن عطية السعدى على راس جيش لقتاله ، وتمكن محمد بن عطية من هزيمة ابى حمزة وقتله فى معركة وادى القرى سنة 130 هـ (ابن الاثير : ج 5 ص 146) ٠ وواصل الجيش الاموى زحفه الى المدينة ، ومنها توجه الى اليمن حيث هزم طالب الحق وقتل الكثيرين من رجاله بناحية الطائف ، وفر بقية الخوارج الى خضر موت حيث تحصنوا بها ٠
(انظر : المسعودى : ج 3 ص 258 ، سرور : الحياة السياسيـــة فى الدولـــة العربية ص 129) ٠

(186) ابو زكريا : ورقة 5 ، الشماخى : السير ص 124 ٠

(187) الشماخى : نفس المصدر ص 108 ، 109 ٠

(188) الدرجينى : طبقات الاباضية ج 1 ورقة 107 ـــ مخطوط ٠

(189) من حلقات الاباضية فى عصور متاخرة راجع : البرادى : الجواهر المنتقاة ورقـــة 106 ـــ 112 ـــ مخطوط ٠

وفيها يتلقى الاتباع الاصول والفروع والسير (190) والتوحيد والشريعة وآراء الفرق الى جانب علوم اللغة والفلك والرياضيات (191) . هذا فضلا عن تبصيرهم بفنون الحكم ، واساليب السياسة ، واعدادهم لتقلد المناصب والاضطلاع بأعبائها فى مرحلة الظهور (192) . وبعد ذلك يرحلون الى الامصار يدعون للمذهب ثم يشرعون فى « المجاهرة بالعمل » (193) اذا ما توافر لهم « ما يوجب به التولية عليهم من العدة والعدد من الرجال » (194) .

ويرجع الفضل فى تنظيم اسلوب الدعوة الاباضية الى جابر بن زيد الذى حظى بمنزلة عالية عند الاباضية حتى اعتبره بعضهم (195) أول الائمة . لكن الاجل لم يمتد به ليشهد نجاح جهوده ، فقد توفى سنة 96 هـ (196) (725 م)وخلفه احد تلاميذته ويدعى أبا عبيدة مسلم بن أبى كريمة (197) الذى قيل انه ظل يتلقى العلم اربعين عاما وبعدها نصب نفسه لتعليمه (198) . ومن هنا كانت شهرته الواسعة بتعمقه فى العلوم على اختلافها (199) . فكان ندا لاعلام المعتزلة كواصل بن عطاء ، وكان يحاورهم ويجادلهم (200) . وقد سجن زمن الحجاج ، وأفرج عنه بعد موته ليتصدى لتنظيم جماعة الاباضية فى البصرة خلفا لجابر بن زيد . وساعده فى ذلك كبار اعوانه من امثال ابى نوح ، وأبى مودود حاجب والربيع بن حبيب (201) وفى عهده ارتفع شأن الدعوة واشتد ساعدها ، فقد تسنى له جمع الكثير من الاموال وتمكن من شراء الاسلحة ليستعين

---

(190) الدرجينى : المرجع السابق ورقة 3 .

(191) البرادى : المرجع السابق ورقة 106 ، Masqueray : Op. Cit. P. IxL.

(192) ابو زكريا : ورقة 6 ، الشماخى : السير ص 124 .

(193) مجهول : كشف الغمة ورقة 307 — مخطوط .

(194) ابو زكريا : السيرة ورقة 5 .

(195) الورجلانى : ج 2 ص 72 ، دبوز : ج 2 ص 138 ، 408 ، على يحيى معمر : الاباضية صفحة 21 .

(196) اخطأ البرادى حين ذكر انه توفى سنة 193 هـ . راجع : الجواهر المنتقاة ورقة 79 . Masqueray : Op. Cit. P. 8

(197) الدرجينى : ج 1 ورقة 102 ،

(198) اطفيش : الامكان ص 113 .

(199) الشماخى : السير صفحة 83 .

(200) الدرجينى : ج 1 ورقة 105 .

(201) نفس المصدر ورقة 107 .

بها دعاته فى الولايات على « اقامة دين الله » (202) .

وليس من شك فى أن بلاد المغرب ظفرت من أبى عبيدة باهتمام كبير (203) ، اذ كانت ميدانا خصبا لنشر المذهب ، فبعث بداعيته سلمة ابن سعيد فى بداية القرن الثانى الهجرى لنشر الدعوة الاباضية بين المغاربة . وتجمع مصادر الاباضية (204) على حماس سلمة الشديد فى نشر المذهب حتى أنه « كان يتمنى ظهوره يوما واحدا ويموت فى آخره » . ويبدو أنه اتخذ من بلاد المغرب الادنى ميدانا لنشاطه حيث استطاع أن يكسب انصارا فى اقليم طرابلس وجبل نفوسة (205) . ولم يمتد به الاجل طويلا فحل محله أبو عبد الله محمد بن عبد الحميد بن مغيطر الذى تتلمذ على أبى عبيدة بالبصرة (206) ، واشتهر « بشدة الشكيمة وقوة العريكة » (207) . وفى أيامه تم انتشار المذهب بين بربر نفوسة فى مستهل القرن الثانى الهجرى (208) . ومنذ ذلك الحين أصبح جبل نفوسة « دار هجرة » للمذهب الاباضى فى بلاد المغرب (209) .

وكان رسوخ قدم المذهب الاباضى فى جبل نفوسة سببا فى انتشاره

---

(202) الشماخى : السير ص 115 . وقد أورد الشماخى مثالا على ذلك نصه انه « لما خرج الامام عبد الله بن يحيى وابو حمزة ، جمع لهما اموالا كثيرة يعينهما بها . وكتب على كل موسر من المسلمين قدر ما يرى ، فما امتنع عليه أحد . ودعا ابا طاهر — وكان شيخا فاضلا — وقال له : عليك بالنساء واوساط الناس ، فانا لكره ان نكتب عليهم ما لا يحملون . فانطلق ابو طاهر فيمن انطلق معه من المسلمين ، فلم ياتوا امرأة ولا رجلا الا وجدوه مسارعا فيما سالوه . . فلم يمس الليل حتى جمع ابو طاهر عشرة آلاف درهم . فاخبروا حاجبا ، فسر بذلك فقال : ان فى الناس لبقية بعد . فاشترى بتلك الاموال سلاحا فوجهه ، ووجه ما بقى » . انظر : السير صفحة 114 .

(203) بالغت المصادر الاباضية فى ايراد كثير من الاحاديث المصطنعة والاقوال المأثورة من كبار الصحابة فى فضائل البربر ، وما سيتم على ايديهم من العودة بالاسلام الى اصوله الصحيحة . وعلى الرغم مما يكتنف هذه الروايات من طابع اسطورى فلها دلالاتها على مواتاة ظروف بلاد المغرب لنشر دعوة الخوارج . انظر : أبو زكريا ورقة 2 وما بعدها ، الدرجينى : ج 1 ورقة 7 وما بعدها .

(204) ابو زكريا : ورقة 2 ، الشماخى : السير ص 98 ، السوفى : شرح السؤالات ورقة 147 .

(205) الدرجينى : ج 1 ورقة 6 .

(206) الوسيانى : سير أبى الربيع ورقة 80 — مخطوط ، Lewcki : Etudes, Ibadites. P. 39.

(207) الشماخى : السير صفحة 144 .

(208) الوسيانى : ورقة 79 ، الدرجينى : ج 2 ورقة 140 ، ابن مقديش : نزهة الانظار ص 40 ، السلاوى : ج 1 ص 123 ، Despois, Op. Cit. P. 138.

(209) ابن حوقل : المسالك والممالك صفحة 68 .

بين القبائل الاخرى مثل هوارة ولماية وزناتة وسدارته وزواغة ولواتة (210) اما مطماطة ، فلم تعتنق المذهب الا فى عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابـــن رستم (211) ·

على كل حال ــ فان انتشار المذهب الاباضى على هذا النحو بين كثير من قبائل المغربـــين الادنى والاوســـط كان فى حاجة الى مزيد مـــن التبصير بتعاليم المذهب واصوله الفقهية ، وحسب سلمة بن سعيد وابن مغيطر انهما كسبا الانصار وبثا الدعوة بين القبائل · ولذلك تم اختيار ممثلين عن الجهات التى انتشر فيها المذهب للتوجه الى البصرة لمزيد من الدرس ، فاختير عاصم السدراتى من غرب الاوراس ، وابو داود القبلى النفزاوى من نفـــزاوه جنوبى افريقيـــة ، واسماعيل بـــن درار من غدامـــس جنوبى طرابلس وانضم اليهم عبد الرحمن بن رستم من القيروان (212) · وتوجه هؤلاء الذين عرفوا « بحملة العلم » الى البصرة حيث ظلوا فى صحبة ابى عبيدة مسلم خمس سنوات (213) يتلقون العلم على يديه ويعدون العدة للظهور ويتعلمون اصول الحكم وفنونه ·

وجدير بالذكر ان ابا عبيدة اشار عليهم بأحد أتباعه من العرب ويدعى ابو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى (214) ليتولى « امامة الظهور » اذا ما استطاعوا الى ذلك سبيلا · كما أعد اسماعيل بن درار الغدامسى لتولى القضاء ، فعلمه أصول الفقه والافتاء (215) · واوصاهم بمداومة الاتصال به واستفتائه فيما يعن لهم من مسائـــل واخبـــاره بنشاطهـــم اولا بأول (216) ·

وعاد « حملة العلم » الى المغرب ، وواصلوا جهودهم فى تثبيت دعائم المذهب ولما اشتد ساعدهم عقدوا العزم على اعلان امامة الظهور

---

(210) ابن خلدون : ج 6 ص 120 ، 121 ،
Biquet : Histoire de l'Afrique septentrionale. P. 41.

(211) الجربـــى : مؤنس الاحبـــة صفحـــة 46 ·

(212) ابو زكريا : ورقة 5 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 9 ، الشماخى : السير ص 124 ، اطفيش بعض تواريخ اهل وادى ميزاب ص 188 ·

(213) نفس المصادر والصفحات ، اطفيـــش : كتاب الامكـــان ص 112 ، دبوز : ج 3 ص 194 · واذا ما علمنا ان البعثة عادت الى المغرب سنة 140 هـ · فيكون رحيلهم الى البصرة حدث سنة 135 هـ · انظر : Lewcki : Etudes, P. 27.

(214) قيل انه كان من قواد الجند العربى بطرابلس انظر : حسن حسنى عبد الوهاب ورقات من الحضارة العربية ج 1 ص 425 ·

(215) ابو زكريا : ورقة 5 ، الشماخى : السير ص 124 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 10 ·

(216) ابن ابى كريمة : رسالة فى احكام الزكاة ورقة 114 ــ مخطوط ·

سنة 140 هـ (757 م) .

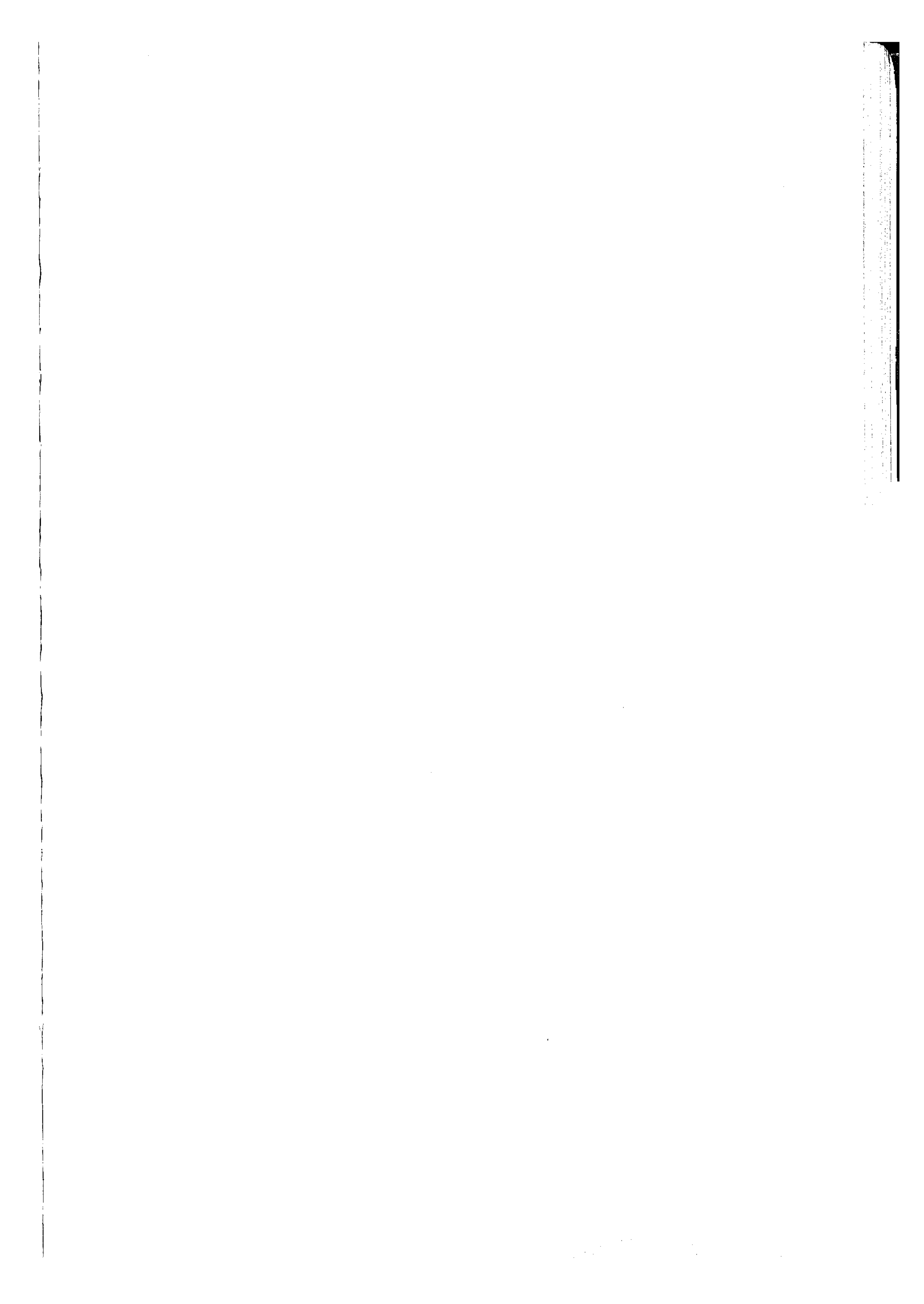
هكذا أصبحت بلاد المغرب معقلا لنشاط الخــوارج بعـــد انتشار المذهب الصفرى بين بربر المغرب الاقصى وبعض نواحى المغرب الاوسط ، والاباضى فى المغربين الأدنى والأوســـط (217) . وبدأ الخوارج حقبـــة

---

(217) من المفيد ان نعرض لنظرية شائعة فى تفسير انتشار مذهب الخـــوارج فى بــلاد المغرب ، تربط بين هذا المذهب وبين نحلة الدوناتية المسيحية . وهـــذه النظريـــة منسوبة الى المؤرخ جوتييه ، ونقلها عنه سائر مؤرخى المغرب الفرنسيين وبادىء ذى بدء نقرر أن جوتييه لم يكن أول من قال بهذه الفكرة ، انما سبقه اليها أميــل ماسكراى فى مقدمته لكتاب السيرة لابى زكريا الذى صدر بالجزائر سنة 1878 م . فهو القائل بــان « الخارجية كالدوناتية تعـــد انقساما دينيا وليست زندقـــة » وان « مذهب الخوارج يشترك مع الدوناتية فى التعبير عن روح الاستقلال عند البربر » واليه يعزى الفضل فى الربط بين مذهب الخوارج فى المغرب بشقيه الاباضى المعتدل والصفرى المتطرف وبين الدوناتية المعتدلة والسركونسليونية المتطرفة كذلك .
انظـــر : (Masqueray : Op. Cit. P. IxVIII, Lxxll.
وعلى هذه الخطوط نسج جوتييه نظريته تلك التى ضمنها كتابه عـــن المغـــرب فى العصور الوسطى الذى صدر بباريس سنة 1927 . واهم ملامح هذه النظرية ما يلى :
1 — اشتراك الخوارج والدوناتيين فى عديد من الصفات كالصلابة والالتزام الصارم بأصول العقيدة والتطرف والزهد والتسليم بالقضاء والقدر والاستشهاد فى سبيل المـــذهب .
2 — ينطلق فكر كل من المذهبين من معين واحد هو نزعة التدين الشديدة الفطرية عنـــد البـــربـــر .
3 — ان البربر اعتنقوا مذهب الخوارج — كما ذكر ابن خلدون — كسلاح يناوئون به الحكام ، وهو نفس ما حدث بالنسبة لاعتناقهم المذهب الدوناتى .
4 — ومن ثم ، فالعامل الدينى فى كلتى الحركتين أمر ثانوى بالقياس الى المغـــزى السياسى والاجتماعى الذى يتمثل فى تحقيق الديموقراطية كهدف سياسى والعدالة كمطلب اجتمـــاعـــى .
5 — وينتهى جوتييه — كما انتهى ماسكراى — الى أن مذهب الخوارج عند البربر امتداد للدوناتية « بعد أن خلعت لبوسها المسيحى لتتشح بثياب اسلامية » (راجع : (Gautier : Le Siecles obscurs. P. P. 626, 63, 64.
وانبرى جمهرة مؤرخى المغرب الفرنسيين للدفاع عن هذه النظرية وتصدوا لدعمها . فبروفنسال يركز فى دعمه على توافق جوهر عقائد الخوارج والدوناتيين مع طبائـــع البربر وصفاتهم الفطرية (انظر Histoire de l'Espagne Musulmane Vol. I. P. 42.
وجورج مارسيه يؤكد أن اعتناق البربر للمذهبين وسيلة لا غاية ، فكلاهما « امـــد البربر بالحافز الخلقى لتبرير ثورتهم على الحكام ، وكما هزت الدوناتية وحدة الكنيســـة الافريقية ، كانت الخارجية عند البربر نوعا من الهرطقة القومية التى شكلت خطرا على مستقبل الاسلام فى بلاد المغرب » .
راجـــع La Berberie Musulmane et l'Orient. P. 140. وفى نفس الاتجاه يمضى مرسييه فيقـــول « ان عبـــارة لا حكم الا لله لها عند الخـــوارج — وكـــذلك الدوناتيين — دلالة على اعلان الحرب السياسية » .
انظر : Histoire de Constantine. P. 86 اما باسيه فيركـــز على المغزى الاجتماعى للحركتين اذ انهما « ما قامتا لمجرد خلاف فى الراى حول تفسير للعقيدة ، بل لاشعال حرب اجتماعية تحت رايات دينية
(Recherches sur la religion des Berberes. P. 331.

جديدة فى تاريخ البلاد حيث عمت الثورات كافة ربوعها ، وهو ما سنفصله فى البـــاب الثـــانـــى .

= ويشاركـه جوليـان نفس الـرأى فيقـول « . . وكمـا كـانت الـدوناتيـة وسيلة لوضع حـد لانتهازية الكاثوليـك ، وتحالـف الحكام الرومان مع كبـــار الملاك ورجال الدين ، كان مذهب الخوارج فى المغرب سلاح البربر فى نضال هذه القوى ومظهرا من مظاهر مقت الاجانب ، وتعبيرا عن السخط والحقد على السلطة القـائمـة » .
انظـر : Histoire de L'Afrique du Nord. P. 328.
ومـــن المفيـد أن نعـرف فى ايجاز بحركـــة الدوناتيـة فى بلاد المغـــرب ، وتتلخص فى أن دونـات Donat اسقف نوميديـا رفض الاعتراف باختيار سيسيليان Cicilianus اسقفا لقرطاجنة سنة 311 م . وكان مبعث رفضه أن القساوسة الذين اختاروه لهذا المنصب كانوا من المشكوك فى ولائهم للعقيدة بعد اقدامهم على تسليم الكتب الدينية والاوانى المقدسة الى السلطة الامبراطورية على اثر اغتيال الامبراطور ديكوليتيـان Diocletien انظر : Gautier : Op. Cit. P. 261.
وقد آزرت الكنيسة والسلطات الرومانية سيسيليان ، بينما ناصر البربر — وخاصة الطبقات الفقيرة منهم — دونات ضد أعدائه
(Bonet : L'Islamisme et le christianisme. P. 59).
ثم حدث انشقاق داخل الحزب الدوناتى ، فظل دونات على راس المعتدلين بينمـا تزعم سيركونسليون جناح المتطرفين ونحا بالحركة منحى اجتماعيا فقام بالاغاره على املاء الاغنياء والاستيلاء عليها تحقيقا لمبدأ العدالة والمساواة . انظر :
مبـارك الميلـى : تاريخ الجزائـر ج 1 ص 254 ، (Bonet : Op. Cit. P. 60
وقد تعرض هؤلاء وأولئك للاضطهاد الشديد طوال القرن الرابع الميلادى ، الامر الذى جعلهم يقدمون على التعاون مع الواندال لغزو افريقية وتحريرهم من الكنيسة الارثوذكسية والسلطات الرومانية (بونيل : الممالك الاسلامية ص 77 (Bonet : loc. cit,
ومع تسليمنا بوجاهة نظرية جوتييه الى حد كبير ، نعتقد أنها تنطوى على شىء من المبالغة حين يزعم صاحبها أن مذهب الخوارج امتداد للدوناتية .
وحسبنا أن البربر الذين ناصروا الدوناتية لم يمتد بهم الاجل — بداهة — للالتفاف حول دعاة الخوارج ، وما حدث لا يعدو أن يكون محض تشابه فى ظروف بلاد المغرب السياسية والاجتماعية والدينية التى ظهرت ابانها حركتان متباعدتان لا تمت أى منهما للاخرى بصلة . فاذا كانت الدوناتية ذات طابع مغربى صرف بمعنى انها نشأت فى بلاد المغرب ، ونسجت من واقع ظروفه ، فان مذهب الخوارج ظهر فى الشرق الاسلامى ثم وفد الى بلاد المغرب كسائر المذاهب الاسلامية الاخرى الامر الـذى ينفى وجود رباط فكرى مشترك كان فيه مذهب الخوارج متأثرا بعقائد الدوناتية .
ومن ناحية أخرى ، فان ما ساقه جوتييه من حجج وقرائن دلل بها على هذه الصلة كصفات الاقدام والزهد والصلابة . . الخ انما هى صفات مميزة للبربر عموما فى كل العصور وليست حكرا على معتنقى المذهبين فحسب .
وكذلك التقابل بين جناحى المعتدلين وجناحى المتطرفين فى كل من المذهبين نجد لـه مثيلا فى سائر المذاهب الدينية والسياسية .
ومع ذلك تظل للمقارنة بين الدوناتية والخارجية فى المغرب دلالتها على أن الحركات الدينية أو المذهبية ليست مجرد خلافات عقائدية فحسب انما تنطوى على دوافـع اجتماعية يلعب العامل الاقتصادى فيها دورا فعالا ومؤثرا .



الباب الثاني

ثورات الخوارج في بلاد المغرب

فى عصر الـــولاة

انتهينا الى أن مذهب الخوارج بشقيه الصفرى والاباضى انتشر انتشارا واسعا فى بلاد المغرب حتى صار للخوارج « عدد كثير وشوكة قوية » (1) . وقد سبق ان اوضحنا ما اوصى به رؤساء المذهب فى الشرق دعاتهم فى الغرب « بالظهور » بعد اتمام الدعوة ان استطاعوا الى ذلك سبيلا . ومرحلة الظهور هذه تعنى « الثورة على ائمة الجور » (2) حسبما تعنيه مبادىء الخوارج وتحض عليه ، وان اعتبرت تمردا « وتطاولا » (3) فى نظر الخلافة وعمالها فى بلاد المغرب .

والواقع ان ظروف المغرب كانت مواتية لاندلاع ثورات الخوارج سنة 121 هـ (739 م) بعد تفاقم مشاكل البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية ابان ولاية عبيد الله بن الحبحاب . فعلى الرغم مما عرف به من دربة ودراية بفنون الحكم والسياسة (4) كانت سياسته فى بلاد المغرب « سببا لانتفاض البلاد ووقوع الفتن العظيمة » كما ذكر ابن عذارى (5) . ففى عهده احتدت الخصومات القبلية بين القيسية واليمنية ، ولما كان قيسيا ، فقد لاقى العرب اليمنية على يديه عنتا واضطهادا شديدا (6) . وولى على طنجة وما والاها عمر بن عبد الله المرادى ، « فأساء السيرة وتعدى فى الصدقات والقسم ، واراد ان يخمس البربر ، وزعم أنهم فىء المسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله » (7) كما عهد الى

---

(1) الرقيق : ص 109 ، Provencal : Op. Cit. P. 41

(2) البغدادى : ص 273 ، Provencal : Loc. Cit.

(3) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 111 ، Julien : Op. Cit. P. 329.

(4) ذكر الرقيق عن عبد الله بن ابى حسان اليحصبى عن أبيه قال « رأيت عبيد الله بن الحبحاب يوما ينظر فى دفتر العطاء ، ويملى رسالة ، ويامر بحاجات فى ناحية اخرى ، ويأمر فى خلال ذلك بالحكم بين رجلين متنازعين » .
انظر : تاريخ افريقية والمغرب ص 107 .

(5) البيان المغرب ج 1 صفحة 52 .

(6) ابن عبد الحكم : صفحة 293 .

(7) الرقيق : صفحة 109 .

ابنه اسماعيل بولايــة السوس الأقصى ، فاستبد بالبربر هنــاك ، وكثر عبثه بنسائهم ، وجوره على أموالهم (8) . ولا شك أن ابن الحبحاب كان راضيا عن سيرة عماله ، فقد كان عليه أن يفى بوعوده للخليفة هشام بن عبد الملك بارسال المزيد من الاموال والسبايا (9) مما يجلبه هؤلاء العمال . ولعل حرصه على ذلك يفسر عهده الى حبيب بن ابى عبيدة بقيادة حملة ضخمة جابت بلاد المغرب حتى اقصاها . واصابت من السبى والذهب أمرا عظيما ، وبثت الرعب والفزع فى تلك الانحاء (10) .

وقد اتخذ ابن الحبحاب من البربر أداة لخدمة أطماعــه خارج بلاد المغرب فرمى بهم فى الحملات التى انفذها الى سردينية وصقلية (11) ، الامر الذى زاد فى كراهيتهم للحكم العربى وتصميمهم على الثورة . وقــد ساعد على ذلك غياب معظم الجيش العربى الافريقى خارج البلاد فــى الحملة التى قادها حبيب بن ابى عبيدة علــى صقليــة سنــة 121 هـ (739 م) (12) ، وانشغال الخلافة الاموية اذ ذاك بمشاكل الحكم (13)، وبعد بلاد المغرب الاقصى عن مقر الولاية بالقيروان . لذلك كانت الظروف مواتية تماما لبربر المغرب الاقصى الذين اعتنقوا المذهب الصفرى لاعلان الثورة « والظهور » وهو ما عبر عنه ابن خلدون (14) بقوله « .. ان الخارجية حين رسخت فى البربر عروق من غرائسها تطاول البربر الى الفتك بأمر العرب » .

---

(8) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 240 .
(9) ابن عذارى : ج 1 ص 53 .
(10) الرقيــق : صفحــة 108 .
(11) نفس المصدر ص 109 ، ابن الاثير : ج 5 ص 69 .
(12) الرقيــق : صفحــة 109 .
(13) الحميــدى : جذوة المقتبس صفحــة 8 .
(14) العبــر : ج 6 صفحــة 111 .

اولا :

ثورات الخوارج الصفرية

انتهينا الى أن المذهب الصفرى انتشر بين قبائل المغرب الاقصى كمطغرة ومكناسة وزناتة وبرغواطة وعنصرى الافارقة والسودان . كما امتد نفوذه الى بعض جهات المغربين الادنى والاوسط — وان كانت السيادة فيها للمذهب الاباضى عن طريق القبائل البدوية دائمة الترحال مثل هوارة وزناتة . ونظرا لمواتاة ظروف الخوارج فى المغرب الأقصى لقيام الثورة ، ولغلبة المذهب الصفرى وسيادته بين قبائله ، كان الخوارج الصفرية سباقين الى تخطى مرحلة الدعوة الى « مرحلة الظهور » واعلان الثورة (15) بينما شغل الاباضية اذ ذاك باتمام نشر المذهب وتفقيه معتنقيه وارسال بعوثهم الى البصرة للاعداد لمرحلة الثورة . وعلى ذلك فلا محل لتصديق الرواية المتواترة (16) القائلة بانضواء خوارج المغرب أباضية وصفرية تحت لواء ميسرة المطغرى فى ثورة عام 121 هـ ، فتلك بلا شك كانت ثورة صفرية خالصة .

والروايات تختلف حول اصل ميسرة قائد الثورة ، فتذهب

---

(15) ينفرد ابن خلدون برواية تنص على اغتيال الخوارج ليزيد بن ابى مسلم سنة 103 هـ والواقع انه قتل نتيجة للخصومات بين القيسية واليمنية وليس على يد الخوارج . فلم يكونوا قد قاموا بعد بثوراتهم على ولاة القيروان .
انظر : العبر ج 6 صفحة 108 .

(16) انظر : اخبار مجموعة صفحة 28 .

بعضها (17) الى انه من أصل عربى وتنسبه الى قبيلة الازد ، بينما تؤكد الأخرى (18) — وهى الارجح — انتماءه الى قبيلة مطغرة من البربر .
كما اختلفت ايضا حول كنيته ، فقيل ميسرة الحقير (19) او الخفير (20) وقيل الفقير (21) ، ويخيل الينا ان ذلك من نسج خصومه تحقيرا لشانه ، أو لما عرف عن اشتغاله بالسقاية فى سوق القيروان (22) .
والذى لا شك فيه ان ميسرة كان سيد قومه وشيخ قبيلته ، فابن خلدون (23) — العالم بأنساب البربر — يدعوه « رئيس مطغرة » والسلاوى (24) يصفه بأنه « مقدم الصفرية » . وما اشتغاله بالسقاية الا بقصد التستر والتمويه على الخصوم حينما كان يتلقى أصول المذهب الصفرى على عركة مولى ابن عباس فى القيروان ، ولما تتيحه مهنة السقاية من سهولة الاتصال بالاتباع والانصار دون اثارة لشكوك الخصوم.

وقد سبق التعريف بدور ميسرة فى نشر المذهب الصفرى بين قبيلته مطغرة ، ويبدو أن دعاة المذهب فى المغرب أجمعوا على زعامته بعد موت عكرمة مولى ابن عباس ، فتخبرنا المراجع ان مكناسة آزرته واشتركت فى ثورته (25) ، كما انضوى الافارقة بزعامة عبد الاعلى بن جريج تحت لوائه (26) ، وكذلك فعلت برغواطة وزعيمها طريف (27) ، وقد اتخذ ميسرة من ابنه صالح ناصحا ومشيرا (28) . وهكذا تسنى له توحيد القبائل الصفرية فى كافة ربوع المغرب الاقصى تحت زعامته (29) .

ويخبرنا الطبرى (30) أن ميسرة تزعم وفدا من البربر رحل به الى الشام ليشكو للخليفة هشام بن عبد الملك جور عماله ، وان جوهر

---

(17) ابن تغرى بردى : ج 1 ص 289 ، الطاهر الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا صفحة 125 .
(18) ابن عبد الحكم : ص 293 ، الرقيق : ص 109 .
(19) ابن عذارى : ج 1 صفحة 52 .
(20) دبوز : المغرب الكبير .
(21) ابن عبد الحكم : صفحة 293 .
(22) ابن القوطية : صفحة 40 .
(23) العبر ج 6 صفحة 150 .
(24) الاستقصا ج 1 صفحة 97 .
(25) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 130 ، Gautier : Op. Cit. P. 292
(26) ابن عبد الحكم ص 293 ، ابن عذارى ج 1 ص 52 .
(27) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 207 ، Bel : Op. Cit. P. 175.
(28) ابن الخطيب اعمال الإعلام ج 3 ص 181 .
(29) ابن الاثير : ج 5 ص 70 ، حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ص 14 .
(30) تاريخ الرسل والملوك ج 4 ص 224 ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 331 .

الشكوى يكمن فى حرمانهم من غنائم الحروب التى خاضوها فى حملات ابن الحبحاب رغم حسن بلائهم ، وحيف عماله بهم بنهب أموالهم وسبى بناتهم . ونعتقد ان الهدف الحقيقى هو الوقوف على مسؤولية الخلافة عن سياسة عمالها فى المغرب واخذ الحجة عليها تبريرا لقيامهم بالثورة حسبما ينص عليه مبدأ الخوارج فى « الثورة على ائمة الجور » (31) وهو ما ذكره الطبرى بأن الجماعة ارادت ان تعرف « اعن راى امير المؤمنين هذا أم لا » . على كل حال ، حيل بين الوفد وبين لقاء الخليفة ، وادرك ميسرة وجماعته ان الخلافة متواطئة مع عمالها فيما يحدث بالمغرب من ظلم وجور ، وعقدوا العزم على الثورة .

بويع ميسرة بالامامة على اثر عودته (32) وزحف بجموع الصفرية الى طنجة ففتحها وقتل عاملها عمر بن عبيد الله المرادى (33) ، وعين عبد الاعلى بن جريج الافريقى واليا عليها (34) . واتجه بعد ذلك الى السوس فدانت له بعد ان قتل اسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب (35). وتمت له السيطرة على المغرب الاقصى واقتطاعه عن نفوذ القيروان بعد وقائع صغيرة بلغت من الكثرة ما جعل المؤرخون يعزفون عن سردها . وقد وصفها ابن عذارى (36) بأنها « وقائع يطول ذكرها » . ومما سهل من مهمته ان القبائل الموالية له كفته مئونة افتتاح سائر أجزاء البلاد « فهب كل قوم من البربر على من يليهم ، فقتلوا وطردوا » (37) ، بينما اتجه بنفسه الى مقر الولاية فى افريقية (38) .

وقد بادر ابن الحبحاب بمواجهة خطر الصفرية ، فبعث بما لديه من

---

(31) البغدادى : صفحة 273 .

(32) ابن عبد الحكم : ص 293 ، اخبار مجموعة ص 28 .
ورد عند بعض المؤرخين ان البيعة تمت بعد قيام الثورة ، فابن الاثير ذكر ان ميسرة بويع بالامامة بعد الاستيلاء على طنجة وقد اخذ عنه الانصارى روايته ، أما الدكتور مؤنس فذكر انه بويع بعد انتصاره على جيش خالد الفهرى . انظر : الكامل ج 5 ص 70 ، المنهل العذب ص 59 ، ثورات البربر فى افريقية والاندلس ص 169 .

(33) الرقيق صفحة 109 .

(34) ابن عذارى : ج 2 صفحة 52 .

(35) نفس المصدر والصحيفة .

(36) البيان المغرب ج 1 صفحة 52 .

(37) اخبار مجموعة صفحة 29 .

(38) نفس المصدر والصحيفة .

جند بقيادة خالد بن ابى حبيب الفهرى (39) ليحول دون وصول ميسرة الى القيروان . كما اسرع فى استدعاء حبيب بن ابى عبيدة وجيشه الذى كان قد انفذه الى صقلية (40) وامره بالتوجه فى اثر خالد بن ابى حبيب . وعبر خالد بجيشه وادى شلف — وهو نهر بمقربة تاهرت — والتقى بميسرة على مقربة من طنجة . اما جيش صقلية الذى وصل على الاثر فقد رابط عند مجاز النهر (41) .

واقتتل خالد وميسرة قتالا شديدا ، انصرف بعده ميسرة الى طنجة (42) ، والراجح انه هزم فى تلك المعركة ، والا فما الداعى لانسحابه ولجوئه الى الدفاع بعد الهجوم (43) ؟ لعل ذلك كان سببا فى تنحيته عن القيادة واختيار الصفرية خالد بن حميد الزناتى ليحل محله (44) .

على كل حال — لجأ خالد الزناتى الى الحيلة ، فقسم جيشه قسمين واجه احدهما جيش خالد الفهرى بينما قام الآخر بحركة التفاف من خلفه ليعوق اتصاله بجيش حبيب بن ابى عبيدة المرابط عند مجاز وادى شلف (45) ، وليحول بين جيش خالد الفهرى وبين الهرب . وبذلك وقع جيش الفهرى فى « كمين البربر » كما ذكر ابن الاثير (46) وكانت النتيجة أن قضى عليه برمته قضاء مبرما (47) . وقتل فى المعركة « حماة العرب وفرسانها وكماتها وابطالها » فسميت من ثم « معركة الاشراف » (48) .

---

(39) ابن عبد الحكم : ص 293 ، ابن عذارى : ج 1 ص 54 . أما ابن الاثير فيسميه خالد ابن حبيب الفهرى . انظر : الكامل ج 5 ص 69 . وعند السلاوى خالد بن حميد الفهرى انظر : الاستقصا ج 1 ص 97 .

(40) الرقيق : صفحة 109 .

(41) ابن عذارى : ج 1 ص 54 ، ابن الاثير : ج 5 ص 69 .

(42) نفس المصدرين والصفحتين .

(43) نخالف بذلك ابن عبد الحكم الذى ذكر ان ميسرة انتصر فى هذه المعركة ثم اقصى عن القيادة التى تولاها عبد الملك بن قطن المحاربى . ومما ينهض على خطأ تلك الرواية من اساسها أن عبد الملك بن قطن كان من ولاة الاندلس وليس من ثوار الخوارج انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص 294 ، ابن عذارى : ج 1 ص 55 .

(44) ابن عذارى : ج 1 ص 54 ، ابن الاثير ج 5 ص 69 .

(45) الرقيق : ص 110 ، ابن عذاى : ج 1 ص 54 .

(46) الكامل ج 5 صفحة 69 .

(47) الرقيق ص 111 ، ابن عبد الحكم : ص 294 ، ابن عذارى : ج 1 ص 54 ، ابن الاثير : ج 5 ص 69 .

(48) نفس المصادر والصفحات ، النويرى : ج 22 ورقة 15 .

اما حبيب بن ابى عبيدة فقد لاذ بتلمسان حيث علم بتواطؤ واليهـا موسى بن ابى خالد مع الصفرية ، فعاتبه بقطع أطرافه (49) .

واسفرت هزيمة الاشراف عن تمرد العرب بالقيروان على واليها عبيد الله بن الحبحاب وتنحيته عن الولاية (50) . وصادف ذلك هوى فى نفس الخليفة هشام بن عبد الملك فبعث فى استدعائه ، فقفل اليـه فى جمادى الاولى من عام 123 هـ (741 م) (51) .

وقد غضب الخليفة (52) لما حل بالعرب فى موقعة الأشراف ، فبعث جيشا ضخما بقيادة كلثوم بن عياض القشيرى (53) الى المغرب وجعله على ولاية افريقية (54) . كما عهد الى بلج بن بشر بالامر من بعده ، فان قتل تولاه ثعلبة بن سلامة العاملى (55) . وبلغ جيش كلثوم ثلاثين الفا من اهل الشام ومصر ــ عشرة آلاف من بنـى امية وعشرون الفـا من بيوتات (56) العرب ــ فضلا عمن انضم اليـه من المتطوعة وجنـد افريقية وعدتهم اربعين الفا (57) . وامده بالأدلاء والمرشدين من امثال مغيث مولى الوليد بن عبد الملك وهرون القرنى لخبرتهما بمسالك المغرب وطبائع البربر (58) . كما أتاح له سلطات واسعة وحرية فى العمل بما يتناسب وجسامة ما عهد اليه من مهمة استرداد نفوذ الخلافة « فاباح له الاباحات ووضع له الاطوياء » (59) .

---

(49) ابن عبد الحكم : صفحـة 294 .
(50) ابن عذارى : ج 1 صفحـة 55 .
(51) الرقيق : ص 11 ، ابن عبد الحكم : ص 294 .
(52) عبر الخليفة عن غضبه بقوله : « .. والله لاغضبن لهم غضبة عربية ، ولابعثن لهم جيشا أوله عندهم وآخره عندى . ثم لا تركت حصن بربرى الا جعلت الى جانبه خيمـة قيسى أو يمنى » انظر : الرقيق : ص 111 .
(53) اخبار مجموعة ص 30 ، ابن القوطية : ص 41 ، ويسميه ابن عبد الحكم كلثوم بن عياض القيسى ، وكذلك ابن القوطية . اما فلهوزن فيرى انه كلثوم بن عياض القسرى انظر : فتوح مصر والمغرب ص 294 ، تاريخ افتتاح الاندلس ص 40 ، تاريخ الدولة العربية صفحـة 332 .
(54) يخطىء سكوت حين يذكر أن بلج بن بشير هو الذى عهد اليه بالولاية : انظـر : History : of the Moorish Empirein Europe. Vol. I. P. 313.
(55) اخبار مجموعة ص 30 ، ابن القوطية ص 41 .
(56) ابن القوطيـة : صفحـة 41 .
(57) اخبار مجموعة ص 31 ، السـلاوى : ج 1 ص 98 ، المقـرى : ج 4 ص 19 ، Scott : Op. Cit. P. 313.
(58) اخبـار مجمـوعـة صفحة 31 .
(59) نفس المصـدر والصحيفـة .

وبالرغم من ذلك كله ، كانت عوامل الضعف فى جيش كلثوم تنذر بالفشل والهزيمة ، فقد افتقر الى النظام والالفة بين عناصره من قيسية ويمنية ومتطوعة واموية (60) · وكانت قيادته للقيسية (61) ، كما كان قائده طاعنا فى السن قليل الهيبة ، فى حين كان بلج بن بشر مقدم الخيل صلفا (62) ، فثارت الخصومات القبلية وتصدع الجيش العربى قبل التقائه بالثوار من البربر الصفرية · واحتدم الصراع بين كلثوم وحبيب ابن ابى عبيدة شيخ اليمنية بالمغرب ، ولم يتصالحا الا على مضض حين توجها لقتال الصفرية (63) بقيادة خالد بن حميد الزناتى (64) عند وادى نهر سبو (65) فى موضع يقال له بقدورة (66) ·

فلم يلبث الخلاف أن دب بينهما حول أسلوب القتال ، اذ أعرض كلثوم عن مشورة حبيب بن أبى عبيدة بمقاتلة الصفرية « الرجالة بالرجالة والخيل بالخيل » (67) . كما أهمل بلج بن بشر نصيحة هرون القرنى ومغيث باحتماء الرجالة وراء الخنادق والكراديس فى الوقت الذى يلتف فيه الخيالة خلف صفوف الصفرية لمهاجمة قراهم وذراريهم ، واصر على النزال وجها لوجه استهانة بهم لقلة ما لديهم من

---

(60) الباجى المسعودى : الخلاصة النقية ص 14 ·

(61) اخبار مجموعة صفحة 36 ·

(62) الرقيق ص 112 ، ابن عذارى : ج 1 ص 56 ، ابن الاثير : ج 5 ص 70 ·

(63) اشتط كلثوم وبلج — وهما من القيسية — فى معاملة عرب المغرب من اليمنية وزعيمهم اذ ذاك حبيب بن ابى عبيدة . فقد انف كلثوم النزول بالقيروان ونزل فى بلدة سبيبة على مقربة منها . وأمر أهل القيروان باخلاء منازلهم لجنده . فاستجاروا بحبيب بن ابى عبيدة وكان بتلمسان . فبعث الى كلثوم يامره بالرحيل عن البلاد . فاعتذر له كلثوم عن مسلكه وتوجه اليه بتلمسان ليشتركوا جميعا فى قتال الصفرية . وهناك ثارت الخلافات من جديد لصلف بلج واستعلائه فى معاملة حبيب . وكادت الحرب أن تنشب بين الطرفين · وقد ذكر ابن خلدون انهما اقتتلا بالفعل ثم اصطلحا على مضض .
انظر : الرقيق : ص 112 ، ابن عبد الحكم : ص 295 ، ابن خلدون ج 4 ص 189·

(64) اختلفت الروايات حول قائد الصفرية آنذاك فابن القوطية ذكر أن القيادة كانت لميسرة وخالد بن حميد معا ، وصاحب أخبار مجموعة ذهب الى أنها كانت لميسرة وحده ، وكذلك ابن عبد الحكم · لكننا نرجح رواية الرقيق لان ميسرة كان قد نحى من الزعامة كما سبق أن اشرنا ·
انظر : ابن القوطية : ص 41 ، اخبار مجموعة ص 32 ، ابن عبد الحكم : ص 296 الرقيق : ص 114 ، ابن عذارى : ج 1 ص 57 ·

(65) ابن عذارى : ج 1 صفحة 57 ·

(66) اخبار مجموعة ص 32 · وقد وردت عن ابن القوطية « نقدرة » . انظر : تاريخ افتتاح الاندلس صفحة 41 ·

(67) ابن عبد الحكم : ص 295 ، ابن الاثير : ج 5 ص 70 ·

سلاح (68) هذا فى الوقت الذى بلغ فيه حماس الصفرية ذروته ، فبرزوا ، عراة متجردين ليس عليهم الا السراويلات (69) واقتدوا بخوارج المشرق فحلقوا رؤوسهم وتعالت أصواتهم بالتحكيم اذكاء للحماس (70) .

وامر كلثوم بلجا باقتحام صفوف الصفرية بخيله ايمانا بقدرتها على احراز النصر . لكن خاب ظنه حين رماها الصفرية « بالاوضاف » (71) وهى الجلود اليابسة فيها الحجارة (72) . كذلك عمد الصفرية الى « الرمك الصعبة فعلقوا فى أذنابها القرب والانطاع اليابسة ، ثم وجهوها نحو عسكر كلثوم » ، فكانت خيله تنفر وتلوذ بالفرار (73) وهكذا شل الصفرية تفوق العرب بما لديهم من خيل واحبطوا آمالهم فى احراز النصر (74) . وعبثا حاول كلثوم اقناع حبيب بن ابى عبيدة بتولى القيادة استنقاذا للموقف ، فقد ابى حبيب لتيقنه من حلول الهزيمة بالعرب (75) . وحاول بلج بن بشر أن يكسر صفوف البربر بخيله مرة أخرى ، ونجح بالفعل ، لكن الصفرية تمكنوا من الالتفات حوله وعزله عن الجيش العربى ثم فتكوا بغالب خيله وفرسانه (76) . واختلط الجيشان فى معركة رجالة (77) كان الصفرية فيها اكثر عددا (78) واشد مراسا واستبسالا وحلت الهزيمة بالجيش العربى بعد قتل كلثوم وحبيب بن ابى عبيدة (79) . أما بلج فقد تمكن من الفرار

---

(68) اخبار مجموعة صفحة 32 .
(69) ابن عبد الحكم : صفحة 295 .
(70) اخبار مجموعة : صفحة 32 .
(71) ابن عبد الحكم : صفحة 295 .
(72) اخبار مجموعة صفحة 33 .
(73) نفس المصدر والصحيفة . وقد ذكر كونديه أن الخيول العربية لم تستطع الصمود لحرارة الشمس .
انظر : History of the dominion of the Arabs in Spain. Vol. I. P. 120.
(74) ابن عذارى : ج 1 ص 57
(75) ابن عبد الكم : ص 296 .
(76) ابن عذارى : ج 1 صفحة 57 .
(77) نفس المصدر والصحيفة .
(78) اخبار مجموعة صفحة 32 .
(79) الحميدى : جذوة المقتبس ص 199 .
وقد اخطأ المقرى حين زعم أن كلثوما لم يقتل فى المعركة انما اصيب بجراح ولاذ بالهرب الى بلدة سبيبة قرب القيروان . انظر : نفح الطيب ج 4 ص 19 .
Scott : Op. Cit. P. 313.

نحو طنجة على راس عشرة آلاف من جنده (80) . وعادت فلول الجيش المهزوم الى افريقية فى نحو عشرة آلاف كذلك . وهكذا أسفرت معركة بقدورة سنة 123 هـ (81) (741 م) عن انتصار الصفرية (82) على جيش كلثوم الذى آل مصيره الى « ثلث مقتول وثلث منهزم وثلث مأسور » على حد قول صاحب الاخبار المجموعة (83) .

تمت للصفرية بعد بقدورة السيطرة على بلاد المغرب الأقصى . وكان من الطبيعى أن يمتد نشاطهم الى المغربين الاوسط والادنى . ولما كان هدفهم الاستيلاء على القيروان مقر الولاية ، غدت بلاد افريقية واقليم الزاب بوجه خاص ميدانا لنشاطهم .

وتزعم هذه المرحلة عكاشة بن أيوب النفزاوى وعبد الواحد بن يزيد الهوارى (84) . وهذا يعنى أن قبيلتى نفزة وهوارة بالمغربين الادنى والاوسط لعبتا دورا أساسيا فى هذا الصدد مستعينتان بزناتة . لقد تخلت زناتة — التى كانت قد انتزعت زعامة الثورة من مطغرة — عن صدارتها لنشاط الصفرية فى المغرب الاوسط ، ولم تسهم بطونها الضاربة بالمغرب الاقصى برئاسة خالد بن حميد فى الثورة بافريقية بعد أن تمت لـه السيطرة على المغرب الاقصى . انما لعبت قبائلها بالمغرب الاوسط دورا قليل الاهمية فى هذا الصدد الى جانب قبيلتى نفزة وهوارة ذات النفوذ والغلبة فى افريقية.

ومهما كان الامر فقد تولى قيادة ثورات الخوارج الصفرية ابتداء بميسرة شخصيات من البربر بترا وبرانسا ، فهوارة من بطون البرانس(85).

---

(80) حيل بين بلج وبين دخول طنجة فاعتصم بسبتة وتحصن بها . وفشلت جيوش الصفرية فى الظفر به ، فشددوا عليه الحصار واحرقوا الزروع حول المدينة ليموت وجيشه جوعا . فكتب بلج الى والى الاندلس لائذا به ، فقبل بعد أن اشترط عليه تقديم الرهائن ، ومغادرة الاندلس بعد انقضاء عام يقاتل خلاله الى جانبه فى قمع ثورات البربر بالاندلس .
انظر : اخبار مجموعة ص 35 ، ابن خلدون : ج 4 ص 189 ، الحميدى : ص 180 ابن عذارى : ج 1 ص 58 ، المقرى : نفح الطيب ج 4 ص 19 ،
Scott : Op. Cit. P. 313.

(81) اخطأ الطبرى حين ذكر ان المعركة وقعت سنة 121 هـ . انظر : تاريخ الرسل والملوك ج 7 صفحة 191 .

(82) ابن القوطية ص 41 ، ابن الاثير : ج 5 ص 71 ، النويرى : ج 22 ورقة 15 .

(83) مجهول : اخبار مجموعة ص 34 .

(84) ابن عبد الحكم : ص 294 ، ابن الاثير : ج 5 ص 70 . وقد شذ ابن خلدون عن جمهرة المؤرخين حين اعتبر عبد الواحد الهوارى اباضيا . انظر : العبر ج 6 ص 124 .

(85) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 139 ، السلاوى : ج 1 ص 101 .

بينما تنتمى زناتة الى البتر (86) وفى تعاونهما معا رغم ما كان بين البتر والبرانس من عداء وصراع ما يدل على تغلب العامل المذهبى على النعرات العصبية والخلافات القبلية التقليدية ، وما يدل ايضا على التعاون والترابط بين حركات الصفرية فى بلاد المغرب .

ففى الوقت الذى زحف فيه كلثوم بجيوشه لمواجهة صفرية المغرب الاقصى . قام عكاشة وعبد الواحد بالاستيلاء على قابس بعد ضربها بالمجانيق (87) . كما استمد عكاشة العون من صفرية زناتة بالمغرب الاوسط ، ونجح بفضلهم فى حصار سوق سبرت واقصاء عامل كلثوم عنها (88) . وكان من المتوقع أن يلتقى صفرية هوارة بقيادة عكاشة وصفرية زناتة تحت زعامة اخيه لمحاصرة القيروان ، لكن المحاولة احبطت حين تمكن صفوان بن مالك عامل طرابلس من تبديد الجيش الزناتى والحيلولة دون انضمامه الى صفرية هوارة (89) . وشجع ذلك مسلمة بن سوادة الذى اسند اليه كلثوم بن عياض قيادة جيش القيروان على الخروج لقتال عكاشة، لكنه هزم وعاد من حيث اتى (90) . فثار عليه جنده وعقدوا اللواء لسعيد بن بجرة الغسانى الذى آثر الاعتصام بالقيراوان (91) ولم يغادروها الا لمهاجمة قابس بالاتفاق مع عامل طرابلس . وفوت عكاشة الفرصة عليهما ، فترك قابس ويمم وجهه شطر القيروان بعد خروج سعيد بن بجرة منها ، لكنه منى بالهزيمة على يد أمير صلاتها عبد الرحمن بن عقبة الغفارى (92)، وقتل كثيرون من رجاله وتفرق من بقى منهم (93)، فهرب بنفسه لائذا بالصحراء سنة 124 هـ (94) (742 م) .

وفى الوقت الذى حاول فيه عكاشة وعبد الواحد تنظيم الصفرية فى اقليم الزاب والاستعانة بصفرية زناتة بزعامة أبى قرة (95) ، وصل حنظلة

---

(86) ابن عبد الحكم : ص 294 .
(87) نفس المصدر : ص 294 .
(88) نفس المصدر والصحيفة .
(89) نفس المصدر والصحيفة .
(90) ابن الاثير : ج 5 صفحة 70 .
(91) ابن عبد الحكم : صفحة 295 .
(92) نفس المصدر : صفحة 298 .
(93) الرقيق : ص 114 ، النويرى : ج 22 ورقة 15 .
(94) ابن الاثير : ج 5 صفحة 70 .
(95) الرقيق : ص 115 ، ابن عبد الحكم ص 298 . وقد آلت اليه زعامة صفرية المغربين الاوسط والاقصى بعد خالد الزناتى .
انظر : ابن خلدون ج 7 صفحة 12 .

ابن صفوان الى القيروان على راس ثلاثين الف مقاتل من قبل الخليفة هشام ابن عبد الملك (96) سنة 124 هـ (742 م) وجدير بالذكر أن هشاما ابدى اهتماما فائقا بهذه الحملة لاحساسه بتحرج مركز الخلافة فى المغرب وخشيته من اقتطاع الصفرية افريقية بعد نجاحهم فى سلخ المغرب الاقصى عن نفوذها، فاشرف بنفسه على تدبير الخطط ، ولم يتوان عن ارسال الامداد (97) .

حاول حنظلة افساد جهود عكاشة وعبد الواحد فى لم شمل الصفرية ، فبعث برسالة الى صفرية المغرب الاقصى والاوسط يحضهم على التزام الطاعة ويثنى عزمهم عن مؤازرة عكاشة وعبد الواحد (98) . كما باغت عكاشة فى اقليم الزاب ، وتمكن قائده عبد الرحمن بن عقبة من هزيمته . وحاول عبد الرحمن معاودة الكرة ، لكن عكاشة ظفر به وقتله فى نفس العام (99) . وكذلك كان مصير عامله على طرابلس معاوية بن صفوان الذى بعث اليه يحرضه على البطش بصفرية نفزة (100) ، فتمكنوا من اسره وقتله .

ثم توجه عكاشة الى القيروان عن طريق مجانة ، واستقر على بعد ستة أميال منها فى مكان يعرف بالقرن (101) . كما نجح عبد الواحد الهوارى فى تعبئة صفرية تلمسان بقيادة أبى قرة ، وانضم اليه كذلك بعض قبائل الصفرية فى المغرب الاقصى (102) ، وزحف بجيشه البالغ ثلاثمائة الف مقاتل الى القيروان وعسكر فى مكان يقال له الاصنام (103) ، بعد انتصاره على جيش انفذه حنظلة ليحول دون وصوله اليها (104) . وهكذا فشلت جهود حنظلة فى تفتيت قوى الصفرية (105) ، واضحت القيروان

(96) من مظاهر الاهتمام نصيحته لحنظلة بأن يشرع فى ضبط أمور افريقية قبل محاولة استرداد بلاد المغرب الاقصى التى اقتطعها الصفرية .
انظر : اخبار مجموعة صفحة 36 .
(97) اخبار مجموعة ص 36 .
(98) انظر ملحق رقم 2 .
(99) ابن عبد الحكم : ص 291 ، ابن عذارى : ج 1 ص 62 .
(100) ابن عبد الحكم : ص 300 .
(101) اخبار مجموعة ص 36 .
(102) ابن عبد الحكم : ص 299 ، ابن عذارى : ج 1 ص 62 ؛
(103) الرقيق : ص 118 . وتقع على بعد ثلاثة أميال من القيروان ، ابن الاثير ج 5 ص 71 .
(104) الرقيق : صفحة 118 .
(105) يذكر الدكتور سعد زغلول عبد الحميد أن انشقاقا وقع بين القائدين الصفريين عكاشة وعبد الواحد بسبب الخلاف حول الرئاسة ، لكننا نرجح أن يكون ما حدث من قبيل احكام الخطط للاطباق على القيروان بمحاصرتها من جهتين فى وقت واحد . انظر : تاريخ المغرب العربى ص 273 ، ابن الاثير : الكامل ج 5 ص 70 .

فى متناول ايديهم .

ولجأ حنظلة بعد ذلك الى حفر خندق حول القيروان ، عساه ان يحول دون سقوطها ، كما عمل على تثبيط همة عكاشة ، فكتب اليه « يرغبه ويمنيه » دون (106) جدوى فلم ينتظر حتى يستشير الخليفة فى الامر (107)، انما عول على مواجهة الخطر الصفرى توا ، فبذل الاموال والعطايا (108)، وعبأ جيشه واحسن تنظيمه (109) ، ونجح فى استمالة أهل القيروان على اختلاف طبقاتهم وعناصرهم (110) . وتمكن من هزيمة عكاشة (111) . ويذكر ابن الاثير (112) انه كان نصرا خاطفا احرزه حنظلة قبل أن ينهض عبد الواحد لدخول القيروان . لكن الرقيق (113) يؤكد أن القتال ظل سجالا حتى حلت الهزيمة بالصفرية « وقتل منهم خلق كثير » وأسر عكاشة وقتل سنة 125 هـ (114) (743 م) .

ثم بادر حنظلة بلقاء عبد الواحد ، وانتصر الصفرية فى البداية ، لكنهم هزموا بعد ذلك ، وقتل عبد الواحد ونكل بجيشه ، وفرت فلوله الى جلولاء (115) . وابتهج حنظلة بانتصاره فى معركتى القرن والأصنام ، وطير خبره الى الخليفة مزهوا (116) . والحق ان هاتين المعركتين كانتا نصرا عظيما للخلافة الاموية (117) ، وردا لاعتبارها بعد هزيمتى الاشراف وبقدورة . وحال هذا النصر بين افريقية وبين السقوط فى يد الصفرية ،

---

(106) ابن عبد الحكم : صفحة 299 .
(107) الرقيق : ص 116 ، ابن عذارى : ج 1 ص 73 .
(108) ابن عذارى : نفس المصدر والصحيفة .
(109) ذكر الرقيق انه عبأ خمسة آلاف دارع وخمسة آلاف نابل ، وجعل على الطلائع شعيب ابن عثمان ، وعلى الساقة عمرو بن حاتم ، وعلى الميمنة عبد الرحمن بن مالك الشيبانى . انظر : تاريخ افريقية والمغرب ص 119 .
(110) استمال حنظلة فقهاء المالكية الذين قاموا بدور التعبئة الروحية والمعنوية للجيش الى جانب اشتراكهم فى القتال . انظر : الرقيق : ص 120 ، المالكى : ج 1 ص 13 و 144 . كما قام نساء القيروان بدور كبير فى حض الرجال على الاستبسال فضلا عن اشتراك بعضهن فى القتال كذلك . انظر : الرقيق : ص 120 ، ابن الاثير ج 5 ص 71 .
(111) الرقيق : صفحة 117 .
(112) الكامل ج 5 ص 71 ، Biquet : Op. Cit. P. 36
(113) تاريخ افريقية والمغرب ص 117 .
(114) نفس المصدر ص 122 ، ابن عبد الحكم : ص 299 ، ابن عذارى : ج 1 ص 63 .
(115) ابن عبد الحكم : ص 299 ، ابن عذارى : ج 1 ص 63 .
(116) اخبار مجموعة ص 36 ، الباجى المسعودى : ص 15 .
(117) يتضح ذلك من قول الليث بن سعد « ما من غزوة كنت أحب أن اشهدها بعد غزوة بدر أحب الى من غزوتى القرن والاصنام » . انظر : الرقيق : ص 122 ، ابن الاثير : ج 5 صفحة 71 .

وأكد نفوذ الخلافة فى المغرب الاوسط .

لكن النفوذ الاموى فى بلاد المغرب ما لبث أن تداعى بضعف الخلافة الاموية على اثر وفاة هشام بن عبد الملك سنة 125 هـ (743 م) . ولعل من أبرز الاحداثدلالة على ضعف هيبة الخلافة بالمغرب تغلب عبد الرحمن ابن حبيب بن أبى عبيدة (118) على افريقية سنة 127 هـ (745 م) ، وارغامه حنظلة بن صفوان على مغادرتها ، وتسليم الخليفة مروان ابن محمد مضطرا بشرعية ولايته (119) .

والحق أن عبد الرحمن بن حبيب استطاع عن طريق الحيلة (120) والعنف معا قمع حركات الصفرية التى قامت فى عهده ، فقضى على ثورة عروة بن الوليد الصدفى بتونس (121) ، كما بدد الائتلاف الصفرى الذى قام بين عبد الله بن سكرديد وثابت بن وريدون الصنهاجى فى باجة (122) . لكن أمر الصفرية لم ينقطع من المغرب كما ذهب ابن خلدون (123) ومن أخذ عنه (124) ، بل ازدادت ثوراتهم شدة بعد موت عبد الرحمن بن حبيب . ووجدوا فى اشتغال الخلافة العباسية بمشاكلها (125) ، وفى الصراع حول الامارة بين آل بيت عبد الرحمن بن حبيب فرصة مواتية لاستئناف حركاتهم .

ومرة اخرى تزعمت نفزاوة هذه الحركات ، فقد استطاع عاصم بن جميل زعيم ورفجومة (126) — وهى من بطون نفزاوة — (127) أن يوحد سائر بطون القبيلة ، فانضم اليه رؤساء البطون وأيدوه ، ومنهم عبد الملك

(118) اشترك عبد الرحمن بن حبيب مع والده فى موقعة بقدورة ، ونزح الى الاندلس ، مع بلج بن بشر . وهناك وقع فى صراع مع بلج وثعلبة بن سلامة ، فلم يطب له المقام خصوصا فىوجود أبى الخطار الحسام بن ضرار عامل حنظلة على الاندلس فغادرها الى تونس ، ودعى لنفسه فالتفت حوله اليمنية . ثم دخل القيروان بعد انسحاب حنظلة منها سنة 127 هـ . وظل على ولائه الاسمى لبنى أمية حتى قامت الدولة العباسية سنة 132 هـ ، فأعلن تبعيته للمنصور . ثم خلع طاعته واستقل بالامر وظل يمارس نفوذا فعليا فى افريقية بمعزل عن الخلافة حتى اغتيل سنة 137 هـ على يد أخيه الياس.

(119) ابن خلدون : ج 4 ص 190 .

(120) ابن عذارى : ج 1 ص 65 .

(121) ابن خلدون : المرجع السابق ص 190 .

(122) الرقيق : ص 126 ، ابن خلدون ج 6 ص 111 .

(123) العبر : ج 4 صفحة 190 .

(124) انظر : السلاوى : ج 1 ص 105 .

(125) ابن وردان : تاريخ الاغالبة ورقة 2 — مخطوط .

(126) ابن خلدون : ج 6 ص 115 . تزعم المصادر السنية أنه كان كاهنا مدعيا للنبوة . انظر : ابن الاثير : ج 5 ص 117 .

(127) الرقيق : ص 140 ، ابن عذارى : ج 1 ص 80 .

ابن أبى الجعد ويزيد بن سكوم (128) .

وبلغت نفزاوة الصفرية درجة من القوة جعلت عبد الوارث بن حبيب يلجأ اليها لمناصرته ضد ابن اخيه حبيب بن عبد الرحمن (129) . ووجد عاصم ابن جميل فى ذلك الفرصة المواتية ، فرحب به ووقف معه فى وجه خصومه ، ولم يعبأ بتهديدات حبيب عند ما طلب اليه تسليم عمه والتخلى عن مناصرته. والحق به الهزيمة عند ما عمد الى محاربته (130) .

ويبدو أن عبد الوارث بن حبيب فى صراعه مع ابن اخيه اظهر الولاء لابى جعفر المنصور (131) . ولصلته بعاصم بن جميل ، اعتقد أهل القيروان أن عاصما ايضا من أنصار الخلافة العباسية .

وليس ببعيد أن يكون عاصم بدوره قد اظهر الولاء لبنى العباس ليكسب اهل القيروان ، والا لما أقدم أهل القيروان على استدعائه بعد أن اخذوا عليه العهود والمواثق والدعاء للمنصور » (132) . وبذلك جذب أعدادا غفيرة منهم ، فانضموا الى جيشه (133) .

أما حبيب بن عبد الرحمن فقد توجه لملاقاة الصفرية بعد ان استخلف على القيروان قاضيها (134) ، لكن عاصما تمكن هزيمته ففر الى قابس ، واتخذ عاصم طريقه نحو القيروان . وخرجت جماعة القيروانيين بزعامة القاضى أبى كريب للحيلولة دون دخوله المدينة ، لكن زملاءهم فى جيشه اثنوهم عن عزمهم ودعوهم الى طاعته (135) ، فاستجابوا لهم وتركوا قاضيهم فى جماعة قليلة من الفقهاء أجهز عليهم الصفرية (136) بظاهر القيروان سنة 139 هـ (137) (756 م) ودخل الصفرية المدينة واستولوا

---

(128) ذهب ابن خلدون والسلاوى الى انهما كانا من زعماء الاباضية ، لكن كتب الاباضية خلو من اى اشارة تؤكد ذلك ، بل تصورهما على أنهما من أعداء ابى الخطاب عبد الاعلى بن السمح الاباضى . انظر : العبر ج 6 ص 115 ، الاستقصا ج 1 ص 109 .

(129) الرقيق : ص 140 ، ابن عذارى : ج 1 ص 80 ، ابن الاثير ج 5 ص 117 . ابن خلدون ج 4 صفحة 191 .

(130) الرقيق : نفس المصدر والصحيفة ، ابن عذارى : نفس المصدر والصحيفة .

(131) ابن الاثير : ج 5 ص 117 .

(132) نفس المصدر والصحيفة .

(133) الرقيق : ص 140 ، ابن عذارى : ج 1 ص 80 .

(134) المالكى : ج 1 صفحة 110 .

(135) الرقيق : صفحة 140 .

(136) نفس المصدر والصحيفة ، ابن عذارى : ج 1 ص 81 ، الدباغ : معالم الايمان ج 1 صفحة 171 .

(137) المالكى : ج 1 ص 107 و 110 .

عليهــا (138) .

ثم استخلف عاصم على القيروان عبد الملك بن ابى الجعد ليتفــرغ لملاحقة حبيب بن عبد الرحمن ، وتمكن من هزيمته عند قابس ، ففر الـــى الاوراس لائذا بأهله (139) فاقتفى عاصم اثره ، والتحم معه فى معركـــة هزم فيها الصفرية ولقى حاتم حتفه (140) .

وحاول حبيب بن عبد الرحمن استرداد القيروان فزحف اليها بأنصاره ، لكنه هزم وقتله عبد الملك بن ابى الجعد سنة 140 هـ (141) (757 م) . وبذلك قضى الصفرية على الفهريين فى المغرب واضحت لهـم السيطـــرة الكاملة « على القيروان وسائر افريقية » (142) .

ويبدو ان الصفرية بعد أن اقتطعوا المغرب الاقصى والاوسط ودانت لهم افريقية والقيروان ، اصبحوا خطرا على بلاد المغرب الادنى التى كانت الغلبة فيها للمذهب الاباضى ، ولعل ذلك يفسر ما حدث مـــن صراع بـــين الاباضية والصفرية ، وقيام أبى الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى بالاستيلاء على القيروان واقصاء الصفرية عنها . وتبدو وجاهة هذا القول اذا ما ادركنا حقيقة اهداف الاباضية فى انشاء دولة لهم ببلاد المغرب بعد نجاح دعوتهم بين برير المغرب الادنى . وقد سبق القول بأنهم شرعوا فـــى ذلك على اثر عودة دعاتهم من البصرة سنة 140هـ (757م) بعد اجماعهم الرأى مع فقهاء المذهب ومشايخه على ابتداء « امامة الظهور » . ولما كان نجاح الصفرية يشكل حجر عثرة أمام مشروعاتهم فى قيام دولة اباضية ، اصبح الاحتكاك بين القوتين الخارجيتين أمرا مؤكدا .

---

(138) تبالغ المصادر السنية فى وصف فظائع الصفرية بالقيروان فتذكر انهم « استحلـوا المحارم وارتكبوا الكبائر ، وسبوا النساء والصبيان » « وربطوا دوابهم فى المسجد الجامع » والواقع ان ذلك محض افتراء . انظر : الرقيق : ص 140 ، ابن عذارى : ج 1 ص 81 ، ابن الاثير : ج 5 ص 117 وتضيف هذه المصادر ان شيوخ القيروان وفقهائها استصرخوا الخلافة العباسية لتخليصهم من عسف الصفرية وما اصاب البلاد على ايديهم « من ظلم فاش وأمر قبيح » انظر : المالكى : ج 1 ص 102 ، ابو العرب تميم : طبقات علماء افريقية ص 30 .

(139) ابـــن خلـــدون : ج 4 ص 191 .

(140) الرقيق : ص 141 ، ابن عذارى : ج 1 ص 81 .

(141) نفس المصدرين والصفحتين ، ابن الاثير ، ج 5 ص 117 ، السلاوى ، ج 1 ص 110

(142) ابـــن خلـــدون : ج 6 صفحـــة 112 .

وعلى ذلك فلا محل لتصديق ما تقدمه المصادر السنية والاباضية (143) على السواء من تعليلات غير مقنعة لتبرير خروج أبى الخطاب وحروبه مع الصفرية فى القيروان ، اذ تذكر أن أبا الخطاب ما خرج « الا غضبا لله ولدينه » (144) استجابة لدعوة أهل القيروان لتخليصهم من عسف الصفرية.

قصارى القول — أن أبا الخطاب بعد أن بايعه أنصاره بالامامة توجه بجيشه نحو قابس فحاصرها حتى سقطت ، فترك عليها عاملا من قبله وارتحل لمقاتلة الصفرية بالقيروان (145) ، وبث عبد الملك بن أبى الجعد فصائل من جيشه لتحول دون وصول الاباضية ، لكنها منيت بالهزيمة . فخرج بنفسه على رأس الصفرية والتقى بأبى الخطاب خارج القيروان ، فهزم جيشه وقتل فى المعركة (146) . ودخل أبو الخطاب المدينة سنة 141 هـ (758 م) وولى عليها عبد الرحمن بن رستم (147) ، ثم غادرها على وجه السرعة لمواجهة جيوش الخلافة التى انفذها المنصور ، وعين عبد الرحمن ابن رستم عماله على سائر أقاليم افريقية التى خلصوها من الصفرية (148).

ويخيل الينا أن انهزام الصفرية فى افريقية أدى الى ارتفاع نجمهم مرة أخرى فى بلاد المغرب الاوسط ، حيث نجح أبو قرة الصفرى فى تكوين

---

(143) تجمع هذه المصادر على استبداد الصفرية بعرب القيروان وسومهم سوء العذاب ، وعلى استدعاء القيروانيين أبى الخطاب لتحريرهم من ظلم الصفرية ، وتذكر فى ذلك روايات شتى منها :

1 — أن رجلا أباضيا دخل القيروان وشاهد بنفسه بعض الصفرية يعتدون تسرا على امرأة فى المسجد الجامع ، فاعلم أبا الخطاب بالامر ، فخرج لينتقم منهم لاستباحتهم حرمة المسجد . انظر : الرقيق : ص 141 — 142 ، ابن الاثير : ج 5 ص 118، النويرى ج 22 ورقة 16 .

ب — أن أبا الخطاب قاتل الصفرية على اثر رسالة من احدى القيروانيات تعلمه فيها أنها أخفت وليدتها فى حفرة تحت سرير خشية أن يفسدها الصفرية . انظر ، أبو زكريا : ورقة 7 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 12 .

ج — ان احدى نساء القيروان خرجت من المدينة منادية « أغيثونى معاشر المسلمين » وفى رواية أخرى « أغثنى يا أبا الخطاب » ، فمد الله فى صوتها وسمعه أبو الخطاب فأجابها « لبيك يا أختاه » . انظر : أبو زكريا : ورقة 7 .

وهذه الروايات جميعا تميل الى المبالغة والطابع الاسطورى مما يشكك فى صحتها . كذلك فمن المستبعد أن يكون خروج أبى الخطاب سببه دافع اقتصادى كما ذهب الدكتور سعد زغلول عبد الحميد اعتمادا على قول للشماخى بأن عام 140 هـ الذى خرج فيه أبو الخطاب كان عام جدب . انظر : الشماخى : السير ص 127 ، سعد زغلول : المغرب العربى صفحة 310 .

(144) الشماخى : السير صفحة 127 .

(145) أبو زكريا : السيرة ورقة 8 ، الشماخى : السير ص 128 .

(146) نفس المصدر والصفحات ، ابن الاثير ج 5 ص 118 .

(147) ابن عذارى : ج 1 ص 82 ، السلاوى : ج 1 ص 111 .

(148) أبو زكريا : ورقة 9 ، Lewcki : Etudes Ibadites. P. 113.

امارة مستقلة بنواحى تلمسان ، كما تمكن أبو القاسم سمكو بن واسول من ارساء دعائم دولة بنى مدرار فى سجلماسة على اثر هزيمة الصفرية فى القيروان سنة 140 هـ .

انتقل اذن مركز الثقل فى نشاط الصفرية من افريقية الى المغرب الاوسط بعد تكوين ابو قرة الصفرى امارته الصفرية فى تلمسان . والواقع أن الغموض يكتنف أصل أبى قرة ، فمن المؤرخين من يرجع بنسبه الى قبيلة مغيلة ، ومنهم من ينسبهم الى بنى يفرن من زناتة (149) . ويرجع الخلاف الى العرف الشائع عند البربر من انخراط القبائل تحت زعامة أكثرها قوة ونفوذا . حقيقة أن بنى يفرن « كانوا اشد قوة واكثر جمعا » ، لكن مغيلة كانت « اشهر بالخارجية من بنى يفرن » (150) . ولما كانت القبيلتان متجاورتين (151) ، فقد حدث اللبس حول أصل أبى قرة . ومهما كان الامر ، فان ابا قرة تزعم صفرية المغربين الأوسط والأقصى بعد خالد بن حميد الزناتى (152) . واشترك فى حصار القيروان الى جانب عبد الواحد الهوارى سنة 124 هـ ، ثم عاد ادراجه الى تلمسان على اثر هزيمة الاصنام . ويضيف الرقيق (153) أن عبد الرحمن بن حبيب هزمه هزيمة ساحقة سنة 135 هـ (752 م) فتت فى عضده ، فلم يسهم فى حركات صفرية نفزاوة ضد حبيب بن عبد الرحمن ، وتركها تتلقى سوء المصير على يد ابى الخطاب الاباضى سنة 140 هـ . ولعل ذلك يفسر مبايعته بالامامة فى وقت متاخر سنة 148 هـ (765 م) — كما يذكر ابن خلدون (154) — بعد أن انضوى صفرية المغرب الادنى تحت زعامته فضلا عن صفرية الأجزاء الساحلية والغربية من المغرب الأوسط (155) .

---

(149) ذكر ابن خلدون فى تاريخه انه « من مغيلة ، وهو الاصح فى شانه » انظر : العبر ج 6 ص 112 . لكنه فى موضع آخر يقول « وقد قيل ان ابا قرة من مطماطة وهذا عندى صحيح ، ولذلك اخرت ذكر أخباره الى أخبار بنى يفرن من زنانة » . انظر : العبر ج 6 ص 125 . ونفس الخلط نجده عند السلاوى حيث ذكره على انه « ابا قرة بن دوناس اليفرنى » ومرة أخرى يدعوه « أبا قرة المغيلى » . انظر : الاستقصا ج 1 صفحة 116 .

(150) ابن خلدون : العبر ج 7 ص 12 .

(151) نفس المصدر والصحيفة .

(152) نفس المصدر والصحيفة .

(153) تاريخ افريقية والمغرب ص 130 .

(154) العبر ج 6 ص 112 ، ج 7 ص 12 .

(155) نبذ تاريخية — جمع بروفنسال ص 49 ، محمد الشطيبى : الجمان ورقة 203 .

وفى تلك الاثناء كان محمد بن الاشعث الخزاعى (156) يوطد نفوذ الخلافة العباسية فى افريقية (157) ، فاستطاع اقصاء الاباضية عن القيروان ، والحق بهم عدة هزائم دانت بعدها بلاد المغرب وافريقية لسلطانه « واطفأ نار الفتنة فيها » (158) . وبديهى أن يتجه بعد ذلك الى محاولة استرجاع المغربين الاوسط والاقصى ، لذلك عول على انفاذ قائده الاغلب بن سالم التميمى على راس جيش لمحاربة ابى قرة والصفرية فى تلمسان سنة 148 هـ (159) (765 م) . ويخيل الينا ان اضطراب الجند العربى وثورتهم على ابن الاشعث (160) حالت دون قيام هذا الجيش بما ازمع القيام به ، اذ لا تطالعنا المراجع (161) باخبار عن الصراع مع ابى قرة الا ابان ولاية الاغلب بن سالم فى نفس العام . فقد « بعث اليه المنصور عهده بولاية القيروان .. ثم اضطربت عليه الامور لخروج ابى قرة عليه واشتغاله بحربه » .

على كل حال — وجد ابو قرة فى ثورات الجند الخلافى فى افريقية فوصة مواتية لاعداد قواته للقيام بالثورة واسقاط الحكم العباسى فى القيروان (162) وادرك الاغلب خطورة الموقف فعول على الخروج اليه قبل ان تدهمه جيوش الصفرية فى مقر الولاية (163) والتقى الخصمان فى اقليم الزاب ، فآثر ابو قرة الانسحاب ، وقرر الاغلب اقتفاء اثره وضرب معقل قوته فى تلمسان(164) وربما تجاوزت مطامحه تلمسان ذاتها ، فرنى ببصره الى تحرير بلاد المغرب الاقصى كلها حتى طنجة (165) . وكان ذلك سببا فى ثورة جنده عليه وانصرافهم عنه ، تلك الثورة التى انتهت بقتله سنة 150 هـ (156) (767 م). وقبع أبو قرة فى تلمسان (167) يعد العدة لجولة اخرى .

---

(156) اخطأ ابن وردان حين ذكر أن الاشعث بن عقبة الخزاعى هو الذى اضطلع بهذه المهمة وليس ابنه الذى اجمعت عليه المصادر . انظر : تاريخ الاغالبة ص 1 مخطوط .

(157) البلاذرى : فتوح البلدان ص 275 . Biquet : Op. Cit. P. 42.

(158) ابن خلدون : العبر : ج 6 ص 115 .

(159) ابن خلدون : ج 4 ص 192 ، ج 7 ص 12 .

(160) انظر : جغرافية المامون ص 184 .

(161) ابن الابار : الحلة السيراء ج 1 ص 69 ، ابن الاثير : ج 5 ص 217 .

(162) ابن الاثير : نفس المصدر والصحيفة .

(163) ابن عذارى : ج 1 ص 86 .

(164) ابن خلدون : ج 6 ص 112 .

(165) ابن الاثير : ج 5 ص 217 .

(166) الباجى المسعودى : الخلاصة النقية ص 18 .

(167) السلاوى : ج 1 صفحة 116 .

وفى هذا الوقت كان عمر بن حفص والى القيروان قد رحل الى اقليم الزاب (168) وحصن طبنة باقامة سور حولها (169) ليحول دون هجوم الصفرية على القيروان وليتخذ منها قاعدة للانطلاق الى معقلهم فى تلمسان . ويبدو أن عمر بن حفص كانت الخلافة قد عهدت اليه بتصفية نشاط الخوارج فى المغرب اباضية وصفرية (170) . ولعل ذلك كان سببا فى ائتلاف الصفرية والاباضية لاول مرة فى بلاد المغرب . فاجتمعوا على محاصرته بطبنة (171). فمن الاباضية اشتركت جيوش ابى حاتم الملزوزى وعبد الرحمن بن رستم والمسور بن هانىء فى الحصار (172) ، كما أسهم رؤساء الصفرية كذلك ، فكان جيش ابى قرة اربعين الفا (173) ، ووصل عبد الملك بن سكرديد على راس الفين من صنهاجة (174) فضلا عن صفرية مديونة بزعامة جرير بن مسعود (175) . وضرب الجميع الحصار حول طنبة وبها عمر بن حفص فى خمسة عشر الف من العرب سنة 153 هـ (176) (770 م) .

وتجمع المصادر على ان عمر ابن حفص اغرى ابا قرة بالمال لينسحب هو واتباعه عن الصفرية . لكنها تختلف فى ذكر التفاصيل ، فبعضها (177) يرجح انه رفض الرشوة وقبلها اخوه الذى ارتحل بالعسكر ، فاضطر ابو قرة للانسحاب ، فى حين يقرر البعض (178) الآخر ان عمرا استمال أبا قرة وليس اخاه . بينما نجد رواية ثالثة مؤداها (179) أن ابا قرة قبل الرشوة

---

(168) ابـن عـذارى : ج 1 ص 88 .

(169) ابن الاثير : ج 5 ص 221 ، السلاوى : ج 1 ص 117 .

(170) ذكر ابن الاثير أن انتقال عمر بن حفص الى الزاب وتحصينه طبنة كان وفقا لمشورة المنصور. الكـامـل ج 5 ص 221 .

(171) الـرقيـق : صفحـة 143 .

(172) ذكر ابن الاثير والنويرى أن عاصم السدراتى الاباضى اشترك فى حصار طبنة على راس ستة آلاف من الاباضية . انظر : الكامل ج 5 ص 221 ، نهاية الارب ج 22 ورقة 21 . وهو قول مردود لان عاصما مات مسموما سنة 140 هـ ابان حروب أبى الخطاب مع ورفجومة . انظر : ابو زكريا : ورقة 8 ، الشماخى : السير ص 128 .

(173) ابن عذارى : ج 1 ص 88 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 371.

(174) ابـن الاثيـر : ج 5 صفحـة 221 .

(175) مديونة احدى بطون بنى فاتن من ضريسة البترية ، ومواطنها فى نواحى تلمسان . ابن خلـدون : ج 6 صفحـة 125 .
ولا محل لتصديق رواية ابن خلدون القائلة بتشيع ورفجومة الصفرية لعمر بن حفص وقتالها الى جانبه . انظر : العبر ج 6 ص 115 .

(176) ابـن عـذارى : ج 1 صفحـة 88 .

(177) ابن عذارى : ج 1 ص 89 ، ابن الاثير : ج 5 ص 222 ، النويرى : ج 22 ورقة 21.

(178) الرقيق : ص 143 ، ابن خلدون : ج 6 ص 112 .

(179) ابن خلدون : نفس المصدر والصحيفة ، السلاوى : ج 1 ص 117 .

هو وابنه وارتحل بقومه من الصفرية . وأمام هذا الاختلاف نشكك فى الرواية من أساسها . والراجح أن يكون انسحاب الصفرية نتيجة اختلاف مع الاباضية ، اذ ان تعاونهما فى بلاد المغرب ليس مألوفا ، والمعروف أن الفرقتين الخارجيتين كانتا على خصومة وعداء كثيرا ما وصل الى درجة الصراع والتناحر ، وهذا يفسر قيام ابى حاتم بمحاصرة القيروان (180) من دون الصفرية (181) . بينما عاود أبو قرة قتال الحامية التى تركها عمر بن حفص بطبنة (182) بعد أن غادرها ليحول دون وقوع القيروان فى يد الاباضية . وفى عودة ابى قرة لمحاربة اتباع عمر بن حفص ما ينفى ما قيل عن قبوله الرشوة .

على كل حال — تسبب الخلاف بين الصفرية والاباضية فى فشل حصار طبنة ، ونجح عمر بن حفص فى هزيمة عبد الرحمن بن رستم الاباضى ، كما تمكن قائده المهنا بن المخارق بن غفار الطائى من هزيمة أبى قرة وردع الصفرية (183) . وعاد أبو قرة الى مقره فى تلمسان .

ولم تقم للصفرية قائمة بعد ذلك ، فضعف شأنهم ، حتى قضى عليهم يزيد بن حاتم الذى قدم الى المغرب سنة 155 هـ (622 م) على رأس جيش كثيف أوغل به فى نواحى المغربين الاوسط والادنى (184) . كما كان الصراع بين الأدارسة والرستميين حول تلمسان وما حولها من عوامل اختفاء الصفرية من المغرب الاوسط وتحول الكثيرين منهم فى تلك الجهات الى الولاء للادارسة واتباعهم من آل سليمان ، بينما هاجر جزء كبير ممن بقوا على مذهبهم الى سجلماسة التى اضحت ملاذا للصفرية فى بلاد المغرب .

اما عن صفرية افريقية والمغرب الادنى فقد بطش بهم يزيد بن حاتم أيضا ، فقمعت حركة ورفجومة سنة 157 هـ (774 م) على يد ابنه

---

(180) ابن خلدون : ج 4 صفحة 193 .

(181) اختلط الامر على الطبرى فذكر ان ابا قرة اشترك فى حصار عمر بن حفص فى القيروان ذلك ان حصار القيروان الذى ضربه أبو حاتم الملزوزى حدث سنة 154 هـ وليس سنة 153 هـ . وقد وقع فى هذا الخطأ كثيرون ممن نقلوا عن الطبرى . انظر : تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 42 ، السلاوى : ج 1 ص 118 ، العينى : عقد الجمان ج 13 ورقة 16 .
ويؤكد معظم المؤرخين أن الذين حاصروا عمر بن حفص فى القيروان كانوا جميعا من الاباضية . انظر الرقيق : ص 143 ، ابن عذارى : ج 1 ص 89 ، 90 ، ابن خلدون ج 6 ص 119 ، ابن الاثير : ج 5 ص 222 ، النويرى : ج 22 ورقة 21 .

(182) الرقيق : ص 143 ، ابن خلدون : ج 4 ص 193 ، النويرى : ج 22 ورقة 21 .

(183) الرقيق : صفحة 143 .

(184) نفس المصدر : صفحة 159 .

المهلب وقائده العلاء بن سعيد (185) . كما فشلت ثورة الصفرية فى بـــلاد الزاب التى تزعمها أيوب الهوارى سنة 164 هـ (780 م) بعد أن رماهم يزيد بن حاتم بالمخارق بن غفار الطائى (186) ومن بعده العلاء بن سعيد ، والى العلاء يعزى الفضل فى قمع الثورة وقتل قائدها والتنكيل بالصفرية اينما وجدوا فى افريقية (187) ، حتى أن بربر ورفجومة راس صفرية افريقية انقرض امرهم وصاروا أوزاعا فى القبائل (188) .

هكذا قدر ليزيد بن حاتم أن يبدد شمل الخوارج الصفرية فى افريقية والمغرب الاوسط ، وتمكن الادارسة من تأسيس دولتهم فى المغرب الاقصى على حساب نفوذ الصفرية ، وظلت دولة بنى مدرار بسجلماسة موئلا لصفرية بلاد المغرب ومركزا لتجمعهم ، فقد حققت هدفهم فى قيام دولة صفريـــة خالصة فى بلاد المغرب .

---

(185) نفس المصدر ص 161 ، ابن خلدون : ج 6 ص 115 ، السلاوى : ج 1 ص 118 ،
(186) ابـن خلـدون : ج 4 صفحـة 193 .
(187) الرقيق : ص 162 ، ابن الاثير : ج 5 ص 223 .
(188) ابـن خلـدون : ج 6 ص 115 .

ثانيا :

ثورات الخوارج الاباضية

سبق القول بان المذهب الاباضى غلب على بلاد المغرب الادنى فانتشر بين قبائله وخاصة نفوسة وهوارة . ويبدو ان الخوارج الاباضية لم يكونوا قد تهيئوا بعد لمرحلة الظهور حتى بداية العقد الرابع من القرن الثانى الهجرى اى حتى قيام ثورة ابى الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى سنة 140 هـ (757 م) ، بينما سبق الخوارج الصفرية بزعامة ميسرة المطغرى الى الظهور سنة 121 هـ (739 م) فى المغرب الاقصى . ولعل السبب فى تاخر ثورات الاباضية يكمن فى قرب مواطنهم من القيروان مقر الامارة ومركز الجند العربى . يضاف الى ذلك قربها النسبى من عاصمة الخلافة الاموية وولاتها فى مصر مما يجعل مهمة الخلافة وولاتها فى مصر والمغرب فى قمع الحركات المعادية امرا اكثر سهولة من قمع ثورات الصفرية فى المغرب الاقصى .

ويبدو ان نجاح حركات الصفرية فى المغرب الاقصى اغرى اباضية المغرب الادنى بالتعجيل بالقيام بثورات مماثلة قبل ان يتهيئوا لها او تتوافر الظروف المناسبة التى تساعد على انجاحها . وجدير بالذكر ان المصادر الاباضية تسقط من اعتبارها كل نشاط للاباضية فى المغرب سابق على حركة ابى الخطاب عبد الأعلى سنة 140 هـ (757 م)فتعتبره أول الائمة ، وتؤرخ لثورته باعتبارها بداية « لمرحلة الظهور » (189) . واذا كانت ثورة

(189) الورجلانى : الدليل لاهل العقول ج 3 ص 34 .

ابى الخطاب — حقيقة — تعد اول ثورة اباضية ذات طابع شامل وشكل منظم ، فقد سبقتها حركات أخرى لم تتمخض عن شيء سوى اضعاف الحركة الاباضية قبل أن يشتد عودها ، وتأجيل ظهور الاباضية على المسرح السياسى فى بلاد المغرب .

كانت هذه الثورات ثلاثا ، قامت أولاها سنة 126 هـ (744 م) بزعامة عبد الله بن مسعود التجيبى الذى تراس بربر هوارة فى منطقة طرابلس متحديا حكم عبد الرحمن بن حبيب ،واخمدت هذه الحركة دون عناء بعد ان قبض اخو عبد الرحمن وعامله على طرابلس على التجيبى « وضرب عنقه » (190) .

ثم اجتمعت هوارة على اثنين من زعمائها هما عبد الجبار بن قيس المرادى والحارث بن تليد الخضرمى (191) . وزحف الحارث وعبد الجبار الى طرابلس وضربا عليها الحصار حتى استسلم عاملها (192) ، واخذا بثار التجيبى واقتصا من قاتله (193) . وانفذ عبد الرحمن بن حبيب ثلاثة جيوش لاسترداد طرابلس هزمها الاباضية جميعا (194) ، فلجأ الى الحيلة واستمال احد شيوخ هوارة وبعثه «ليستألف الناس ويقطع عن عبد الجبار هوارة » (195) دون جدوى . فعقد العزم على الخروج بنفسه وقاد جيشا لاسترداد طرابلس وصل به حتى قابس ، ثم عاد ادراجه الى القيروان لما علم بتآمر اهلها على خلعه (196) . لكن حادثا مفاجئا افضى الى مقتل الحارث وعبد الجبار سنة 131 هـ (749 م) كفى عبد الرحمن بن حبيب مئونة قتالهما .

---

(190) ابن عبد الحكم : ص 301 ، ابوراس : مؤنس الاحبة ص 43 .

(191) تختلف المصادر حول كيفية اشتراكهما فى قيادة الثورة ، فذكر البرادى أنهما « كانا مشتركين فى الملك » اما الشماخى فيرى ان احدهما كان اماما والاخر وزيره ، ويفهم من رواية لابن عبد الحكم — وهى الارجح — ان عبد الجبار كان امام الصلاة والحارث امام الحرب ، انظر : البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 87 ، الشماخى : السير ص 125 ، ابن عبد الحكم : ص 302 .

(192) ابن عبد الحكم : صفحة 301 .

(193) نفس المصدر والصحيفة .

(194) عن تفاصيل هذا الموضوع راجع : ابن عبد الحكم : ص 301 ، 302 ، الرقيق : ص 128 ، البرادى : الجواهر ورقة 87 ، Masqueray : P. 23.

(195) ابن عبد الحكم : صفحة 301 .

(196) الرقيق : صفحة 128 .

وتختلف المصادر (198) حول دوافع هذا الحادث . والراجح انهما اختلفا حول مسائل فقهية أو تنازعا حول الحكم (199) ، فاحتكما الى السيف فقتل كل منهما صاحبه . ومهما كان الأمر فقد تمخض الأمر عن حدوث الشقاق (200) بين جماعة الاباضية بالمغرب على غرار ما كان يحدث بين الخوارج المشارقة . ولم تجد نفعا نصائح فقهاء المذهب بالبصرة بالكف عن ذكر هذه المسالة ، فظلت تشغل اباضية المغرب حتى تولى ابو الخطاب الامامة سنة 140 هـ (201) (757 م) .

أما ثالث تلك الثورات فكانت من نصيب قبيلة نفوسة ، اذ بادر زعيمها اسماعيل بن زياد النفوسى بعد ان « عظم شأنه وكبر بيعه » (202) بالاستيلاء على قابس سنة 132 هـ (751 م) (203) . فخرج اليه عبد الرحمن بن حبيب وانفذ طلائعهمن الخيالة ليسبر غوره،لكن عاملهعلى طرابلس التحم بنفوسة الاباضية وقتلزعيمها واسر كثيرا من رجالها (204) . واصطحب عبد الرحمن بن حبيب أسرى الاباضية الى طرابلس وذبحهم وامتحن الناس بهم « فكان يؤتى بالاسير من البربر فيأمر من يتهمه بتحريم دمه بقتله » (205) كما عهد الى عامله بطرابلس بتوزيع المغانم التى غنمها من الاباضية على جنده (206) ، واعاد بناء سور المدينة (207) لتحصينها من خطر الاباضية،

---

(198) ذكر بعض المؤرخين انهما اختلفا فاقتتلا ، فقتل كل منهما الاخر ووضع سيفه فى جسد صاحبه (ابن عبد الحكم : ص 302 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 87) وذكر آخرون أن عبد الرحمن بن حبيب حاربهما فقتلهما (الرقيق ص 129 ، ابن الاثير ج 5 ص 116) . بينما نجد فى رواية ثالثة أن عبد الرحمن بن حبيب اغتالهما خفية ، وأوحى القتلة بوضع سيف كل منهما فى جسد الاخر اشارة للخلاف بين الاباضية . انظر : الدرجينى : ج 1 ورقة 12 ، على يحيى معمر : الاباضية فى موكب التاريخ ص 46 ، 47.

(199) الشماخى : السير ص 125 ، Masqueray : Op. Cit. P. 23.

(200) اختلف الاباضية فى تحديد أيهما اخطأ فى حق صاحبه ، ولم يلبث الخلاف ان تشعب الى مسائل فقهية وفلسفية جوهرها « هل يدفع الشك اليقين أم اليقين يدفع الشك ؟» فقال البعض هما على ولايتهما حتى يتبين أمرهما ، بينما رأى البعض الاخر عدم البت فى القضية ، فتحول الخلاف الفقهى الى انشقاق سياسى . . عن مزيد من التفصيلات راجع : البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 87 ، الشماخى : السير ص 125 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 11 ظهر .

(201) ابو زكريا ، السيرة ورقة 6 .

(202) ابن عبد الحكم : صفحة 302 .

(203) اطفيش : الامكان صفحة 53 .

(204) ابن عبد الحكم : صفحة 302 .

(205) الرقيق : صفحة 128 .

(206) ابن عبد الحكم صفحة 302 .

(207) الرقيق : ص 129 ، ابن الاثير : ج 5 ص 116 .

ثم قفل عائدا الى القيروان فى نفس العام .

ولا يخامرنا شك فى أن جهود ابن حبيب وعماله على طرابلس فى قمع حركات الاباضية قد فتت فى عضدهم .

ويخيل الينا أن هذا هو ما دفع زعماء الاباضية فى المغرب الادنى للرحيل الى البصرة للاسترشاد بمشايخ المذهب فى الاعداد للثورة المنظمة الشاملة . وقد عادوا الى المغرب بعد أن مكثوا خمس سنوات بصحبة أبى عبيدة مسلم بن ابى كريمة وجماعة شيوخ المذهب وقد تذرعوا بالاساليب والوسائل الكفيلة بانجاح حركتهم . وحسبنا ان ابا عبيدة اشار عليهم باختيار أحد رجال المذهب من عرب المشارقة لزعامتهم لما له من دراية بأحوال المغرب ولحصافته ودربته بأصول السياسة وفنون الحكم (208) . ويبدو انه أوصى افراد الوفد المغربى بتعبئة قبائل الاباضية جميعا للاشتراك فى الثورة ، فاشترط ضرورة حشد القوى المادية والبشرية للقيام بالثورة (209) كما تخصص بعض افراد الوفد فى مسائل الفقه والشريعة لمواجهة ما يعن لهم من مسائل تتعلق بالثورة ومعاملة الخصوم وادارة الاقاليم التى يتسنى لهم انتزاعها من الحكام العرب (210) وأخيرا أوصاهم بموافاته بتطورات حركاتهم وضرورة مشاورته فيما يعن لهم من أمور (211) .

وما أن عاد الوفد الى بلاد المغرب سنة 140 هـ (757 م) ، حتى بادر أعضاؤه بالاتصال بالقبائل وتهيئتها للقيام بالثورة ، ويذكر أبو زكريا (212) أن أبا الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى — وهو الذى اشار أبو عبيدة بتقلده زعامة الحركة — أبدى نشاطا ملحوظا « فى الكتمان » فاتصل بمشايخ القبائل للتشاور فى اعلان « امامه الظهور » . وقد كللت مساعيه بالنجاح ، فانضم اليه جمهرة الاباضية ، وكسب الكثير

---

(208) الشماخى : السير ص 125 . يخرج ماسكراى من اختيار عربى لزعامة الحركة بأن العامل الدينى حل محل عامل العصبية فى اعطاء الحركة طابعها ، انظر : Chronique d'Abou Zakaria. P. 29.

(209) الشماخى نفس المصدر صفحة 124 .

(210) أبو عبيدة مسلم بن ابى كريمة : رسالة فى احكام الزكاة ورقة 114 — مخطوط .

(211) انظر : ملحق (1) .

(212) السيرة واخبار الائمة ورقة 6 .

(213) اليعقوبى : تاريخه ص 118 ، البلاذرى : فتوح البلدان ص 275 .

من الاتباع (213) ، واجمع رؤساء المذهب على مبايعته بالامامة (214) . وانضوت قبائل نفوسة وهوارة وزناتة وغيرها تحت لوائه (215) . واستطاع ابو الخطاب مداهمة طرابلس على حين غفلة (216) ، وارغم عاملها عمرو بن عثمان القرشي (217) على مغادرتها واستولى على بيت مالها (218) ، وامن اهلها (219) .

وباستيلاء الاباضية على طرابلس اشتد ساعدهم ، فاتخذوها قاعدة للمذهب ، وبعثوا الى ابى عبيدة مسلم بالبصرة يعلموه « بظهور الامامة » . فاغتبط لذلك ونصحهم بالتضامن واقتفاء اثر السلف الصالح (220) . وجنح ابو الخطاب الى التوسع ، فاستولى على جزيرة جربة وجبل دمر سنة 140 هـ (221) (757 م) ، كما ضم قابس فى نفس العام (222) ، ودانت بلاد المغرب الادنى بطاعته ، فرنى ببصره صوب افريقية .

ثم كان استيلاء الصفرية على القيروان وخروج ابى الخطاب وصراعه مع الصفرية وهزيمتهم عند رقادة (223) ، ودخول المدينة بعد مقتل عبد الملك بن أبى الجعد مقدم الصفرية ، ونجاح عامله عليها — عبد الرحمن ابن رستم — فى بث نفوذ الاباضية فى سائر جهات افريقية (224) ، بعد

---

(214) تذكر المصادر الاباضية أن رؤساء المذهب كانوا يجتمعون فى مكان يقال له صياد — غربى طرابلس — بحجة اقتسام أرض اختلف القوم عليها ، او للتاليف بين رجل اختلف مع زوجته ، مداراة لوالى طرابلس . انظر : أبو زكريا : ورقة 6 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 11 . وتصور هذه المصادر أبا الخطاب على أنه فوجىء بعرض الامامة عليه ، لكنه كان فى الواقع على علم بانه سيتقلدها منذ غادر البصرة مع الوفد المغربى وفقا لمشورة أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة .
انظر : ابو زكريا : ورقة 6 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 11 .

(215) ابو زكريا : ورقة 7 .

(216) تصور المصادر الاباضية سقوط طرابلس تصويرا روائيا أشبه ما يكون بسقوط طروادة ، فذكرت أن الجيش الاباضى اختبأ داخل جواليق يحملها الجمال التى دخلت المدينة على أنها قافلة تجارية فلما توسطت المدينة ، خرج الرجال شاهرين أسلحتهم صائحين « لا حكم الا لله ولا طاعة الا لابى الخطاب » .
انظر : ابو زكريا : ورقة 7 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 12 .

(217) الرقيق : ص 142 ، ابن عذارى : ج 1 ص 74 .

(218) ابو زكريا : ورقة 7 .

(219) نفس المصدر والصحيفة ، الدرجينى : ج 1 ورقة 14 .

(220) انظر : ملحق (1) .

(221) ابو راس : مؤنس الاحبة صفحة 45 .

(222) ابو زكريا : ورقة 8 ، الشماخى : السير ص 128 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 13 .

(223) البكرى : المغرب صفحة 28 .

(224) ابو زكريا : ورقة 9 .

مغادرة أبى الخطاب القيروان لمواجهة جيوش الخلافة التى بعثها المنصور لاستنقاذ افريقية (225) .

وقد انفذ المنصور محمد ابن الاشعث الخزاعى عـلى راس جيش زاد عدده عن خمسين الف مقاتل الى بلاد المغرب سنة 142 هـ (759 م). ومهما اختلف المؤرخون (226) حول دوافع ارسال هذا الجيش الضخم ، فلا شك أن مهمته الاساسية كانت استرداد نفوذ الخلافة وهيبتها فى بلاد المغرب (227) بعد ان أضحت قسمة بين الصفرية والاباضية من الخوارج. ويبدو أن ابن الاشعث هاله أمر الاباضية الذين سيطروا على المغـــرب الادنى وافريقية ، فآثر البقاء بمصر ، وانفذ طلائعه بقيادة أبى الاحوص عمرو ابن الاحوص العجلى (228) الى المغرب .

وهذا هو ما حدا بأبى الخطاب عبد الاعلى الى مغادرة القيروان على وجه السرعة للقاء ابى الاحوص ، فالتقى به فى مغمداس (229) بناحية سرت (230) وهزمه واحتوى عسكره ، فعاد أبو الاحوص الى مصـــر مـــدحـــورا (231) .

ويخيل الينا أن هذه الهزيمة فتت فى عضد ابـــن الاشعث ، فبعث المنصور اليه يستصرخه التعجيل بالتوجه الى المغرب بنفسه (232) ،

---

(225) ابن عذارى : ج 1 ص 82 ، ابن خلدون : ج 4 ص 191 ، الانصارى : المنهـل العـذب صفحـــة 65 .

(226) ذكر مؤرخو السنة ان المنصور أنفذ الحملة استجابة لطلب فقهاء القيروان لتخليصهم مـــن عسف الصفريـــة .
راجع : المالكى : ج 1 ص 98 ، 102 ، أبو العرب تميم : ص 30 . بينما ذهب مؤرخو الاباضية الى أن ارسال الحملة كان نتيجة الحاح أحد رجال أبى الخطـــاب ـــ ويدعى جميل السدراتى ـــ بعد أن خرج عليه ورحل الى بغداد .
راجع : ابو زكريا : ورقة 9 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 15 ، الشماخى : ص 131 .

(227) البلاذرى : فتوح البلدان ص 275 .

(228) زعم ابن تغرى بردى أن أبا الاحوص أنفذ الى المغرب من قبل والى مصر حميد بن قحطبة ، واضاف أن حميدا خرج بنفسه للقاء أبى الخطاب بعد هزيمة أبى الاحوص فهزمه وقتله ثم عاد الى مصر .
انظر : النجوم الزاهرة ج 1 ص 349 . والثابت أن ابن الاشعث هو الذى قام بالمهمة ابان ولايـــة حميد بن قحطبـــة لمصر .
انظر : ابن عذارى : ج 1 ص 82 .

(229) البكرى : ص 7 ، ابن عذارى ، ج 1 ص 82 .

(230) البكرى : نفس المصدر والصحيفة ، السلاوى : ج 1 ص 114 .

(231) ذكرت المصادر الاباضية أن أبا الخطاب كان قد هزم جيشا آخر لابن الاشعث بقيادة العوام بن عبد العزيز البجلى قبل انتصاره على أبى الاحوص . انظر الشماخى : السيـــر صفحـــة 130 .

(232) ابن عذارى : ج 1 ص 83 ، ابن الاثير : ج 5 ص 118 .

وعول ابن الاشعث على الاستعداد الكامل قبل مغادرته مصر ، فحشد فى جيشه من القواد العظام ثمانية وعشرين قائدا (233) من بينهم الاغلب ابن سالم التميمى والمحارب بن هلال الفارسى والمخارق بن غفار الطائى (234) .

واستعد أبو الخطاب للقاء ابن الاشعث ، فرابط بأرض سرت فى سبعين الف (235) من الاباضية . لكن خلافا وقع فى معسكره تمخض عن انسحاب اباضية لاعتقادهم بتحيزه الى هوارة (236) . وبادر ابن الاشعث بالنزول بجيشه على موارد الماء بمكان يقال له تاورغا (237) ، ومنع عسكر أبى الخطاب من ارتياده (238) . فلما نشب القتال دارت الدائرة على الاباضية ، فقتل ابو الخطاب مع آلاف من رجاله (239) ، ونجى منهم نفر قليل لاذوا بالحصون والقلاع فى الجبال (240) . وعول ابن الاشعث على استئصال شأفة الاباضية ، فأرسل قائده اسماعيل بن عكرمة الخزاعى الى زويلة وودان فقتل من بها من الاباضية (241) . كما لقى أباضية طرابلس عنتا شديدا من عامله

(233) ابن عذارى : نفس المصدر والصحيفة .

(234) النويرى : ج 22 ورقة 19 .

(235) أبو زكريا : ورقة 10 . ويبالغ ابن عذارى حين يذكر أن جيش أبى الخطاب بلغ مائتى ألف مقاتل ، انظر : البيان المغرب : ج 1 ص 82 .

(236) ابن عذارى : ج 1 ص 83 ، ابن الاثير : ج 5 ص 118 ، النويرى : ج 22 ، ورقة 19 . وتذكر المصادر الاباضية أن العامة فى جيش أبى الخطاب تخلوا عنه حين تظاهر ابن الاشعث بالانسحاب الى الشرق رغم تحذير أبى الخطاب وتتجاهل تماما ذكر انسحاب أباضية زناتة . والحق ما ذهبت اليه المصادر السنية فى تفسير الانشقاق داخل معسكر الاباضية . يؤكد ذلك ما ورد بالمصادر الاباضية ذاتها من اشتراك نفوسة وهوارة وجريشة فى معركة تاورغا الى جانب أبى الخطاب دون أن يرد بينها ذكر لزناتة .
انظر : ابو زكريا : ورقة 10 ، الدرجينى : ج 2 ورقة 15 ، الشماخى السير صفحة 131 ، 132 .

(237) تقع بأرض سرت على مسيرة ثمانية أيام من طرابلس . الدرجينى : ج 2 ورقة 16 .

(238) أبو زكريا : ورقة 10 .

(239) تقدر المصادر الاباضية عدد القتلى بما يتراوح بين اثنى الف وأربعة عشر الف . أما المصادر السنية فتسرف فى تقديرها الذى يصل الى أربعين الف . راجع : أبو زكريا : ورقة 10 ، الشماخى : السير ص 132 ، النويرى : ج 22 ورقة 19 .

(240) أبو زكريا : ورقة 10 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 16 ،
Lewcki : Etudes Ibadites. P. 113.

(241) ابن عذارى : ج 1 ص 84 ، النويرى : ج 22 ورقة 19 .

المخارق بن غفار ، فقد أسرف فى تقتيلهم وسبى ذراريهم (242) . ولم يسلم اباضية زناتة من بطش ابن الاشعث على الرغم من خروجهم على أبى الخطاب وعدم اشتراكهم فى معركة تاورغا ، فقتل زعيمهم أبو هريرة الزناتى فى ستة عشر الف من اصحابه (243) وعلى الرغم من هزيمة أحد جيوشه أمام اباضية زهانة (244) ، فقد القى الرعب فى قلوب اباضية المغرب الادنى ، فهابوه ودانوا له بالطاعة (245) .

وهكذا وضعت معركة تاورغا سنة 144 هـ (761 م) نهاية لامامة الظهور التى استمرت أربعة أعوام سيطر الاباضية ابانها على افريقية والمغرب الادنى ، فلم يقو الاباضية بعدها على الظهور واضطروا الى العمل فى تستر وكتمان وهو ما يعرف فى اصطلاحهم « بامامة الدفاع » .

تولى امامة الدفاع بعد مقتل أبى الخطاب يعقوب بن حبيب المعروف بأبى حاتم الملزوزى (246) سنة 145 هـ (762 م) . ويختلف المؤرخون حول اصله ، فيذكر بعضهم (247) أنه من هوارة ، وقيل من سدراته (248) ، و فى قول ثالث انه من مغيلة (249) ونحن نرجح الرواية الاولى لان هوارة من اشد قبائل الاباضية قوة وأكثرها عددا ومشاركة فى ثورات الاباضية . أما سدراتة فكان دورها ضئيلا فى الحركة الاباضية بالمغرب ، بينما كانت مغيلة تدين بالمذهب الصفرى ، ومضاربها بنواحى تلمسان اى انها بعيدة عن مسرح نشاط الاباضية فى المغرب الادنى وافريقية (250) .

على كل حال — بويع أبو حاتم بالامامة سنة 145 هـ (251) (762 م)، وظل مستترا طيلة اربع سنوات قضاها فى جمع شمل جماعات الاباضية

---

(242) الشماخى : السير ص 134 ، النويرى : ج 22 ورقة 19 .
(243) ابن الاثير : ج 5 ص 118 ، ابن عذارى : ج 1 ص 83 .
(244) الشماخى : السير صفحة 134 .
(245) ابن الاثير : ج 5 صفحة 118 .
(246) أخطأ الدرجينى فى تسمية ابى حاتم بيعقوب بن لبيب ، وكذلك البرادى الذى نقل عنه . راجع : طبقات الاباضية ج 1 ورقة 17 ، الجواهر المنتقاة ورقة 88 .
(247) الدرجينى : ج 1 ورقة 17 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 88 .
(248) البلاذرى : فتوح البلدان ص 75 .
(249) ابن خلدون : ج 6 ص 125 ، برونشفال : نبذ تاريخية ص 49 .
(250) والصواب ان يكون من «مليلة » وهى بطن من بطون هوارة راجع : أبو زكريا : ورقة 12 .
(251) نقل الشماخى عن الدرجينى خطأه فى جعل تاريخ مبايعة أبى حاتم بالامامة سنة 154 هـ بدلا من سنة 145 هـ . انظر : طبقات الاباضية ج 1 ورقة 17 ، السير ص 133 .

التىتفرقت على اثر حروب ابن الاشعث . وكانخلالها يرسلالصدقات الى عبد الرحمن بن رستم (252) الذى كان يعد العدة لقيام دولة بنى رستم الاباضية فى المغرب الاوسط .

ويبدو انه فى سنة 150 هـ (253) (767 م) آنس من نفسه قوة « فأراد الخروج على جند طرابلس وعامل ابى جعفر » (254) .

ويبدو أن عامل طرابلس تنبه لذلك فخرج اليه على رأس جنده وطلب من الاباضية الاذعان لطاعته والدعوة للخليفة العباسى (255) ، فرفضوا ، فاقتتلوا ، وانتصر الاباضية ودخلوا طرابلس . ونعتقد ان الاباضية امعنوا فى البطش بأهل طرابلس من العرب — على غير عادتهم — تشفيا وانتقاما لما حل بهم من قبل (256) . وظل أبو حاتم مقيما بطرابلس حتى وصل عمر بن حفص الى افريقية سنة 151 هـ (768 م) .

حاول عمر بن حفص استرداد طرابلس واقصاء الاباضية عنها ، فأنفذ ثلاثة جيوش لهذا الغرض هزمها الاباضية جميعا (257) . كان أولها بقيادة الجنيد بن بشار الازدى ، فدهمه ابو حاتم بقابس وضرب عليه الحصار ، فبعث الجنيد يطلب العون من عمر بن حفص ، فأنفذ اليه خالد ابن يزيد المهلبى على رأس أربعمائة فارس عدا الرجالة ، لكن أبا حاتم هزمه أيضا وحال دون دخوله المدينة . فعززه عمر بجيش ثالث بقيادة سليمان بن عبادة المهلبى ، طارده الاباضية فعاد من حيث اتى . وكان عمر قد غادر القيروان اذ ذاك الى طبنة فى اقليم الزاب ، فلم يتوان ابو حاتم عن اقتفاء أثر سليمان بن عبادة (258) وضرب الحصار على القيروان

---

(252) ابو زكريا : ورقة 11 .
(253) بروفنسال : نبذ تاريخية ص 49 ، محمد الشطيبى : الجمان ورقة 303 مخطوط .
(254) أبو زكريا : ورقة 11 .
(255) الدرجينى : ج 1 ورقة 17 ، الشماخى : السير ص 134 .
(256) يفهم ذلك من رواية لابى زكريا يقول فيها أن أبا حاتم لام أصحابه على تعديهم وامرهم برد ما أخذوه من أسلاب ، وهددهم بالتخلى عن الامامة ما لم يجيبوه . انظر : السيرة ورقة 12 .
(257) النويرى : ج 22 ورقة 21 .
(258) من الملاحظ أن المصادر جميعا تضطرب وتختلط حين تسرد هذه الاحداث ، وقد أثبتنا ما نعتقد أنه الصواب على هدى تلك الروايات المختلفة . انظر : أبو زكريا ورقة 12 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 17 ، الشماخى : السير ص 134 ، ابن عذارى ج 1 ص 88 ، ابن الاثير : ج 5 ص 221 ، ابن خلدون : ج 4 ص 193 ،

سنة 153 هـ (259) (770 م) .

ثم غادر أبو حاتم القيروان ليسهم فى حصار عمر بن حفص بطبنة سنة 153 هـ (770 م) ، ذلك الحصار الذى اشترك فيه الاباضية مع الصفرية جنبا الى جنب لأول مرة . وقد اشترك أيضا عبد الرحمن ابن رستم ومعه خمسة عشر الف فارس (260) ، والمسور بن هانىء الزناتى فى عشرة آلاف فارس (261) ، فضلا عن جموع الصفرية بقيادة ابى قرة . لكن الحصار لم يستمر طويلا ، فقد حدث نزاع بين الاباضية والصفرية اسفر عن فشله . وآثر أبو حاتم العودة لحصار القيروان ، بينما انسحب عبد الرحمن بن رستم برجاله الى تهودة . وهناك لحق به عمر بن حفص وانزل به هزيمة عاد بعدها الى تاهرت مدحورا (262) . أما المسور الزناتى فالراجح انه لحق بأبى حاتم وانضم اليه فى حصار القيروان (263).

شدد أبو حاتم الحصار ، وضيق على أهل القيروان بجيشه البالغ مائة وخمسين الفا (264) ، فاشتد الكرب بالمحاصرين ونفذ ما لديهم من المؤن والأقوات (265) ، واضطر كثيرون منهم الى الخروج من المدينة والانضمام الى الاباضية (266) .

ترك عمر بن حفص طبنة على وجه السرعة لفك الحصار عن القيروان ، وخرج الاباضية بأجمعهم ليجهزوا عليه قبل قدومه ، لكنه أخذ

---

(259) تخطىء المصادر الاباضية حين تزعم ان ابا حاتم حاصر ابن الاشعث فى القيروان وارغمه هو وجنوده على الرحيل الى المشرق . فمن المعروف أن ابن الاشعث غادر القيروان سنة 148 هـ بعد ثورة الجند الخلاف عليه . وجدير بالذكر أن هذه المصادر تتجاهل ولاية عمر بن حفص افريقية فتسقطها ، ولا تورد شيئا من ثم عن الصراع بينه وبين الاباضية . راجع : ابو زكريا : ورقة 12 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 18 .

(260) ابن خلدون : ج 4 ص 193 ، النويرى : ج 22 ورقة 21 .

(261) ابن الاثير : ج 5 صفحة 221 .

(262) ابن خلدون : ج 6 ص 112 ذكر الرقيق أن ابن رستم فقد فى المعركة ثلاثمائة من رجاله بينما ذكر ابن عذارى أن عدد القتلى بلغ ثلاثة آلاف . راجع : تاريخ افريقية والمغرب ص 143 ، البيان المغرب ج 1 ص 19 .

(263) يفهم ذلك من قول ابن الاثير بأن أبا حاتم « كثر جمعه » بعد ان غادر طبنة . راجع الكامل ج 5 صفحة 222 .

(264) ابن عذارى : ج 1 ص 89 وتبالغ بعض الروايات فتذكر أن جيش أبى حاتم بلغ خمسة وثمانين الف فارس وثلاثمائة وخمسين الف راجل . راجع : الطبرى : ج 8 ص 42 ، البرادى : الجواهر ورقة 88 ، العينى : عقد الجمان ج 13 ورقة 16 .

(265) ابن الاثير : ج 5 صفحة 222 .

(266) الرقيق : ص 144 ، النويرى : ج 22 ورقة 21 .

طريقا مغايرا ، فسلك طريق تونس بدلا من الاربس (267) . وبادر بشحن القيروان بالمؤن والاقوات والميرة والرجال وأدوات الحصار (268) . وحفر خندقا على باب أبى الربيع جعل عسكره من خلفه مؤثرا سياسة الدفاع (269) .

وقد عادت هذه السياسة على ابن حفص بأوخم العواقب ، فلم يتوان الاباضية عن قتاله ، واضطر للخروج لفك الحصار — الذى فرضه على نفسه — فهزم وارتد الى خندق أبى الربيع معتصما به (270) . وتبعه أبو حاتم حتى جاوز مشارف الخندق ، كما وزع رجاله على سائر ابواب المدينة فمنع المحاصرين داخلها من الخروج ، وظلوا كذلك حتى نفذت أقواتهم (271) . وزاد الامر سوءا ، اختلاف قواد عمر بن حفص عليه وتقاعسهم عن القيام بمحاولة يائسة لفك الحصار (272) وحين وصله خبر قدوم يزيد بن حاتم لنجدته ، استنكف الانتظار وآثر الموت ، فظل يقاتل الاباضية حتى قتل (273) فى منتصف ذى الحجة من سنة 154 هـ (771 م) .

عقد أبو حاتم صلحا (274) مع جميل بن صخر — الذى تزعم الجند بعد مقتل أخيه لامه عمر بن حفص (275) — ثم دخل القيروان « فأحرق أبوابها وثلم سورها » (276) واستخلف عليها عاملا من قبله . واتجه الى طرابلس حين علم بمقدم يزيد بن حاتم على رأس جيش من الشرق لكنه اضطر للعودة الى تونس لقيام ثورات الجند العربى على عماله فى الزاب ،

(267) ابن خلدون : ج 4 ص 193 ، والاربس احدى مدن افريقية تقع غربى القيروان بمسيرة ثلاثة أيام . السلاوى : ج 1 ص 118 .

(268) الرقيق : ص 144 ، ابن عذارى : ج 1 ص 89 .

(269) النويرى : ج 22 ورقة 21 .

(270) الرقيق : ص 144 ، النويرى ج 22 ورقة 21 .

(271) الرقيق : ص 145 ، ابن عذارى : ج 1 ص 90 .

(272) الرقيق : نفس المصدر والصحيفة ، النويرى : ج 22 ورقة 21 .

(273) الرقيق : نفس المصدر ص 146 ، ابن عذارى : ج 1 ص 90 . وثمة رواية لابن وردان تصور هرب عمر بن حفص الى جبل الاوراس وقتله غدرا أثناء نومه . راجع : تاريخ الاغالبة ورقة 5 — مخطوط .

(274) يبدو أن أبا حاتم كان يريد عقد الصلح على وجه السرعة ليتفرغ للقاء جيش يزيد بن حاتم ، ومن ثم اتسم الصلح بالتساهل المفرط مع غريمه ، فقد نص فيه على الا يكره أحد من الجند على بيع سلاحه ودوابه وعلى أن كل دم اصابه الجند من البربر فهو هدر . انظر : الرقيق ص 146 ، النويرى : ج 22 ورقة 22 .

(275) ابن الاثير : ج 5 ص 222 ، ابن خلدون : ج 4 ص 193 .

(276) الرقيق : ص 147 ، ابن خلدون : ج 4 ص 193 .

فنجح فى تفريق بعضهم (277) ، وعهد الى بعض قواده بمهمة القضاء على البعض الآخر (278) ومضى الى طرابلس لمواجهة يزيد بن حاتم (279) والواقع أن أبا حاتم كان فى موقف لا يحسد عليه ، ففضلا عن ضخامة حملة يزيد بن حاتم وحسن استعدادها (280) دب الخلاف داخل معسكره، فانحازت قبيلة مليلة الهوارية الى يزيد (281) ، وكذلك بعض رجال نفوسة الذين استرشد بهم فى الوقوف على عورات البلاد (282) .

على كل حال — تمكن ابو حاتم بادىء الآمر من هزيمة طلائع جيش يزيد التى قادها سالم بن سوادة التميمى (283) عند مغمداس (284) وقتل منها أعدادا غفيرة (285) . لكن لحسن بلاء يزيد وقيادته الجيش بنفسه (286) ، اضطر أبو حاتم الى الاعتصام بجبل نفوسة فى موضع حصين خلف خندق حفرة الاباضية على وجه السرعة (287) غير أن يزيدا افسد خطته ، فتمكن من اجتياز الخندق ، والتحمت جيوشه بالاباضية فهزموهم « وقتل ابو حاتم ومن معه من أهل البصائر » (288) فى المعركة .

---

(277) بدد ابو حاتم شمل جميل بن صخر وجنده عند تونس ، كما أرغم لمخارق بن غفار الطائى على مغادرة القيروان . انظر : الرقيق ص 148 .

(278) بعث أبو حاتم جرير بن مسعود المديونى فى اثر عمر بن عثمان الفهرى الى أرض كتامة ، لكن جريرا هزم وقتل . انظر : الشماخى : ص 135 .

(279) الرقيق ص 159 ، ابن عذارى : ج 1 ص 91 ، ابن الاثير : ج 5 ص 222 ، النويرى : ج 22 ورقة 22 .

(280) تجمع المصادر على ضخامة الحملة فتقدر عددها بما يتراوح بين تسعين الف ومائة وعشرين ألف ، نصفهم من الفرسان . انظر : اليعقوبى : تاريخه ص 120 ، البلاذرى : فتوح البلدان ص 275 ، الرقيق : ص 159 ، وابن الاثير : ج 5 ص 222 ، ابن عذارى : ج 1 ص 94 ، ابن خلدون : العبر ج 4 ص 195 ، العينى : ج 13 ورقة 16 ، الشماخى : السير ص 136 .

(281) أبو زكريا : ورقة 12 ، الشماخى : ص 136 .

(282) أبو زكريا : ورقة 13 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 18 .

(283) النويرى : ج 22 ورقة 22 .

(284) مكان حصين بجبل نفوسة فى نواحى طرابلس . راجع : الرقيق ص 159 ، ابن الاثير : ج 5 ص 222 .

(285) الرقيق : ص 160 ، النويرى : ج 22 ورقة 22 . يعتقد الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ان أبا حاتم هزم فى تلك المعركة على الرغم من اجماع المؤرخين اباضية وغير اباضية على انتصاره فيها . انظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص 329 ، ابن الاثير : ج 5 ص 222 ، النويرى : ج 22 ورقة 22 ، أبو زكريا ورقة 12 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 18 ، الشماخى : السير ص 139 .

(286) الرقيق : صفحة 160 .

(287) نفس المصدر والصحيفة ، ابن الاثير : ج 5 ص 223 ، النويرى : ج 22 ورقة 22 .

(288) أبو زكريا : ورقة 13 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 18 ، النويرى : ج 22 ورقة 22 .

كما قتل جمهور عظيم من الاباضية (289) ، بلغ ثلاثين الفا (290) . واستبدت بيزيد شهوة الثار لعمه عمر بن حفص (291) « فطلب الاباضية فى كل سهل وجبل » (292) وبطش بهم . ثم استعمل احد عماله على طرابلس ونهض الى القيروان سنة 155 هـ (293) (772 م) .

والحق — أن تلك الضربة الماحقة التى الحقها يزيد بن حاتم بالاباضية تعد نهاية لنشاط الخوارج الاباضية فى صورته الشاملة المنظمة حقيقة أن حركاتهم لم تحبط بصورة نهائية فى عهد يزيد ، لكنها كانت تفتقر الى التنظيم والشمول ، ومن ثم لم يجد أمراء آل المهلب فى افريقية عناء فى قمعها وردعها . فثورة هوارة بزعامة ابى يحيى بن قرياس سنة 156 هـ (773 م) بنواحى طرابلس انتهت بكارثة لاباضية هوارة على يد عبد الله بن السمط الكندى الذى قتل ابا يحيى وعامة اصحابه (294) . وحسبنا اننا لم نسمع عن اى نشاط للاباضية طوال حكم يزيد بن حاتم الذى امتد حتى عام 170 هـ (786 م) ، ولذلك حق لابن عذارى (295) ان يقول « تهدنت افريقية ليزيد بن حاتم » . واذا كان يزيد بن حاتم قد قضى على ثورات الاباضية فى شكلها الشامل المنظم ، فان خليفته داود بن حاتم تمكن من « حصد شوكتهم » (296) ، ففى عهده ثارت قبيلة نفزة الاباضية بجبال باجة بزعامة صالح بن نصير (297) ، ونجح فى هزيمة قوات داود ، لكن سليمان بن الصمة أحد رجال داود تمكن من هزيمته (298) . كما حارب سليمان نفزة فى معركة اخرى بشقنبارية (299) لم يقم لها قائمة من بعدها (300) . كما احبطت ثورة اباضية هوارة سنة 180 هـ (796 م) بزعامة عياض بن

---

(289) اليعقوبى : تاريخه ص 12 .
(290) ابن خلدون : العبر ج 4 ص 193 ، ويبالغ النويرى فيذكر ان القتلى من معسكر يزيد كانوا ثلاثة فقط والصحيح ما رواه الرقيق من أن عددهم بلغ « ثلاثة رهط » انظر : النويرى نهاية الارب ج 22 ، الرقيق : تاريخ افريقية والمغرب ص 160 .
(291) الرقيق : صفحة 159 .
(192) نفس المصدر والصحيفة ، ابن عذارى : ج 1 ص 194 ، ابن الاثير ج 5 ص 223 .
(293) نفس المصادر والصفحات .
(294) ابن عذارى : ج 1 ص 94 ، ابن الاثير : ج 5 ص 4 .
(295) البيان المغرب ج 1 صفحة 94 .
(296) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 113 ، السلاوى : ج 1 ص 120 .
(297) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 115 ، النويرى : ج 22 ورقة 23 .
(298) الرقيق : ص 169 ، النويرى : ج 22 ورقة 23 .
(299) احدى كور الاربس بافريقية . راجع الرقيق ص 169 .
(300) الرقيق : ص 169 ، ابن عذارى : ج 1 ص 99 ، ابن خلدون : ج 6 ص 113 ، النويرى : ج 22 ورقة 23 .

وهب الهوارى (301) . اما اباضية نفوسة فقد استكانوا وغلبوا على أمرهم بعد فشل حركة ابى حاتم . وقبل ذلك كان اباضية زناتة قد بطش بهم ابن الاشعث سنة 144 هـ (760 م) .

وهكذا تصدعت حركات الاباضية فى المغرب الأدنى وافريقية ، بينما نجح عبد الرحمن بن رستم بمؤازرة اباضية المغرب الاوسط فى تأسيس دولة بتاهرت سنة 161 هـ (1977 م) ، تلك الدولة التى امتد نفوذها فيما بعد لتضم اباضية المغرب جميعا بعد ان دانوا بالولاء والتبعية لائمتها ، واقامت دليلا عمليا على نجاح ثورات الاباضية فى تحقيق مراميها فى تكوين دولة اباضية بالمغرب .

---

(301) ابن الاثير : ج 5 ص 46 ، ابن خلدون : العبر ج 4 ص 195 ، ابن تعزى بـردى : ج 2 صفحـة 90 .

ثالثا :

نتائج ثورات الخوارج في بلاد المغرب

نخلص من هذا العرض لثورات الخوارج — صفرية واباضية — فى بلاد المغرب بعدة نتائج منها أن هذه الثورات كانت تتأثر — ان ضعفا وان قوة — بموقف الخلافة فى الشرق اموية وعباسية ، واهتمامها بشؤون بلاد المغرب أو انصرافها عنها . وحسبنا أن اندلاع ثورات الخوارج فى المغرب واكب اضطراب الخلافة الاموية وانشغالها بالخصومات القبلية والصراعات حول السلطة بين أفراد البيت الاموى (302) . وازدادت هذه الثورات تأججا وغلبت على بلاد المغرب جميعا بعد موت هشام بن عبد الملك سنة 125 هـ (303) (743 م) الذى كان يولى بلاد المغرب عناية خاصة ، « فوقع الاضطراب بافريقية » (304) وطرق الخلل .. لخفوت صوت الخلافة بالمشرق (305) . ويكفى أن عبد الرحمن بن حبيب اغتصب حكم افريقية له ولآله من بعده ، ففى غيبة الخلافة وعمالها آنذاك بلغت ثورات الخوارج أوجها حتى غدت القيروان ذاتها ميدانا للصراع بين الاباضية والصفرية ، وهو ما يعبر عنه ابن خلدون بقوله (306) « .. واعضل

---

(302) الحميدى : جذوة المقتبس ص 8 ، الضبى ، بغية الملتمس ص 14 .
(303) اخبار مجموعة ص 36 .
(304) الحميدى : المرجع السابق ص 8 .
(305) الباجى المسعودى : الخلاصة النقية ص 15 .
(306) العبر : ج 6 صفحة 11 .

امر الخارجية ورؤسها » . ولم يكن ذلك الا « لانشغال بنى أمية عن ناصية الثغور » (307) .

ومن الطبيعى ان تتفاقم ثورات الخوارج ويزداد خطرها بقيام الدولة العباسية التى اهتمت فى عهد السفاح بأمور المشرق اكثر من اهتمامها بأمور المغرب (308) ، فانتقال العاصمة من دمشق الى بغداد وسع الهوة بين بلاد المغرب ومقر الخلافة (309) ، ومن ثم خرج عن طاعته « ما بين تاهرت وطبنة الى بلاد السودان وجميع مملكة الاندلس (310) .

وقد تغير الموقف تماما فى خلافة المنصور ، فكانت سياسته قائمة على أساس الاحتفاظ بالمغرب وعدم التفريط فيه (311) ، فاختار ولاته من خاصته الاكفاء « من ذوى الرأى الاصيل والخطر الجليل » (312) ، كابن الاشعث وعمر بن حفص ويزيد بن حاتم ، كما انفق المال بسخاء فى اعداد حملاته على المغرب مع ما عرف عنه من بخل وشح (313) . وتغلب على مشكلة طول المسافة وبعد الشقة بين بغداد والمغرب بأن عهد الى ولاته بمصر بمسؤوليات اعداد الجيوش وقيادتها (314) . واقتفى الرشيد نفس السياسة من الاهتمام بأمور المغرب (315) . فقد حرص على اختيار ولاته من ذوى « الخداع والدهاء والغدر » (316) . كما كان على صلة دائمة بهؤلاء الولاة ، وكثيرا ما ساهم فى رسم سياساتهم ووضع خططهم فى محاربة الخوارج (317) . فاستطاع أن يحتفظ بافريقية بعد أن كادت تسقط فى أيديهم (318) .

هذا وقد تأثرت ثورات الخوارج بشخصية الولاة وسياساتهم وما

---

(307) المقرى : نفح الطيب ج 1 صفحة 222 .

(308) عن الطابع الشرقى للخلافة العباسية واهمال السفاح لشؤون المغرب انظر : محمود اسماعيل : الاغالبة ، سياستهم الخارجية ص 1 ، 2 .

(309) عن الطريق البرية بين بغداد وبلاد المغرب انظر : قدامة بن جعفر : الخراج صفحة 220 — 225 .

(310) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص 258 .

(311) ابن الاثير : ج 5 ص 221 .

(312) الرقيق : ص 151 ، ابن عذارى : ج 1 ص 98 .

(313) البلاذرى : فتوح البلدان ص 275 ، ابن تغرى بردى : ج 2 ص 20 .

(314) ابن تغرى بردى : ج 2 ص 23 .

(315) ابن الاثير : ج 5 ص 221 .

(316) ابن طباطبا : الفخرى فى الاداب السلطانية ص 127 .

(317) ابن الابار : الحلة السيراء ج 2 ، ص 358 .

(318) ابن الاثير ج 5 ص 221 ، Mercier : Histoire de l'Afrique. P. 142.
Muir : The Caliphate. P. 461.

هم عليه من قوة أو ضعف ، وما لسياساتهم من آثار فى جمع شمل الجند أو بعثرتـــه . فقد أدى نشـــوب الصراع القبلـــى بــــين القيسيـــة واليمنية (319) الى ما حل بجيش كلثوم بن عياض القشيرى من كارثة على يد الصفرية فى موقعة بقدورة سنة 123 هـ (740 م) . واثبتت تلك الموقعة أن الخوارج كانوا يفيدون من انقسام الجند العربى ، وهى حقيقة يؤكدها سقوط القيروان واستيلاء الصفرية عليهـــا ثم الاباضيـــة بسبب الخلافات بين افراد الاسرة الفهرية (320) .

وكانت ثورات الخوارج تزداد تأججا ونجاحا حين كان الولاة يشغلون عنها بانقاذ حملاتهم خارج المغرب فكان الخوارج يجدون فى غياب الجند العربى فرصة مواتية لتعبئة الجهود واعلان الثورة . وحسبنا أن أولى ثورات الخوارج التى تزعمها ميسرة قامت فى الوقت الذى كانت فيه جيوش ابن الحبحاب تغزو فى صقلية (321) . كما اندلعت هذه الثورات بصـــورة شاملة حيث « استشرى داء البربر وأعضل أمر الخارجية » (322) فى وقت انشغال جيوش ابن حبيب بغزو سردينية وصقلية (323) . وقد استطاع ابن الاشعث بفضل كفايته العسكرية (324) أن يضعف الخـــوارج وأن « يضبط افريقية » (325) ويحصن القيروان وطرابلس وطبنة (326) ، لكن لم يقدر له النجاح فى القضاء نهائيا على ثوراتهم بسبب ثـــورة الجند العربى عليه وطرده من الولاية (328) . وكان القتل من نصيب الاغلب بن سالم لعقده العزم على استئصال شأفة الخوارج ومهاجمتهم فى معاقلهم بتلمسان والمغرب الاقصى ، فقد ثار عليه جنده وقتلوه سنة 148 هـ (329) (765 م) واعطوا بذلك الفرصة لاستفحال خطر أبىَ قرة الصفرى .

كما ارتبطت هزائم الخوارج بكفاءة الولاة واستقرار أحوال الجنـــد الخلافى ، ولا يخفى ما بلغه عمر بن حفص من شجاعة ودهاء وحسن

---

(319) ابـــن عبد الحكم : صفحـــة 295 .
(320) ابـــن خلـــدون : العبـــر ج 3 ص 190 .
(321) الرقيـــق : صفحـــة 109 .
(322) ابـــن خلـــدون : ج 6 صفحـــة 111 .
(323) ابـــن الاثيـــر : ج 5 صفحـــة 116 .
(324) الطبـــرى : ج 7 صفحـــة 459 ، Biquet : Op. Cit. P. 42
(325) ابـــن الاثيـــر : ج 5 صفحـــة 118 .
(326) البكرى : ص 7 ، السلاوى : ج 1 ص 115 .
(327) ابن عذارى : ج 1 ص 88 ، السلاوى : ج 1 ص 115 .
(328) ابن الاثير : ج 5 ص 119 ، السلاوى : ج 1 ص 115 .

بصيرة ، ولعل فى رحيله عن القيروان وتحصينه طبنة ما ينم عن ادراك واع لمكمن الخطر فى نشاط الخوارج وافلاته من حصار خوارج المغرب اباضية وصفرية أضاف الكثير الى قدراته الفذة وفى نهايته البطولية وموته وهو يقاتل الخوارج وحيدا ما جعل المؤرخين يطلقون عليه — بحق — لقب « هزار مرد » (330) . كما استطاع يزيد بن حاتم ان يتصدى لثورات الخوارج ، وبفضل كفايته ومقدرته « سكن الناس فى افريقية » (331) . واثمر هذا الهدوء فى عهد خلفه روح بن حاتم (332) . ثم قدم هرثمة بن اعين الى افريقية سنة 179 هـ (795 م) ليقضى على ما بقى للخوارج من رمق ، واعاد الحياة الآمنة الى بلاد المغرب (333) .

من ناحية أخرى — استفاد الخوارج من أخطاء عمال الخلافة بالمغرب ، وكانوا يتخيرون الوقت للخروج اعتمادا على تلك الاخطاء . فقد خرج ميسرة فى الوقت الذى كان فيه جيش ابن الحبحاب فى صقلية ، كما امتدت ثورات الخوارج وانتشرت ابان الازمات التى اصابت الخلافة فى الشرق او اثناء الفتن القبلية بين الجند العربى قيسية ويمنية كالخصومة التى وقعت بين حبيب بن أبى عبيدة اليمنى وبين كلثوم بن عياض القيسى ، أو الصراع بين الجند العربى فى افريقية وبين العناصر الفارسية والخراسانية فى عهد ابن الاشعث والاغلب بن سالم . يضاف الى ذلك الصراع حول الولاية بين عبد الرحمن بن حبيب وبين حنظلة بن صفوان ، ثم الصراع الدموى داخل اسرة بنى حبيب ، فسنحت للخوارج الفرصة لتحقيق انتصاراتهم التى اشرنا اليها .

كما تميزت حركات الخوارج فى المغرب بالشمول وسعة الانتشار . وذلك بفضل الثورة الاولى التى قادها ميسرة المطغرى سنة 121 هـ (739 م) ، فقد كانت نموذجا اقتفاه ثوار المغرب الاوسط والادنى من الصفرية والاباضية على السواء (334) . وجدير بالذكر أن هذا الطابع المنظم لحركات الخوارج ساعد على انتشارها فى سائر ربوع المغرب فى

---

(329) ابن خلدون : ج 6 ص 112 ، السلاوى : ج 1 ص 116 ، Muir : Op. Cit. P. 481.

(330) وتعنى بالفارسية « الف رجل » كناية على شجاعته النادرة .

(331) ابن الاثير : ج 5 ص 4 .

(332) نفس المصدر ص 38 ، ابن خلدون : ج 5 ص 194 ، Biquet : Op. Cit. P. 44

(333) ابن عذارى : ج 1 ص 89 ، السلاوى : ج 1 ص 121 .

(334) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 14 .

وقت واحد ، فما أن تظهر الثورة فى ناحية حتى يمتد اثرها الى ما عداها من اقاليم المغرب فتجتاح البلاد من مشرقها الى مغربها (335) .

كما اشتهر الخوارج فى حروبهم بالشجاعة والاستبسال شأنهم فى ذلك شأن الخوارج فى الشرق « فكانوا يحلقون الرءوس وترتفع أصواتهم بالتحكيم » (336) اذكاء للحماس الذى عوضهم عن نقص السلاح .

لقد كان العرب يعتمدون فى خططهم على الفرسان بينما كانت جيوش الخوارج فى الغالب من الرجالة ، ومع ذلك ابتكر الخوارج من الوسائل ما كانوا يرهبون بها خيل العرب وفرسانهم ، فيوقفون تقدمهم برميها « بالاوضاف (337) وهى الجلود اليابسة فيها الحجارة » (338) . كما كانوا يعتمدون الى « الرمك الصعبة فيعلقون فى اذنابها القرب والانطاع اليابسة ويوجهونها نحو الخيل فتنفر » (339) .

والى جانب الحماس والشجاعة تميزت ثوراتهم فى كثير من الاحيان بالتنظيم المحكم الدقيق . وحسبنا أن انتصارات ميسرة جاءت نتيجة اعداد وتخطيط ، فكانت جيوشه تهاجم معاقل العرب فى وقت واحد (340) ، كما نجح خلفه خالد بن حميد الزناتى فى تطويق الجيش العربى رغم ضخامته وايقاعه فى « كمين البربر » (341) ، وحصار القيروان من ناحيتين من قبل عكاشة النفزاوى وعبد الواحد الهوارى فى محاولة للاطباق عليها (342) كان نتيجة تدبير محكم بين القائدين الصفريين ، ولم يحل دون نجاحهما الا فطنة حنظلة بن صفوان لخطتهما وافسادها . ومن أسباب نجاح عاصم بن جميل فى الاستيلاء على القيروان براعته فى ايهام أهلها بأنه يوالى الخليفة المنصور (343) . وكان انسحاب أبو قرة الصفرى امام جيوش الاغلب ابن سالم تخطيطا ذكيا لجره الى اقاصى المغرب فى بلاد كان سكانها من

---

(335) مجهول : اخبار مجموعة ص 29 ، ابن عذارى ج 1 ص 88 .
(336) اخبار مجموعة صفحة 32 .
(337) ابن عبد الحكم صفحة 295 .
(338) اخبار مجموعة صفحة 33 .
(339) نفس المصدر والصحيفة .
(340) اخبار مجموعة ، صفحة 29 .
(341) ابن الاثير : ج 5 صفحة 69 .
(342) نفس المصدر : صفحة 70 .
(343) نفس المصدر : صفحة 117 .

الخوارج الصفرية حتى يضمـــن القضاء عليهـــا جميعا (344) . وتفيض المصادر الاباضية بالكثير عن خطط الاباضية فى اعداد الجيوش ومباغتة الخصوم اعتمادا على وسائل التمويه والخداع . ومن امثلة ذلك سياسة ابى الخطاب عبد الاعلى بن السمح فى اعداد جيوشه خارج طرابلس ثم دخوله المدينة وجنوده « مستترين فى جواليق يحملها الجمال » والاستيلاء عليها فى غفلة من اهلها (345) على غرار ما هو مشهور عن حرب طروادة. الا ان ابا الخطاب ذاته كان ضحية حيلة دبرها ابن الاشعث تمكن بواسطتها من هزيمة الاباضية ، على الرغم مما تسوقه المصادر الاباضية من حجج تدلل بها على فطنة القائد الاباضى لحيلة ابن الاشعث (346) .

وفضلا عن ذلك فقد اتسمت حركات الخوارج فى المغرب بالاصرار المستميت على البقاء رغم ما حل بهم من نكبات وخاصة فى عهدى المنصور والرشيد ، وحسبنا فى هذا الصدد مذابح ابن الاشعث فى الاباضية ، وما لاقاه الاباضية والصفرية على السواء فى المجازر التى قام بها يزيد بـــن حاتم وعمـــالـــه .

حقيقة ان هذه الضربات أوهنت حركات الخوارج وفتت فى عضدها ، لكنها لم تقض عليها قضاء تاما ، فكان الخوارج عقب تلك المحن يدأبون على اعادة التنظيم ولم الشمل سرا بزعامة من سموه « بامام الدفاع »(347)، فاذا ما انسوا من انفسهم قوة عاودوا الخروج وأعلنوا الثورة على الولاة ، وهذا يفسر استمرار هذه الثورات قرابة نصف قرن ، فلم تخب نارها حتى حققت أهدافها وقامت للخوارج دول ببلاد المغرب ذات طابع استقلالى قومـــى .

ويتضح هذا الطابع القومى بشكل ظاهر فى قيادة ثورات الخوارج فباستثناء ابى الخطاب المعافرى ــ الذى كان من اصل عربى ــ تصدرت ثورات الخوارج قيادات من البربر بترا وبرانس ، فميسرة من مطغرة ، وخالد بن حميد الزناتى من زناتة ، وعكاشة بن أيوب من نفزاوة ، وعبد الواحـــد

---

(344) ابـــن خلـــدون : ج 6 صفحـــة 112 .
(345) ابـــو زكريـــا : ورقـــة 7 .
(346) نفس المصدر ورقة 10 ، الشماخى : السير ص 132 .
(347) الشمـــاخـــى : صفحـــة 133 .

الهوارى من هوارة ، وعاصم بن جميل من ورفجومة ، وابو قرة من مغيلة وكلهم من زعماء الصفرية . أما زعماء الاباضية ، فقد كان عبد الله بن مسعود التجيبى من هوارة ، وكذلك كان الحارث وعبد الجبار ، ومن نفوسة تولى اسماعيل بن زياد ، وكان ابو حاتم الملزوزى من هوارة . ولا شك أن تصدر هذه الزعامات لثورات الخوارج فى بلاد المغرب تعبير حى عن شخصية المغرب الاسلامى المستقلة وتجسيد لدوره الاسلامى بعد اعتناق البربر مبادىء الخوارج .

هذا ، ولم تسلم حركات الخوارج من نقائص وسلبيات ، ولعل أهمها انه لم يكن هناك ثمة تعاون بين فرقتى الصفرية والاباضية ، وهى آفة موروثة عن خوارج المشرق . ولا نعتقد أنها كانت فى المغرب من جراء التجمعات القبلية التى اعتمد عليها كل فريق ، ذلك ان المذهبين الاباضى والصفرى انتشرا بين البربر واعتنقت بعض بطون القبيلة الواحدة المذهب الصفرى فى حين اعتنق بعضها الآخر المذهب الاباضى كما هو الحال بالنسبة لزناتة وهوارة . انما كان عدم التعاون مرده الى الخلاف الجوهرى بين عقائد كلتى الفرقتين وهو خلاف يحول دون التقائهما فلم يكن قدوم داعيتى الفرقتين الى المغرب على ظهر بعير واحد يعنى تعاونا مشتركا أو توحيدا للجهود كما توهم البعض — وخاصة ابن خلدون — ممن خلطوا بين نشاط الاباضية والصفرية فى المغرب ، بل اتخذت الفرقتان اتجاها مغايرا ، فبينما اتجه الاباضية الى الأقاليم الشرقية من بلاد المغرب ، يمم الصفرية وجههم شطر الاجزاء الوسطى والقصوى منه . واذا كانت بطون زناتة المنتشرة فى سائر جهات المغرب قسمة بين الفرقتين ، فلم يقدر لها أن تكون همزة الوصل بينهما ، بل لا نبالغ اذا قلنا أن أباضية زناتة كانوا معول هدم فى حركات الاباضية ، وحسبنا دورهم المخرب فى ثورة أبى الخطاب المعافرى (348) . وليس من شك فى أن ما حدث من صراع بين الاباضية والصفرية على القيروان سنة 140 هـ (757 م) كان من أهم اسباب اضعافهما ووقوعهما لقمة سائغة لجيوش ابن الاشعث فرقة بعد أخرى . وما يروى عن تعاون بينهما فى حصار عمر بن حفص بطبنة سنة 153 هـ (770 م) أمر مشكوك فى صحته .

ومن عيوب خوارج المغرب ايضا ما حدث من خلافات وانشقاقات

---

(348) ابن عذارى : ج 1 صفحة 83 .

داخل كل من الفرقتين ، ويخيل الينا أنها كانت من ميراث المشاحنات القبلية التقليدية التى عرفها تاريخ المغرب فمثلا نعتقد أن الخلاف على ميسرة واقصائه عن زعامة الصفرية وتولية خالد بن حميد الزناتى بدلا منه ، كان محاولة من زناتة لتزعم الحركة ، واقصاء مطغرة عن مركز الصدارة كان بسبب تلك النزعة الزناتية (349) . ومن المؤكد أن برغواطة اعتزلت النشاط الصفرى واتخذت عقائدها طابع التطرف من جراء ما حل بحليفها ميسرة المطغرى من اهمال ونكران (350) . وكذلك كان شأن الاباضية ، دب بينهم الخلاف والشقاق ، وقد سبقت الاشارة الى دور زناتة فى تصدع حركة أبى الخطاب عبد الاعلى بن السمح وتخليها عنه فى وقت عصيب لاسباب قبلية كامنة فى التنافس بينها وبين هوارة . كما تخلى بعض رجال نفوسة (351) ومليلة (352) عن أبى حاتم الملزوزى وانضموا الى يزيد بن حاتم ، فأدى ذلك الى هزيمة الاباضية سنة 154 هـ (770 م) .

ويعاب على خوارج المغرب كذلك سطحية الفهم لمبادىء المذهب ، واسرافهم فى تطبيق تعاليمه . لقد حضت مبادىء الخوارج على الثورة على ائمة الجور (353) ، لكن خوارج المغرب أعلنوا الثورة فى كثير من الاحيان على الحكام العرب بغض النظر عن تعديهم وظلمهم أو عدلهم ونزاهتهم ، فلا شك أن بلاد المغرب حكمها ولاة مستنيرون دابوا على الاصلاح من أمثال عمر بن حفص ويزيد بن حاتم ، لكن ثورات الخوارج استهدفت الحكم العربى عموما ، فلم يسلم هؤلاء الولاة من خطر الخوارج . كما أسرف الصفرية بوجه خاص فى استخدام العنف والقسوة فكانوا يقتلون الاطفال ويسبون النساء انطلاقا من تطرف المذهب الصفرى فى معاملة الخصوم .

وآفة ثورات الخوارج عموما فى المغرب عدم اتصالها وتنسيقها مع حركاتهم فى الشرق ، ولو أحكم مثل هذا الاتصال لكانت نتائجها أكثر نجاحا ، ولما قدر للخلافة أن تصفى نشاط خوارج الشرق بمثل السهولة التى

---

(349) اليعقوبى : البلدان : صفحة 359 .
(350) عبيد الله بن صالح : نص جديد ص 224 ،
Marcais : La Berberie Musulmane. P. 48.
(351) أبو زكريا : ورقة 13 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 18 .
(352) أبو زكريا : ورقة 12 ، الشماخى : السير ص 136 .
(353) البغدادى : الفرق بين الفرق 273 .

تمت بها (354) .

ومع ذلك كانت لثورات الخوارج آثار واضحة فى تاريخ المغرب ، ذلك أن هذه الثورات احتوت سائر قبائل البربر بترا وبرانس ، ولم تكن حكرا على قبيلة زناتة كما يذهب جوتييه الذى نظر الى ثورات الخوارج على انها ثورات زناتة دون سواها ، الامر الذى جعلنا نقف عند رايه هذا محاولين أن نناقشه متبينين ما فيه من خطأ أو اسراف .

يقول جوتييه « ما هى مراكز الثورات ؟ وما هى القبيلة التى رفعت العلم الذى تركه كسيلة والكاهنة منكسا ، لقد اختلف المؤرخون العرب كعادتهم حول هذا الامر **وان أجمع معظمهم فى اقتضاب على ذلك الشىء الواضح للعيان ، على زناتة** . لقد قامت الثورة بادىء الامر فى طنجة ، وما لبثت ان وصلت الاندلس على التو . . ثم انتشرت على طول الطريق من طنجة الى القيروان . . انتهت الثورة الاولى بمعركة الاشراف على وادى شلف ، والثانية على وادى سبو والثالثة فى القرن على مشارف القيروان ، أما الرابعة فقد وقعت فى الشرق بنواحى طرابلس . . وهـذا يعنـى أن الاحداث البارزة فى الفترة ما بين عامى 743 ، 752 م (125 ، 135 هـ) تركزت حول طرابلس وتونس وتلمسان . أما تلك التى وقعت فى عامى 757 ، 758 م (140 ، 141 هـ) فكانت القيروان ميدانها حين وقعت فريسة لورفجومة الصفرية . وقد تمثل رد الفعل العربى فى حملة ابن الاشعث الذى هزم الخوارج فى سرت واسترد القيروان لكنه اخفـق فى اقصـاء الخوارج عن تلمسان التى كانت مركزا لحركة أبى قرة اليفرنى سنـة 765 م (148 هـ) .

ثم استرد الخوارج طرابلس مرة أخرى ، ونصبوا الحصار حول القيروان . ويجمع المؤرخون على حصارهم طبنة سنة 770 م (153 هـ) ثم القيروان حيث صرع عمر بن حفص سنة 771 م (154 هـ) أثناء الحصار.

---

(354) من أهم حركات الاباضية فى الشرق والمعاصرة لثوراتهم فى المغرب حركة أبى حمزة وطالب الحق باليمن وحضر موت ، وقد تم القضاء عليها سنة 134 هـ وكذلك حركة الجلندى بعمان التى قمعت فى نفس العام . انظر ابن الاثير ج 5 ص 145 ، 169 . أما حركات الصفرية فأشهرها ثورة شيبان الحرورى بالموصل التى اخمدت سنة 130 هـ ابن الاثير : ج 5 ص 132 . وحركة شيبان بن عبد العزيز سنة 134 هـ ، وقد قتل على يد الجلندى الاباضى حين لجأ اليه هربا مـن العباسيين : انظـر ابن الاثير : ج 5 ص 169 وحركة ملبد بن حرملة الصفرى سنة 137 هـ ، وقد قتل فى عهد المنصور سنة 138 هـ . راجع : ابن الاثير : ج 5 ص 180 ، 181 .

وتمثل رد الفعل العربى فى حملة يزيد بن حاتم وجهوده غربى القيروان فى الاربس وطبنة والزاب . وبعد ذلك حلت فترة سلام امتـدت بين عامـى 771 ، 778 م (154 ، 170 هـ) . **وعلى ذلك فان ثورات الخوارج قـد شغلت النصف الاخير من القرن الثامن الميلادى . .**

فما هو اذن الميدان الذى دارت فيه تلك الاحداث التاريخية ؟ لقـد دارت فى طنجة ووادى سبو وتلمسان ووادى شلف وهدنة وجنوب تونس وطرابلس ، وكلها تقع فى سلسلة السهول والهضاب العالية التى تقطنها زناتة . . لقد كانت روح زناتة اذن هى الدافع وراء هذه الاحداث . وليكن معلوما أن هذا الزلزال العظيم الذى اجتاح بلاد المغرب كان يحركه — ضمن عوامل اخرى — عامل مغربى خالص ظهر على الاقل فى الثورات الاولى التى قامت فى طنجة . ويجب الا يغيب عن البال أن حركات الخوارج انطوت على عناصر تنتمى الى عالم الليفانت (يقصـد الفـرس والخراسانيـين والعرب) . . وعلى الرغم من اسهام بعض القبائل كصنهاجة وكتامة فى ثورات الخوارج ، فمما لا شك فيه أن الزعامة فى هذه الحركات كانت دائما لزناتة . . **وعلى ذلك نسلم بداهة بأن ثورات الخوارج فى المغرب ما هى الا ثورة زناتة** ، وان الدور الذى لعبته فى هذا الصدد هو أولى أدوارها على مسرح التاريخ المغربى » (355) .

ويخيل الينا ان مكمن الخطأ فى رأى جوتييه هو نظرته الى المناطق التى شهدت المعارك الكبرى بين الخوارج والعرب على انها مواطن قبيلة زناتة دون أن يفطن الى أمرين : أولهما ، أن مواطن القبائل البدوية لـم تكن ثابتة ثبوتا قاطعا ، فهى دائمة الترحال والانتقال بقطعانها وراء المراعى ومواطن الكلا . وثانيهما ، أن قبيلة زناتة كانت منتشرة فى بلاد المغرب من أدناها الى اقصاها مختلطة بغيرها من القبائل ، فمواطنها كما يقول ابـن خلدون (356) « فى سائر مواطن البربر بافريقية والمغرب ، فمنهم ببـلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الاقصى ، ومنهم قوم بالتلول بجبـال طرابلس وضواحى افريقية وبجبل أوراس ، والاكثر منهم بالمغرب الاوسط، ومنهم بالمغرب الاقصى امم أخرى » . فالمعارك الكبرى اذن لم تقـع فى مواطن زناتة وحدها انما فى « سائر مواطن البربر » .

---

(355) راجـع : Gautier : Les Siecles obscurs du Maghreb. P.P. 264 - 269.

(356) العبـر : ج 7 صفحـة 2 .

ثم أن جوتييه بنى رايه على أساس ان المؤرخين العرب القدامى ذكروا أن زناتة وحدها تزعمت ثورات الخوارج وساعدت على قيامها . والحقيقة أننا لم نجد مؤرخا واحدا يشير الى مثل هذا الامر البتة . بل نجد عندهم من الاشارات ما يدلل على عكس ذلك ، فابن خلدون (351) مثلا يقول عن ثورات الخوارج فى عهد عبد الرحمن بن حبيب « . . فاستشرى داء البربر ، واعضل أمر الخارجية ورؤسها . فانتفضوا من أطراف البقاع ، وتواثبوا على الامر بكل ما كان داعين الى بدعتهم ، وتولى كبر ذلك يومئذ صنهاجة » .

ويكفى أن نشير الى ثورات الخوارج لنتبين هذا الاسراف فى القول . فأولى الثورات فى بلاد المغرب سنة 121 هـ (739 م) قامت بزعامة مطغرة أول الامر ، ثم تصدت زناتة بعد ذلك لقيادتها حين أقصى ميسرة وحل خالد ابن حميد الزناتى محله فى زعامة الثورة . واذا كانت زناتة قد برزت فى هذه الحركة فذلك لا يعنى انها كانت وقفا عليها ، بل ساهمت فيها قبائل المغرب الاقصى برمتها ، وهذا يفسر قول ابن الاثير (358) بأنها « شملت المسلمين والكفار » .

واذا كانت زناتة قد تزعمت هذه الثورة فى مرحلتها الاخيرة فان صوتها قد خفت بعد ذلك ، ثم عادت الى الظهور فى حركة أبى قرة الصفرى . أما الثورة الصفرية الثانية التى تزعمها عكاشة بن أيوب النفزاوى وعبد الواحد الهوارى سنة 124 هـ (742 م) فقد لعبت هوارة ونفزة (359) دور الصدارة فيها ، واشتركت فيها زناتة كحليف لعبد الواحد الهوارى (360). أما ثالث ثورات الصفرية التى مكنت الصفرية من القيروان سنة 139 هـ (756 م) ، فقد قامت على أكتاف قبيلة نفزة بصفة عامة ورفجومة بصفة خاصة (361) ولم نسمع عن صوت لزناتة فى ثورات الصفرية فى اقليم الزاب ، فقد كانت مقصورة على قبيلتى نفزة وهوارة (362) .

ولم يكن لزناتة دور يذكر فى ثورات الاباضية ، فقد كانت الزعامة

---

(357) العبر ج 6 صفحة 111 .
(358) الكامل ج 5 صفحة 70 .
(359) ابن عبد الحكم : ص 294 ، ابن الاثير : ج 5 ص 70 .
(360) ابن عبد الحكم : نفس المصدر والقيمة .
(361) الرقيق : ص 140 ، ابن عذارى : ج 1 ص 80 .
(362) ابن خلدون : ج 2 ص 193 .

فيها لهوارة (363) . فحركة عبد الله بن مسعود التجيبى سنة 126 هـ (744 م) وثورة الحارث وعبد الجبار التى استمرت حتى عام 131 هـ (749 م) كانتا حكرا على اباضية هوارة فى أحواز طرابلس (364) . بينما تزعمت نفوسة الحركة التالية بزعامة اسماعيل بن زياد النفوسى سنة 132 هـ (750 م) (365) . ولا نجد لزناتة ذكرا الا فى حركة أبى الخطاب المعافرى سنة 140 هـ (757 م) وهى حركة كانت هوارة مركز ثقلها بينما لعبت زناتة فيها دورا غير مشرف (366) . وثورة الاباضية العظمى التى قام بها ابو حاتم الملزوزى كانت ثورة هوارة أيضا ، وكان أبو حاتم نفسه من مليلة وهى بطن من بطونها (367) ، وظلت هوارة وحدها قائدة للحركات الاباضية التى قامت فى سنتى 156 هـ (368) (773 م) و 180 هـ (796 م) (369) فى المغرب الادنى الى جانب ثورة نفزة بباجة التى تمعها داود بن حاتم (370) .

قصارى القول — أن زناتة أسهمت فى ثورات الخوارج الصفرية مع غيرها من القبائل ، وكانت القيادة فى هذه الثورات متداولة بين مطغرة وزناتة ونفزة وهوارة ومغيلة على التوالى . بينما يعتبر اسهامها فى حركات الاباضية ضئيلا للغاية ، فقد تصدرت هوارة دون منازع هذه الحركات من البداية حتى النهاية .

ومهما يكن من أمر فقد اسفرت ثورات الخوارج عن قيام دولتين ببلاد المغرب احداهما للصفرية سنة 140 هـ (757 م) ومركزها سجلماسة والاخرى للاباضية وعاصمتها تاهرت سنة 161 هـ (778 م) ، وكذلك كان قيام دولة الاغالبة فى افريقية سنة 184 هـ (800 م) بمثابة رد الفعل العربى لقيام دول من البربر ، فقد حرص الرشيد على ضمان استمرار نفوذ الخلافة فى افريقية حتى ولو كان هذا النفوذ اسميا ، ومن ثم فقد أقر قيام الامارة الاغلبية لتحول دون زوال هذا النفوذ ولتقف حاجزا أمام خطر الدولة الادريسية العلوية والدولتين الخارجيتين المدرارية والرستمية .

---

(363) نفس المصدر ج 6 ص 144 .
(364) ابن عبد الحكم : ص 301 ، 302 .
(365) نفس المصدر ص 302 .
(366) ابن عذارى : ج 1 ص 83 .
(367) ابو زكريا : ورقة 12 .
(368) ابن عذارى : ج 1 ص 94 .
(369) ابن الاثير : ج 5 ص 46 .
(370) ابن خلدون : ج 6 ص 110 ، النويرى : ج 22 ورقة 23 .

الباب الثالث

دول الخوارج في بلاد المغرب

كللت ثورات الخوارج الصفرية بالنجاح فى المغرب الاقصى على يد ميسرة وخليفته خالد بن حميد الزناتى ، كما نجح الخوارج الاباضية فـى بسط نفوذهم على المغرب الأدنى بعد قيام « امامة الظهور » على يد ابى الخطاب المعافرى سنة 139 هـ (756 م) . غير أن نشاط الخوارج لازمه الفشل حين رنوا بأبصارهم صوب افريقية لسببين رئيسيين ، اولهمـــا : التنافس بين الصفرية والاباضية على امتلاك القيروان واندلاع الحـــرب بينهما سنة 140 هـ (757 م) ، الامر الذى اضعفهما معا ، فوقعوا لقمة سائغة لجيوش ابن الاشعث سنة 141 هـ (758 م) . وتسبب هذا التنافس أيضا فى فشلهم فى حصار عمر بن حفص بطبنة سنة 153 هـ (770 م) ، واسفر اختلافهم عن تنكيل يزيد بن حاتم بهم جماعة فى اثر اخرى سنـــة 155 هـ (772 م) .

وثانيهما : صحوة الخلافة العباسية وحرصها على دعم نفوذها فى افريقية بانفاذ الحملات المتتابعة التى عهد بقيادتها الى قواد اكفاء من أمثال ابن الاشعث والاغلب بن سالم وعمر بن حفص ويزيد بن حاتم .

ولذلك استحال استمرار نشاط الخوارج فى افريقية وخاصة بعد قيام حكم آل المهلب الاقوياء فى القيروان وعدم توانيهم عن ملاحقة حركاتهم ومناهضتها . عندئذ اتخذت حركات الخوارج طابعا عمليا (1) ، فعزفوا عن مناطق النفوذ العربى نهائيا واتجهوا الى المناطق الصحراوية النائية بالمغربين الاقصى والاوسط حيث عول الصفرية على اقامة دولة فى جنوبى المغرب الاقصى معقل الخوارج الصفرية كانت سجلماسة عاصمة لها . بينما آثر الاباضية اقامة دولتهم بالمغرب الاوسط حيث تضرب كثير من القبائل التى تدين بالمذهب الاباضى مثل زناتة ولماية وهوارة ولواتة وسدراتـــة

---

(1) Marcais, G : La Berberie Musulmane. P. 141.

وغيرها (2) . واتخذوا من مدينة تاهرت عاصمة لها .

والواقع ان ظهور دولتى الخوارج يمثل نقلة هامة فى تاريخ الخوارج وتاريخ المغرب على السواء . فقد توجت دعوتهم فى بلاد المغرب بتحقيق اهدافها فى اقامة دولة خارجية (3) بعد ان فشلوا فى تحقيق ذلك بالمشرق وأتاح ذلك لهم أن ينعموا بالاستقرار السياسى بعد حروب استمرت ما يقرب من نصف قرن من الزمان . ومن ناحية أخرى فان قيام دولتى الخوارج كان بمثابة تعبير عن روح القومية والاستقلال عند المغاربة . فضلا عن الآثار الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى شهدتها بلاد المغرب وهو ما سندرسه فيما بعد مفصلا .

---

(2) النفوسى : صفحة 4 .
(3) ابو زكريا : ورقة 13 .

أولا :

دولة بني مدرار الصفرية

أ ـ قيام دولة بني مدرار

كان الخوارج الصفرية سباقين الى انشاء دولتهم فى سجلماسة سنة 140 هـ (757 م) ، كما كانت لهم الاسبقية من قبل فى المبادرة بالثورة سنة 121 هـ (739 م) . غير أن المؤرخين الغربيين (4) درجوا على التقليل من شأن هذه الدولة فاعتبروها مجرد دويلة لا يعتد بدورها فى تاريخ بلاد المغرب . ويخيل الينا أن الباعث على ذلك يكمن فى أمرين أساسيين ، أولهما : أن دولة بنى مدرار كانت دولة داخلية صحراوية لم تسهم بدور مباشر فى التيارات السياسية العالمية ـــ كدولة الاغالبة المعاصرة لها على سبيل المثال ـــ واقتصر نشاطها على المشاركة فى حركة التجارة عبر الصحراء شمالا وجنوبا .

وثانيهما: ندرة المعلومات عن هذه الدولة بدرجة جعلت المؤرخين يحجمون عن التاريخ لها ، فظل تاريخها يلفه الغموض والابهام (5) .

وعلى كل حال ـــ استطاع الخوارج الصفرية فى سنة 140 هـ (757 م) أن يستنفذوا من اضطراب الاحوال فى افريقية ويقيموا دولتهم

(4) انظر : Gautier : Op. Cit. P. 292, Biquet : Op. Cit. P. 47

(5) انظر المقدمة .

فى سجلماسة على وادى ملوية (6) ، فعمال الخلافة فى المغرب شغلوا آنذاك عن الاقاليم الغربية والجنوبية بتدعيم نفوذها فى المغرب الادنى وافريقية (7) ، فوجد الصفرية فى ذلك فرصة مواتية لتأسيس دولتهم فى مأمن من نقمة الخلافة وعمالها .

وينم اختيارهم اقليم تافيللت بأقصى الصحراء الكبرى عن حكمة وذكاء ، ذلك ان هذا الاقليم النائى من بلاد المغرب يمثل نهاية العمران من ناحية الجنوب والغرب (8) والطريق اليه غاية فى الوعورة اذ يمتد خلال متاهات من القفار والرمال ، ولذلك فهو فى حماية طبيعية أتاحت لبربر مكناسة ان يتخذوا من قصبته سجلماسة (9) عاصمة لهم .

ومكناسة هى العصبية التى ارتكزت عليها دولة بنى مدرار (10) وليست زناتة او نفوسة (11) ، ومواطنها على وادى ملوية (12) — حيث تقع سجلماسة فى اعلاه — هذا الوادى يصب فى البحر المتوسط ، وكذلك تقطن بعض بطونها فى نواحى تازا وتسول بالمغرب الاقصى (13) . وبربر مكناسة من البتر وبطونهم كثيرة منها « صولات وبوحات وبنو ورفلاس وقيصارة وورقطنة وورصطف » (14) وكلهم من سكان الصحراء (15) .

واسهمت عناصر اخرى غير مكناسة فى قيام الدولة ، ولعل من ابرزها بربر صنهاجة وزويلة وزناتة وزنوج السودان واهل الربض الاندلسيين ، ويفهم هذا من قول اليعقوبى (16) بأن عناصر شتى استقرت

---

(6) البكرى صفحة 149 ،
Mercier : Histoire de l'Afrique Septentrionale. Vol. I. P. 243.

(7) ابن عذارى : ج 1 صفحة 73 ، Bel : Op. Cit. P. 95.

(8) البكرى : ص 148 ، الاستبصار ص 200 ، القلقشندى : ج 5 ص 163 .

(9) الاصطخرى : المسالك والممالك ص 34 ،
Marcais, G : La Berberie Musulmane. P. 143.
كولين : مادة سجلماسة — دائرة المعارف الاسلامية ص 298 .

(10) ابن خلدون : ج 6 ص 129 ، Gautier : Op. Cit. P. 292. Bel : Op. Cit. P. 167.

(11) انظر : ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 3 ص 137 ، عبد الرحمن بن زيدان : اتحاف اعلام الناس ج 1 ص 62 ، مؤنس : ثورات البربر ص 187 .

(12) وهو نهر زيز كما يسميه اليعقوبى . انظر : البلدان ص 359 ، كولين : المرجع السابق صفحة 298 .

(13) ابن خلدون : ج 6 ص 129 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 351.

(14) ابن خلدون : نفس المصدر والصحيفة .

(15) نفس المصدر والصحيفة .

(16) البلدان : صفحة 359 .

فى سجلماسة ، فقبائل صنهاجة اللثام من مسوفة ولمتونة كانت تضرب فى أحواز سجلماسة على طول المفازة بينها وبين غانة السودانية (17) ويبدو انهم كانوا من الكثرة بالمدينة حتى أن البكرى وصف سكانها بأنهم « كانـوا يلتزمون النقاب»(18) . ونعلم أن عنصرالسودان اسهم فى قيام دولة بنى مدرار ، فكانت جماعات منهم تقيم باقليم تافيلالت بعد اعتناقهم المذهب الصفـرى على يد أبى القاسم سمكو بن واسول (19) . وحسبنا ان اول من تولى الامامة فى الدولة كان سودانيا يدعى عيسى بن يزيد الاسود .

وكان اشتغال بربر زويلـة ــ ومـواطنهم جنوبـى سجلماسة ــ بالوساطة التجارية ومرافقه القوافل عبر المفاوز ما بين سجلماسة وبلاد السودان سببا فى اعتناقهم المذهب الصفـرى ومشاركتهم صفرية تافيلالت فى انشاء دولة بنى مدرار (20) .

وعلى الرغم من استبعاد الرواية القائلة بتأسيس ربض الأندلس مدينة سجلماسة وأن أول ائمة الدولة كان منهم (21) ، فلا شك فى انهم قاموا بدور واضح فى تدعيم الدولة بعد نزول اعداد غفيرة منهم بسجلماسة واعتناقهم المذهب الصفرى (22) ، وخاصة فيما يتعلق بالنواحى المهنيـة والعمـرانيـة .

على ان الفضل يعزى الى مكناسة فى جمع شمل هذه العناصر جميعا فى نظام سياسى واحد بعد ان كانت تضرب فى اقليم تافيلالت دونما صلة أو رباط يجمعها (23) ، فتمكن زعيمها أبو القاسم سمكو بن واسول من تجميعها حول المذهب الصفرى وضمها فى كيان واحد . ويعزى دور مكناسة القيادى هذا الى اسبقيتها فى اعتناق المذهب الصفرى ، فقد وصلها فـى وقت مبكر اذ تلقاه المكناسيون « عن ائمتهم ورؤسهم من المغرب » (24) فكان زعيمهم ابو القاسم سمكو على صلة بعكرمة منذ وصوله الى القيروان ، وهو من اشهر دعاة الصفرية فى بلاد المغرب على الاطلاق . وبعد نشره

---

(17) مجهول : الاستبصار ص 201 ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 231 .
(18) المغـرب صفحـة 148 .
(19) نفسه : صفحة 149 .
(20) الاصطخرى : ص 34 ، الاستبصار ص 201 ، المقدسى : احسن التقاسيم ص 231 .
(21) ابـن خلـدون : ج 4 صفحـة 126 .
(22) أبو العرب تميم : طبقات علماء افريقية ص 80 .
(23) النفوسى : الازهار الرياضية ج 2 ص 93 .
(24) ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، Gautier : Op. Cit. P. 292.

المذهب بين قومه من مكناسة ، عكف على بثه بين سكان اقليم تافيللت ، وهذا يخالف قول صاحب الأزهار الرياضية (25) بأن المذهب الصفرى انتقل الى مكناسة عن طريق أهل تافيللت فى وقت متأخر اثناء شروعهم فى اقامة دولة بنى مدرار . اذ الثابت أن بربر مكناسة وزعيمهم ابى القاسم سمكو اشتركوا فى ثورة ميسرة المطغرى سنة 121 هـ (26) (739 م) .

ولم نقف على دور لابى القاسم فى ثورات الصفرية بعد ميسرة ، ويبدو أن سيطرة زناتة على الحركة ، وتولى من هم اقل منه مكانة وسابقة فى المذهب زعامتها ، جعله يعزف عن المشاركة فيها ، أو لعله زهد فى اسلوب الثورة وآثر الانقطاع لنشر المذهب فى الاصقاع الجنوبية تمهيدا لانشاء دولة للصفرية هناك ، فتوجه الى تافيللت حيث تضرب جماعات من السودان وبعض بطون صنهاجة وهم غالبية سكانها (27) . وجدير بالذكر ان هذه الجماعات « كانوا أهل بادية وحواضر وحراثات » (28) ، فكانوا يعملون بالرعى والزراعة (29) الى جانب التجارة (30) كما عرفوا بالتدين وحب العلم والرغبة فى طلبه الى جانب شدة البأس والنجدة وقوة العريكة ، « فهم أهل علم وسلاح » (31) . لذلك وجد فيهم أبو القاسم سمكو — الملقب بمدرار (32) — ضالته المنشودة ، فكانوا أعونا له على انشاء الدولة التى نسبت اليه .

نزل ابو القاسم ارض تافيللت سنة 138 هـ (33) (755 م) واشتغل

---

(25) النفوسى : صفحة 93 .
(26) ابن خلدون ج 6 ص 130 ، Gautier : Op. Cit. P. 292.
(27) اليعقوبى : البلدان صفحة 359 .
(28) اسماعيل حامد (جامع) : نبذة فى تاريخ الصحراء القصوى ص 7 .
(29) نفسه : صفحة 3 .
(30) مجهول : الاستبصار صفحة 200 .
(31) اسماعيل حامد : المرجع السابق ص 7 .
(32) نرجح أن مدرارا كان لقب ابى القاسم كما يذهب ابن الخطيب ، وليس اسم جده كما اعتقد ابن عذارى ، أو اسمه هو حسبما ذكر صاحب كتاب الاستبصار ونجد فى رواية اخرى لابن الخطيب خلطا بين شخص ابى القاسم سمكو وبين عيسى بن يزيد ، فينسب دور ابى القاسم الى عيسى ولا يورد للاول ذكرا . أما البكرى فينسب الفضل فى قيام الدولة المدرارية الى جهود ابى القاسم لكنه يشير الى لقبه . وجدير بالذكر أن رواية البكرى عن دولة بنى مدرار اصح الروايات واكثرها صدقا ، وقد أخذ بها كبار الدارسين مثل فورنل ومرسييه . انظر : ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 3 ص 138 ، 140 ، ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، الاستبصار ص 201 ، البكرى : ص 149 ،
Mercier : Histoire de l'Afrique : P. 243.
Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 352.
(33) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 3 ص 138 .

بالرعى وأخذ يتصل بغيره من الرعاة الذين كانوا ينتجعون بقطعانهم موضع سجلماسة ، ويعلمهم أصول المذهب الصفرى (34) ، وأصبحت خيمة أبى القاسم بمثابة مجمع يلتقى به انصاره (35) . ولما اشتد ساعده وكثر أتباعه نصبوا خيامهم الى جواره (36) ويذهب بعض المؤرخين (37) الى أن أبا القاسم شرع فى اعلان قيام دولته سنة 140 هـ (757 م) لما بلغ عدد أنصاره أربعين رجلا ، « فعندئذ بايع بالامامة عيسى بن يزيد الاسود وحمل قومه من مكناسة على طاعته » .

على كل حال — كانت مبايعة عيسى بن يزيد الاسود بالامامة (38) وهو من موالى العرب (39) — وانصياع صفرية مكناسة لبيعته بعد أن حملهم أبو القاسم على الاعتراف بامامته (40) ، تطبيقا عمليا لرأى الخوارج فى الامامة .ولما كان عيسى بن يزيد الاسود لا يرقى الى منزلة أبى القاسم سمكو من حيث السابقة فى المذهب أو الافضلية فى العلم ، فان اختياره

---

(34) لا اعتبار لما يقال عن أن أبا القاسم كان اباضيا (الازهار الرياضية ج 2 ص 93) أو انه كان اباضيا صفريا كما ذهب ابن خلدون (العبر ج 6 ص 130) . فنحن نعلم أن أبا القاسم كان من دعاة عكرمة مولى ابن عباس و « مقدم الصفرية » انظر : بروفنسال : نبذ تاريخية ص 48 ، الشطيبى : الجمان ورقة 203 .

(35) ابـن خلـدون : ج 6 ص 130 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 352.

(36) البكرى : ص 149 ، ابن خلدون : ج 6 ص 130 .

(37) نفس المصدرين والصفحتين ، ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، الاستبصار ص 201 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 352.

(38) النفوسى : صفحة 93 .

(39) ابـن خلـدون : ج 6 صفحة 130 .

(40) ينفى هذا ما ذهب اليه بل من التفاف بربر مكناسة حول عيسى بن يزيد ومبايعته طائعين مختارين . La religion Musulmane. P. 176. والواقع أن الفضل يعزى الى أبى القاسم سمكو فى تقديم عيسى بن يزيد ، ولعل ذلك كان سببا فيما درجت عليه بعض الروايات من الخلط بينهما ، اذ تذهب الى أن الذى تولى الامامة شخصا أسود يدعى مدرارا . وتزعم أنه كان حدادا قدم من الاندلس بعد موقعة الربض . انظر : البكرى : ص 149 ، الاستبصار ص 201 ،
Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 523.
ومن المعروف أن أهل الربض رحلوا عن قرطبة سنة 198 هـ بينما قامت دولة مدرار سنة 140 هـ . انظر : ابن خلدون ج 4 ص 126 ،
Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 523.
ومع ما تنطوى عليه تلك الرواية من أخطاء فلا شك فى اهمية مغزاها لما تبرزه من نزوح أعداد غفيرة من الاندلسيين بعد حادث الربض الشهير الى سجلماسة ، واستيطانهم بها — على غرار ما فعلوه بفاس — واسهامهم فى عمارتها واشتغالهم بالحرف والصناعات كالحدادة واعمال البناء وغيرها . انظر : ابن خلـدون : ج 3 صفحة 126 ، Condé : Op. Cit. P. 262. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى صفحة 405) .

للامامة يدل على ثقل وزن عنصر السودان ورجحانه على سائر العناصر الصفرية باقليم تافيللت . ومما يؤكد ذلك أن غالبية بربر مكناسة لم يكونوا قد انتقلوا بعد من مواطنهم الاولى ليستقروا فى اقليم تافيللت ، فلم يحدث هذا الا بعد اختطاط سجلماسة ، يؤيد ذلك قول ابن خلدون (42) « .. وبعد ان اختطوا سجلماسة سنة 140 هـ دخل سائر مكناسة من اهل تلــك الناحيــة فى دينهم » .

اجمع الصفرية اذن على مبايعة عيسى بن يزيد بالامامة (43) سنة 140 هـ (757 م) . وفى نفس السنة شرعوا فى اختطاط سجلماسة (44) لتكون حاضرة للدولة (45) . وقد أصبحت سجلماسة مركزا للامارة (46) ومقرا للمذهب الصفرى .

وقد حرص الصفرية على انشاء هذه العاصمة فى مكان حصين ، فأقاموها فى « موسطة الصحراء » (47) جنوبى تلمسان بعشرة مراحل ، وفى موضع التقاء فرعى نهر ملوية (48) . واسس الصفرية حصنا فى وسط المدينة أسموه العسكر ، كما اسسوا المسجد الجامع ودار الامارة (49) . ثم اقبل الناس على بناء دورهم حول الحصن (50) ، فاتسع العمران حتى جاوزت المدينة فرعى نهر ملوية (51) . وقد أسهم فى بنائها معماريو الاندلس

---

(41) العبــر ج 6 ص 130 ، النفوسى : ص 93 .

(42) العبر ج 6 ص 130 ، النفوسى : ص 93 .

(43) لم يرد بالمصادر ذكر تقلد أمراء بنى مدرار الخلافة أو الامامة باعتبارهم رؤساء روحيين وسياسيين كما يفهم من لقب الامام أو الخليفة . ونعتقد أن سبــب ذلك يمكــن فى أن تواريخ الصفرية لم تصل الينا ، وكل ما وصلنا عنهم مستمد من المصادر المعادية لهم .. عن ألقاب الامامة والخلافة . انظر : حسن الباشا : الالقاب الاسلامية ص 60 .

(44) الثابت أن مدينة سجلماسة استحدثها بنو مدرار ولم يكن لها وجود من قبل على عكس ما قيل من أن الاسكندر ذو القرنين اسسها لتكون موطنا للعجزة والمرضى من جنوده ، فتلك رواية أسطورية ، وما ذكره الحسن الوزان من أن أحد قواد الرومان أسسها باسم Sigillm mese عقب احدى انتصاراته . انظــر : كولين : مــادة سجلماســة — دائرة المعارف الاسلامية — ص 298 .

(45) المقــدسى : صفحــة 219 .

(46) كان يتبع سجلماسة عدد من الحصون والمنازل والقرى كدرعة وتدانقوست وأثر ايلا وحصون النحاسين وهلال وغيرها . انظــر : اليعقــوبــى : البلــدان ص 359 ، المقــدسى : صفحــة 219 .

(47) المراكشى : المعجب صفحــة 357 . Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 351.

(48) ابن خلدون : ج 6 ص 129 ،

(49) المقــدسى : صفحــة 231 .

(50) الاستبصــار : صفحــة 201 .

(51) الادريســى : صفحــة 60 .

فضلا عن اليهود الذين استقروا بها لاستغلال التبر (52) . كما أسس سورها سنة 208 هـ (823 م) فى عهد اليسع بن أبى القاسم ، وبه من الأبواب اثنتى عشر بابا (53) . « منها الباب القبلى والباب الغربى وباب غدير الجزارين وباب زناتة » (54) . ويصف ابن حوقل (55) — الذك زارها فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى — أبنيتها بأنها « شاهقة كأبنية الكوفة » . لأنها بنيت بالصخر فبقيت قائمة عدة قرون حتى وصفها ابن مقديش (56) بأنها « مسنة » .

ولما كانت سجلماسة محصورة بين فرعى نهر ملوية ، فقد توفرت لها المياه . لهذا عمل عيسى بن يزيد على تنظيم الافادة منها ، فشق القنوات « وصرف الى كل ناحية قدرها من مائة » واستكثر من غرس النخيل (57) . وهذا يعنى ان تأسيس سجلماسة ارتبط به تحول فى حياة السكان من الرعى والبداوة الى الزراعة والاستقرار (58) ، ولا غرو فقد غدت سجلماسة مدينة النخيل والاعناب والفاكهة (59) . وقد افاض الجغرافيون (60) والرحالة فى وصف غروسها التى غطت مساحة قدرها اربعين ميلا . والى جانب الفاكهة تنوعت المحاصيل « حسب زروع مصر فى الفلاحة » (61) مما حدا بالادريسى (62) الى ان يصف المدينة بأنها « كثيرة الخضر والنبات » . وبفضل هذه المنتجات المتعددة قدر لها أن تلعب دورا تجاريا هاما فى بلاد المغرب (63) والسودان حتى أضحى سكانها « سراة مياسير يباينون سائر أهل المغرب بالمخبر والمنظر » (64) .

ولا شك فى ان هذا الازدهار الاقتصادى الذى واكب انشاء سجلماسة

---

(52) الاستبصار صفحة 202 .
(53) نفس المصدر : صفحة 201 .
(54) المقدسى : صفحة 231 .
(55) المسالك والممالك . صفحة 65 .
(56) نزهة الانظار صفحة 11 .
(57) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 3 ص 139 .
(58) الاستبصار : صفحة 201 . Juliene : Op. Cit. P. 339.
(59) البكرى : صفحة 148 .
(60) انظر : البكرى ص 148 ، ابن حوقل : ص 65 ، القلقشندى : ج 5 ص 164 .
(61) ابن حوقل : ص 65 ، سعيد بن مقديش : ص 10 .
(62) صفة المغرب ' صفحة 60 .
(63) نفس المصدر والصحيفة .
(64) ابن حوقل : ص 65 ، القلقشندى : ج 5 ص 164 .

ساعد على تدعيم دولة بنى مدرار ، فقد غدت قبلة للخوارج الصفرية فى بلاد المغرب بأسره . وقصدها جموع الصفرية من كل صوب لائذين هربا من انتقام ولاة بنى العباس من آل المهلب . وكان لذلك اثره فى تقوية الكيان السياسى لدولة كانت تعانى من نقص فى السكان (65) . كما أدت هـذه الهجرات بدورها الى نتائج سياسية غاية فى الأهمية فى التطور السياسى لدولة بنى مدرار ، اذ هجرت بقية بطون مكناسة مواطنها الأصلية ، واستقرت بالمدينة الجديدة ، وغدت اكثر العصبيات واقواها ، واهلها ذلك للزعامة السياسية والتطلع لمنصب الامامة .

ثم انتقلت الامامة بالفعل الى أبى القاسم سمكو ، حين سخط صفرية مكناسة على الامام عيسى بن يزيد ونحوه ، وولوا زعيمهم ابا القاسم سمكو مكانه . وما يسوقه المؤرخون من اسباب فى هذا الصدد تتسم بالابهام وتفتقر الى التحديد ، اذ ذكر بعضهم (66) «انهم نقموا عليه كثيرا فى أحواله»

وثمة راى ثالث ساقه البكرى (68) . حيث قال أن « أبا الخطاب قال يوما لاصحابه فى مجلس عيسى ، السودان كلهم سراق حتى هذا ، واشار على عيسى . فأخذوه وشدوه وثاقا الى شجرة فى راس جبل وتركوه كذلك حتى قتله البعوض » . كما يذهب ابن الخطيب (69) الى أن الصفرية — بعد قتل عيسى بن يزيد — « ولو على انفسهم ابا الخطاب الصفرى » . ويرجح الدكتور سعد زغلول عبدا لحميد (70) أن يكون أبو حاتم الاباضى أو عبد الرحمن بن رستم هو الذى أمر صفرية سجلماسة بعزل امامهم وقتله .

ولحق — ان البكرى ومن أخذ عنه قد جانبهم التوفيق . وليس أدل على ذلك من ان مقتل عيسى بن يزيد حدث سنة 155 هـ (772 م) (71) اى بعد أن ظل اماما لمدة خمسة عشر عاما (72) ، بينما قتل ابو الخطاب المعافرى سنة 144 هـ (761 م) فى معركة تاورغا . كما أن المصادر الاباضية — على وفرتها — لم تشر الى مثل هذا الامر ، فلم يكن من المألوف تدخل

---

(65) البكرى : ص 149 ، ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، مجهول : الاستبصار ص 201 .
(66) ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، الاستبصار : ص 112 .
(67) ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، ابن الاثير : ج 6 ص 3 .
(68) المغرب صفحة 149 .
(69) اعمال الاعلام ج 3 صفحة 139 .
(70) تاريخ المغرب العربى صفحة 401 .
(71) ابن الاثير : ج 6 ص 3 ، القلقشندى : ج 5 ص 165 ، السلاوى : ج 1 ص 112 .
(72) البكرى : صفحة 148 .

الاباضية والصفرية بالمغرب فى شؤون بعضها البعض (73) ، الامر الذى يشكك فى هذه الرواية من اساسها .

ومع ذلك يستفاد منها ان عيسى بن يزيد انحرف عن خط المذهب ، واسرف فى تطبيقه واشتط فى أحكامه . كما أن نقمة الصفرية عليه وتعذيبه وقتله بطريقة قاسية تنم عن تطرف الخوارج الصفرية وميلهم الى العنف (74) لكن الذى نؤكده أن الدافع الاساسى للثورة عليه هو ازدياد قوة مكناسة بعد قدوم بطونها من مواطنها الاصلية الى سجلماسة ، وتطلعها الى الحكم والسلطة .

على كل حال — آلت الامامة الى ابى القاسم سمكو ، وظلت من بعده حكرا على صفرية مكناسة التى اختصت باختيار الائمة من آل بيت ابى القاسم واخذ البيعة لهم من جمهور الصفرية فى سجلماسة وتوابعها (75) .

وعكف ابو القاسم طيلة امامته (155 — 168 هـ) (76) (772 — 784 م) على ارساء قواعد دولته ، عازفا عن المشاركة فى ثورات الصفرية فى العصر العباسى الاول ، ولعل هذا يفسر قول ابن خلدون (77) ومن اخذ عنه (78) أن ابا القاسم « خطب فى عمله للمنصور والمهدى من بنى العباس » . والواقع أن ابا القاسم لم يسهم فى حركات الصفرية الاخيرة لا لكونه تابعا للخلافة العباسية — كما يذهب ابن خلدون — ولكن لاحساسه بعدم جدوى هذه الحركات التى اتخذت شكل ثورات غير منظمة ولانشغاله من ناحية أخرى بمشاكل دولته الجديدة . وليس ببعيد أن يكون قد اضطر امام هذه المشاكل الى مسالمة الولاة العباسيين فى المغرب ومن المحتمل أن يكون قد وعدهم بتبعية اسمية ليضمن سلامة دولته التى لم تكن قد

---

(73) انظر : بنو مدرار والرستميين .
(74) الشهرستانى : ص 121 ، Gautier : Op. Cit. P. 299.
(75) ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 553, Bel : Op. Cit. P. 167.
(76) ابن عذارى : ج 1 صفحة 215 .
(77) العبر ج 6 صفحة 130 .
(78) السلاوى : ج 1 صفحة 112 .

استقرت بعد ، وأن كان من الراجح أن دولة بنى مدرار تمتعت باستقلال سياسى تام عن سلطة الخلافة وعمالها .

وهكذا ـــ استطاع أبو القاسم سمكو بن واسول المكناسى « مقدم الصفرية » (79) بالمغرب الاقصى تحقيق أهداف الخوارج الصفرية باقامة دولة لهم فى بلاد المغرب توارثها بنوه من بعده .

---

(79) يخلط ابن خلدون بين الاباضية والصفرية ، فيذكر أن أبا القاسم كان « أباضيا صفريا »، وهو قول سبق تخطئته لان أن أئمة بنى مدرار جميعا كانوا من الخوارج الصفرية . انظر : العبر ج 6 ص 130 .
ومن خطأ ابن خلدون انظر : ابن حزم : نقط العروس ص 76 ، كولين : دائرة المعارف الاسلامية ـــ مادة سجلماسة ص 289 .

ب ـ سياسة بني مدرار الداخلية

تأثرت سياسة بنى مدرار الداخلية ــ بدرجة كبيرة ــ بعاملين اساسيين ، العامل العنصرى والدينى ، فتعيين الامراء وعزلهم ، وقيام الثورات والفتن ، واحتدام المنازعات بين افراد البيت المدرارى ، واتساع الدولة وتقلصها ، وقوتها وضعفها ، كل ذلك كان مرتبطا اشد الارتباط بالصراع القبلى او الخلاف المذهبى .

وقد تمثل العامل العنصرى القبلى فى تباين الكيان الاجتماعي فى سجلماسة واختلاف عناصر سكانها ما بين بربر وسودان واندلسيين ، فضلا عما هو معروف من انقسام البربر الى بتر وبرانس . ولئن كان المذهب الصفرى اطارا جمع هذه العناصر جميعا وخفف من حدة النعرات العنصرية والتناحر القبلى داخل الدولة المدرارية ، الا اننا لا نعدم وجود اقليات دينية لعبت دورا واضحا فى أحداث الدولة . كان هناك اليهود الذين هيمنوا على مصائر البلاد الاقتصادية باحتكارهم استغلال مناجم الذهب والفضة فى درعة (80) . والمعتزلة « الذين كانوا يبعثون بزكاة أموالهم الى رئيسهم بتاهرت يصرفها حيث شاء » (81) . كما وجد بسجلماسة اقلية من الخوارج الاباضية كان لها دورها البارز فى تطور الاحوال السياسية داخل دولة بنى مدرار (82) .

والحق أن المصادر لا تمدنا بمعلومات وفيرة عن السياسة الداخلية (83) ، ومع ذلك يمكن القول بأن الصراع العنصرى ظهر واضحا

(80) الاستبصار صفحة 202 .
(81) البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 93 ــ مخطوط .
(82) النفوسى : ج 2 صفحة 94 .
(83) انظر : المقدمة .

فى الاحداث المتعلقة بقيام الدولة . فنعلم أن تقليد عيسى بن يزيد الاسود امامة الصفرية كان مرتبطا بتفوق عنصر السودان على سائر العناصر الاخرى القاطنة باقليم تافيللت . كما كانت هجرة مكناسة الى هذا الاقليم سببا فى سيطرتها على مصائر الدولة واحتكارها الامامة وتفوقها على سائر العناصر والقبائل الاخرى التى اختفى صوتها تماما فيما حدث من صراع على الامامة بين افراد بنى مدرار المكناسيين .

اما العامل المذهبى فيظهر بوضوح فى نشاط الاباضية بسجلماسة ، ومما يؤكد دورهم فى تاريخها السياسى ما درج عليه بعض المؤرخين من الخلط بين ائمتهم وبين امراء سجلماسة الصفريين ، واعتبار بعضهم بعض امراء آل مدرار من الاباضية . فابن الخطيب (84) يذهب الى أن الصفرية بعد قتلهم عيسى بن يزيد الاسود « ولوا عليهم ابا الخطاب الصفرى » الذى احتضن أبا القاسم سمكو وعقد له الامر من بعده . وقد سبق أن فندنا تلك الرواية واثبتنا أن ابا القاسم سمكو المكناسى تولى الامامة على اثر مقتل عيسى بن يزيد سنة 155 هـ (772 م) واحتفظ بها حتى وفاته فى سنة 168 هـ (85) (784 م) .

ولم نقف على دور للاباضية فى عهد الياس بن ابى القاسم الملقب بأبى الوزير (86) ، ذلك لان المصادر لا تمدنا بأية اخبار عن احوال الدولة فى عهده الذى امتد حتى عام 174 هـ (87) (790 م) . ويبدو انه كان خاملا فاتر الهمة مما جعل الصفرية ينقمون عليه حكمه « فانتفضوا عليه وخلعوه وولوا مكانه اخاه اليسع » كما يذهب ابن خلدون (88) ولا يبعد أن يكون اخوه دبر امر خلعه واقصائه ليظفر بالامارة لنفسه حسبما ذكره البكرى (89)

---

(84) اعمال الاعلام ج 3 صفحة 141 .

(85) ذكر ابن الخطيب — خطأ — ان وفاة ابى القاسم سمكو حدثت سنة 199 هـ . راجع : اعمال الاعلام ج 3 صفحة 142 .

(86) البكرى : ص 149 ، ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 142 . وفى رواية اخرى لقب بـ « الوزير » . انظر : ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، السلاوى : ج 1 صفحة 112 .

(87) البكرى : ص 150 ، القلقشندى : ج 5 ص 165 . وهذه الرواية أكثر ثقة من غيرها التى تضطرب فى تحديد مدة حكمه وسنة خلعه . فابن عذارى يذكر أنه خلع سنة 170 هـ ، وابن خلدون يجعل ذلك سنة 194 هـ ، اما ابن الخطيب فيقول بأن امارته لم تتجاوز ستة اشهر خلع بعدها . انظر : البيان المغرب ج 1 ص 215 ، العبر ج 6 ص 130 ، اعمال الاعلام ج 3 ص 142 .

(88) العبر ج 6 صفحة 130 .

(89) المغرب صفحة 150 .

ومع ذلك نعتقد أن فتن الاباضية قد تفاقمت فى عهده ، وهذا يفهم من جهود خليفته اليسع بن ابى القاسم الملقب بأبى المنصور (90) (174 — 208)(91) (790 — 823 م) فى قمعها . فقد طمعوا فى تقلد الامارة بعد استقلالهم بنواحى درعة الشهيرة بمعادنها (92) . غير أن اليسع عمد الى تعبئة الجند والانصار (93) الى ان تسنى له اعداد جيش قوى تمكن به من اخماد الفتنة « وظفر بمن عانده » (94) .

ويبدو انه اسرف فى البطش بخصومه حتى وصف بأنه « كان جبارا عنيدا ، فظا غليظا » (95) . لقد قضى على الفتنة فى مهدها ، واظهر مذهب الصفرية (96) بعد أن « قاتل عليه » (97) فى حروب انتصر فيها جميعا حتى قيل بأنه « دوخ المغرب » (98) . واسفرت هذه الحروب عن مد نفوذ الدولة حتى درعة ، وفرض الخمس على ما يستخرج بها من معادن (99).

ويبدو أن هذه الحروب الطويلة التى خاضها احدثت اضرارا بسجلماسة وتخريبا بعمائرها وسورها ، ولعل جموع الاباضية بالمدينة لعبوا دورا فى هذا الصدد . وهذا ما يرجحه اقدام ابى المنصور اليسع على اخلاء المدينة واعادة تخطيطها ، فتخبرنا المراجع (100) انه امر القبائل

---

(90) ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، القلقشندى : ج 5 ص 165 . وقد لقبه البكرى « بأبى المنتصر » وكذلك ابن عذارى . انظر : المغرب ص 149 والبيان المغرب ج 1 ص 215 . ومما يؤكد خطأ تلك الرواية ما ذكره البكرى فى مكان آخر بانه لقب « بأبى المنصور » . انظر : المغرب ص 150 . أما لقب « أبى المنتصر » فقد كنى به ابنه فيما بعد .

(91) اجمع المؤرخون على وفاة ابى المنصور اليسع سنة 208 هـ . انظر : البكرى : ص 149 ، ابن عذارى : ج 1 ص 210 ، ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 143 ، القلقشندى : ج 5 ص 165 . لكنهم اختلفوا فى تقدير سنى حكمه ، فابن عذارى يذكر انه ظل أميرا ثمانية وثلاثين عاما ، وابن خلدون يذكر أنه قضى فى الحكم اربعة عشر عاما ، وابن الخطيب يحدد مدة حكمه بثمانية أعوام . وسبب هذا الاختلاف يرجع الى اختلافهم حول تاريخ تقلده الامارة ، فابن عذارى يجعله سنة 170 هـ وابن خلدون يحدده بسنة 194 هـ وابن الخطيب يذكر أنه تولى الامارة سنة 200 هـ . والصحيح ما ذكره البكرى من أنه تولى الامارة سنة 174 هـ وظل بها أربعة وثلاثين عاما . انظر : نفس المصادر والصفحات .

(92) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص 80 .

(93) النفوسى : ج 2 صفحة 94 .

(94) البكرى : صفحة 150 .

(95) نفس المصدر والصحيفة ، ابن الخطيب : ج 3 ص 142 .

(96) ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، ابن خلدون : ج 6 ص 130 .

(97) البكرى : ص 150 ، ابن خلدون : ج 6 ص 130 .

(98) ابن خلدون : ج 6 صفحة 130 .

(99) البكرى : ص 150 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 142 .

(100) القلقشندى : ج 5 ص 165 ، النفوسى : ج 2 ص 94 .

بمبارحة سجلماسة وسكنى الصحراء . ثم أعاد بناء مسجدها الجامع واختط بها المصانع والقصور حتى استردت بهاءها وزينتها (101) وشرع فى تحصينها ببناء سور جديد انفق فيه اموالا طائلة بذلها من ماله الخاص (102) . وقد بنى اسفله بالحجارة واعلاه بالطوب (103) وجعل به اثنتى عشر بابا صنع معظمها من الحديد (104) . ولما انتهى من اتمام تعمير سجلماسة ، أعاد تقسيم خططها بين القبائل بما يكفل له الهيمنة على سائر اجزائها والسيادة على كافة سكانها (105) . بذلك استطاع ابو المنصور اليسع ان يحقق اهدافه واصبح لا ينازعه فى الامامة منازع . ومن هنا يمكن اعتبار حكمه عصر الازدهار والاستقرار فى تاريخ دولة بنى مدرار.

يؤكد ذلك تطلع جيرانه من بنى رستم الاباضية الى كسب وده ليأمنوا جانبه من ناحية ، وليضمنوا الاستقرار والامن لاخوانهم فى المذهب بسجلماسة من ناحية اخرى ، يفسر ذلك تزويج عبد الرحمن بن رستم احدى بناته لاحد ابناء ابى المنصور اليسع ويدعى مدرار، لربط الدولتين الخارجيتين بصلة المصاهرة (106) . وقد اثمرت تلك المصاهرة ، فاستكان الاباضية بسجلماسة لحكم ابى المنصور ودانوا بطاعته حتى وفاته سنة 208 هـ (823 م) .

لكن ثوراتهم اندلعت من جديد فى عهد مدرار بن ابى المنصور اليسع الذى خلف اباه وتلقب بالمنتصر (107) ، اذ ما لبث الصراع بين الاباضية والصفرية فى سجلماسة ان وجد طريقه الى البيت المدرارى .

وتجمع المصادر (108) على أن المنتصر مدرارا كان له ولدين يدعى كل منهما ميمونا ، احدهما من زوجته الرستمية والآخر من زوجة أخرى تدعى

---

(101) ابن خلدون : ج 6 ص 130 — 131 ، السلاوى : ج 1 ص 112 .
(102) ابن عذارى : ج 1 ص 216 ، ابن الخطيب ج 3 ص 143 .
(103) ابن عذارى : نفس المصدر والصحيفة .
(104) البكرى : صفحة 148 .
(105) نفس المصدر والصحيفة ، السلاوى : ج 1 ص 112 .
(106) النفوسى : ج 2 ص 94 ، Bel : Op. Cit. P. 168.
(107) ابن عذارى : ج 1 ص 216 ، القلقشندى : ج 1 ص 165 .
(108) البكرى : ص 150 ، ابن عذارى : ج 1 ص 216 .

بقية فعرف ابنها بميمون بن بقية (109) . وتضيف أن المنتصر كان يؤثر ابن الرستمية على اخيه حتى انه عهد اليه بولاية عهده (110) . وكان ذلك بداهة انتصارا لاباضية سجلماسة ، فازر صفريتها ميمون بن بقية ، ودخل الطرفان فى صراع استمر ثلاثة اعوام (221 — 224 هـ) (111) (835 — 838 م) كان المنتصر ابانها سليب الارادة . ثم اقدم المنتصر على خرق تقاليد الامامة فخلع نفسه وولى ابن الرستمية مكانه بعد طرده ابن بقية من سجلماسة (112) . واغضب هذا التصرف شيوخ الصفرية بالمدينة لانتهاكه تعاليم المذهب من ناحية ، ولخوفهم من وقوع البلاد تحت سيادة الاباضية (113) من ناحية اخرى ، فصمموا على خلع ابن الرستمية ، وتم لهم ما ارادوا . ويذكر النفوسى (114) ان ذلك تم بتحريض من ميمون بن بقية لرؤساء الصفرية ومقدميهم . غير انهم حين عرضوا عليه الامامة أبى واكتفى بطرد اخيه ابن الرستمية الى درعة (115) ، فاعادوا اباه مدرارا للامامة (116) .

لكن المنتصر ما لبث ان بعث فى طلب ابنه ابن الرستمية من درعة ليوليه الحكم مرة اخرى ، وعندئذ أرغمه الصفرية على التنحى وبايعوا ميمون بن بقية سنة 224 هـ (117) (838 م) ولقبوه بالامير (118) . وبادر ميمون الامير بطرد أبيه من سجلماسة الى بعض القرى (119) ، فظل بها حتى وفاته سنة 253 هـ (867 م) (120) .

---

(109) ثمة تحريف ببعض المراجع فى اسمى زوجتى المنتصر . فمن المعروف ان الرستمية تدعى « أروى » والاخرى تسمى « بقية » لكن ابن الخطيب يطلق على الاولى « هنو » والثانية « تقية » . كما نجد عند ابن خلدون والسلاوى تحريفا لكلمة « بقية » الى « بغى » والصواب ما ذكره البكرى وابن عذارى . أنظر : اعمال الاعلام ج 3 ص 143 ، العبر ج 6 ص 131 ، السلاوى : ج 1 ص 112 .

(110) النفوسى : صفحة 295 .

(111) ابن عذارى : ج 1 صفحة 216 .

(112) البكرى : ص 150 ، ابن عذارى : ج 1 ص 216 .

(113) النفوسى : صفحة 95 .

(114) الازهار الرياضية : ج 2 صفحة 95 .

(115) ابن خلدون : ج 6 صفحة 131 .

(116) البكرى : ص 150 ، ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، القلقشندى : ج 5 ص 165 .

(117) البكرى : صفحة 150 .

(118) ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، السلاوى : ج 1 ص 112 .

(119) ابن عذارى : ج 1 صفحة 139 .

(120) ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، القلقشندى : ج 5 ص 166 .

وبقى ميمون اميرا حتى توفى سنة 263 هـ (121) (877 م) . ولا نعلم شيئا من اخباره الا ما ذكره ابن خلدون (122) من انه كان مستبدا فى حكمه وكان مضطرا الى ذلك ليواجه فتن الاباضية ومؤامراتهم . ويبدو أن جمهورهم هجر سجلماسة الى درعة لاستجماع قواهم ومناصرة ميمون ابن الرستمية على الظفر بالامارة ، وهذا ما حدا بمحمد بن ميمون الامير أن يقتفى اثرهم ويناهض حركاتهم ، اذ يخبرنا ابن الخطيب (123) بأنه « غزا وطهر بلاد القبلة » . ويبدو أنه استأصل شأفة الاباضية فى هذه الاصقاع ، فلم نسمع عن حركات لهم طوال حكمه وقد توفى سنة 270 هـ (124) (884 م) . ويخيل الينا أن الدولة المدرارية فى ذلك الحين تخلصت من مشاكلها الداخلية وحققت الامن والهدوء فى سائر ربوعها ، فانصرفت الى التوسع خارج حدودها وقد اضطلع بتلك المهمة خليفة الامير محمد بن ميمون ويدعى اليسع بن ميمون بن مدرار بن اليسع بن أبى القاسم (125) الملقب بالمنتصر (126) .

وبديهى أن يتطلع اليسع الى ضم صفرية مطغرة لدولته ويوحد صفرية المغرب الاقصى تحت لوائه ، وجدير بالذكر أن مطغرة اذ ذاك كانت تحت حكم الادارسة الذين اسرفوا فى اضطهاد الصفرية داخل دولتهم ، ومن المحتمل أن يكون شيوخها قد اتصلوا بالعاهل المدرارى لتحريرهم باعتباره امام الصفرية ببلاد المغرب . ويذكر ابن الخطيب (127) أن اليسع المنتصر عقد العزم على الاضطلاع بتلك المهمة ، فشرع فى تجنيد الجيوش لهذا الغرض، ولم يثنه عن عزمه سوى مداهمة الخطر الشيعى سجلماسة نفسها .

ففى عهده وقعت حادثة الغزو الشيعى لسجلماسة التى انتهت بقتل اليسع وسقوط الدولة المدرارية سنة 297 هـ (911 م) وهو ما سنفصله فى الباب الرابع .

وهكذا ــ لعبت الخلافات العنصرية والقبلية والمذهبية دورا موجها فى سياسة دولة بنى مدرار الداخلية .

---

(121) البكرى : ص 150 . ابن عذارى : ج 1 ص 216 .
(122) العبر : ج 6 صفحة 131 .
(123) اعمال الاعلام : ج 3 صفحة 144 .
(124) نفس المصدر صفحة 145 .
(125) البكرى ص 150 ، ابن عذارى : ج 1 ص 216 .
(126) ابن عذارى : ج 1 صفحة 216 .
(127) اعمال الاعلام : ج 3 صفحة 145 .

جـ - علاقات بني مدرار الخارجية

كانت دولة بنى مدرار دولة داخلية صحراوية ، فلم تسهم بدور كبير فى احداث عصرها ، بل انصرف هم امرائها الى الحفاظ على استقلالها السياسى ، ومذهبها الدينى ، ومصالحها الاقتصادية . لكنها مع ذلك لم تكن بمنأى عن التيارات السياسية فى العالم الاسلامى عموما وفى بلاد المغرب بوجه خاص ، فكان على امرائها ان يتخذوا موقفا — ان وديا وان عدائيا — حيال القوى الاسلامية الكبرى او ما يدور فى فلكها من الدول الصغرى ببلاد المغرب . حقيقة ان دورهم كان سلبيا على وجه العموم ، ونادرا ما بادروا بالخروج عن دائرة العزلة السياسية التى فرضتها طبيعة بلادهم الجغرافية ، ومع ذلك يمكن ان نشير الى علاقاتهم السياسية بطابعها الودى او العدائى ، وبجوانبها السلبية او الايجابية مع كافة القوى الاسلامية المعاصرة فى بلاد المغرب ، فضلا عن الدولة العباسية والاندلس وبلاد السودان (128) .

على كل حال — كانت سياسة بنى مدرار الخارجية تسير فى اتجاهين بارزين ، عاقات عدائية تجاه الخلافة العباسية ودولة الاغالبة ودولة الادارسة ، ثم علاقات ودية مع بنى رستم والامويين بالاندلس .

ا — العلاقات العدائية :

1) بنو مدرار والعباسيون :

اتخذت علاقات بنى مدرار بالخلافة العباسية وعمالها فى المغرب

(128) ذكر لورنل — وهو صاحب اكبر واشمل مؤلف فى تاريخ المغرب — معلقا على سياسية بنى مدرار الخارجية « نحن لا نعلم ثمة علاقات خارجية لهذه الاسرة اللهم الا عن صلاتها مع دولة الاغالبة » ، انظر : Les Berbers. Vol. 2. P. P. 24 - 25.

طابعا عدائيا . حقيقة أن هذا العداء لم يصل الى درجة قيام الحروب بين ائمة سجلماسة وامراء القيروان ، فقد شغل كل منهم بمشاكله الذاتية عن مناجزه خصومه ، وحالت الظروف السياسية والعوامل الجغرافية دون تناحرهم ، فانصرف هم الخلافة وعمالها الى الاحتفاظ بافريقية واسقطوا اقاصى بلاد المغرب من حسابهم بعد أن انسلخت تماما عن نفوذهم . كما آثر الأمراء المدراريون حياة الهدوء والموادعة داخل بلادهم النائية بعد ما تعرضت له حركات الخوارج على ايدى ولاة بنى العباس منذ ولاية محمد ابن الاشعث حتى عهد هرثمة بن اعين . ومن ثم قنع العباسيون باستخلاص افريقية وحمايتها من اخطار الخوارج ، كما زهد أمراء سجلماسة فى مناجزة ولاة القيروان ، ولم يكلفوا انفسهم مشقة اعداد الجيوش بسجلماسة فى أقصى الجنوب لخوض حروب غير مأمونة العواقب فى أقصى الشمال ، وانصرفوا لمواجهة المشاكل الداخلية فى دولتهم ، فضلا عن الاهتمام بمصالحهم التجارية كوسطاء فى حركة التجارة عبر الصحراء شرقا وشمالا وجنوبا .

وقد ادى هذا الى ان بعض المؤرخين اعتبروا أمراء سجلماسة عمالا للعباسيين بسبب عزوف الطرفين عن محاربة بعضهما البعض ، فيذكر مرسييه (129) ان « بنى مدرار كانوا يعترفون بالتبعية للعباسيين » أما فورنل (130) فيقرر « ان أمراء سجلماسة كانوا يدعون لبنى العباس » . وكذلك بل (131) فانه يقول « وليس غريبا ان يدخل امراء سجلماسة فى علاقات التبعية للعباسيين رويدا رويدا » . وربما كان بروفنسال (132) اكثر انصافا فى قوله « كان المدراريون فى كثير من فترات حكمهم يتبعون بغداد اسميا » . ويخيل الينا أن هؤلاء المؤرخين قد اعتمدوا على نصين عند ابن خلدون ، ذكر فى أحدهما (133) أن أبا القاسم سمكو بن واسول « خطب فى عمله للمنصور والمهدى من بنى العباس » ، وفى الآخر (134) أن « الشاكر لله اعلن ولاءه لبنى العباس عندما قام بحركته ضد الفاطميين ». كما اعتمدوا ايضا على رواية اخرى مشكوك فيها تفيد ان اليسع بن مدرار

---

(129) Histoire de Constantine P. 92.

(130) Les Berberes. Vol. 2. P. 22.

(131) La religion musulmane. Vol. I. P. 168.

(132) Histoire de l'Espagne Musulmane. Vol. I. P. 249.

(133) العبر ج 6 ص 130 ، السلاوى : ج 1 ص 112 .

(134) نفس المصدر صفحة 131 .

امير سجلماسة اودع عبيد الله المهدى السجن على اثر رسالة من الخليفة العباسى يامره فيها بالقبض عليه .

واذا صح ما ذكره ابن خلدون من خطبة ابى القاسم سمكو للمنصور والمهدى فى سجلماسة ، فانه قد فعل ذلك خوفا من عمال الخلافة فى المغرب من امثال يزيد بن حاتم وخلفائه ممن عرفوا بالقوة والبطش فى ملاحقة حركات الخوارج . واقدام ابى القاسم على هذا العمل يدخل فى اطار « مبدأ التقية » الذى تجيزه تعاليم المذهب الصفرى (135) تحاشيا لاخطار محدقة بدولته وهى لم تزل فى المهد .

اما مناداة الشاكر لله بالدعوة لبنى العباس ، فمن المعتقد أنها كانت لهدف سياسى هو تأليب أهل السنة ببلاد المغرب ضد الفاطميين الشيعة ، وهو ما فعله ابو يزيد مخلد بن كيداد فى ثورته على الفاطميين .

وحسبنا ان الشاكر لله ضرب العملة باسمه — من دون الخليفة العباسى (136) — كما لقب نفسه « امير المؤمنين » (137) ، بما يؤكد صدق قول القلقشندى (138) « فدعا لنفسه مموها بالدعاء لبنى العباس ».

اما عن الرواية المتواترة عن حبس اليسع بن مدرار للمهدى بسجلماسة وفقا لمشيئة الخليفة العباسى فالمعتقد انها مشوبة بالخلط والاضطراب الامر الذى يشكك فى صحتها . يقول ابن خلدون (139) « .. ولحق عبيد الله الشيعى وابنه ابو القاسم بسجلماسة لعهده ، وأوعز المعتضد اليه فى شانهما — وكان على طاعته — فاستراب بهما وحبسهما » بينما يذكر فى مقدمته (140) أن « المعتضد أوعز الى الاغالبة أمراء افريقية بالقيروان وبنى مدرار بسجلماسة بأخذ الآفاق عليهما (المهدى وابنه) واذكاء العيون فى طلبهما ، فعثر اليسع صاحب سجلماسة من آل مدرار على خفى مكانهما ببلدة واعتقلهما مرضاة للخليفة » . وفى رواية ثالثة (141)

---

(135) انظر الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص 51 .

(136) انظر : Lavoix : Catalogue des monnaies musulmane, P. 402.

(137) صبح الاعشى : ج 5 ص 167 ، Lane-Poole : Catalogue of the collection of Arabic coins. P. 328.

(138) نفس المصدر والصحيفة .

(139) العبر : ج 6 صفحة 131 .

(140) مقدمة ابن خلدون : ج 1 صفحة 240 .

(141) العبر : ج 3 صفحة 363 .

يقول ابن خلدون « وذهب عبيد الله الى سجلماسة وبها اليسع بن مدرار فأكرمه ثم جاء كتاب زيادة الله ، ويقال كتال كتاب المكتفى بأنه المهدى الذى داعيه فى كتامة فحبسه » .

ولا يمكن ان تكون هذه الروايات المضطربة ذريعة للقول بأن العلاقات كانت ودية بين بنى مدرار وبين العباس كما ذهب بل (142) . والاكثر غرابة ان يقال ان « امير سجلماسة كان سنيا » (143) .

ومكمن الاضطراب فى روايات ابن خلدون قوله فى اولى رواياته أن الخليفة المعتضد هو الذى اوحى الى ابن مدرار بالقبض على المهدى ، بينما يذكر فى روايته الثالثة ان ابن مدرار استجاب لطلب الخليفة المكتفى وليس المعتضد . فضلا عن ذلك فان هذه الروايات لا تحدد ما اذا كان الخليفة العباسى أم الامير الاغلبى هو الذى بعث بكتبه ليستحث اليسع بن مدرار القبض على المهدى ، ومهما كان الامر فان عبيد الله المهدى كان معروفا لدى امير سجلماسة الذى كان يجله ويكرمه (144) ، وكان المهدى يغدق الهدايا والصلات على حكام البلاد الذى مر بها او اقام فيها ، « فمنهم من لم يعرفه واكرمه لذلك ، ومنهم من عرفه وترك التعرض له لما كان منه اليه ، ومنم من عرفه وقدره » (145) . ولم ينكر المهدى نسبه وانه « يدعو الى الرضى من آل محمد » حين سأله ابن مدرار ، بل كتم عنه صلته بداعيته ابى عبد الله الشيعى ونفى معرفته له (146) .

ويخيل الينا أن ابن مدرار حين قبض عليه وحبسه لم يقصد بذلك « مرضاة الخليفة » أو لانه « كان على طاعته » كما ذهب ابن خلدون ، بل اقدم على ذلك حين علم « بأنه هو الذى يدعو الى بيعته أبو عبد الله الشيعى بافريقية » (147) ، الذى كان خطرا على سائر دول المغرب هددها بالزوال (148) . وقد نمى ذلك الى علمه « من جهات كثيرة » (149)

---

(142) انظر : La religion musulmane en Berberie. P. 156.
(143) انظر : حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص 54 .
(144) شرح الاخبار ص 31 ، ابن الاثير : ج 8 ص 13 ، Fournel : Op. Cit. Vol. 2. P. 70, Mamour : Op. Cit. P. 107.
(145) شرح الاخبار : صفحة 32 .
(146) نفس المصدر والصحيفة .
(147) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج 1 ص 272 .
(148) شرح الاخبار : صفحة 32 .
(149) نفس المصدر والصحيفة .

وليس عن طريق الخلافة العباسية وحدها .

قصارى القول ان واقعة المهدى بسجلماسة لا تدل على تبعية آل مدرار لبنى العباس بقدر ما تدل على خوف الامير المدرارى على دولتـه من الخطر الشيعى الجديد . فالقول بتبعية الأسرة المدراريـة للخلافـة العباسية أمر يتعارض والظروف السياسية التى قامت فيها دولة بنى مدرار ، كما لا يستقيم مع طابعها الدينى المذهبى المتطرف ، وواقع صلاتها السياسية بالقوى المعادية لبنى العباس .

فقيام دولة بنى مدرار بسجلماسة كان على حساب النفوذ العباسى فى بلاد المغرب ، فاقتطع هذا الجزء نهائيا عن سلطان الخلافة ، واستقل به أمراء بنى مدرار « عن ولاة القيروان والعرب » (150) « وخلعوا طاعة الخلفاء » (151) . ولما كانت دولة بنى مدرار بمثابة مجمع للخوارج الصفرية اساسا ، فقد غلب عليها الطابع الدينى المذهبى ، وجدير بالذكر ان مذهب الخوارج عموما لا يعترف بامامة بنى العباس باعتبارهم مغتصبين للخلافة « وكلهم يجب الخروج عليهم ومقاتلتهم وعزلهم ان امكن او قتلهم » (152). واذ لم يكن بمقدور صفرية المغرب الاقدام على ذلك ، فلا اقل من مناصبتهم العداء وانكار شرعية امامتهم . وليس من المقبول ان يدين صفرية سجلماسة لبنى العباس فى الوقت الذى كان اخوانهم فى المذهب يعانون من سطـوة الخلافة بالشرق ، ففى السنوات 162 هـ ، 169 هـ ، 171 هـ ، 178 هـ (779 ، 786 ، 788 ، 895 م) عمد العباسيون الى استئصال شأفـة الخوارج الصفرية فى قنسرين وارض الموصل والجزيرة وارض السواد ، فأبادوا جموعهم وقتلوا زعماءهم وبطشوا بجيوشهم (153) . واستمرت تلك السياسة طوال القرن الثالث الهجرى حتى ضعفت شوكة الخوارج الصفرية فى الشرق الاسلامى (154) . ولا غرابة بعد ذلك اذ اضمر امراء بنى مدرار بسجلماسة العداء للخلافة العباسية وعمالها فى المغرب واقدموا على مشايعة الد اعدائها وهم بنو امية بالاندلس .

---

(150) ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، السلاوى : ج 1 ص 112 ، كولن : مادة سجلماسة بدائرة المعارف الاسلامية : ص 289 .

(151) القلقشنـدى : ج 5 صفحـة 164 .

(152) البغدادى : الفرق بين الفرق : ص 273 ، احمد امين : ضحى الاسلام ج 3 ص 337 ، Bel : Op. Cit. P. 168.

(153) انظر : ابن الاثير : ج 6 ص 162 ، 169 ، 171 ، 178 .

(154) نفس المصدر : ج 7 ص 61 ، 67 ، 74 ، 75 ، 119 ، 155 ، 156 ، 157

2 ـ بنـو مـدرار والاغالبـة :

من الطبيعى أن تكون علاقات الاغالبة ببنى مدرار امتدادا لعلاقات بغداد بسجلماسة ، فدولة الاغالبة التى قامت بافريقيـة سنـة 184 هـ (800 م) كانت تدين بالولاء السياسى والتبعية الاسمية للخلافة العباسية على الرغم مما تمتعت به من استقلال ذاتى ، وحسبنا أنها كانت تمثل البقية الباقية لنفوذ الخلافة فى بلاد المغرب وقاعدتها لاسترداد سلطانها المفقود فى هذه الجهات . ولا غرو فقد سمح الرشيد بقيام هذه الدولة حرصا منه على استمرار نفوذه فى افريقية من ناحية واسترداد هذا النفوذ فى الاجزاء التى انسلخت عنه من ناحية أخرى لو استطاع الاغالبة الى ذلك سبيلا (155) . ومن ثم عادى الاغالبة أعداء الخلافة فى المغرب ومنهم بنو مدرار .

لكن الذى لا شك فيه أن هذا العداء لم يبلغ حد التناحر والصراع بين الدولتين، فانصرف الاغالبة عن مشاكل المغرب لتحقيق أهدافهم التوسعية فى حوض البحر المتوسط . وربما كان وجودهم وسط حشد من الاعداء (156) دافعا لهم على تولية الظهر للقارة والاتجاه الى البحر ، وبديهى أن يخفف هذا الاتجاه من حدة عدائهم لبنى مدرار وخاصة أن الاخيرين كانوا بعيدين عن متناول خصومهم ،حيث قامت الدولة الرستمية حائلا بين الطرفين (157) وتعرضت بذلك للاحتكاك مع الاغالبة .

واذا كانت دولة بنى مدرار قد سلمت من مناجـزة أمـراء القيروان وتطاولهم ، فذلك لا يعنى انتفاء عداوتهم ، أو بمعنى آخـر لم يكن عـدم قيام الحروب بين سجلماسة والقيروان دليلا على الود المتبادل كما ذهب فورنل (158) . والحقيقة ان كلا من الطرفين لم يعبأ بالآخر طالما لم يكن بوسعه أن يسير الجيوش لقتاله ، ومن ثم اتخذت عداوتهما طابع الاغفـال وعـدم الاكتـراث .

ومن الخطأ ان يفسر ذلك على أنه استكانة من جانب بنى مـدرار

(155) الاصطخرى : ص 37 ، Vonderhey den : Op. Cit. P. 8.

(156) كانت دولة الاغالبة محاطة بعديد من القبائل المعادية سياسيا ومذهبيا ، وهـذه القبائل هى بنو يفرن الصفرية وأوربة الادريسية ، ولماية ونفوسة الاباضية الوهبية ، وهوارة النكارية ، وزواغة الخلفية ، وكتامة الشيعية الاسماعيلية . انظر : Masqueray : Op. Cit. P. 195.

(157) انظـر الخـريطـة .

(158) راجـع : Les Berberes Vol. 2. P. 22.

وقناعة منهم بالتبعية للاغالبة ، فقد ذهب ابن أبى دينــار (159) الى أن « اليسع بن مدرار كان يحكم سجلماسة لبنى الاغلب » . ويخيل الينا انه استنتج هذا القول من حادثة القبض على عبيد الله المهدى بسجلماسة على اثر رسالة بعثها الامير زيادة الله بن الاغلب وفقا لرواية بعض المصادر (160) او أرفقها برسالة أخرى للخليفة العباسى فى رواية أخرى (161) . وقــد سبق أن ذكرنا أن الامير المدرارى أقدم على سجن المهدى اتقاء للخطــر الشيعى الذى هدد دولته . لقد كان قبض اليسع على المهــدى وسجنــه بسجلماسة من قبيل التوافق غير المقصود بين اهداف الخلافة والامارة وبين مصالح الاسرة المدرارية التى تهددها خطر الشيعة ، ولا يعنى هذا الحدث وجود أدنى نفوذ للأغالبة على أمراء بنى مدرار .

لقد كان الخلاف السياسى والمذهبى بين الامارتين الاغلبية والمدرارية يحول دون أدنى تقارب بينهما ، ولا غرو فقد هادن بنو مدرار جيرانهــم الرستميين كيما يتفرغوا لمواجهة الاغالبة عدوهم المشترك . كما التقوا بأموى الاندلس للوقوف امام اطماع الاغالبة فى المغــرب والحيلولــة دون تسربهم الى ما وراء حدود افريقية . ولعل من أهم ما يبرز أسباب الجفوة والعداء بين المدراريين والاغالبة ما تعرض له الخوارج الصفرية من بطش واضطهاد فى القيروان ، فقد كان اعتناق المذهب الصفرى تهمة تصم صاحبها بالمروق والعصيان والزندقة (162) . وعلى الرغم مما يقال (163) عــن تسامح الاغالبة مع أهل المذاهب الاخرى بالقيروان ، فقد تعرض الصفرية — بوجه خاص — لاضطهاد شديد — بعد ولاية سحنون قضاء القيروان — فقد حظر عليهم الاجتماع والصلاة فى المسجد الجامــع (164) ، وبــددت حلقاتهم (165) ، كما منعوا من تعليم الصبيان وتأديبهم (166) ، وتعرض من خالف ذلك لمزيد من البطش والتعنيف (167) .

---

(159) المؤنس فى أخبار افريقية وتونس ص 49 .
(160) انظر شرح الاخبار — ملحق (1) ص 32 من كتاب :
Ivanova : Ismaili tradition.., Mamour : Op. Cit. P. 107.
(161) افتتاح الدعــوة . ص 43 ، ابن خلدون : ج 3 ص 363 ، المقريــزى : اتعــاظ الحنفا ص 84 ، الخطط : ج 1 ص 350 .
(162) أبو العرب تميم : طبقات علماء افريقية : ص 80 .
(163) انظر : حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية : ج 1 ص 58 .
(164) أبو العرب تميم : المرجع السابق ص 102 .
(165) المالكى : رياض النفوس . ج 1 ص 276 .
(166) الدباغ : معالم الايمان . ج 2 ص 55 .
(167) أبــو العــرب تميم صفحــة 102 .

كل ذلك قمين بأن يذكى العداء بين بنى مدرار والاغالبة ، وينفى بشكل قاطع أى قول بوجود علاقات ودية بينهما ، كما يدحض الزعم القائل بتبعية امراء سجلماسة لبنى الأغلب .

3 ـ بنو مدرار والادارسة :

تحفل المراجع بكثير من القرائن والشواهد (168) التى تؤكد طابع العداء الصارخ بين بنى مدرار والأدارسة ، فقد قامت دولة الأدارسة بالمغرب الاقصى سنة 172 هـ (789 م) على حساب نفوذ الخوارج الصفرية، اذ نعلم أنهم اقتطعوا هذه الجهات عن نفوذ الخلافة وولاتها بالقيروان منذ ثورة ميسرة سنة 121 هـ (739 م) . فلما نجح ادريس الاول فى اقامة دولته ،ذوى شأن الصفرية فيها وتعرضوا للبطش والاضطهاد من جانب آل ادريس ،وزاد هذا العداء (169) حدة بسبب الخلاف المذهبى، فالادارسة من الشيعة الزيدية ، وبنو مدرار من الخوارج الصفرية ، ولا يخفى العداء التقليدى بين الشيعة والخوارج .

لا ننكر وجود حاجز جبلى يفصل بين الدولتين ، وأن الطبيعة الجبلية فى المغرب الأقصى شكلت نوعا من الحماية لكلتى الدولتين (170) الى حد كبير ، لكن ذلك لم يكن عائقا دون امكانية غزو احداها للاخرى . فثمة طريق ممهد يبدأ من « فاس الى صفرو فقلعة مهدى فتادلة فوادى شعب الصفا » ثم يمر عبر الجبل الكبير الى الجنوب حيث توجد سجلماسة (171) . وكانت القوافل ترتاد هذا الطريق فتخرج « من باب الغوارة بفاس الى مدينة سجلماسة » (172) حيث تتوافر الزروع والمياه فى اقليم اغمات الموجود على يساره (173) . بل لا يخالجنا شك فيما ذهب اليه جورج

---

(168) ذهب بعض الدارسين الى صعوبة تتبع علاقات بنى مدرار بالادارسة بسبب ندرة المعلومات . انظر : حسن عبد العواد : دولة الادارسة ص 250 ؛
Basset : Op. Cit. P. 333.

(169) اخطأ البعض حين انتهى الى أن « حسن الجوار كان العلاقة السائدة بين دولة الادارسة ودولة سجلماسة » . انظر : حسن عبد العواد : دولة الادارسة صفحة 253 .

(170) ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار ج 5 قسم 2 ورقة 17 ـ مخطوط .

(171) الادريسى : صفحة 76 .

(172) ابن أبى زرع : صفحة 53 .

(173) ابن حوقل : صفحة 65 .

مارسيه (174) بأن « ادريس الاول وخلفائه كانوا عازمين على أستئصال شأفة صفرية تافيلالت » . ويخيل الينا أنهم عزفوا عن تحقيق ذلك بسبب صراعهم الحاد مع الاغالبة الذين نجحوا فى اثارة القلاقل وحيك المؤامرات فى وجه ائمة فاس ، فاغتالـــوا ادريس الاول (175) والثـــانـــى (176) ، ومولاهما (177) راشد والبوا وزراءهم وكبار دولتهم عليهم ، واستمالـــوا بعضهم الى جانبهم (178) . كذلك كان ضعف الدولة بعد موت ادريس الثانى ونشوب الخلافات بين أفراد الاسرة الادريسية (179) من أسباب تقاعس الادارسة عن غزو سجلماسة ، واكتفائهم بتصفية نفوذ الصفرية داخـــل دولتهم ، فضلا عن استقطاع بعض أطراف الدولة المدرارية .

أما عن بنى مدرار ، فلم يكن بوسعهم — أمام مشاكلهم الداخلية — الشروع فى تدبير غزو بلاد الادارسة خاصة فى عهدى ادريس الاول والثانى . وحين اتيح لهم القيام بهذا الدور فى عهد اليسع بن مدرار ، دهمه الخطـــر الفاطمى الذى قضى على بنى مدرار والادارسة معا . لكن بنى مدرار لم يعدموا وسائل الكيد والدس لجيرانهم ، واثارة القلاقل فى دولتهم عن طريق صنائعهم من الصفرية فى الدولة الادريسية .

وقد اتخذ هذا العداء السياسى بين فاس وسجلماسة مظاهر من الفعل ورد الفعل ، كان الادارسة يمسكون فيها بزمام المبادرة ، بينما لاذ بنو مدرار ازائها بالصمت حينا وتصدوا لمواجهتها حينا آخر .

وتجلت مظاهر العداء فيما قام به ادريس الاول من حملات لاستئصال شأفة صفرية تلمسان من بنى يفرن الزناتيين (180) بعد ان بايعته القبائل الصفرية الاخرى قسرا ، ومن بينها بعض بطون مكناسة (181) .

ففى منتصف رجب من عام 173 هـ (790 م) توجه ادريس على

---

(174) La Berberie Musulmane et l'orient. P. 124.

(175) ابن ابى دينار : المؤنس : ص 99 ، اطفيش : الامكان ص 81 .

(176) ابن الابـــار : الحلـــة السيراء ص 200 .

(177) ابـــن خلـــدون : ج 4 صفحـــة 13 .

(178) النـــويـــرى : ج 22 ورقـــة 28 .

(179) البكـــرى : صفحـــة 123 .

(180) اطفيش : الامكـــان ، صفحـــة 57 .

(181) ابن خلدون ج 4 ص 12 ، محمد على السنوسى : الدرر السنية : ص 44 .

رأس حملة الى تلمسان وأخضع أهلها دون عناء (182) ، وظل مقيما بها حتى عام 174 هـ (791 م) ليوطد نفوذه فيها . ثم أسند حكمها الى أخيه سليمان (183) ، وعاد الى وليلى . وهكذا قدر له الاستيلاء على كل معاقل الصفرية فى بلاد المغرب الاقصى فيما عدا سجلماسة . غير أن اغتياله المفاجىء شجع صفرية تلمسان على الانتفاض ، وظلوا خارجين على الادارسة حتى عام 197 هـ (813 م) حين عول ادريس الثانى على اعادتهم الى طاعته ، فأعد الحملة التى جهزها « لمحو آثار دعوة الخوارج الصفرية » (184) فى تلك السنة واستمر يحاربهم طيلة ثلاث سنوات (185) الى أن ادعنوا لطاعته (186) .

ولم يستطع صفرية سجلماسة مديد العون لاخوانهم بتلمسان واستنقاذهم من ضربات الادارسة ، ويعزى ذلك الى استحالة الاتصال بين سجلماسة وتلمسان الا عبر أراضى الدولة الادريسية ، فكان الطريق اليها يمر بدرعة واغمات وتادلا وفاس ومنها الى تلمسان (187) .

وعول خلفاء ادريس الثانى على اقتطاع الاجزاء المجاورة لدولتهم والتابعة لبنى مدرار ، فتمكن عبد الله بن ادريس — الذى تولى اغمات والسوس الاقصى وبلاد نفيس — من مد نفوذه على صنهاجة اللثام الضاربة حول سجلماسة واستولى على بعض الحصون التابعة لبنى مدرار (188) . كما اقتطع يحيى بن ادريس بلدة تامدلت — قرب درعة — وهدد بحرمان بنى مدرار من مناجم درعة الغنية بالذهب والفضة (189) .

وتمثل رد الفعل من جانب بنى مدرار فى تحريض الصفرية فى فاس

---

(182) ابن أبى زرع القرطاس : ص 22 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I P. 475.

(183) نفس المصدر والصحيفة .

(184) ابن خلدون : ج 4 ص 13 ، عبد الرحمن بن زيدان : اتحاف أعلام الناس : ج 2 ص 19 .

(185) ابن أبى زرع : ص 69 ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ج 3 ص 198 ، السنوسى : الدرر السنية . ص 59 .

(186) المنيش : الامكان : ص 57 ، Masqueray Op. Cit. P. 172.

(187) الادريسى : صفحة 81 .

(188) اليعقوبى : البلدان ص 359 ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 71 .

(189) اليعقوبى : نفس المصدر والصحيفة .

على الثورة ضد الامير على بن عمر بن ادريس . وبالفعل نجح أحد صنائعهم ويدعى عبد الرزاق الصفرى فى لم شمل صفرية مديونة وغياثة ومكناسة وغيرهم ، واستولى على مدينة صفروى ـــ جنوبى فاس ـــ وبايعه كافة الصفرية في نواحيها ، ثم اتجه بجموعه الى فاس وهزم على بن عمـــر ابن ادريس الذى فر لائذا بقبيلة أوربة ، وتمكن عبد الرزاق من دخـــول العاصمة ، وخطب له على منابر عدوة الاندلسيين . لكن حركته لم تستمر طويلا ، فقد استدعى أهل عدوة القرويين يحيى بن القاسم بـــن ادريس المعروف بالعدام وبايعوه بالامامة . وتمكن العدام من طرد عبـــد الرزاق الصفرى من عدوة الأندلسيين ، وظل يقاتل الصفرية فى عدة وقائع حتى فل شوكتهم وقتل زعيمهم سنة 293 هـ (907 م (190)) ونحن نرجح ما ذهب اليه جورج مارسيه (191) من أن حركة عبد الرزاق الصفرى هذه كانت من تدبير بنى مدرار فى سجلماسة ، ومما يرجح ذلك قيامها فى المناطق المجاورة للامارة المدرارية وامتدادها الى الشمال حتى وصلت الى قصبـــة دولـــة الادارسة .

ولعل ما احدثته تلك الحركة من تصدع فى دولة الادارسة ، ومـــا وصلت اليه دولة بنى مدرار من قوة واستقرار على عهد اليسع بن مدرار هو ما جعل الأمير المدرارى يعد العدة لبسط نفوذه على اخوانه فى المذهب المقيمين داخل الدولة الادريسية . فعول على تجهيز جيش يغزو به دولة الادارسة لتحقيق هذه الغاية ، لكن جهوده فى هذا الصدد لم تتم بسبب تعرض بلاده للخطر الشيعى (192) . . وهكذا غلب طابع العداء على العلاقات السياسية بين سجلماسة وفاس .

ب ـــ العـــلاقـــات الوديـــة :

1) بنـــو مـــدرار والرستميون :

اتخذت علاقات بنى مدرار ببنى رستم طابعا وديا ، تمثل فى سياسة حسن الجوار التى حرص كل منهم على مراعاتها . ومن ثم انعدمت الحروب

---

(190) انظر : البكرى : ص 125 ، ابن أبى زرع : ص 112 ـــ 115 ، ابن خلدون : ج 4 ص 15 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 208 ـــ 209 ، السلاوى : ج 1 ص 162 ـــ 164 ، سلفاتور كوسا : تواريخ مدينة فاس ص 6 ،
Masqueray : Op. Cit. P. 172.

(191) La Berberie Musulmane. P. 126.

(192) ابن الخطيب : اعمال الاعلام : ج 3 ص 145 .

بينها على الرغم مما كان بين الصفرية والاباضية من تنافر وصل الى درجة الصراع ابان ثورات الخوارج فى بلاد المغرب .

وفى تقديرى أن هذا التقارب مرتبط بالظروف السياسية القاسية التى واجهتها حركات الخوارج فى المغرب على اثر الحملات الضخمة التى عكف بنو العباس على انفاذها لقمع ثورات الخوارج فى المغرب ابتداء بحملة ابن الاشعث سنة 141 هـ (758 م) ، تلك الظروف الصعبة التى أحدثت تحولا عمليا فى سياسة الخوارج فى المغرب حيث لجأوا الى أقاصى الجنوب ، واقاموا دولتين متجاورتين احداهما للصفرية فى سجلماسة سنة 140 هـ (757 م) والاخرى فى تاهرت للخوارج الاباضية سنة 162 هـ (779 م) .

فوحدة الظروف السياسية المتمثلة فى العداء لبنى العباس وعمالهم بالقيروان وكذلك الادارسة ومصادقة أموى الاندلس ، ووحدة الظروف الجغرافية والتشابه فى نمط الحياة القائمة على البداوة واختلاط القبائل وانتقالها بين الدولتين المتجاورتين ، فضلا عن وحدة المصير ، كل ذلك حدا ببنى مدرار وبنى رستم الى الموادعة وتحاشى الشقاق والخلاف وكل ما يوجب الخصومة والعداء (193) . لكن الثابت أن العلاقة بينهما لم تتعد مجرد تجنب الخصومة والعداء ، فلم تتطور الى مرحلة التحالف أو حتى التعاون المشترك بسبب الخلاف المذهبى والعداء التقليدى بين الصفرية والاباضية فى المغرب . وعمدت الدولتان الى تجنب الحروب وتحاشى التدخل فى الخلافات التى كانت تنشب بين الاقليات الاباضية فى سجلماسة وبين أمراء بنى مدرار ، أو تلك التى حدثت بين صفرية تاهرت وبين أئمتها (194)، فقد صم حكام كل دولة آذانهم عما تعرض له اخوانهم فى المذهب داخل الدولة الاخرى حرصا على السلام .

فالمعروف أن عدة آلاف من الاباضية اقاموا بدولة بنى مدرار (195) ، وقد سبقت الاشارة الى دورهم فى مناهضة أمراء بنى مدرار ، وطمعهم فى السلطة ، وما قام به أمراء سجلماسة من قمع حركاتهم والبطش بهم . وحسبنا انهم كانوا موالين لرؤسائهم من مشايخ المذهب بتاهرت أكثر من ولائهم للدولة التى كانوا يعيشون فى كنفها ، فقد درجوا على ارسال زكاة

(193) النفوسى : ج 2 صفحة 94 .
(194) ابن الصغير : صفحة 52 .
(195) النفوسى : ج 2 صفحة 94 .

اموالهم الى مشايخهم بتاهرت ليصرفوها حيث شاؤا (196) . ولا مراء فى ان مشكلة الاقلية الاباضية فى دولة بنى مدرار كانت اهم المشاكل التى واجهها امراء سجلماسة على الاطلاق .

كذلك لم تخل تاهرت من وجود اقلية من الخوارج الصفرية لهـا وزنها (197) . وقد استقرت غالبيتهم فى حصن « تالغمت » المشرف على المدينة (198) وبديهى أن يسهموا فى احداث الدولة الداخلية ويقفوا موقف المعارضة من ائمة تاهرت . فيخبرنا ابن الصغير (199) انهم لعبوا دورا بارزا فى الثورة على ابى حاتم يوسف بن محمد ، حيث انضموا لاهـل تاهرت من غير الاباضية ضد الامامة الرستمية .

وقد حرص حكام سجلماسة وتاهرت على تحاشى التدخل فى هذه الفتن . فأحجموا عن اذكائها أو تشجيعها ، ولولا تغاضيهم عنها ؛ « لكانت الحروب بينهم متوالية والفتن متتابعة » ع حيث يطلب كـل فريـق منهم الانضمام الى امام مذهبه ويظهر التظلم حقا أو باطلا من مخالفة فى المذهب الحاكم عليه » (200) بل بادر بعضهم الى توثيق أواصر الود بين الدولتين عن طريق المصاهرة ، فطلب اليسع بن ابى القاسم سمكوا من عبد الرحمن ابن رستم تزويج ابنه مدرارا من أروى ابنة عبد الرحمن (201) مؤمـلا تعضيد حكمه فى سجلماسة بجيرانه الرستميين وقبل الامام الرستمى « رغم اعتراض المعترضين والمنكرين » مستهدفا توثيق علائق الوداد بين المملكتين فلا يطرقه منهم طارق سوء ، ولا يأتيه من قبلهم ما يكدر راحته أو يوجب له خلفا أو خللا فى داخليته (202) » .

وعلى الرغم من قصور هذه المصاهرة عن تحقيق أهدافها فى ايجاد حل لمشكلة الاقليات المذهبية داخل الدولتين ، الا انها أدت الى حـرص المدراريين والرستميين « على تحقيق التضامن والوئام بين دولتى الخوارج »

---

(196) ابن الصغير : ص 46 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 93 — مخطوط .
(197) النفـوسى : ج 2 صفحـة 94 .
(198) نفس المصـدر : صفحـة 69 .
(199) تاريخ الائمـة الرستميين ص 51 ، 52 .
(200) النفـوسى : صفحـة 94 .
(201) ابـن خلـدون : ج 6 صفحـة 131 ،
Provencal : Op. Cit. P. 249, Bel : Op. Cit. P. 168.
(102) النفـوسى : ج 2 صفحـة 94 .

ـ كما ذهب جوتييه (203) ـ واحجام كل منهما عن التدخل فى الامور الداخلية فقد مارس حكام كل من الدولتين سيادة كاملة على سائر الاقليات المذهبية داخل دولتهم « من الاباضية والصفرية والواصلية » (204) جميعا، ولم يتساءوا من وجود صلات بين هذه الاقليات وبين شيوخها سواء فى تاهرت أو سجلماسة (205) .

2 ـ بنو مدرار وامويو الاندلس :

لم يحل الاختلاف المذهبى بين بنى مدرار واموى الاندلس ، ولا البعد الجغرافى بين سجلماسة وقرطبة دون وجود صلات ودية بينهما ، فقد جمعهما العداء المشترك للخلافة العباسية والاغالبة والادارسة . وقد سبق أن وقفنا على أسباب الجفوة بين سجلماسة وبغداد والقيروان وفاس .

ولا يخفى العداء التقليدى بين قرطبة وبغداد ، فحسبنا أن قيام الدولة الاموية بالاندلس تم على حساب النفوذ العباسى هناك ، ولما كان الاغالبة على ولاء لبنى العباس (207) ، فقد ورثوا عداوتهم لاموى الاندلس ، وازداد هذا العداء حدة بسبب التنافس البحرى بينهما فى وسط وغرب البحر المتوسط . بل ان نجاح الاغالبة فى هذا التنافس البحرى وتهديدهم النفوذ الأموى فى جزر البليار كان من العوامل التى دفعت عبد الرحمن الثانى (206 ـ 238 هـ) (208) (821 ـ 853 م) الى توثيق صلاته مع امارات المغرب . واذا كانت الامارة الاموية فى قرطبة قد أخفقت فى توطيد صلاتها بالادارسة (209) ، الا انها نجحت فى اقامة علاقات طيبة مع بنى رستم وبنى مدرار الذين التقوا فى مصالحهم السياسية مع أهداف الامارة الاندلسية . ذلك أن المصالح السياسية سمت على الاختلاف المذهبى بين بنى مدرار الصفرية وبنى امية السنة ، كما أن وحدة المصير تغلبت على الاحقاد القديمة بين الخوارج والامويين . ولم تحل شقة البعد

---

(203) انظر : Les Siecles obscurs. P. 293.

(204) ابن خلدون : ج 6 ص 121 ، البرادى : الجواهر ورقة 93 ، اطفيش : الامكان ص 57 ، ياقوت : معجم البلدان ج 3 ص 815 .

(205) الشماخى : السير صفحة 223 ، 224 .

(206) النويرى : ج 22 ورقة 26 ، 27 .

(207) نفس المصدر والورقات .

(208) ابن عبد ربه : العقد الفريد . ج 4 ص 493 .

(209) ابن عذارى : ج 2 ص 106 ، Scott : Op. Cit. Vol. I. P. 456.

بينهما دون امكانية الاتصال ، حقيقة لم يكن لبنى مدرار موانىء على ساحل البحر المتوسط (210) ، لكنهم لم يعدموا وجود منافذ على ساحل الاطلنطى كانت على صلة دائمة بموانىء الاندلس كاشبيلية وشاطبة (211) . ومن ثم فليس من المستغرب أن تحفل مدن الاندلس فى ذلك الحين بعناصر صفرية من سجلماسة (212) كما غصت سجلماسة بالكثيرين من اهل الاندلس (213).

والواقع أن المؤرخين لا يقدمون معلومات وفيرة تساعد على تتبع هذه الصلات الودية قبل عهد الامير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (238 — 273 هـ) (214) (853 — 898 م) ، لكنه من الراجح انها ترجع الى عهد عبدالرحمن الداخل (138 — 172 هـ) (215) (755 — 788 م) المعاصر لامراء بنى مدرار الاوائل والذى استقل بالاندلس فى ظروف مماثلة لتلك التى اقام فيها بنو مدرار دولتهم بالمغرب . ونعتقد أن نجاحه فى ذلك شجع بنى مدرار على الاقدام على اقامة حكمهم المستقل بسجلماسة .

ويبدو أن هذه العلاقات الودية قد تكدرت اواخر عهد الحكم بن هشام (180 — 206 هـ) (797 — 821 م) على اثر ثورة الربض بقرطبة ونزوح اعداد غفيرة منهم الى سجلماسة (216) . لكن الجفوة لم تدم طويلا فسرعان ما استعادت العلاقات طابعها الودى فى عهد الخليفة عبد الرحمن الثانى الذى وثق صلاته ببنى مدرار ، وخاصة بعد استفحال الخطر الاغلبى فى البحر المتوسط . ومن المحتمل أن يكون ميمون بن مدرار الملقب بالامير قد آزر صديقه الاموى عبد الرحمن الثانى فى مواجهة القحط الذى حل ببلاد الاندلس سنة 232 هـ (847 م) ، فبعث اليه ما توافر لديه من الحنطة والسكر والتمر (217) . وازدادت صلات الود فى عهد الامير محمد ابن عبد الرحمن بن الحكم الذى اتسم عصره بالاستقرار السياسى (218)

---

(210) اليعقوبى : البلدان صفحة 359 .
(211) الحميرى : صفة جزيرة الاندلس : ص 21 ، ابن الدلائى : نصوص من الاندلس صفحة 18 ، 19 ، Provencal : Op. Cit. P. 248.
(212) ابن بشكوال : الصلة ج 2 ص 418 ، ابن الفرضى : تاريخ العلماء والرواة ج 1 صفحة 123 .
(213) ابن خلدون : ج 4 صفحة 126 .
(214) ابن عبد ربه : ج 4 صفحة 493 .
(215) نفس المصدر : صفحة 488 .
(216) ابن خلدون : ج 4 صفحة 126 .
(217) جغرافية المامون ورقة 197 ، القلقشندى : ج 5 ص 164 ، Conde : Op. Cit. Vol. I. P. 291.
(218) ابن عبد ربه : ج 4 ص 494 .

فى الوقت الذى نعم فيه أمراء سجلماسة بالامن والهدوء فى عهد ميمون الامير واليسع المنتصر ، حتى ادى ذلك الى أن يعتبر المؤرخون الامير الاندلسى صاحب سيادة فعلية على أمراء سجلماسة . يقول ابن عذارى (219) « . . وكان الامير محمد مأمولا محبوبا فى جميع البلدان ، وكان محمد بن افلح صاحب تاهرت لا يقدم ولا يؤخر فى أموره ومعضلاته الا عن رايه وامره ، وكذلك بنو مدرار بسجلماسة » ، كما يضيف ابن الخطيب (220) « . . وخدمته ملوك البلاد المغربية واعترفت بطاعته بتاهرت وسجلماسة » . ولا شك أن هذا القول ينطوى على مبالغة لا سند لها من الواقع ، فليس ثمة ما يشكك فى الاستقلال التام الذى تمتعت به دولتى بنى مدرار وبنى رستم .

كان من البديهى ان تتوطد صلات المودة والصداقة هذه وتزداد رسوخا بظهور الخطر الشيعى فى بلاد المغرب وتطلعهم الى الاندلس اذ اهتم أمويو الأندلس بمتابعة اخبار الدعوة الفاطمية عن طريق أصدقائهم فى سجلماسة وتاهرت ،وخاصة بعد الانتصارات المتوالية التى أحرزها داعيتهم ابو عبد الله الشيعى على دولة الاغالبة (221) . ولا شك أن بنى مدرار ارتاعوا بدورهم لهذا الخطر ، ومن المحتمل أن يكونوا قد بذلوا جهودا للاشتراك مع أموى الاندلس فى مجابهته . لكن هذه الجهود لم تسفر عن شىء ، فقد سقطت دولة بنى مدرار سنة 297 هـ (909 م) فى يد الشيعة دون ان يحرك أمير الاندلس ساكنا ، ولم تقم قرطبة بجهود لمناوءة الفاطميين فى المغرب الا فى عهد عبد الرحمن الناصر (222) . وهكذا لم تتمخض صلات الود والصداقة بين سجلماسة وقرطبة عن نتائج سياسية ذات بال .

والخلاصة أن علاقات بنى مدرار الخارجية تأثرت بظروفها السياسية ومصالحها الاقتصادية وطبيعتها الجغرافية ومذهبها الدينى .

---

(219) البيان المغرب ج 1 صفحة 116 .

(220) أعمال الاعلام ج 2 صفحة 22 .

(221) ابن عذارى : ج 1 ص 150 ، محمود مكى : التشيع فى الاندلس ص 111 .

(222) عول الناصر على مناهضة الفاطميين فى بلاد المغرب لشغلهم عن التفكير فى غزو الاندلس واستطاع بالفعل أن يستحوذ على بعض معاقل العدوة كسبته وطنجة . ولعل حرص الحكم المستنصر من بعده على معرفة طبيعة بلاد المغرب واحوال سكانها كان تمهيدا لمد نفوذه فيها واقصاء الفاطميين عنها . انظر : مجهول : اخبار مجموعة ص 155 ، الضبى : بغية الملتمس ص 131 .

ثانيا :

دولة بني رستم الاباضية

أ ـ قيام دولة بني رستم

يرتبط قيام دولة بنى رستم بمؤسسها عبد الرحمن بن رستم الفارسى الاباضى ، فاليه يعزى الفضل فى تاسيس دولة للخوارج الاباضية كان حكمها فى اسرته من بعده . وليس غريبا ان يرضخ بربر المغرب الاوسط لزعامة امام من غير البربر ، فان كافة الدول التى قامت ببلاد المغرب حتى قيام الدولة الفاطمية اعتمدت على شخصيات من غير البربر تمتعت بمنزلة دينية خاصة (223) فى معظم الاحيان .

وغنى عن الذكر ان المصادر جميعا تتفق على انتماء عبد الرحمن بن رستم الى الفرس ، وتجمع على نسبته لطبقة الحكام الاكاسرة ، لكنها تختلف فى التفاصيل . فابن خلدون (224) يذكر انه « من ولد رستم امير الفرس بالقادسية » والبكرى (225) ينسبه الى « سابور ذى الاكتاف الملك

(223) ينطبق هذا القول على دول بنى مدرار وبنى رستم والادارسة والاغالبة والفاطميين وكذلك امارة برغواطة .

(224) العبر ج 6 ص 121 . وهى رواية خاطئة لان رستم هذا قتل سنة 16 هـ ، وتوفى عبد الرحمن سنة 168 هـ فيكون قد عمر اكثر من مائة وخمسين عاما .

(225) المغرب : صفحة 67 .

الفارنى » ، بينما ترجح تواريخ الخوارج (226) صلته « بكسرى انو شروان ملك الفرس » .

وتضطرب تواريخ الاباضية حين تتحدث عن نشأة عبد الرحمن وتورد من الروايات ما يشير الى ان امر المغرب سيؤول الى الفرس (227) ، وتصور رستم والد عبد الرحمن على انه كان يدرك هذه النبوءة التى سوف تتحقق على يد ذريته ، فانتقل الى العراق ومنها الى مكة على امل الرحيل الى المغرب لتحقيق نبوءته . ورواية ابن عذارى (228) عن نشأة رستم وابنه عبد الرحمن بالحجاز اكثر قبولا ، فهو يذكر ان بهراما والد رستم كان من موالى عثمان بن عفان ، ولما مات رستم والد عبد الرحمن تزوجت امه من احد الحجاج المغاربة الذى اصطحبه معهما الى بلاد المغرب . والراجح ان وصول عبد الرحمن الى المغرب حدث فى اواخر القرن الاول الهجرى (229) ، فنعلم انه كان شابا يافعا عند ما قدم سلمة بن سعيد يدعو للمذهب الاباضى فى بلاد المغرب ، ويخبرنا الشماخى (230) عن لقاء عبد الرحمن بسلمة وشغفه بتعاليمه « وتعلق قوله بقلبه » .

ثم توجه عبد الرحمن بن رستم الى البصرة وانضم الى اخوانه المغاربة فى حلقة ابى عبيدة مسلم بن ابى كريمة سنة 135 هـ (752 م) ، حيث قضى خمس سنوات فى حضرته يتلقى اصول المذهب وفروعه ويعد مع اخوانه « حملة العلم المغاربة » مع مشايخ المذهب فى البصرة لاقامة « امامة الظهور » عقب عودتهم الى بلاد المغرب .

ولما عادت بعثة المغاربة الى المغرب سنة 140 هـ (757 م) وتولى ابو الخطاب المعافرى الامامة ، اختار عبد الرحمن بن رستم قاضيا على طرابلس (231) . وعند ما اقصى ابو الخطاب الصفرية عن القيروان ودخلها سنة 141 هـ (758 م) تولى عبد الرحمن بن رستم حكمها نيابة

---

(226) ابو زكريا : ورقة 5 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 9 ، الشماخى : السير ص 138 .

(227) تفيض هذه المصادر بذكر احاديث منتحلة ومأثورات عن كبار الصحابة ــ مشكوك فيها ــ تبين فضائل الفرس وعظيم شمائلهم وفضلهم على الاسلام ، وتنبىء عن قيامهم باعادته الى سيرته الاولى ، عن طريق اقامة دولة لهم فى بلاد المغرب . انظر : ابو زكريا : ورقة 2 ، 5 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 9 .

(228) البيان المغرب : ج 1 ص 277 .

(229) ينفى هذا ما قاله ابن خلدون من ان عبد الرحمن قدم الى افريقية « مع طوالع الفتح » انظر : العبر : ج 6 ص 121 .

(230) السير : صفحة 123 .

(231) النفوسى : ج 2 صفحة 84 .

عنه (232) فى حين توجه أبو الخطاب لملاقاة جيوش ابن الاشعث ، فكان عبد الرحمن لذلك « خليفته على افريقية » (233) .

وقد خرج عبد الرحمن بجيش القيروان لنجدة امامه حين دهمته جيوش ابن الاشعث ، لكنه توقف عند قابس عند ما وصلته أنباء قتله وهزيمة جيوشه ، واضطر للعودة الى القيروان لثورة أهل قابس عليه ، لكنه أسرع بمبارحتها عند ما علم بثورة أهلها على نائبه فيها (234) . وتخطىء تواريخ الاباضية (235) حين تزعم ان عبد الرحمن بن حبيب استولى على القيروان اذ ذاك وانه ظفر بابن رستم وهم بقتله لولا شفاعة بعض القيروانيين فيه ، فأطلقه ابن حبيب على أن يغادر القيروان توا ، لان هذه الاحداث وقعت سنة 144 هـ (761 م) بينما قتل عبد الرحمن ابن حبيب سنة 137 هـ (236) (754 م) ، وانتهى حكم أسرته بمقتل ابنه حبيب على ايدى الصفرية سنة 140 هـ (237) (757 م) .

والمعقول ان يكون عبد الرحمن قد نزل القيروان فى محاولة لجمع شمل الاباضية فيها ، ثم أسرع بمغادرتها لثورة اهلها على الاباضية من ناحية ولوصول ابن الاشعث وجيوشه اليها من ناحية اخرى (238) .

وبديهى أن يتجه عبد الرحمن الى المغرب الاوسط لائذا بالقبائل الاباضية هناك . وكانت رحلته هذه شاقة وعسيرة ، اذ آثر المسير فى الطريق الجنوبى المار بقسطيلية — وهو طريق وعر وطويل — الى أن وصل الى جبل سوفجج (239) فاتخذ منه ملاذا لمناعته (240) . ثم اخذت جموع الاباضية تفد اليه ، فقصده شيوخ المذهب ورؤسائه من طرابلس وما جاورها (241) ، كما توجه اليه علماء الاباضية وأعلامهم من سائر

---

(232) ابن عذارى : ج 1 ص 277 ، ابن خلدون : ج 6 ص 111 .
(233) البكرى : صفحة 68 .
(234) أبو زكريا : ورقة 10 ، النفوسى : ص 2 .
(235) أبو زكريا : ورقة 10 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 16 ، النفوسى : ص 2 .
(236) الرقيق : صفحة 124 .
(237) نفس المصدر : ص 141 ، ابن عذارى : ج 1 ص 81 .
(238) ابن عذارى : ج 1 صفحة 277 .
(239) ذكر النفوسى أن هذا الجبل مجهول الموقع ، ويعتقد دبوز انه هو نفس الجبل المعروف بسوفيف الكائن بين مدينتى سلالة والسوقر . انظر : الازهار الرياضية ج 2 ص 3 ، المغرب الكبير ج 3 ص 256 .
(240) أبو زكريا : ورقة 11 .
(241) نفس المصدر والصحيفة ، Gautier : Op. Cit. P. 301.

اقاليم المغرب (242) . وعول عبد الرحمن على جمع شمل اتباع المذهب بهدف استرداد نفوذه ، ولعل هذا ما حدا بمحمد ابن الاشعث الى اقتفاء اثره بقصد القضاء عليه قبل استفحال خطره . فتحصن عبد الرحمن بالجبل وخندق على نفسه (243) . وضرب ابن الاشعث وجيشه الحصار على ابن رستم ورجاله دون طائل ، فاضطر للعودة من حيث اتى بعد أن حل الوباء بجيشه ، وافنى كثيرين من رجاله (244) ، فضلا عن خوفه من تمرد اهل القيروان عليه ولما يكن قد وطد فيها سلطانه بعد (245) .

وبرحيل ابن الاشعث اتيح لابن رستم ومن معه من شيوخ المذهب واعلامه الاتصال باباضية المغرب الاوسط ، فغادر سوفجج الى تاهرت القديمة ، وكانت تنزل حولها قبائل من هوارة ولواتة ومكناسة ومزاتة ولماية واغلبها اباضية (246) ، وقد أحسن ابن رستم الاختيار لنزوله فى اقليم عامر بالخوارج الاباضية (247) . وبديهى أن ترحب هذه القبائل بمقدمه وخاصة اباضية لماية « لقديم حلف بينه وبينهم » (248) أيام كان نائبا لابى الخطاب على افريقية ، فلم يعتمد ابن رستم اذن — كما زعم جوتييه (249) — على قبيلة زناتة .

على كل حال — اثمرت اتصالات ابن رستم باباضية المغرب الاوسط ، فآزروه فى حصار عمر بن حفص بطبنة سنة 151 هـ (768 م) ، وكانت هزيمتهم فى تهودة فى نفس العام سببا فى اقتناعهم بضرورة تأسيس دولة تلم شمل اباضية المغرب ،وانشاء مدينة تكون قصبة للدولة ومركزا للمذهب.

وقد تريث الاباضية فى اختيار موضع مدينتهم ، وحرصوا على اقامتها « فى مكان جيد الهواء ، كثير المياه ، خصب الارض ، قابل للعمارة ، مأمون من العدو » (250) . وطفق الرواد يجوبون أطراف الاقليم بحثا عن

---

(242) النفوسى : صفحة 3 .
(243) نفس المصدر والصحيفة .
(244) ابو زكريا ، ورقة 11 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 17 .
(245) النفوسى : صفحة 3 .
(246) نفس المصدر : ص 4 ، Mercier : Histoire de l'établissement des Arabes ... P. 79.
(247) ابن خلدون : ج 6 ص 121 ، مارسيه : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الاسلامية صفحة 92 .
(248) ابن خلدون : نفس المصدر والصحيفة .
(249) انظر : Les Siecles obscurs. P. 312.
(250) النفوسى : صفحة 6 .

الموضع المختار ، واجمعت آراؤهم على استحسان موضع تاهرت (251) . وكان هذا الموضع فى مكان مسطح مرتفع (252) ، فهو ملائم ليكون مكانا لعاصمة « امثال هؤلاء السكان الجبليين » (253) ، فضلا عن ملاءمته للرعى ، فهو بمثابة « منتجع صيفى للقبائل الرعوية فى شمالى الصحراء » (254) ، هذا بالاضافة لوقوعه « فى قلب ديار الاباضية ومنازلهم » (255) ، « ووقوعه بين نهر يأتى من الجنوب يسمى مينة وآخر ينبع من عيون ويشق مجراه الى أن يصب فى وادى شلف » (256) . فهذا المكان اذن غيضة بين ثلاثة انهار (257) ، توجه انظارها نحو الداخل وتولى ظهرها للبحر الذى تبعد عنه بمسيرة ثلاث مراحل (258) .

ولهذه الميزات الفريدة ساوم الاباضية سكان موضع تاهرت من بربر صنهاجة (259) على بيعه فأبوا ، لكنهم سلموه اليهم على أن يستصلحوه ويكون لهم نصيب من خراجه . ثم اخذ الاباضية فى تأسيس المدنية ، فشرعوا فى ازالة الآجام وحرق الاشجار تمهيدا لاختطاطها (260) . وقد استعانوا بالاموال التى كانت ترد اليهم من اباضية طرابلس فى اختطاط المدينة وتعميرها (261) . ثم بادروا باختطاط تاهرت سنة 161 هـ (262) (777 م) ، وبداوا ببناء المسجد الجامع ، فأقاموه على أربع بلاطات (263) فى المكان الذى خصصوه لصلاتهم عند ما كانوا يزيلون الأشجار ويمهدون الارض (264) . وتلى ذلك بناء القصور والبيوت (265) والاسواق

---

(251) ابو زكريا : ورقة 13 ، الشماخى : السير : ص 139 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 9 .
(252) الشماخى : صفحة 146 .
(253) Bernard : Op. Cit. P. 134.
(254) Faroughy : Apersian dunasty in noth Africa P. 14.
(255) Ibid. P. 12
(256) البكرى : ص 66 ، 67 ، ابن خلدون : ج 6 ص 121 .
(257) ابن عذارى : ج 1 صفحة 277 .
(258) اليعقوبى ، البلدان : ص 358 ، سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ص 375 .
(259) البكرى : صفحة 68 .
(260) ابو زكريا : ورقة 13 .
(261) نفس المصدر ورقة 11 .
(262) ابن عذارى : ج 1 ص 277 . وهى رواية اكثر دقة من رواية ابن خلدون ومن اخذ عنه حيث يجعل تاسيس تاهرت سنة 144 هـ . انظر : العبر ، ج 6 ص 121 ، السلاوى : ج 1 ص 115 .
(263) ابن عذارى : ج 1 صفحة 277 .
(264) ابو زكريا : ورقة 13 ، الشماخى : السير ص 139 ، النفوسى : ص 8 .
(265) الدرجينى : ج 1 ورقة 19 ، الشماخى : السير ص 139 .

والحمامات والفنادق (266) . ويبدو أن نزاعا نشب بين الاباضية وبين بربر صنهاجة آنذاك ، فيخبرنا البكرى (267) « انهم كانوا يبنون النهار ، فاذا جن الليل وأصبحوا ، وجدوا بنيانهم قد تهدم » . والراجح أن الاباضية ردعوهم بالقوة واجلوهم عن المكان برمته حتى قال ابن رستم « هذا بلد لا يفارقه سفك دم ولا حرب ابدا » (268) . وبديهى أن يهتموا بتحصين المدينة وحمايتها ، فأقاموا سورا حولها (269) جعلوا له ابوابا أربعة (270)، واصبحت المدينة الجديدة فى مأمن من اعدائها ، ولا غرو فقد أطلق عليها « معسكر عبد الرحمن بن رستم (271) وقيل « المعسكر المبارك » (272). واضحت تاهرت على اثر ذلك حاضرة للدولة ، وقصبة لعديد من المدن والقرى والقلاع والحصون التابعة لها (273) .

بادر رؤساء الاباضية ومشايخهم باختيار امام بعد اختطاط تاهرت حتى تستكمل دولتهم طابعها السياسى وتبلغ امامتهم « مرحلة الظهور » . والواقع ان ثمة خلاف بين المؤرخين حول توقيت مبايعة ابن رستم بالامامة ، وهذا الخلاف يدور حول ما اذا كانت المبايعة قد تمت على اثر مقتل ابى الخطاب ونزول عبد الرحمن بن رستم على اباضية المغرب الاوسط ، أو أن ذلك لم يحدث الا بعد اختطاط تاهرت يقول البكرى (274) « بعد أن هرب عبد الرحمن بأهله وما خف من ماله وترك القيروان اجتمعت اليه الاباضية واتفقوا على تقديمه » . ويقول ابن خلدون (275) « لحق عبد الرحمن بن رستم بأباضية المغرب الاوسط من البرابرة ونزل على لماية .. فاجتمعوا اليه وبايعوه بالخلافة » . أما النفوسى (276) فيذهب الى « أن علماء المذهب بعد انشاء المدينة تداولوا وقالوا : قد علم ما حل بنا من الشتات والافتراق

---

(266) البكرى : صفحة 68 .
(267) المغرب : صفحة 67 .
(268) نفس المصدر صفحة 68 .
(269) النفوسى صفحة 8 .
(270) هى : باب الصبا وباب المنازل وباب الاندلس وباب المطاحن . راجع البكرى : ص 66 .
(271) نفس المصدر : صفحة 68 .
(272) ابو زكريا : ورقة 14 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 21 ، ياقوت : ج 1 ص 816 .
(273) من هذه المدن والقلاع يممه وتاغليه وهزارة ومنداس وسوق ابراهيم وجبل تجان وشلف والبطحة والزيتونة والخضراء وتنس وتامزيت وفكان وغيرها . انظر : المقدسى : احسن التقاسيم ص 219 .
(274) المغرب صفحة 68 .
(275) العبر ج 6 صفحة 121 .
(276) الازهار الرياضية ج 3 ص 83 .

بعد وفاة امامينا (يقصد أبا الخطاب وأبا حاتم) ومبارحتنا طرابلس ، وقد أجمعنا على اختيار مكان غيرها يليق بمنصب الامامة ويكون ملجأ للاسلام . واذا رزقنا بهذا المكان وتم تحصينه على حسب المرام وجب نصب امام (277) »

وفى تقديرى أن عبد الرحمن بن رستم بويع بالامامة مرتين : الاولى على اثر موت أبى الخطاب سنة 144 هـ (761 م) ونزوله على اباضية المغرب الاوسط . والثانية سنة 162 هـ (779 م) بعد تأسيس تاهرت . كانت مبايعته الاولى على انه « امام دفاع » نظرا لما تعرض له الاباضية من بطش على يد جيوش ابن الاشعث ولا ينفى هذا ما حدث من مبايعة أباضية طرابلس لابى حاتم الملزوزى فى ذات الوقت بامامة الدفاع (278) ، ففقه الاباضية يجوز وجود امامين فى وقت واحد « اذا وجد بينهما عدو يخشى بأسه ، أو لبعد المسافة » (279) . فلا غرابة فى وجود امامين للاباضية احدهما فى المغرب الادنى والآخر فى المغرب الاوسط وفى ضوء ذلك يمكن تفسير ارسال أبى حاتم الاموال لابن رستم لتكون له عونا على بدء « امامة الظهور » (280) . فلما استتب الامر لاباضية المغرب الاوسط بعد انشاء تاهرت وتحصينها سنة 161 هـ (778 م) ، لم يكن هناك ما يحول دون تجديدهم مبايعة عبد الرحمن بن رستم « لامامة الظهور » سنة 162 هـ (779 م) وخاصة بعد نزوح كثير من أباضية المغرب الادنى الى تاهرت ليعيشوا فى كنف الامامة الجديدة بعد مقتل أبى حاتم الملزوزى « امام الدفاع فى طرابلس » (281) .

اجمع مشايخ الاباضية اذن على اختيار عبد الرحمن (282) « لدينه وسابقته ومكانه وغير ذلك من حميد الصفات » (283) وحسبه انه كان

---

(277) وقد اختلطت آراء المحدثين لهذا السبب وتضاربت فذكروا أن المبايعة تمت قبل انشاء المدينة ، ثم ذكروا فى مواضع اخرى أنها حدثت بعد تأسيسها . انظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص 380 ، 383 ، السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص 542 ، 545 .

(278) البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 88 .

(279) اطفيش : الامكان ص 107 ، 108 .

(280) ابو زكريا : ورقة 11 .

(281) نفس المصدر ورقة 13 ، انظر : مقدمة تاريخ ابن الصغير Motylinski : P. 5.

(282) نفس المصدر والصحيفة ، النفوسى : ص 83 .

(283) الدرجينى : ج 1 ورقة 19 . وقد راعى الاباضية الشروط المتعارف عليها فى اختيار الائمة وهى « العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والاعضاء » دون اشتراط الاصل القرشى كما هو شأن اهل السنة . انظر : ابن خلدون ، المقدمة ج 2 ص 522.

« احد حملة العلم الخمسة » الى المغرب ، وعامل ابى الخطاب على افريقية (284) فضلا عن انه « ليس له من قبيلة تمنعه اذا تغير أو تبدل » (285) ، ومن ثم ارتضته القبائل لتتحاشى تسلط احداها عليها اذا ما حظى رئيسها بالامامة (286) .

وقبل عبد الرحمن بن رستم الامامة سنة 162 هـ (287) (779 م) « على سنة الله ورسوله وآثار الخلفاء الراشدين » (288) بعد أن عاهده رؤساء المذهب « على الطاعة فيما وافق الحق وطابقه » (289) ، واصبح اول ائمة الدولة الرستمية التى اشتقت اسمها من اسمه .

وشرع عبد الرحمن بعد بيعته فى العمل على توطيد حكمه وارساء دعائم دولته ، ومواجهة المشاكل المصاحبة لقيام الدول سواء فيما يتعلق بسياستها الخارجية أو الداخلية وجدير بالذكر انه كرس جهوده لمواجهة الاعباء الداخلية ملتزما سياسة المهادنة فى الخارج ، فقد حرص على موادعة عمال بنى العباس فى افريقية (290) — كما اصهر الى اليسع بن أبى القاسم رغبة فى مسالمة بنى مدرار (291) .

ولما اطمأن الى سلامة دولته من الاخطار الخارجية شرع فى ارساء دعائمها . وكان عليه أن يبسط نفوذه على سائر القبائل داخل حدودها ويستكمل انشاء عاصمتها ويرسى نظمها فى الحكم والادارة .

والواقع انه كان بحاجة الى الاموال ليستعين بها على مواجهة تلك المهام فضلا عن تعبئة الجند وشراء الاسلحة واسترضاء الاتباع (292) . ويخيل الينا انه استعان باباضية المشرق فى هذا الصدد ، وبديهى أن يخفوا لغوثه وشد أزره لتحقيق آمالهم فى اقامة دولة اباضية كبرى (293).

---

(284) الدرجينى : ج 1 ورقة 19 .

(285) ابن الصغير : ص 6 ، ابو زكريا : ورقة 9 ، الشماخى : السير ص 140 ، Masqueray : Op. Cit P. 58, Faroughy : Op. Cit. P. 139.

(286) ابن الصغير : ص 9 .

(287) ليس صحيحا ما اورده بعض مؤرخى الاباضية من رفض عبد الرحمن بن رستم الامامة سنة 140 هـ قبل ان تعرض على أبى الخطاب المعافرى . انظر : الشماخى : السير ص 140 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 19 .

(288) الشماخى : السير ص 140 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 19 .

(289) ابن الصغير : ص 9 ، النفوسى ص 84 .

(290) النفوسى : صفحة 93 .

(291) نفس المصدر والصحيفة .

(292) النفوسى : صفحة 86 .

(293) ابن الصغير : ص 10 .

فبادروا بانفاذ بعثه محملة بالاموال الى تاهرت (294) وتفيض مصادر الاباضية (295) بمزيد من التفصيلات حول بعثة المشارقة فى تاهرت ، واعجابهم بحكم الامام عبد الرحمن وما هو عليه من زهد وعدل وورع وتسليمهم الاموال له ، وحرصه على استشارة أهل الراى فى كيفية توزيعها وانفاقها ، وتلبيته مشورتهم بأن تنفق فى ثلاثة أوجه « ثلثا فى الكراع وثلثا فى السلاح وثلثا توزع فى فقراء المسلمين وضعفائهم » .

واستطاع عبد الرحن بهذه الاموال تسليح رجاله من الاباضية ، وتمكن بفضلهم من بسط سيادة الدولة على سائر قبائل البربر الضاربة داخل حدودها ، وانضوت كافة الجماعات داخل تاهرت وخارجها تحت لواء المذهب الاباضى فى شكل ائتلاف شمل البربر وما عداهم من العناصر الاخرى (296) .

وفضلا عن ذلك فقد اولى عبد الرحمن النواحى الاقتصادية والعمرانية اهتماما كبيرا ، وتذكر المصادر جهوده فى غرس البساتين وشق القنوات واقامة المطاحن عليها (297) . كما زاد فى تعمير تاهرت واقام الفنادق والمبانى الخاصة للتجار ورتب الاسواق ونسقها ، ونظم الاحتساب عليها ، فقصدها التجار من سائرارجاء العالم الاسلامى وخاصة من فارس والعراق والقيروان وسجلماسة (298) فضلا عن بلاد السودان (299) . وقد أسهم هذا الازدهار الاقتصادى فى تدعيم الدولة الرستمية ، وليس ادل على انتعاش أحوال الامامة فى ذلك الحين من رفض عبد الرحمن معونة اخرى بعثها اليه أباضية المشرق (300) ، الذين ابتهجوا لاستقرار الامامة واشتداد ساعدها فاعترفوا بها « ووصلوا الامام بكتبهم ووصاياهم » (301) .

---

(294) يذكر فروخى أن هذه الاموال بعثها خوارج فارس والبحرين ، بينما تروى المصادر الاباضية أنها من لدن خوارج البصرة . وليس من المستبعد أن يكون أباضية فارس والبحرين قد بعثوا بهذه الاموال الى البصرة حيث يوجد مشايخ المذهب الذين ارسلوها بدورهم الى بلاد المغرب . انظر : أبو زكريا : ورقة 14 ،
Faroughy : Op. Cit. P. 14.

(295) انظر : أبو زكريا : ورقة 14 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 20 ، الشماخى : السير ص 140، 141 ، النفوسى : ص 86 ، 87 .

(296) ابن الصغير : ص 12 ، النفوسى : ص 88 ،
Smith : The Ibadites. P. 279.

(297) نفس المصادر والصفحات .

(298) ابن الصغير : صفحة 16 ، Faroughy : Op. Cit. P. 14.

(299) نفس المصدر : ص 13 .

(300) نفس المصدر ص 14 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 21 .

(301) النفوسى ص 87 ، Julien : Op. Cit. P. 333.

وعكف عبد الرحمن على تنظيم دولته وتوطيد سلطانه ، ولا شك أنه استفاد من عبقرية الفرس فى الحكم والادارة ، ومع ذلك فقد غلب الطابع الدينى المذهبى على ما اتخذه من اجراءات فى هذا الصدد فكانت نظم الادارة والقضاء والشرطة والاحتساب وادارة بيت المال ونظم الجباية والصدقات كلها تسير وفقا لتعاليم المذهب الاباضى (302) ، مع مراعاة ظروف السكان باعتبار غالبيتهم من البدو الرحل (303) .

وبذلك استطاع ابن رستم أن يرسى قواعد الدولة ويضع نظمهـا الادارية (304) والمالية (305) ويكسبها « رونق الملك » (306) وحسبه نجاحا قدرته على التصدى للمشاكل الداخلية والخارجية الكثيرة التـى واجهته . فبفضل سياسته فى مهادنة القيروان وسجلماسة ، وبفضل قدرته على ايلاف العناصر والعصبيات المختلفة داخل الدولة « لم ينقم عليه أحد فى خصومة ولا حكومة » (307) « ولم يكن على يديه افتراق » (308) .

ولكى يضمن استمرار الاستقرار لدولته أوصى قبل وفاتـه (309) بتعيين مجلس شورى يختار امام الدولة من بين أعضائه .

وهكذا نجح عبد الرحمن بن رستم فى اقامة دولة أباضية فى تاهرت وتتويج ثورات الخوارج الاباضية فى بلاد المغرب بتأسيس أسرة حاكمـة ضمت معظم اقاليم المغربين الادنى والاوسط ، ظل ائمتها يتنابون حكمها قرابة قرن وربع قرن من الزمان .

---

(302) ابـن الصغيـر : صفحـة 16 .

(303) مجهـول : الاستبصار : صفحـة 179 ، Gautier : Op. Cit. P. 300.

(304) اليعقـوبـى : البلدان : صفحـة 149 .

(305) ابـن الصغيـر : صفحـة 16 .

(306) النفـوسى : صفحـة 90 .

(307) الشمـاخـى : صفحـة 140 .

(308) ابـو زكـريـا : ورقـة 14 .

(309) اختلف المؤرخون فى تحديد سنة وفاته ، فذكر بعضهم انه توفى بعد سنتين من امامته أى سنة 164 هـ انظر : اطفيش : بعض تواريخ اهل وادى ميزاب : ص 101 . بينما ذكر ابن عذارى انه مات سنة 168 هـ انظر : البيان المغرب ج 1 ص 277 ، والراجح ما اورده النفوسى من أن وفاته وقعت سنـة 171 هـ انظـر : الازهـار الرياضيـة : ج 2 صفحـة 99 .

ب ـ سياسة بني رستم الداخلية

اضطربت احوال الدولة الرستمية بعد عبد الرحمن بـــن ر
فامتلات بالفتن السياسية والانشقاقات المذهبية والصراع العنصرى
حدا بالمؤرخ جوليان (310) الى القول بأن تاريخ تاهرت لم يكـــن
سلسلة من القلاقل والخلافات الداخلية . والواقع ان تلك الظاهرة
اكثر بروزا ووضوحا فى الدولة الرستمية اكثر منها فى اية دولة اخرى
دول المغرب المعاصرة لها . حقيقة ان هذه الاضطرابات رغم كثرتها لـ
الى سقوط الاسرة الحاكمة فى تاهرت لكنها على كل حال فتت فى عـ
وأوهنت من نفوذها فى كثير من اقاليمها وخاصة الاجزاء الشرقية منها
لم تمارس عليها سوى مجرد تبيعة اسمية ، بل كثيرا ما انسلخ عن
تاهرت بعض هذه الجهات مثل جبل نفوسة ونفزاوة وجربة وطرابلس و

ونعتقد أن هذه الاضطرابات يرجع بعضها الى أسباب فقهية مذ
بينما يعزى بعضها الآخر الى عوامل عنصرية أو قبلية أو طائفية . و
أن معظم القلاقل الداخلية فى عهد الائمة الثلاثة الاول اتخذت فى ا
الاعم طابع الانشقاق المذهبى فى حين وضح الطابع العنصرى القبلى
سائر الحركات التى قامت فى عهد الامامين الرابع والخامس ، بينما
عهدى الامامين الاخيرين بالصراع على الحكم بين افراد البيت الرستـ
فضلا عن ظهور الطوائف المذهبية غير الاباضية كعامل جديـــد فى
الصراعات . ولم تخل هذه الاضطرابات السياسية ـــ فى كثير من الاحيـ
من وجود مؤثرات خارجية . وعلى ذلك يمكن التمييـــز بين ادوار ثـ
واضحة فى مسار التطور السياسى الداخلى لدولة بنى رستم، كان الدور

---

(310) re de l'Afrique Septentrionale. P. P. 335, 36.

فيها — ويشمل عهدى عبد الوهاب بن رستم وابنه أفلح — يمثل سطوة الامامة وقوتها ، وقدرتها على احباط كافة الحركات المناوئة ذات الطابع المذهبى سواء بالقوة كما فعل الامام عبد الوهاب أو عن طريق السياسة كما فعل افلح بن عبد الوهاب .

اما الدور الثانى ، فيشمل عهدى ابى بكر بن افلح واخيه أبى اليقظان محمد ، وهو يمثل الصراع العنصرى والقبلى ، وفيه خفت صوت الامامة ووهنت قوتها ، ونجحت بعض العناصر فى اغتصاب السلطة فى تاهرت ، ولم يستردها البيت الرستمى الا بتعضيد عناصر اخرى . ولم يحل دون سقوط الامامة سوى ضعف العصبيات من جراء الصراع بينها ، واسلوب الملاينة والموازنة الذى اتبعه ابو اليقظان محمد فى موقفه من هذه العصبيات.

ويتسم الدور الاخير من الحكم الرستمى — ويشمل امامتى أبى حاتم يوسف بن محمد واليقظان بن ابى اليقظان — بتداعى الامامة واضمحلالها وتحكم عامة تاهرت فى تعيين الائمة وعزلهم ، وطمع الطوائف والفرق غير الاباضية فى تقلدها انهاء للحكم الرستمى الاباضى ، وانفصام الصلة بين عاصمة الدولة واقاليمها الشرقية . كما زادت الحالة سوءا بتفاقم الخلافات داخل البيت الرستمى وتدبيرهم المؤامرات والاغتيالات ضد بعضهم البعض لتسنم الحكم . وقد تضافرت هذه العوامل جميعا على سقوط دولة بنى رستم سنة 297 هـ (909 م) .

وفيما يلى تفصيل دراسة هذه الاطوار الثلاثة فى سياسة بنى رستم الـــداخليـــة .

الدور الاول (171 — 258 هـ) (788 — 873 م) .

الانشقاقـــات المذهبيـــة :

تم اختيار عبد الرحمن بن رستم للامامة سنة 162 هـ (779 م) وفقا لمبايعة اهل الحل والعقد واجماع كافة مشايخ القبائل ، كما كانت سياسته الادارية والمالية تقـــوم على المساواة وعـــدم التعصب لعصبيـــة دون سواهـــا . وبالاجمال كانت امامته متمشية مع تعاليم المذهب الاباضى، الامر الذى هيأ لحكمه الثبات والاستقرار . على أن الخروج عـــن هـــذه السياسة فى عهد ابنه عبد الوهاب (171 — 208 هـ) (788 — 824 م) وحفيده أفلح (208 — 258 هـ) (788 — 873 م) سبب الاضطرابات والقلاقل التى حفل بها حكميهما .

فقد تحولت الامامة عن مبدأ الاختيار الى فكرة التنصيب بالتوريث (311) كما ظهرت سياسة الميل لعناصر دون سواها وتمكينها من الاستئثار بمراكز الدولة ووظائفها ، مما شكل خروجا عن تعاليم المذهب الاباضى ، وتمزقا للوثاق الذى ربط بين عناصر وعصبيات شتى ، ونجم عن ذلك انفراط العقد الذى جمع هذه القوى جميعا لتبرز حزازاتها فى شكل حركات وثورات على الائمة اتخذت فى أغلبها طابع الانشقاق المذهبى (312) .

وكانت اولى هذه الثورات واخطرها حركة يزيد بن فندين وجماعته التى عرفت « بالنكار » (313) . وتكمن الدوافع الاساسية لثورة ابن فندين فى رفض امامة عبد الوهاب لعدم اعترافه بجماعة المشورة — التى اقترح ابن فندين استرشاد الامام برأيها (314) — ولان جماعة المذهب لم يجمعوا على امامته لذلك (315) ، ولان فى جماعة الاباضية من يبز عبد الوهاب علما (316) ، ومن ثم يصبح مغتصبا للامامة يضاف الى ذلك نقمته على سياسة عبد الوهاب الادارية ومحاباته لبعض العناصر والقبائل واختصاصهم بمناصب الدولة دون غيرهم (317) ، وبالذات نفوسة (318) والعجم (319).

وقد نجح ابن فندين فى استمالة العديد من الانصار (320) ، ونحى بهم خارج المدينة حيث تأهبوا لقتال عبد الوهاب وجماعته (321) . ويبدو أن القتال نشب بين الجماعتين بالفعل ، وأن الدائرة دارت على عبد

---

(311) ابن الصغير : صفحة 16 ، 20 .
(312) انظر : ابن الصغير : المقدمة : صفحة 6 .
(313) انظر : السوفى : شرح السؤالات ورقة 99 ، 115 مخطوط . وعرفوا أيضا «بالنجوية» لانهم اكثروا الاجتماع والنجوى ، كما اطلق عليهم اعداؤهم أسماء أخرى ، فعرفوا « بالشعبية » لادخالهم الشعب والفرقة فى المذهب ، وقيل « الشغبية » لاحداثهم الشغب ، كما دعوا « بالنكاث » لنكثهم ببيعة عبد الوهاب . انظر : ابو زكريا : ورقة 16 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 23 .
(314) الدرجينى : ج 1 ورقة 22 ، النفوسى : ص 102 .
(315) ابن الصغير : ص 18 . والاجماع من شروط صحة الامامة عند فقهاء الاباضية ، كما هو الحال عند أهل السنة . انظر : الشماخى : شرح مقدمة أصول الفقه ورقة 64 — مخطوط ، الماوردى : الاحكام السلطانية ص 5 .
(316) ابو زكريا : ورقة 15 .
(317) الشماخى : السير : صفحة 146 .
(318) ابن الصغير : صفحة 22 .
(319) النفوسى : صفحة 114 .
(320) الدرجينى : ج 1 ورقة 22 .
(321) عرف انصار عبد الوهاب « بالوهبية » كما يذهب ابن الصغير وليس كما يعتقد البرادى بأنهم ينسبون الى عبد الله بن وهب الراسبى . انظر : سيرة الائمة الرستميين ص 16 ، الجواهر المنتقاة ورقة 89 .

الوهاب ، يفهم هذا من رواية للنفوسى (322) يقول فيها « أن الامام اضطر الى طلب الهدنة ووضع أوزار الحرب حقنا للدماء الى أن يكتبوا لاخوانهم المشارقة بايضاح القضية » . وقبول ابن فندين مبدأ تحكيم فقهاء المذهب فى الشرق فى قضية الامامة (323) ، مما يؤكد ايمانه بعدالة موقفه وشرعيته، ومما يدحض دعوى المصادر الاباضية فى أنه ثار لاسباب شخصية صرفة (324) .

على كل حال — يذهب مؤرخو الاباضية الى أن شيوخ المذهب فى مصر — وعلى رأسهم شعيب بن المعرف — أفتوا فى صالح عبد الوهاب فقالوا « الامامة تامة والشرط باطل » (325) . وكذلك جماعة فقهاء المذهب فى مكة ورئيسهم الربيع بن حبيب (326) الذين بعثوا جوابهم (327) الى عبد الوهاب وابن فندين حيث افتوا « بأن الامامة صحيحة والشرط باطل » وأنه « يجوز تولية رجل من المسلمين اذا كان فيهم من هو أعلم منه » (328) .

ويخيل الينا أن فتوى المشارقة كانت فى صالح ابن فندين بدليل وصول فقهاء مصر ورئيسهم شعيب بن المعرف وانضمامهم الى ابن فندين فى الثورة على عبد الوهاب (329) ، ثم ورود عبارة عند الشماخى (330) توضح أن « المشارقة عابوا على عبد الوهاب أشياء وأمروه أن يرجع عنها » وكذلك ضعف الرواية الاباضية الوهبية التى تصور تريث الربيع واخوانه فى اصدار فتواهم ريثما يجتهدوا (331) ويتباحثوا فى مسألة تعد من بديهيات الفقه

---

(322) الازهار الرياضية : ج 2 ص 106 .
(323) أبو زكريا : ورقة 15 ، الشماخى : السير ص 146 .
(324) تزعم هذه المصادر أن ابن فندين ثار بالثورة لان الامام عبد الوهاب لم يختره لتولى أحد المناصب العامة « التى اختص بها أهل العلم والبصيرة فى الدين » . انظر : أبو زكريا : ورقة 15 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 22 .
(325) الشماخى : السير : صفحة 147 .
(326) تقلد الربيع زعامة المذهب فى الشرق بعد موت أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة . وقد عرف بتعمقه فى الاصول والفروع وتبحره فى مسائل الامامة والولاية والبراءة وفقا للقرآن والسنة . انظر : الدرجينى : ج 1 ورقة 116 . الورجلانى : الدليل لاهل العقول : ج 2 ص 75 .
(327) انظر : الملحق رقم (4) .
(328) من المعروف أن الشريعة الاسلامية تجيز امامة المفضول اذا لم يكن مقصرا فى شروط الامامة مع وجود الافضل ، وكذلك يجوز الفقه الاباضى امامة المفضول اذا كان على شىء « من القناعة والفضل » . انظر : الماوردى : ص 8 ، أبو زكريا : ورقة 16 .
(329) الدرجينى : ج 1 ورقة 16 .
(330) السير : صفحة 147 .
(331) أبو زكريا : ورقة 15 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 22 ، النفوسى : ص 106 .

الاباضى . ومهما كان الامر فان ما تذكره المصادر الاباضية (332) من أن شعيب بن المعرف « خرج من مصر فى نفر من أصحابه بغير مشورة من مشايخ مصر طمعا فى الامارة » أمر مبالغ فيه ، والاقرب للتصديق أنه توجه لنصح عبد الوهاب وانهاء الخلاف فى تاهرت ، فلما لم يجبه انضم الى ابن فندين وخرجت جموع النكار الى الجبال المحيطة بتاهرت واستقروا فى كدية عرفت « بكدية النكار » . أما الرواية المتواترة (333) التى توردها هذه المصادر عن تدبير النكار مؤامرة اغتيال عبد الوهاب فهى ذات طابع اسطورى بحت ، كما ان اسلوب الاغتيال كان مرفوضا عند الخوارج (334) .

على كل حال — تأهب الطرفان للقتال فكان النكار « يدخلون المدينة ويخرجون منها بالسلاح » (335) كما « أمر الامام رعيته وأصحابه بامساك السلاح » (336) وانتهز النكار فرصة غياب عبد الوهاب عن تاهرت وبادروا بمهاجمتها والاستيلاء عليها ، ولما كانت المدينة محصنة ومسورة ، فقد اغلق الوهبية ابوابها ، ونجح افلح بن عبد الوهاب (337) بمن معه فى صدهم ، ثم تتبعهم وهزمهم وقتل ابن فندين وكثيرا من النكار ، ولادت فلولهم بالجبال واستقروا فى كديتهم . اما شعيب بن المعرف فقد هرب الى طرابلس ، واخذ يؤلب اباضيتها على الامامة فى تاهرت (338) .

ونشك ايضا فيما يروى من اغتيال النكار ميمون بن عبد الوهاب

---

(332) انظر : ابو زكريا : ورقة 16 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 23 ، الشماخى : السير ص 147 ، النفوسى : ص 108 .

(333) عن هذه الرواية الاسطورية انظر : ابو زكريا : ورقة 16 ، 17 الشماخى السير : ص 103 — 106 .

(334) الثابت أن مبادىء الخوارج تنكر هذا الاسلوب وتحض على المواجهة العلنية للخصوم كما يتضح من مبادىء الاستعراض والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واعلام الخصوم واخذ الحجة عليهم قبل قتالهم . . الخ . ونلحظ أن الخوارج فى حروبهم — سواء فى المشرق أو فى المغرب — التزموا بهذه المبادىء وخاصة الاباضية منهم حتى بلغت مثاليتهم حد عدم تتبع المدبر وتحريم نهب الخصوم . . الخ . وما حدث من تدبير اغتيال على بن ابى طالب كان حادثا فريدا له دوافعه الخاصة . انظر السوفى : شرح السؤالات ورقة 57 ، الاسفرائيى : التبصير فى الدين : ص 28 .

(335) الشماخى : السير : صفحة 148 .

(336) الدرجينى : ج 1 ورقة 24 .

(337) تحفل المصادر الاباضية بقصص روائية عن شجاعة افلح واستبساله فى الزود عن المدينة . انظر : ابو زكريا : ورقة 18 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 25 ، النفوسى : صفحة 111 — 121 .

(338) نفس المصادر والصفحات . وجدير بالذكر أن اختلاف فقهاء الاباضية حول موقف شعيب وانقسامهم بين مؤيد ومعارض مما يبرز الطابع المذهبى للحركة . وهذا شأن خلافات الخوارج فى الشرق ايضا . عن هذه الخلافات انظر : الشماخى : السير : صفحة 151 .

وتمثيلهم بجثته (339) ، فهذا الاسلوب غير مألوف عند الخوارج عموما — كما سبق القول — ولو صح قول البكرى (340) أن ميمونا هذا كان ابنا لعبد الرحمن بن رستم وليس لعبد الوهاب ، لبطلت تلك الرواية من أساسها . واغلب الظن أن مؤرخى الاباضية الوهبية اصطنعوها لتبرير حملة عبد الوهاب على النكار بقصد استئصال شأفتهم . ومهما يكن من أمر ، فقد افلح عبد الوهاب فى هزيمتهم وقتل منهم أعدادا غفيرة (341) . لكنه لم يقض عليهم نهائيا ، فظلوا معتصمين بكديتهم فى جبال تاهرت ثم ظهروا على المسرح السياسى بعد ذلك فى ثورة بربر سدراته ومزاته الذين انكروا امامة عبد الوهاب .

وكان من الطبيعى أن تتصل الفلول الباقية من النكار — بعد أن وهنت شوكتهم (342) — بقبائلهم المقيمة خارج تاهرت ليعاونوهم فى محاولة الخروج على الامام عبد الوهاب (343) ، وكانت غالبيتهم تنتمى الى قبيلتى سدراته ومزاته الضاربتين على جانبى حدود الدولة الاغلبية فى اقليم الزاب (344) . ولا يخامرنا شك فى تحريض الاغالبة لهم على اثارة العراقيل فى تاهرت . على كل حال ، فقد قدموا الى ذويهم بكدية النكار (345) وانضموا اليهم فى معارضة امامة عبد الوهاب (346) واعتصموا معهم بكدية النكار « خارج تاهرت » (347) . واحس عبد الوهاب بخطرهم ، فدهمهم واطبق عليهم بأنصاره وقتل منهم خلقا كثيرا « الا من شد وولى » (348) ، لائذا بمواطنهم الاولى . ويبدو ان هذه الهزيمة فتتت فى عضدهم ، واوهنت شوكتهم ، فلم تقم لهم بعدها قومة طوال عهد الدولة الرستمية (349) . وتمكن عبد الوهاب بذلك من قمع حركة « الانشقاق الاباضى الاول » (350) المعروف بثورة النكار .

---

(339) انظر : ابو زكريا : ورقة 18 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 25 .
(340) المغرب صفحة 67 .
(341) تسرف المصادر الاباضية فى تقدير عدد القتلى فتذكر أن عدد من تسمى منهم باسم هرون — اقل الاسماء — بلغ ثلاثمائة . انظر : الدرجينى : ج 1 ورقة 25 .
(342) الشماخى : السير صفحة 154 .
(343) ابن الصغير : صفحة 20 .
(344) النفوسى : صفحة 129 .
(345) ابن الصغير : صفحة 20 .
(346) النفوسى : صفحة 130 — 131 .
(347) ابن الصغير : صفحة 20 .
(348) نفس المصدر والصحيفة .
(349) نفس المصدر والصحيفة .
(350) نفس المصدر والصحيفة ، النفوسى : ص 133 .

ومما لا شك فيه أن حركات النكار رغم اخمادها ، شجعت على قيام ثورات اخرى على الحكم الرستمى ، وصدق النفوسى (351) اذ قال بأن الامامة « اضحت مرمى لسهام الطاعنين والظاعنين » . وجدير بالذكر ان هذه الثورات ظلت طوال عهدى عبد الوهاب وافلح ذات طابع مذهبى فى الغالب ، سواء ما قام به جمهور الاباضية وتمخض عن انشقاقات داخل المذهب ، او ما قامت به الطوائف المذهبية الاخرى كالواصلية على وجه التحديد .

فقد تشجع الواصلية الضاربون فى كنف الدولة الرستمية ، وهبوا لمناوءة الامامة الاباضية فى تاهرت اعتقادا منهم بخروج عبد الوهاب على الشريعة واغتصابه الامامة قسرا . ولو صح ذلك ، فالراجح أنهم تذرعوا بهذه الدعوى اخفاء لمطامعهم فى الانسلاخ عن الحكم الاباضى وانتهاز فرصة انشغال عبد الوهاب بثورات النكار (352) لتحقيق هذه المطامع . وليس من المستبعد ان يكون « عزمهم فى الخروج من حكم الامام » (353) تمهيدا للانضمام لاخوانهم بدولة الادارسة . فتذكر المصادر ان حركتهم لم تقتصر على واصلية الدولة الرستمية فحسب ، بل ضمت كافة عناصرهم « من كل اوب » (354) . حيث تجمعوا خارج تاهرت لقتال الاباضية (355) . وهذا امر طبيعى اذا ما ادركنا سياسة عبد الوهاب القائمة على التعصب والمحاباة وقد اذكى هذا التنافر بين الواصلية والامامة الرستمية عوامل مذهبية وقبلية ، اذ لا يخفى العداء التقليدى بين الخوارج والمعتزلة — او الواصلية — الناجم عن الخلاف الفكرى بينهما (356) ، وحسبنا ما كان يحدث من مساجلات ومعارك جدلية بين اقطاب الاباضية فى الشرق وبين واصل بن عطاء راس الواصلية (357) كما زاد التشاحن القبلى من غلواء هذا العداء، فمن المعروف ان قبيلة لواتة الاباضية كانت على عداء مرير لبعض بطون

(351) الازهار الرياضية ج 2 ص 20 .
(352) ابو زكريا : ورقة 19 .
(353) النفوسى : صفحة 117 .
(354) الدرجينى : ج 1 ورقة 26 .
(355) اطيفش : بعض تواريخ اهل وادى ميزاب ص 38 .
(356) على الرغم من التقارب بين فكر المعتزلة والخوارج فى مسالة الوعد والوعيد ، فهناك كثير من القضايا التى اختلفوا حولها اختلافا جوهريا ، كمسالة مرتكبى الكبائر ، والراى فى اصحاب صفين وغيرها . . انظر : الشهرستانى : ص 50 — 52 .
(357) الدرجينى : ج 1 ورقة 105 .

زناتة الواصلية ، بل يذهب مسكراى (358) الى أن هذه البطون الزناتية لم تعتنق مذهب الواصلية الا نكاية فى لواتة التى دانت بالمذهب الاباضى .

ومهما كان الامر — فقد كان الواصلية يشكلون اقلية لها وزنها عدتها ثلاثين الفا يسكنون الخيام ويضربون خارج تاهرت (359) . هذا فضلا عمن أقام منهم ببلدة ايزرج — قرب تاهرت عاصمة الرستميين (360) ، ولكون غالبيتهم من زناتة فقد نجحوا فى اثارة كثير من بطونها ضد عبد الوهاب(361).

واجتمع الثوار من الواصلية خارج تاهرت وهددوا بالقضاء على الامامية الرستمية حول عام 195 هـ (811 م) (362) .

وقد جرت بين الطرفين مساجلات كلامية ، تلتها معارك حزبية كان الظفر فيها للواصلية (363) . واضطر عبد الوهاب لعقد هدنة مع خصومه ، فى الوقت الذى بعث فيه الى اتباعه بجبل نفوسة طالبا المدد (364) . وتسرف المصادر (365) الاباضية فى ذكر روايات مبالغ فيها عن القدرات الخارقة التى تميز بها النفوسيون سواء فى فنون الحرب او فى أساليب الجدل والمناظرات كما تبالغ فى وصف اللقاء بين الاباضية والواصلية والانتصار الذى أحرزه الامام فى ساحة الجدل وفى ميدان القتال (366) . والراجح ان عبد الوهاب استطاع بمساعدة نفوسة هزيمة الواصلية وتفريق جمعهم ، اذ لم نقف لهم بعد على حركات طوال عهد الدولة الرستمية ،

---

(358) انظر : Chronique d'Abou Zakaria. P. 120.

(359) البكرى : ص 67 ، ابن خلدون : ج 6 ص 121 .

(360) اليعقوبى : البلدان . صفحة 80 .

(361) الدرجينى : ج 1 ورقة 16 ، Lewcki : Etudes Ibadites. P. 29.

(362) هذا التاريخ تقريبى ، اعتمادا على ما هو معروف من أن الامام على اثر حروبه مع الواصلية توجه الى جبل نفوسة حيث ضرب الحصار حول طرابلس فى العام التالى انظر ابو زكريا : ورقة 21 ، Lewcki : Melanges Berberes. P. 269.

(363) يفهم هذا من اشارة للشماخى تقول ان عبد الوهاب « كان زاهدا فى سفك الدماء » ، ومن طلبه العون من جبل نفوسة ، ومما ذكره أبو زكريا عن الفتى المعتزلى الذى قتل كل من بارزه من الاباضية : انظر : السير ص 154 ، السيرة ورقة 19 .

(364) تذكر الرواية الاباضية ان اهل الجبل بعثوا الى الامام أربعة أشخاص فقط كل واحد منهم بمقام مائة « أحدهم للمناظرة ، والاخر لتفسير القرآن ، والثالث للمبارزة ، والرابع للمحاجاة فى المسائل الفقهية » وهى رواية غير مقبولة انظر : أبو زكريا : ورقة 19 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 26 ، الشماخى : السير : ص 155 ، النفوسى : ص 119 .

(365) نفس المصادر والصفحات .

(366) انظر : أبو زكريا : ورقة 22 ، الدرجينى : ورقة 28 .

وهو ما عناه الشماخى (367) بقوله « فوضعت الحرب أوزارها ، ودخل المعتزلة فى طاعة الامام » .

على ان حركة تمرد اخرى اقل خطرا واجهت عبد الوهاب ، قامت بها بعد بطون قبيلة هوارة الضاربة جنوبى تاهرت (368) . ونحن نخالف ابن الصغير (369) رايه فى اعتبار هذه الحركة ثانى الانشقاقات الاباضية، ذلك ان الانشقاق الثانى حدث عند ظهور فرقة الخلفية الى جانب الوهبية والنكار وحسبنا أن تمرد هوارة كان خلوا من اى حافز مذهبى ، ولم يحدث نتيجة خلاف فقهى حول قضية عامة وانما وقع كرد فعل لتنافس بين الامام عبد الوهاب وبين زعيم الاوس — وهى بطن من بطون هوارة — حول الزواج من احدى بنات شيخ قبيلة لواتة (370) النازلة جنوبى تاهرت على وادى ميناس(371) فقد ازمع زعيم الاوس (372) مصاهرة شيخ لواتة ، لكن عبد الوهاب حال دون ذلك بأن تزوج اللواتية — فارتحل زعيم الاوس بجموعه من هوارة عن مضاربهم ونزلوا بمكان يبعد عن تاهرت بعشرة اميال عرف «بوادى هوارة » . ومن هناك طفقوا يغيرون على اتباع عبد الوهاب وانصاره ، الامر الذى جعله يستعين بأحلافه من نفوسة وغيرها ويعد جيشا قوامه الف فارس عدا حشود هائلة من الرجالة (373) . وباغت عبد الوهاب خصومه على غرة ، ودارت معركة طاحنة عند نهر اسلان قتل فيها الكثير من الجانبين ، وانتهت بهزيمة الثوار وفرار فلولهم الى جبل ينجان (374) .

وكانت آخر الثورات التى واجهت حكم عبد الوهاب حركة خلف بن السمح فى شرقى الدولة الرستمية ، وهى التى أسفرت عن ثانى الانشقاقات الاباضية اذ ما كاد عبد الوهاب يفرغ من مواجهة الحركات والثورات التى اندلعت فى تاهرت وما حولها حتى داهمته فى آخر عهده

---

(367) السير صفحة 157 .
(368) البكرى : صفحة 67 .
(369) سيرة الائمة الرستميين صفحة 20 .
(370) ابن الصغير : صفحة 20 .
(371) ابن خلدون : ج 6 صفحة 117 .
(372) ويعرفون ايضا ببنى مصالة او مسالة . انظر : ابن الصغير : ص 20 .
(373) النفوسى : صفحة 134 .
(374) ابن الصغير : ص 22 ، ويوجد هذا الجبل فى منطقة جرداء على مقربة من البحر المتوسط . انظر : اليعقوبى : البلدان . ص 356 .

ـة فى منطقة طرابلس وجبل نفوسـة (375) التابعة للامامة
3) ـ اتخذت طابعا دينيا . واستفحل خطر الحركة واقتطعت
الدولة الرستمية الشرقية خلال السنوات الاخيرة من حكم
ردحا طويلا من عهد ابنه افلح .

لف بن السمح زعيم الانشقاق الاباضى الثانى سليـل بيت
ة المذهب الاباضى فى بلاد المغرب . فهو حفيد ابى الخطـاب
، السمح « أول ائمة الظهور » ، وابوه السمح بـن ابـى
الامام (377) عبد الوهاب وساعده الايمن ، وعامله على
لذلك اكتسب آل ابى الخطاب منزلة كبيرة بين اباضية المغرب
ـ هذا اقدامهم على مبايعة خلف بن السمح بالولاية على اثر
سمح بن ابى الخطاب (378) . ويخيل الينا أن الامام عبد
على نفوذه فى هذه النواحى من جراء قيام حكم وراثى فيها ،
ابى الخطاب ما استباحه هو واسرته من الخروج على مبدأ
بدأ الوراثة فى الحكم ، ومن ثم لم يقر شرعية ولاية خلف بن
، كما ضرب صفحا عن توسلات اباضية الجبل لابقائه واليا
(380) .

ـسة من اوسع قبائل البربر واكثرها انتشارا ، فمن بطونها بنو زمور وبنـو
ماطوسة وتفرب شعوبها فى احواز طرابلس وجبل نفوسة حتى مشارف
، وان كان الجبل هو معقلهم الاصلى ، ويبلغ طوله من الشرق الى الغرب
ثة ايام وارتفاعه نحو ثلاثة أيام ، وهو عامر بالمدن والقلاع والقرى والضياع
. واهم مدنه شروس ومسيف وجادو .
وسة تدين بالمسيحية قبل اعتناقها الاسلام ، واعتنقت المذهب الاباضى فى
ـن الثانى الهجرى ، واسهمت فى ثورات الاباضية فى المغرب الادنى وافريقية
امر . ولما قامت الدولة الرستمية بتاهرت كان النفوسيون من أشد مناصريها
مها ، ولا غرو فقد حظوا باهم المناصب العامة فى الدولة « فكـانت نفوسة
تقديم القضاة وبيوت الاموال وانكار المنكر فى الاسواق والاحتساب علـى
، . الا انه على الرغم من تبعيتهم للامامة فى تاهرت ، كانوا شبه مستقلين
ـ المسافة بينهم وبين تاهرت . انظر : اليعقوبى : البلدان . ص 349 ،
: ص 15 ، ابن حوقل : ص 67 ، ابن خلدون : ج 6 ص 114 ، الاستبصار
، الشماخى : السير : ص 192 ، 273 ،
Basset. Les sancturs du Djebel .. P. 426, Despois : Op. Cit.
ـلى : ج 2 ص 20 ، على يحيى معمر : الاباضية ص 75 .
ـى : البلدان ص 349 .
، : صفحـة 165 .
: ورقة 25 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 31 ، النفوسى : ص 151 .
ـيـا : نفس المصدر والصحيفة .
ـدر والصحيفـة .

على ان غالبية الاباضية فى هذه النواحى اصروا على موقفهم ، واعلنوا خروجهم على امامة عبد الوهاب ، وبايعوا خلف بن السمح بالامامة (381) محتجين بجواز ازدواج الامامة ما وجد عدو يفصل بين اتباع المذهب ، او لصعوبة الاتصال وطول المسافة بينهم وبين تاهرت (382) لكن وجد بين اباضية الجبل من تمسك بامامة عبد الوهاب ، وتذهب مصادر الاباضية (383) الى أن غالبتهم كانوا من جماعة المشايخ والفقهاء ، فبعث اليهم عبد الوهاب رسالة امتدح فيها موقفهم (384) وولى عليهم احدهم ويدعى أبا عبيدة عبد الحميد الجناونى (385) . ومن ثم حدث انشقاق سياسى اتخذ صبغة فقهية مذهبية . وجوهر الخلاف كمن فى امرين : اولهما مدى حقوق الرعية فى تعيين عمالها ،والآخر شرعية وجود امامين فى وقت واحد . وفى تقديرنا أن تعاليم المذهب الاباضى ترجح رأى خلف واصحابه (386) ، ولعل ذلك يفسر انضمام غالبية اهل الجبل اليه ، ومهما كان الامر ، فقد احتد الخلاف بين الحزبين وطرحت القضية برمتها على فقهاء المذهب بالشرق للافتاء فيها (387) . وتذكر المصادر الاباضية (388) — كعادتها — انهم افتوا فى صالح الامام وخطأوا موقف خلف واتباعه .

وايا ما كانت الفتوى ، فقد نجح خلف فى الاستحواذ على معظم أنحاء الجبل دون ان يحرك عامل عبد الوهاب ساكنا او ان يخف الامام لمواجهته بنفسه . ويخيل الينا أن عبد الوهاب وعامله حين اعوزتهما القدرة على ردع الثوار لجآ الى الحيل ، فأتبع عبد الوهاب اسلوب التجسس (389)

---

(381) نفس المصدر والصحيفة .

(382) اطفيش : الامكان : ص 107 ، 108 .

(383) انظر : ابو زكريا : ورقة 25 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 31 ، النفوسى : ص 151 .

(384) انظر : ملحق رقم (3) .

(385) ابو زكريا : ورقة 25 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 31 .

(386) ثمة رواية لابى الربيع الوسيانى تقول ان أحد مشايخ نفوسة ممن تلقوا العلم على الامام عبد الوهاب أخذ عنه مبدأ حق الرعية فى اختيار ولاتها . انظر : الوسيانى : سير ابى الربيع ورقة 79 — مخطوط . وقد أفتى الربيع بن حبيب بجواز تعدد الائمة بقوله « لا بأس باجتماع أمامين أو ائمة فى زمان واحد اذا فصل بينهم سلاطين لا تطاق او قوم لا يطاقون . او حال بعد المسافة » . انظر : اطفيش : الامكان ص 107 ، 108

(387) بعثوا بذلك كتابا الى أبى سفيان محبوب بن الرحيل شيخ اباضية الشرق بعد الربيع ابن حبيب . انظر : الشماخى : السير : ص 181 .

(388) ابو زكريا : ورقة 25 ، النفوسى : ص 151 .

(389) يفهم ذلك من رواية للنفوسى تقول ان شخصا يدعى عمرو بن يانس كان يندس بين اصحاب خلف « ويكاتب الامام بكل ما يسمعه » . انظر : الازهار الرياضية ج 2 صفحة 155 .

للأيقاع بين خلف وأتباعه ، كما بعث الى المبرزين من أنصار خلف يستميلهم ويمنيهم بالاموال والضياع (390) . لكن ذلك لم يجد فتيلا .

ومات الامام عبد الوهاب (391) ومعظم اجزاء الدولة الشرقية فى حوزة خلف بن السمح (392) . واستمرت حركة خلف وتفاقم خطرها خلال نحو عشرين عاما من حكم أفلح بن عبد الوهاب ، فيخبرنا ابو زكريا (393) انه حتى عام 221 هـ (836 م) كان خلف لا يزال يعمل على اقصاء ابى عبيدة عبد الحميد ، الذى أقره افلح على ولايته على المناطق التى فى حوزته . ويعتقد لويسكى (394) أن خلفا كان يسعى لضم كافة الاقاليم التى كانت فى نطاق حكم جده ابى الخطاب . وقد تمكن بالفعل من مد نفوذه حتى بلدة تيمتى وما وراءها شرقا (395) منتهزا تقاعس أفلح عن مساعدة عامله الكهل الذى آثر العافية (396) . وضمن خلف بذلك السيطرة على الاراضى الخصبة والمراعى الغنية فضلا عمن بها من الاباضية ، فقد دخلوا فى « رايه وبدعته » على حد قول ابى زكريا (397) . وتصور المصادر الاباضية (398) قيام خلف بالاغارات المتواصلة على أملاك أبى عبيدة بقصد السلب والنهب ، وأن الاخير نجح فى ردعها . لكننا نشك فى ذلك اذا علمنا من هذه المصادر ذاتها أن أبا عبيدة كان يستجدى مسالمة خلف

---

(390) الوسيانى : سير ابى الربيع ورقة 30 .

(391) اختلف المؤرخون فى تحديد سنة وفاة عبد الوهاب كشأنهم فى تحديد تواريخ سنى حكم سائر ائمة بنى رستم فابن عذارى يذكر أن عبد الوهاب حكم عشرين عاما ابتداء من سنة 180 هـ التى مات فيها والده ، فيكون تاريخ وفاته تبعا لذلك سنة 200 هـ . بينما يحدد النفوسى هذا التاريخ بسنة 190 هـ على أساس أنه ابستمر فى الحكم تسعة عشر عاما ابتداء من سنة 171 هـ . ولا ندرى كيف توصل جورج مارسية الى تحديد عام 208 هـ كتاريخ لوفاة عبد الوهاب . وان كنا نرجح صحة هذا التاريخ على أساس ما ذكره ابن حيان عن ايفاد عبد الوهاب قبل موته سفارة من أبنائه الى الاندلس سنة 207 هـ . انظر : البيان المغرب : ج 1 ص 278 ، الازهار الرياضية : ج 2 ص 163 ، مادة بنى رستم بدائرة المعارف الاسلامية : ص 93 ، Provencal : Op. Cit. P. 244.

(392) على الرغم من تضعضع نفوذ الامامة على أقاليمها الشرقية فى أخريات عهد عبد الوهاب ، فان نفوذه ظل قائما على بقية أجزاء دولته ، حيث دان له عماله بالطاعة فى نواحى قسطالية وزنزقة ودمر وزواغة وجربة وقنصة ونفزاوة وقنطرارة فضلا عن تاهرت ونواحيها . انظر : الشماخى : السير ص 161 ، النفوسى : ص 165 .

(393) السيرة : ورقة 28 .

(394) Etudes Ibadites. P. 115

(395) النفوسى : صفحة 167 .

(396) ابو زكريا : ورقة 26 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 32 .

(397) السيرة ورقة 26 .

(398) نفس المصدر ورقة 27 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 33 ، الشماخى : السير . ص 184 والنفوسى : صفحة 167 .

وموادعته (399) وأن خلفا خيره بين أنكار امامة عبد الوهاب والدعـوة له وبين قتاله (400) . ومن المؤكد ان ابا عبيدة لم يستجب لدعوته ، فقد اجتاح خلف بجموعه (401) اراضى خصمه سنة 221 هـ (402) (836 م)، والتقى بأبى عبيدة ورجاله (403) عند سفح الجبل فى معركة يذكر مؤرخو الاباضية (404) انها انتهت بهزيمة خلف وانسحابه الى تمتى ، فلم تقم له قائمة بعدها الى « أن مات بزيغه » . ولكننا نعلم أن حروبا وقعت بين خلف وبين أيوب بن العباس ــ خليفة ابى عبيدة ــ هزم فيها خلف عنـد فاغيس ــ قرب تمتى (405) ــ الامر الذى يشكك فى رواياتهم .

ويخيل الينا ان خلفا ظل يتمتع بنفوذ فى معظم جهات طرابلس وجبل نفوسة حتى وفاته ، وان انصاره من نفوسة وزواغـة الذيـن عرفـوا « بالخلفية » ظلوا موالين لابنه المعروف بالطيب حتى أواخر عهد الدولة الرستميـة .

وكانت هذه الاقاليم الشرقية ايضا مرتعا لحركة اخرى مناوئة للامامة فى تاهرت تزعمها فرج بن نصر المعروف بنفـاث ، واسفـرت عـن ثالث الانشقاقات فى الجماعة الاباضية (406) .

كان الانشقاق الاول نتيجة خلافات فقهية حول مسائل الامامة وسياسة عبد الوهاب فى تعيين عماله ، وكان الانشقاق الثانى بسبب قضية تعدد الائمة وحق الرعية فى اختيار عمالها ، اما الخلاف الثالث فكان من جـراء الاخلال بشرعية الامامة واهدار رسومها (407) على يد افلح بن عبـد الوهاب ، فضلا عن سياسته « فى استعمال العمال والسعاة لجباية الحقوق

---

(399) بعث أبو عبيدة رسالة الى خلف يقول فيها « واذا نزعت يا خلف يدك عن الطاعة فكن فى حيزك واكون فى حيزى ودع الحرب » انظر : نفس المصادر والصفحات .

(400) نفس المصـادر والصفحـات .

(401) ذكر الدرجينى انها بلغت اربعة آلاف بينما تجمع المصادر الاباضية الاخرى على أن عدتها أربعين الفا . انظر : الدرجينى : ج 1 ورقة 33 ، أبو زكريا : ورقة 27 ، الشماخى : السير : ص 184 ، النفوسى : ص 168 .

(402) شذ الدرجينى عن اجماع مؤرخى الاباضية ، فذكر أن القتال حدث سنة 211 هـ . انظر طبقات الاباضية : ج 1 ورقة 34 ، أبو زكريا : ورقة 280 ، النفوسى : ص 173

(403) تقدر مصادر الاباضية جيش أبى عبيدة بما يتراوح بين ثلاثمائة وسبعمائة رجل . انظر : نفس المصادر والصفحـات .

(404) أبو زكريا : ورقة 29 ، الشماخى : السير ص 187 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 34.

(405) النفـوسى : صفحـة 175 .

(406) أبو زكريا : ورقة 28 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 34 .

(407) الدرجينـى : ج 1 ورقـة 35 .

الشرعية ومطالب بيت المال من الرعية » (408) .

وعلى الرغم مما توروده المصادر الاباضية (409) من تفسير لحركة نفاث باعتباره مارقا على الامامة لاسباب ودوافع ذاتية ، فان ذلك لا ينفى قط كون نفاث ثائرا صاحب آراء واجتهادات فى المذهب الاباضى (410) وداعية (411) لانقاذ الامامة الاباضية مما ترديت فيه من امتهان على عهد ائمة بنى رستم . فقد آلت الامامة الى افلح بن عبد الوهاب توا بعد وفاة ابيه سنة 308 هـ (823 م) ، مما يؤكد استقرار مبدأ الوراثة واختفاء مبدأ الاختيار فى الحكم الرستمى . وكان مثل هذا الانتهاك لتعاليم المذهب كفيلا باثارة عالم فقيه مثل فرج بن نصر « الذى أعطى فى العلم منزلة عظيمة ، والفقه والفهم » (412) . ومن ثم عول على الخروج على امامة افلح ، واتخذ من قريته المجاورة لقنطرارة مركزا لدعوته وانصاره . ولقيت دعوته اقبالا كبيرا بين اباضية نفوسة وزواغة (413) ، وعبثا حاول عامل قنطرارة اقناعهم بالعدول عن آراء نفاث والالتزام بطاعة الامام (414) .

فقد وجدوا فى « النفاثية » مبررا لتظلمهم من دفع الاموال والجبايات والرسوم التى كان يحصلها عمال الامام (415) . كذلك ام تفلح تحذيرات افلح لعماله بأخذ رعاياهم بالشدة وتجنيبهم الدخول فى طاعة نفاث (416). فيبدو ان هؤلاء الرعايا أعلنوا الثورة على عمالهم فبعث الامام اليهم متلطفا واعدا اياهم باجابة مطالبهم فى تغيير من يشاءون من هؤلاء العمال (417).

---

(408) النفوسى : صفحة 195 .

(409) تصور هذه المصادر خروج نفاث لتفضيل الامام افلح سعد بن أبى يونس عليه وتعيينه عاملا على قنطرارة . انظر أبو زكريا : ورقة 29 ، الشماخى : السير : ص 195 . والدرجينى : ج 1 ورقة 35 ، النفوسى : ص 197 .

(410) Lewcki : Melanges Berberes .. P. 270.

(411) ذكر الوسيانى انه سمى بنفاث « لانه ينفث فى الاسماع بدعته » انظر : سير أبى الربيع : ورقة 10 .

(412) ابو زكريا : ورقة 30 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 35 .

(413) الدباغ : معالم الايمان : ج 1 ص 220 .

(414) ابو زكريا : ورقة 29 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 36 .

(415) النفوسى : صفحة 195 .

(416) انظر : نص رسالة افلح لعماله فى هذا الصدد عند النفوسى . الازهار الرياضية : ج 2 ص 214 — 218 .

(417) جاء فى رسالة افلح الى رعيته ما يلى : « .. ومن عاب احدا من عمالنا بخصلة من الخصال ، أو انكر عليه شيئا فليرفع ذلك الينا ، فنكون نحن الذين يغيرون .. » النفوسى : صفحة 203 .

كما أرسل الى نفـــاث يأمـــره بالكف عـــن دعوته وحببه فى العـــودة الى الطـــاعـــة (418) .

ونعتقد أن سياسة التودد والملاينة هذه قد أثمرت فى تثبيط عزيمة نفاث ، وتصدى الكثيرين من مشايخ نفوسة لمناهضته (419) ، وانصراف معظم أتباعه عنه . فتخبرنا المصادر أن نفاثا آثر الرحيل الى الشرق حيث نزل بغداد وانكب على دراسة كتب المذهب ونسخ ما تسنى له نسخه منها. فلما عاد وجد انصاره قد وهنوا وتفرقوا (420) . وان كنا نشك فيما زعمته من أنه « تاب ورجع عن مسائله التى خالف فيها » (421) بدليل وجود كثيرين ممن اعتنقوا آراءه حتى أواخر القرن الخامس الهجرى (422) .

واذا كانت الانشقاقات المذهبية قد تفشت فى الاجزاء الشرقية مـــن الدولة الرستمية ، فان خطرا جديدا ظهر فى آخر حكم أفلح هدد قلب الدولة ذاته ، ونعنى به صراع العصبيات العنصرية والقبلية . لكن أفلح استطاع بذكائه وحذقه السياسى (423) تجنيب الامامة فى عهده شر هذا الخطر ، واتبع فى ذلك وسائل شتى تدل على براعته فى الحكم والسياسة الى جانب ما اتصف به من شجاعة نادرة (424) .

ومن هذه الوسائل تخليه عن مبدأ المركزية فى الحكم ـــ وهو مبدأ تكرهه القبائل البدوية كثيرا ـــ وعاد الى مبدأ الشورى ، فكان يأخذ برأى مشايخ القبائل ورؤسائها فى تعيين ولاته وعمـــالـــه ضاربا صفحا عـــن

---

(418) النفـــوسى : صفحـــة 204 .

(419) ثمة مثل أورده الدرجينى يدلل به على دور نفوسة فى مقاومة حركة نفاث ، جاء على لسان احد المشايخ ويدعى أبو مهاصر ، قال « تنبح جروة أبى مهاصر لئلا يأكل الذئب الغنم ، وقد كاد يأكلها ، حتى أتت سلاق ويغوا . . هرب الذئب فآمنت الغنم . يعنى بالجروة نفسه ، وبالذيب نفاث بن نصر ، وبالغنم نفوسة ، وبالسلاق مهديا وعمروسا (من مشايخ الجبل) وهما من منزل يقال له ويغوا ، ويعنى يأكل الذيب الغنم ، استحواذ نفاث على أهل الجبل . . » انظر : طبقات الاباضية : ج 1 ورقة 134 وعلى الرغم من تشكيك البرادى فى صحة هذا المثل ـــ لان الشيخ مهدى النفوسى قتل أثناء حصار الامام عبد الوهاب بطرابلس سنة 196 هـ ـــ فلا شك أن له دلالته على مدى نفوذ نفاث وامتداد دعوته ، فضلا عن دور نفوسة فى مطاردته حتى هرب الى الشرق وانصرف عنه معظم أتباعه . انظر : الجواهر المنتقاة : ورقة 106 .

(420) أبو زكريا : ورقة 31 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 37 .

(421) النفـــوسى : صفحـــة 210 .

(422) انظـــر : Lewcki : Melanges Berberes. P. 270.

(423) النفـــوسى : صفحـــة 183 ، Motylinski : Op. Cit. P. 6.

(424) تفيض تواريخ الاباضية بقصص وبطولات نادرة قام بها أفلح فى حربه مع النكار وبربر هوارة فى حياة والده . انظر : الدرجينى : ج 1 ورقة 25 .

أعتراضات آل بيته فى هذا الصدد (425) . وفضلا عن ذلك فقد فرض رقابة دائبة على هؤلاء العمال والولاة حتى لا يتمادون فى ارهاق الرعية بالمغارم والجبايات ، والزمهم بمراعاة تعاليم المذهب فى سياستهم المالية ، ثم اتاح لهم مزيدا من السلطات داخل عمالاتهم (426) ، فضمن بذلك اقرار العدالة مع لا مركزية الحكم وهو الاسلوب الامثل فى دولة يشكل البدو غالب سكانها . كما عول أفلح على استمالة القبائل اليه (427) ، وتخبرنا المراجع (428) عن حرصه على اتخاذ تراجمة يجيدون لغة البربر . وأفلح فى احداث نوع من التوازن بين هذه القبائل جنبه مشقة الدخول فى صراع معها . واتبع فى ذلك شتى ضروب الحيل ، فقد اخذ بالمبدأ المشهور « فرق تسد » (429) « فأرشى ما بين كل قبيلة ومجاورها » (430) ، « والقى موجبات التخالف بين كل مقدم وأتباعه وبث الجواسيس بين شعوب تلك القبائل بطرق سياسية وتدبيرات باطنية كفته مئونة القتال » (431) .

لهذا اتسم عهد افلح بالهدوء والاستقرار السياسى (432) ، وحظى بحب الاباضية وأعجابهم (433) « فألقى بيده يمينا وشمالا ، وتمكن فى امامته واطردت له الامور » (434) ، ولم يبق فى أيامه منازع ، ولا أجمع جهاته الا طائع (435) . واعتبر مارسيه (436) عهد أفلح العصر الذهبى للدولة الرستمية ، اذ بعد موته فى سنة 258 هـ (437) (873 م) ضعفت هذه الدولة .

---

(425) ابن الصغير : صفحة 25 .
(426) النفوسى : صفحة 188 .
(427) نفس المصدر : صفحة 68 ، Motylinski : Op. Cit. P. 6.
(428) انظر : ابن الصغير : ص 27 ، النفوسى : ص 68 .
(429) مارسيه : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الاسلامية ص 94 ، Faroughy : Op. Cit. P. 15.
(430) ابن الصغير : صفحة 27 .
(431) النفوسى : صفحة 183 .
(432) ابن الصغير : صفحة 27 .
(433) نفس المصدر : صفحة 25 .
(434) أبو زكريا : ورقة 29 ، الشماخى : السير ص 187 .
(435) الدرجينى : ج 1 ورقة 34 .
(436) انظر : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الاسلامية ص 94 .
(437) ذكر أبو زكريا أن أفلح ظل فى الامامة ستين عاما ، بينما يقول ابن الصغير انه حكم خمسين عاما . ونحن نرجح رواية ابن الصغير ، ومن ثم تكون وفاته سنة 258 هـ على أساس توليه الامامة سنة 208 هـ كما سبق القول . وعلى ذلك فقد اخطأ النفوسى حين ذهب الى أن أفلح مات سنة 240 هـ . انظر : أبو زكريا : ورقة 31 ، ابن الصغير : ص 25 ، النفوسى : ص 221 .

وهكذا — أتسمت هذه المرحلة من تاريخ بنى رستم بكثرة الثورات والفتن التى تلونت فى غالبها بالطابع المذهبى واتخذت شكل الانشقاقات المذهبية فى كيان الجماعة الاباضية . لكن هذه الثورات وان تمخضت عن انسلاخ بعض البقاع الشرقية عن سلطان الامامة فىتاهرت ، الا أنها لم تشكل خطرا على سلامة الدولة ذاتها ، وبفضل سياسة العنف والشدة التى اتبعها عبد الوهاب ، وبفضل دهاء افلح وحذقه السياسى تخطت الدولة الرستمية هذه الاخطار لتواجه مرحلة عصيبة فى تطورها السياسى .

الدور الثانى (258 — 281 هـ) (788 — 895 م) .

الصراع القبلى والعنصرى :

قلنا أن الطابع الدينى غلب على المرحلة السابقة ، فشكل أحداثها ولونها بمسحة مذهبية واضحة وسبق القول أيضا أن قيام الدولة الرستمية كان على اساس مذهبى حيث اجتمع الاباضية من شتى العناصر والقبائل فى المغرب فى كنف الامامة الرستمية وليس على اساس عصبية قائمة بذاتها . ومن ثم كان المذهب الاباضى هو الرابطة الوحيدة التى جمعت بين هذه العصبيات المختلفة ، وبالضرورة فان انتهاك تعاليم المذهب وتحول الامامة الى ملك ، قد قضى على هذا الرباط الوثيق الذى جمع هذه العصبيات وفجر ما بينها من حزازات عصبية قبلية ونعرات عنصرية .

وقد بدت بوادر التناحر القبلى العنصرى داخل الدولة الرستمية فى عهد عبد الوهاب الذى تمكن من فض ائتلاف قبيلتى هوارة ولواتة ، ومحق تمرد هوارة حين أزمعت العصيان . كما أن افلح بن عبد الوهاب أخر من اندلاع هذا الصراع حينا بفضل حسن سياسته ، لكنه أسهم من ناحية أخرى بسياسته القائمة على التفرقة بين القبائل فى اذكاء النزعات القبلية والعصرية التى بقيت فى الصدور الى أن « اخترمته المنية » (438) ثم تفجرت بعد وفاته فى شكل حروب دامية انهكت هذه العصبيات من ناحية وضعضعت نفوذ الائمة وهيبة الامامة من ناحية اخرى .

فقد ضمت الدولة الرستمية قبائل متعددة من البربر كهوارة ونفوسة ومزاتة ولواتة وسدراتة ولماية ، فضلا عن عناصر مختلفة من الفرس والعرب والجند الافريقى . وقد ساعدت فترة السلام الطويلة التى نعمت

(438) ابن الصغير : ص 27 ، محمد بن تاويت . دولة الرستميين . ص 122 .

بها تاهرت أبان حكم أفلح بن عبد الوهاب على احداث تحول خطير فى احوال هذه العناصر والقوى المختلفة .

فالقبائل البدوية كلواتة وهوارة ومزاتة جنح معظمها الى الاقامة حول تاهرت وآثرت حياة الاستقرار والاشتغال بالزراعة والتجارة حيث جنت منها أرباحا طائلة « فاتخذت العين والخيول ، ونالها من الكبر ما نال أهل المدينة » (439) اما نفوسة التى أقامت بعض بطونها فى العدوة فقد نالت حظوة الائمة وآثروها بالوظائف العامة « فكانت تلى عقد تقديم القضاة وبيوت الاموال وانكار المنكر فى الاسواق والاحتساب على الفساق » (440).

وبلغت العناصر الفارسية فى الدولة الرستمية شأوا كبيرا لكون الائمة من اصل فارسى ، فأوكلوا اليهم قيادة الجيوش وأسمى المناصب ، فضلا عن سيطرتهم على النواحى التجارية والثقافية (441) ، فأقاموا القصور والمنازل حول تاهرت « وشكلوا دولة داخل الدولة الرستمية » على حد قول فروخى (442) .

كما وفدت على تاهرت جموع من العرب والجند الافريقى بعد فشل ثوراتهم على الامراء الاغالبة (443) ، فأقبلوا على سكنى تاهرت هربا من بطش هؤلاء الامراء من ناحية ، وطمعا فى الثراء عن طريق الاشتغال بالتجارة التى ازدهرت فى عاصمة الرستميين من ناحية أخرى . ثم هناك قوة أخرى كانت ممثلة فى أجناد الائمة من أفراد البيت الرستمى الذين عرفوا « بالرستمية » (444) فضلا عن اتباع السمح بن أبى الخطاب الذين انشقوا على خلف بن السمح وهربوا الى تاهرت ودخلوا فى خدمة بنى رستم ، وعرفوا لذلك « بالسمحية » (445) .

ويمكن تقسيم هذه القوى جميعا الى قسم موالى للامامة الرستمية، ويشمل نفوسة والفرس والرستمية والسمحية والآخر مناوىء لها يضم

---

(439) ابن الصغير : صفحة 27 .

(440) نفس المصدر والصحيفة .

(441) نفس المصدر : ص 26 ، 27 ، Lewcki : Melanges Berberes .. P. 273

(442) انظر : Apersian dunasty in North Africa. P. 15.

(443) النفوسى : صفحة 231 .

(444) ابن الصغير : صفحة 27 .

(445) نقل جورج مارسيه عن ابن الصغير تحريف كلمة « السمحية » الى « المسيحية » فقال بوجود عناصر مسيحية فى تاهرت وقفت الى جانب بنى رستم . انظر : ابن الصغير : ص 36 ، مارسيه : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الاسلامية ص 94 .

العرب والجند الافريقى فضلاً عن بعض القبائل الضاربة حول تاهرت ، وان تأرجحت بعض هذه القوى بين الولاء والعداء لبنى رستم احيانا .

تأججت نار الصراع القبلى والعنصرى على اثر وفاة أفلح بن عبد الوهاب فبادرت نفوسة بتنصيب ابنه أبى بكر اماما رغم اعتراض فقهاء المذهب (446) ، على خلاف ما أورده النفوسى (447) بأن اهل الحل والعقد من سائر القبائل والعصبيات هم الذين قاموا ببيعته . ومما زاد الطين بلة أن أبا بكر بن افلح لم يكن جريئا قويا كجده عبد الوهاب ولا داهية حصيفا كأبيه افلح ، بل كان غرا لين العريكة شغوفا بالآداب والتواريخ (448) ، ميالا الى الترف والملذات ، زاهدا فى الادارة والحكم (449) . ويبدو انه حاول الاستعانة باحدى القوى الموجودة بتاهرت من دون نفوسة التى كانت تمقتها بقية العناصر الاخرى ، فوطد صلاته بالجند والعرب وصاهر زعيمهم محمد بن عرفة وسلم اليه مقاليد الدولة ، وركن الى الدعة والخمول . واستبد ابن عرفة بتصريف شؤون الامامة من دون الامام « حتى كانت الامارة بالاسم لابى بكر وبالحقيقة لمحمد ابن عرفة » (450) .

ونظرا للعداء التقليدى بين كافة العناصر بتاهرت وبين العرب فقد خسر ابو بكر ولاءها جميعا باستثناء بعض بطون هوارة التى ارزته فى حين استاء بعضها الآخر من سياسته وغادروا المدينة واحوازها الى مواطنهم الاولى .

وبديهى أن ينقم الرستمية عليه سياسته وينضموا لنفوسة التى ساءها خذلانه اياها بعد ان أوصلته للامامة ، كما ساءها ارتماؤه فى أحضان الجند والعرب (451) أما الفرس فقد آثروا الحياد والتريث ولكنهم كانوا على أهبة الاستعداد لاغتصاب الامامة كلما سنحت الفرص (452) . وفى

---

(446) احتج الشيخ عبد العزيز بن الاوز — المعروف بتعمقه فى الفقه الاباضى — على ذلك مخاطبا نفوسة بقوله « الله سائلكم معاشر نفوسة ، اذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ، ولم تجعلوا الامر للمسلمين وتردوه اليهم فيختارون من هو اتقى وأرضى » . انظر : ابن الصغير : ص 31 ، 47 .

(447) الازهار الرياضية : ج 2 صفحة 222 .

(448) ابن الصغير : صفحة 31 .

(449) نفس المصدر : صفحة 32 .

(450) نفس المصدر : صفحة 31 .

(451) نفس المصدر : ص 32 ، النفوسى : ص 224 .

(452) نفس المصدر : صفحة 32 .

تلك الظروف وصل ابو اليقظان محمد بن افلح — اخ الامام — الى تاهرت (453) وعهد اليه ابو بكر ببعض مسؤوليات الادارة والقضاء ، فسيرها على أحسن ما يكون ، حتى « حمد له الشراة ذلك » (454) .

واضمر ابو اليقظان حقدا على ابن عرفة وحزبه ، وساءه استبداده وتسلطه ، وشاركه فى ذلك نفوسة والرستمية ، فحرض اخاه على اغتيال ابن عرفة سرا (455) وتم له ما اراد (456) . ويحاول مؤرخو الاباضية انكار تدبير هذا الحادث ونفى قيام الامام بتنفيذه ، دفاعا عن آل البيت الرستمى . فأبو زكريا (457) والدرجينى (458) اكتفيا بالاشارة الى أن الناس فوجئوا بابن عرفة قتيلا دون ادنى اشارة الى ظروف مقتله ، أما النفوسى (459) فيبرىء ابا اليقظان من تهمة التحريض على قتل ابن عرفة، وينسبها الى احد نصحاء الامام . لكن هذه الروايات جميعا تضعف أمام رواية ابن الصغير المالكى الذى يؤكد ان ابا اليقظان دبر الحادث . وأن ابا بكر نفذه . على كل حال — تمخض الحادث عن نوع من الفوضى السياسية عمت تاهرت ، وتحفزت سائر القوى للخروج من هذه الفوضى ظافرة بالامامة ، ودخل بعضها مع البعض الآخر فى ائتلافات وتحالفات للافادة من الظروف . فقد هب العرب والجند مطالبين بثأر زعيمهم ابن عرفة ، وانضوا تحت لواء أحدهم ويدعى محمود بن الوليلى (460) . كما وقفت الرستمية الى جانب الامام ابى بكر (461) . اما الفرس فتبعوا فى قصورهم خارج المدينة يدبرون أمر الاستيلاء عليها (462) . بينما لاذت قبائل البربر خارج تاهرت بالصمت مترقبة نتائج الصراع .

نشب القتال بين الجند والعرب من ناحية وبين الامام والرستمية من ناحية أخرى ، وقتل من الطرفين خلق كثير (463) . فاغتنم الفرس الفرصة

---

(453) كان أبو اليقظان اسيرا فى بغداد ، اذ قبض عليه عمال العباسيين وهو فى طريقه لاداء فريضة الحج ثم افرج عنه وعاد الى تاهرت . انظر : ابن الصغير : ص 31 .
(454) ابن الصغير : صفحة 32 .
(455) نفس المصدر : صفحة 33 .
(456) عن تفصيل اغتيال ابن عرفة . انظر : ابن الصغير : ص 34 — 36 .
(457) السيرة : ورقة 31 .
(458) طبقات الاباضية ج 1 ورقة 37 .
(459) الازهار الرياضية . ج 2 ص 226 ، 227 .
(460) ابن الصغير : ص 36 ، النفوسى : ص 230 .
(461) ابن الصغير : صفحة 36 .
(462) نفس المصدر : صفحة 37 .
(463) ابن الصغير : ص 37 ، النفوسى : ص 231 .

وحاولوا الاستيلاء على تاهرت . عندئذ تضامن الرستمية مع الجند والعرب وتصدوا لقتال الفرس واسروا منهم اعدادا غفيرة (464) . ثم انسحب الامام والرستمية من حلبة الصراع ، والحق الجند والعرب بالفرس عد هزائم واضرموا النيران فى منازلهم . وخشى أبو اليقظان ونفوسة من خطر الجند والعرب فانضموا للفرس « وصارت كلمتهم وكلمة العجـ واحدة » (465) .

واحتدم القتال بين الفريقين وتبادلا النصر والهزيمة الى ان اسفر الصراع عن انتصار الجند والعرب . وارغم ابو اليقظان وحلفاؤه على مغادرة المدينة ، فنزل الفرس بموضع يقال له تنابغيلت — على بعد مرحلتين من تاهرت — كما اعتصمت نفوسة بحصنها خارج المدينة ويعرف « بقلعا نفوسة » ، أما أبو اليقظان فلاذ بالرستمية بموضع يسمى اسكيدال جنوبى تاهرت (466) . وصفت المدينة للجند والعرب بعد أن اعتزل ابو بكر الاماما « وانسلخ منها » (467) ولحق اتباعه من الرستمية والسمحية بأبـى اليقظان سنة 260 هـ (468) (874 م) .

لكن الجند والعرب لم ينعموا طويلا بالسيطرة على زمام الامور فى تاهرت ، فقد أقصاهم عنها بربر هوارة ، وآلت اليهم السلطة فيها طوال ثمان سنوات . ونحن نعلم أن بربر هوارة كانوا قد تمردوا على حكم الامام عبد الوهاب ، وأنه بطش بهم فتفرقت جموعهم ورحل معظمهم الى جبل ينجان ، وعاد الباقون الى مضاربهم جنوبى تاهرت كما نعلم أن فريقا من هؤلاء آزر أبا بكر بن افلح فى بداية امامته بينما آثر فريق آخر اللحاق بجبل ينجان . ثم كان ما جرى من صراع بين سائر القوى فى تاهرت ، وظفر الجند والعرب فى النهاية بالسيطرة على زمام الموقف فيها . وادى هذا الصراع الذى استمر عامين (469) الى اضعاف أطرافه جميعا ، فوجدت هوارة الفرصة مواتية للسيطرة على تاهرت . وقد غادرت جموع هوارة مضاربها

(464) نفس المصدر والصحيفة ، نفس المصدر : ص 232 .
(465) نفس المصدر : ص 38 ، نفس المصدر والصحيفة .
(466) ابن الصغير : ص 39 ، النفوسى : ص 235 .
(467) الدرجينى : ج 1 ورقة 37 والمصادر الاباضية لا تذكر شيئا عن مصير ابى بكر بن افلح بعد اعتزاله الامامة . بينما يذكر ابن عذارى أن أهل تاهرت اعادوه الى المدينة حيث ظل بها حتى وفاته والراجح أنه عاد الى تاهرت بعودة أخيه ابى اليقظان محمد الذى تولى الامامة من بعده . انظر : ابن عذارى : البيان المغرب : ج 1 ص 278
(468) ابن الصغير : صفحة 39 .
(469) النفوسى : صفحة 236 .

بجبل ينجان بزعامة شيخهم محمد بن مسالة (470) واقتحموا تاهرت دون عناء ، ونصبوا ابن مسالة اميرا عليهم (471) . وظل ابن مسالة « يدبر شؤونها ويدير احوالها على حسب ما يراه » (472) وتخبرنا المراجع (473) ان حكمه اتسم بالهدوء والاستقرار .

لكن النعرات القبلية ما لبثت ان تجددت داخل تاهرت ، فوقع خلاف بين هوارة ولواتة انتهى بطرد اللواتيين خارجها ونزولهم بحصنهم القريب من اسكيدال حيث اقام ابو اليقظان والرستمية (474) . ثم حدث ائتلاف بين لواتة وابى اليقظان ، فأجمعت على بيعته بالامامة سنة 261 هـ (875 م) ، ثم بادرت غالبية القبائل ببيعته ايضا وانكرت حكم ابن مسالة (475) وحاول ابو اليقظان دخول تاهرت عنوة دون جدوى وتكررت محاولاته طيلة سنوات سبع ، لم يفز فيها بطائل . فبعث يستمد العون من جبل نفوسة ، فأمدوه ، واستطاع دخول المدينة دون قتال سنة 268 هـ (882 م) بعد ان امن اهلها على ارواحهم واموالهم (476) .

وكان على الامام ابى اليقظان ان ينهج سياسة الاعتدال وتهدئة الخواطر بعد ما عانته البلاد من حروب اهلية شاملة . وقد نجح فى ذلك انى ابعد الحدود بفضل ورعه وتقاه (477) وحرصه على مراعاة تعاليم المذهب فى احكامه ، ولا غرو فقد عرف بتفقهه فى المذهب وبتواليفه فى اصوله وفروعه والرد على مخالفيه (478) .

وقد حرص ابو اليقظان على اجتناب سياسة التعصب وايثار بعض القبائل والعناصر بمناصب الدولة دون البعض الآخر . وعلى الرغم من مساعدة نفوسة ومعاونتها له على دخول تاهرت ، قلل مما كانت تتمتع به من امتيازات فى عهود اسلافه ، فحرمها من تولى القضاء وابقى لها ادارة

---

(470) يعتقد ماسكراى ان ابن مسالة كان اباضيا نكاريا .لكن المصادر لا تؤيد هذا الراى ، فالنفوسى يصفه بانه « اباضى المذهب » ومن المعروف ان مؤرخى الاباضية يعتبرون فرقة النكار مارقة على جماعة المذهب من الوهبية . انظر : الازهار الرياضية ج 2 صفحة 236 ، Chronique d'abou Zakaria. P. 195.

(471) النفوسى : صفحة 236 .

(472) نفس المصدر والصحيفة .

(473) ابن الصغير : ص 39 ، النفوسى : ص 236

(474) نفس المصدرين والصفحتين .

(475) ابن الصغير : ص 40 ، النفوسى : ص 238 .

(476) نفس المصدرين والصفحتين .

(477) ابن الصغير : صفحة 44 .

(478) ابو زكريا : ورقة 31 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 36 ، 37 .

بيت المال (479) والحسبة ، واتخذ ابو اليقظان مجلسا للمشورة يضم شيوخ القبائل ووجهاء كافة العناصر المقيمة بتاهرت (480) ، ولم يأنف من مخالطة رعاياه والجلوس اليهم لبحث شكواهم (481) . كما تسامح مع اتباع المذاهب والفرق الاخرى من الكوفيين والصفرية والمعتزلة والمالكية، واباح لهم الصلاة فى المساجد جميعا فيما عدا المسجد الجامع (482) ويحدثنا ابن الصغير (483) ان شيوخ هذه الفرق كانوا يدخلون فى محاورات ومناظرات — مع فقهاء الاباضية فى جو مفعم بالحرية والتسامح . واختار عماله ممن عرفوا بالورع والتقوى ، وزودهم بنصائحه وتوجيهاته وأمرهم بقراءة نداء وجهه الى رعاياه ، حضهم فيه على اجتناب الفرقة واتباع سنة السلف الصالح (484) .

لذلك ، استقامت له الامور حتى شبهه النفوسى (485) بجده عبد الرحمن بن رستم ، كما روى عنه ابن الصغير (486) اقوالا وافعالا جعلت حكمه يحوز رضى كافة العناصر على اختلافها « فلم ينقم عليه احد شيئا مما ولى من افعاله ما خلا اولاده فانهم ربما خرجوا عن الواجب من افعالهم » (487) .

والواقع ان ابن الصغير يكشف عن ظاهرة خطيرة بدات بوادرها فى

---

(479) ابن الصغير : ص 41 وبرغم ذلك افتتنت نفوسة بحكمه ، فكان شيوخها يلازمون مجالسه ويقفون بباب داره يهللون ويكبرون من اول الليل حتى الفجر . انظر : ابن الصغير : ص 47 ، ابو زكريا : ورقة 31 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 33 ، النفوسى :صفحة 245 .

(480) ابن الصغير : ص 44 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 91 .

(481) ابن الصغير : صفحة 44 .

(482) نفس المصدر : صفحة 42 .

(483) نفس المصدر : ص 44 ، 45 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 92 .

(484) انظر : ملحق رقم (5) .

(485) الازهار الرياضية : ج 2 ص 240 .

(486) يزخر تاريخ ابن الصغير بعديد من القصص والروايات الدالة على عدل أبى اليقظان ونزاهته ، وحرصه على أموال الدولة ، اشبه ما تكون بتلك التى نسجت حول عمر ابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز . انظر : سيرة الائمة الرستميين : ص 48 — 49 .

(487) نفس المصدر السابق : ص 48 . وثمة من القصص التى وردت عند ابن الصغير تصور اقدام ابنائه وخدامه وحراسه على اغتصاب الاموال وهتك الاعراض . انظر : سيرة الائمة الرستميين . ص 42 — 45 .

آخر عهد ابى اليقظان وتفاقمت بعد موته (488) لتودى بالدولة الرستمية ، وهى مفاسد البلاط الرستمى ، وتفشى الخلاف الاسرى ، والتناحر على الحكم ، وما صحب ذلك كله من سقوط هيبة الامامة واضمحلال المذهب الاباضى ، وظهور الطوائف المذهبية المخالفة للاباضية ودورها فى توجيه احداث العصر الرستمى الاخير .

الدور الثالث (281 — 297 هـ) (895 — 909 م)

النزاع الاسرى وفتن الطوائف غير الاباضية

افضى التناحر القبلى والصراع العنصرى الى اضعاف شوكة — سائر العصبيات ، كما ادى الى انهيار هيبة الائمة وانتهاك مكانة الامامة ، حيث اصبح تنصيب الائمة وعزلهم لعبة فى ايدى عامة المدينة وغوغائها ،كما برز نفوذ البلاط ونفوذ نساء الاسرة الرستمية كعامل موجه لاحداث هذه الحقبة.

ووجدت الطوائف الدينية والمذهبية فى تلك الظروف فرصة سانحة « لتبييت خبر الاباضية » (489) واغتصاب الحكم فى تاهرت ، فعمدت الى التدخل فى النزاع بين افراد البيت الرستمى واذكاء الخصومة بين المتنازعين منهم على منصب الامامة تمهيدا للوثوب عليها . والراجح ان هذه الطوائف تواطأت مع قوى خارجية كالعباسيين والاغالبة والادارسة والشيعة الفواطم لاسقاط الحكم الرستمى .

فقد كانت تاهرت وما حولها موطنا لكثيرين من معتنقى المذاهب والفرق غير الاباضية . فكانت اقلية لها وزنها من الخوارج الصفرية تعيش فى كنف الدولة الرستمية ولهم حصن خاص بهم يسمى « تالغمت » بضواحى تاهرت (490) . كما كانت جموع المعتزلة تضرب خارج تاهرت متوثبة للانتقام لما حل بها على يد عبد الوهاب بن رستم . ويشير ابن الصغير (491)

---

(488) توفى ابو اليقظان محمد سنة 281 هـ ابن الصغير : ص 49 ، ابن عذارى : ج 1 ص 278 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 93 ، مارسيه : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الاسلامية ص 93 . ولما كان قد تولى الامامة سنة 261 هـ حسبما ذكرنا سلفا ، فتكون مدة حكمه عشرين عاما ، وليست سبعا وعشرين كما ذكر ابن عذارى ، او اربعين عاما حسبما ذهب ابو زكريا ومن أخذ عنه . انظر : البيان المغرب ج 1 ص 278 ، ابو زكريا : ورقة 31 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 37 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 91 .

(489) ابن الصغير : صفحة 51 .

(490) النفوسى : صفحة 94 .

(491) سيرة الائمة الرستميين : صفحة 51 .

الى وجود كثير من الكوفيين والمالكية فى تاهرت ذاتها ، فى حين يذكر أبو زكريا (492) أن المذهب الشيعى كان له أنصار فى عاصمة الرستميين .

وقد ارتفع شأن هذه الطوائف والفرق فى تاهرت فى أواخر العصر الرستمى بسبب ضعف العصبيات القبلية والعنصرية من جراء الصراع بينها ، وبسبب سياسة التسامح التى اتبعها أبو اليقظان محمد فى أواخر سنى حكمه مع اتباع هذه المذاهب والفرق ، وحسبنا على ذلك دليلا ان خطب على بن ابى طالب كانت تتلى على منابر تاهرت (493) فلا مشاحة بعد ذلك اذا ما وجدنا هذه الطوائف والفرق غير الاباضية فضلا عن الشيع الاباضية المعادية للبيت الرستمى — تتآمر على اسقاط حكم الرستميين بعد وفاة ابى اليقظان محمد وتولية ابنه أبى حاتم يوسف سنة 281 هـ (895 م) .

والواقع ان تنصيب ابى حاتم ينم عما وصلت اليه الإمامة الاباضية من تدهور ومهانة ، فقد اختصه ابوه قبل وفاته بولاية عهده تحت تأثير زوجته غزالة (494) . وبعد موت ابى اليقظان « بادر العوام والفتيان دون القبائل » بمبايعته « فكبروا حوله وحملوه على الايدى والاعناق حتى أوصلوه الى داره ، ثم ارسلوا الى القبائل فبايعته » (495) . واثار ذلك استياء الرستمية فحاولوا — دون جدوى — الحفاظ على هيبة الامامة بحجب الامام ومنعه من مخالطة العوام « التى ارادت الدنو اليه فى كل الاوقات على ما كانت تعرف قبل امارته » (496) . ولهذا رحل يعقوب ابن أفلح — عم أبى حاتم — عن تاهرت ونزل عند زواغة «الخلفية» (497).

وشجع ذلك على تداخل الكوفيين وغيرهم من الطوائف المذهبية فى الامر وتوسيع شقة الخلاف بين الامام والرستمية وبين عوام المدينة (498) حتى اندلعت الحرب فى تاهرت من جديد (499) . والواقع ان مؤرخى

(492) السيرة واخبار الائمة ورقة 36 .
(493) ابن الصغير : صفحة 42 .
(494) نفس المصدر : صفحة 50 .
(495) نفس المصدر والصحيفة ، النفوسى : ص 265 ، Motylinski : Op. Cit. P. 7.
(496) ابن الصغير : صفحة 50 .
(497) النفوسى : صفحة 266 .
(498) ابن الصغير : صفحة 51 .
(499) ابن عذارى : ج 1 صفحة 278 .

الاباضية (500)يتغاضون عنذكر هذه المهازل التى ترددت فيها امامةابى حاتم، فصوروه وقد « اطردت له الامور ، ولم ينقم عليه أحد من رعيته فى حكم ولا فعل » لكن ابن الصغير المالكى الذى عاصر تلك الفترة وعاين احداثها كشف لنا عما حاول هؤلاء المؤرخون اخفاءه . فيذكر أن مشايخ الكوفيين — على وجه الخصوص نجحوا فى تأليب العامة على ابى حاتم — ودبروا مع زعمائهم أمر اغتياله . وتنبه ابو حاتم لما دبر له ، فطرد هؤلاء الزعماء خارج تاهرت. لكن المشايخ انضموا للعامة وثاروا على ابى حاتم وطردوه ومن معه من الرستمية فضلا عن انصاره من نفوسة والعجم وأعادوا زعماءهم الى المدينة (501) .

وعول ابو حاتم على تأليب القبائل ضد أهل المدينة ، وبذل الاموال لهذا الغرض ولجأ الى قبائل صنهاجة من غير الاباضية . وقدر له أن يحشد جموعا غفيرة من لواتة وصنهاجة والعجم فضلا عن نفوسة والرستمية زحف بهم الى المدينة وضرب عليها الحصار فى ثلاثة مواضع (502) . وكاد المحاصرون أن يستسلموا لابى حاتم ويعترفوا بامامته لولا اصراره على تسليم زعماء العامة وشيوخ الفرق ، فرفضوا واستأنفوا القتال ، وبعثوا فى استدعاء يعقوب بن افلح من زواغة ، فأقبل ، وبايعوه بالامامة سنة 282 هـ (503) (896 م) .

وفت ذلك فى عضد ابى حاتم ، وفارقته لواتة وانضمت لعمه يعقوب (504) لكن ذلك لم يمنعه من معاودة الهجوم على تاهرت ، فهزم وفارقه العجم كذلك (505) . ثم عقدت هدنة بين الطرفين بفضل مساعى شيخ مزاتة (506) تمكن ابو حاتم خلالها من استمالة كثيرين من زعماء المدينة عن طريق الاموال والهبات . فعقدوا العزم على بيعته ، ولما علم يعقوب بن افلح بذلك غادر المدينة بمن معه من شيوخ الطوائف وتوجه الى

---

(500) انظر : ابو زكريا : ورقة 32 ، الدرجينى ج 1 ورقة 37 ، الشماخى : السير صفحة 262 .

(501) ابن الصغير : ص 51 ، النفوسى : ص 268 .

(502) نفس المصدر : ص 52 ، نفس المصدر : ص 270 .

(503) ابن الصغير : صفحة 53 .

(504) نفس المصدر والصحيفة ، النفوسى : ص 271 ، 272 .

(505) نفس المصدر والصحيفة ، نفس المصدر : ص 272 .

(506) من المعروف أن مزاتة كانت تعتنق المذهب الاباضى ، وان كان اعتناقها اياه سطحيا انظر اليعقوبى : البلدان : ص 344 .

زواغة (507) بعد أن مكث فى الحكم اربعة أعوام (508) . ودخل ابو حاتم تاهرت سنة 286 هـ (900 م) فى حماية زعماء عامتها (509) .

ونعتقد ان ابا حاتم لم يكن بوسعه استرداد نفوذه الحقيقى على المدينة بعد عودته اليها بفضل زعماء العامة فيها . وبديهى أن ينعكس نفوذ أهل تاهرت على ما اتخذه من اجراءات عقب تقلده الامامة . فلم يكن بمقدوره الا أن يصدر عفوا عاما على سائر أهلها (510) ، وقد كان الى عهد قريب يشترط على زعمائهم والاقتصاص منهم حتى يفك الحصار الذى ضربه على تاهرت . كما أعوزته القدرة على البت فى سياسة الدولة بمفرده ، فقد شاركه فيها مشايخ المدينة « اباضية وغير اباضية » (511) ولم تعد مناصب الدولة حكرا على نفوسة والعجم ، بل برزت عناصر جديدة لم تتول مثل ذلك من قبل (512) وتحولت السلطة الحقيقية فى تاهرت الى هؤلاء العمال ، فكان صاحبا الشرطة «يأخذا بالتهمة ،ويضربا على الظنة» (513)، اما الامام فلم يكن له من السلطة سوى الاسم .

ويبدو ان يعقوب بن افلح ومن هرب معه من مشايخ الكوفيين كانوا من وراء حركة الطيب بن خلف بن السمح فى شرقى الدولة الرستمية ، ذلك ان يعقوبا غادر تاهرت ونزل على زواغة بأحواز طرابلس سنة 286 هـ (900 م) كما ان زواغة كانت لا تزال على ولائها لتعاليم خلف بن السمح ، والتفت حول ابنه الطيب بعد وفاته . ولما كانت مضاربها مجاورة لمنازل نفوسة الموالية للاسرة الرستمية ، فقد كان الاحتكاك بينهما أمرا لا محيد عنه . والواقع أن معلوماتنا فى هذا الصدد مستمدة من المصادر الاباضية التى تصور حركة الطيب وزواغة على انها تمرد من جانب زواغة لخروجها

---

(507) ابن الصغير : ص 56 ، النفوسى : ص 275 .

(508) ابن عذارى : ج 1 ص 278 .

(509) ابن الصغير : صفحة 56 .

(510) امتدح الشاعر بكر بن حماد التاهرتى ابا حاتم راجيا عفوه فى قصيدة منها :

نقلت جفانى يوسف بن محمد — فطال على الليل وهو قصير
ابا حاتم ما كان ما كان بغضه — ولكن اتت بعد الامور أمور
واكرم عفو يؤثر الناس امره — اذا ما عفى الانسان وهو قدير

انظر النفوسى : صفحة 276 .

(511) ابن الصغير : ص 56 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 103 .

(512) نستشف ذلك من اسمى عبد الله بن ابى الشيخ الذى ولى القضاء وابراهيم بن مسكين الذى ولى الشرطة ويخيل الينا انهما كانا من العرب المالكية والاحناف . انظر : ابن الصغير : ص 56 ، الشماخى : السير ص 263 .

(513) ابن الصغير : ص 56 ، الشماخى : السير ص 263 ، البرادى : الجواهر المنتقاة . ورقة 103 .

على زعامة نفوسة (514) . ومع ذلك فالراجح أن يعقوب بن أفلح كان من وراء هذه الحركة مستهدفا اثارة القلاقل فى وجه أبى حاتم ، فليس من محض الصدف أن يثور الزواغيون فى هذا الوقت بعينه .

على كل حال — تحفل تواريخ الاباضية (515) بذكر انتصارات الياس ابن منصور على الطيب وانصاره من الخلفية الذين ولوا الادبار لائذين بجزيرة جربة وسيوف النفوسيين تجهز على فلولهم (516) وتشير هذه المصادر (517) الى ان الطيب اعتصم بقصر احد شيوخها ممن كانوا على مذهب خلف ، وان الياس بن منصور رشاه بالمال فسلمه اليه بدون قتال وعاد به الى الجبل حيث « عاد الى مذهب أهل الحق » وقضى على حركته .

ونعتقد أن السمحية من زواغة ويعقوب بن أفلح لم يركنوا للدعة بعض القبض على الطيب بن خلف وسجنه بجبل نفوسة على يد الياس بن منصور عامل الجبل من قبل أبى حاتم ، فقد كانوا على صلة بأفراد البيت الرستمى المناوئين لامامة أبى حاتم ، واشتركوا معهم فى تدبير مؤامرة اغتياله ، وكان الشيخ الزواغى ، السمحى أبو الخطاب وسيل بن سنتين همزة الوصل بين يعقوب بن افلح والمتآمرين من البيت الرستمى (518) حتى تمت المؤامرة بنجاح، وقتل ابو حاتم يوسف على يد ابناء اخيه سنة 294 هـ (906 م) (519) .

وآلت الامامة الى أحدهم ويدعى اليقظان بن ابى اليقظان محمد . ولا نعرف عن اخباره شيئا لعزوف الاباضية عن ذكر امامته باعتباره مغتصبا لها (520) . والراجح أن عهده اتسم بالقلاقل والفتن سواء من جانب الطوائف الدينية غير الاباضية التى كانت تطمح فى الامامة دون أن تنالها — أو من جانب ابناء أبى حاتم يوسف واتباعهم للاخذ بثأر أبيهم . وهذا يفهم

---

(514) أبو زكريا : ورقة 32 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 38 ، النفوسى : ص 38 .

(515) نفس المصادر والصفحات .

(516) لا غرابة فيما حدث من تتبع النفوسيين فلول زواغة والاجهاز عليهم ، علما بأن تعاليم المذهب الاباضى تحرم تتبع المدبر والاجهاز على الجرحى . انظر : الورجلانى : الدليل لاهل العقول ج 3 ص 54 . ذلك لان هذه التعاليم الاباضية تشترط فى الفار المدبر ان يكون بدون ماوى يلوذ به ، فان كان له ماوى جاز تتبعه وقتل حريمه . انظر : Motylinski : l'Aqida des Abadites. P. 512.
ولما كان للهاربين من زواغة ماوى فى جزيرة جربة ، استحل النفوسيون الاجهاز على فلولهم .

(517) ابو زكريا : ورقة 33 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 39 ، النفوسى : ص 279 .

(518) النفوسى : صفحة 291 .

(519) ابن عذارى : ج 1 صفحة 278 .

(520) السوف : شرح السؤالات ورقة 99 .

من رواية لابى زكريا (521) تقول بان بنت ابى حاتم واخيها توجها الى ابى عبد الله الشيعى ودعوه لدخول تاهرت والانتقام من قتلة ابيهما ، وان المالكية والواصلية والشيعة والصفرية « شكوا اليه امارة الفرس » .

مهما كـان الامـر ، وضع الغزو الشيعى لتاهرت سنة 297 هـ (909 م) حدا لامامة اليقظان بن ابى اليقظان ونهاية للدولة الرستمية برمتهـا .

وهكذا — كان تاريخ بنى رستم سلسلة من القلاقل والاضطرابات الداخلية ، اتخذت شكل الانشقاق المذهبى ، والصراع القبلى والعنصرى والتناحر الاسرى والطائفى .

---

(521) السيـرة ورقـة 36 .

جـ - علاقات بني رستم الخارجية

تأثرت سياسة بنى رستم الخارجية بوضع دولتهم الجغرافى ومذهبها الدينى وظروفها السياسية ومصالحها الاقتصادية فقد كانت دولة صحراوية داخلية ، ولهذا لم نسمع عن نشاط بحرى لبنى رستم ولم يسهموا فى حركة الفتوح التى احتكرها جيرانهم الاغالبة فى الحوض الاوسط من البحر المتوسط . وقد حتم الوضع الجغرافى للدولة الرستمية وتشابك حدودها مع دول الاغالبة والادارسة وبنى مدرار ، ان تدخل فى علاقات مع هذه الدول على الرغم من جنوح ائمتها الى العزلة والانصراف الى مواجهة مشاكلهم الداخلية . لقد فرضت رابطة الجوار على بنى رستم أن يحددوا علاقاتهم بأمراء القيروان العباسيين ومن بعدهم الاغالبة السنة والادارسة العلويين وبنى مدرار الصفرية ، ان عداء وان ودا . وقد تأثرت هذه العلاقات بجانبيها الودى والعدائى — الى حد كبير — بمذهب الدولة الدينى ، فلما كان بنو رستم من الخوارج الاباضية فقد عادوا الحكم السنى بالقيروان والعلوى بفاس ، وهادنوا خوارج سجلماسة الصفرية . كما دعمت الظروف السياسية التى عاشتها الدولة الرستمية سياسة العداء للقيروان وفاس وسياسة المهادنة لسجلماسة ، فقد قامت الدولة على انقاض نفوذ الخلافة العباسية فى المغرب الاوسط ، وعجز عمال الخلافة فى القيروان عن الحيلولة دون قيامها ، لهذا كان على الاغالبة — عمال بنى العباس — أن يضطلعوا بتنفيذ مشيئة الخلافة فى مناهضتها . واذا كانت دولة الادارسة قد قامت فى المغرب الاقصى على حساب نفوذ الخوارج ، فلم يكن هناك مناص من عداء ائمة تاهرت لائمة فاس لاقتطاعهم بعض الاجزاء الشمالية الغربية من الدولة الرستمية . وقد اجتمعت الدولتان الرستمية والمدرارية على عداء القيروان وفاس ، ولهذا حرص حكامهما على الالتزام بسياسة حسن

الجوار ازاء بعضهم البعض . ولما كان أمويو الاندلس يعادون العباسيين والاغالبة والادارسة ، فقد عقد بنو رستم معهم أواصر الصداقة والود . كما أوثقوا صلاتهم بأباضية المشرق لما جمعهم من وحدة المذهب الدينى والمصير السياسى . والحقيقة ان الرستميين انصرفوا لتوطيد صلاتهم بالجنوب مدفوعين بمصالحهم التجارية ، وساعد على ذلك ما كفلته الظروف الجغرافية من حماية طبيعية لقلب دولتهم ، فلم يناجزوا أعداءهم الا بما تقتضيه ضرورة الدفاع ، بل أحيانا كانوا يغضون الطرف عن أطماع جيرانهم فى أطراف الدولة ، فلم يحركوا ساكنا حين ضم الادارسة تلمسان وما حولها وسلخوها عن نفوذ تاهرت .

وقد كانت كافة حروبهم مع جيرانهم للدفاع فقط باستثناء مرة واحدة اتخذوا فيهاموقف الهجوم، لما حاصر عبد الوهاب بن رستمطرابلس سنة 196هـ (812 م) . كما لم تتعد صلاتهم الودية اكثر من تبادل السفارات والهدايا ولم تصل فقط لدرجة التحالف او التعاون لمواجهة العدو المشترك . وعلى ذلك يمكن القول بأن سياسة بنى رستم الخارجية قامت فى جوهرها على تحاشى الاخطار والتزام الدفاع ، وكانت أميل الى السلم منها الى العدوان . ومع ذلك يمكن تقسيم هذه العلاقات الى شقين ، عدائية وودية ، فعلاقات بنى رستم بالعباسيين والاغالبة والادارسة كانت ذات طابع عدائى. أما علاقاتهم مع بنى مدرار وبنى امية بالاندلس وأباضية الشرق ، فقد اتسمت بالطابع الودى .

ا ــ العلاقات العدائية :

1 ــ بنو رستم والعباسيون :

لا يخفى ما كان بين بنى رستم وبنى العباس من خلاف مذهبى وعداء سياسى ، فقد تاصل هذا العداء مذ عمد العباسيون الى مناهضة حركات الخوارج ــ ومنهم الاباضية ــ فى الشرق ،والغرب على السواء . وحسبنا أن ما حل باباضية المغرب من كوارث انما تم على أيدى ولاة المنصور والرشيد بالقيروان منذ ولاية ابن الاشعث ومن تلاه من أمراء الاسرة المهلبية ، وقد لجا عبد الرحمن بن رستم الى جوف الصحراء حيث اسس دولته هربا من هؤلاء الولاة واتقاء لبطشهم .

والواقع ان أباضية المغرب وجدوا فى دولة بنى رستم ملاذا حصينا

من خطر ولاة القيروان ، فلم يقدر لاى منهم أجتياح اراضى الدولة الرستمية بعد فشل محمد بن الاشعث فى حصار عبد الرحمن بن رستم ومن معه من الاباضية بجبل سوفج سنة 145 هـ (762 م) بل حاول ابن رستم وجماعته الانتقام لما حل بالاباضية من بطش جيوش ابن الاشعث ، فخرج على راس خمسة عشر الف من رجاله لحصار عمر بن حفص بطبنة سنة 154 هـ (771 م) مع سائر اباضية المغرب وصفريته ، لكنه عاد مدحورا بعد هزيمته عند تهودة أمام جيش عمير بن معمر بن عيسى السعدى قائد عمر بن حفص (522) .

وبسبب هذه الهزيمة ، وما لحق أباضية المغرب الادنى من بطش يزيد بن حاتم (523) ، آثر عبد الرحمن بن رستم الانصراف الى تأسيس دولته دون أن يمضى فى مناجزة ولاة القيروان . فبعث الى روح بن حاتم طالبا مهادنته حتى يتفرغ لمواجهة الاعباء التى واكبت قيام دولته ويبدو أن الخلافة العباسية آنذاك تطلعت الى دعم نفوذها فى افريقية ، وغضت الطرف — الى حين — عن بسط سلطانها على بلاد المغرب الاوسط والاقصى، فقبل واليها على القيروان موادعة عبد الرحمن بن رستم (524) .

ومن الطبيعى أن تظل هذه السياسة قائمة فى عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن لما حفل به حكمه من قلاقل وثورات فى الوقت الذى جنح فيه روح بن حاتم الى السلم لتقدم العمر به . وقد اختلف المؤرخون فى تحديد اى من الطرفين بادر بطلب الموادعة ، فمنهم (525) من يشير الى أن عبد الوهاب بن رستم هو الذى طلب من روح تجديد الهدنة ، ومنهم (526) من يذكر أن روحا طلب الموادعة . وان عبد الوهاب أجابه الى ما أراد . وقد خرج جوتييه (527) من الرواية الاولى بأن آراء القيروان اسقطوا من اعتبارهم استرداد نفوذهم على المغرب الاوسط فتغاضوا عن مناوءة الدولة الرستمية . بينما استخلص فورنل (528) من الرواية الثانية أن الدولة الرستمية أصبحت قادرة على الوقوف من ولاة القيروان موقف الند للند .

---

(522) ابن خلدون : ج 4 ص 193 ، النويرى : ج 22 ورقة 21 .
(523) ابن خلدون : نفس المصدر : ص 194 .
(524) النفوسى : صفحة 93 .
(525) انظر : ابن الخطيب : أعمال الاعلام ج 3 ص 10 .
(526) ابن خلدون : ج 4 ص 194 ، النويرى : ج 22 ورقة 23 .
(527) Les Siecles Obscurs. P. 294.
(528) Les Berberes - Vol. I. P. 288

ومهما كان الامر ، فالذى يعنينا ان الطرفين جنحا الى السلم ، وآثرا العافية على الدخول فى صراع لم يكونا على استعداد لخوض غماره وتحمل مغبته .

واستمرت سياسة تحاشى الصدام بين ائمة تاهرت وامراء القيروان قائمة حتى سنة 184 هـ (800 م) . حين قامت دولة الاغالبة فى افريقية لترث اسباب العداء مع بنى رستم وتنوب عن بنى العباس فى الاضطلاع بمناهضة حكمهم .

ومن الجدير بالتنويه أن الموادعة بين امراء القيروان وائمة تاهرت لا تعنى انتفاء العداء بينهما ، فالعداء بين تاهرت وبغداد ظل قائما ، ولم يتوان الخلفاء عن اغتنام ما سنح لهم من فرص فى الكيد للدولة الرستمية واثارة المتاعب فى وجه ائمتها وادرك الرستميون ما اضمره بنو العباس لهم من خصومة وعداء ، فأحجم عبد الوهاب بن رستم عن اداء الحج خشية الوقوع فى يد « المسودة » (529) وبرر له فقهاء المذهب الاباضى عزوفه هذا « بعدم امان الطريق » ، فأمان الطريق — شرعا — من شروط الحج (530) .

وليس ببعيد أن يكون العباسيون قد توجسوا خيفة من اتصال ائمة تاهرت باباضية الشرق لتدبير المؤامرات وتنظيم الثورات المناوئة لحكمهم (531) ، ومن ثم درجوا على بث عيونهم لمراقبة وفود المغاربة فى مواسم الحج . ولعل فى حادثة القبض على الامير الرستمى ابى اليقظان محمد ابن افلح بمكة وايداعه السجن (532) ببغداد ما ينهضه دليلا على ذلك .

كذلك رحب العباسيون بالثوار الخارجين على بنى رستم ، ووجد هؤلاء فى بغداد ملاذا آمنا بعد اخفاق حركاتهم . والراجح ان العباسيين تعاونوا معهم على اسقاط الحكم الرستمى فى تاهرت ، فنفاث بن نصر الثائر على افلح بن عبد الوهاب الرستمى بادر بالهرب الى بغداد حين ضيق عليه عمال الامام على جبل نفوسة حتى اوشكوا على الظفر به . وتشيد مصادر الاباضية بما لقيه نفاث من حظوة وحفاوة فى بلاط الخلافة ، حتى ان الخليفة

(529) ابو زكريا : ورقة 23 ، الشنوسى : ص 140 .
(530) ابو زكريا : ورقة 23 .
(531) ابن الصغير : صفحة 28 .
(532) عن حادثة القبض على ابن اليقظان محمد وسجنه ثم اطلاق سراحه . انظر : ابن الصغير : ص 27 — 29 ، ابو زكريا : ورقة 31 ، 32 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 37 ، 38 ، الشنوسى : ص 259 — 264 .

اطلعه على المحظور من امهات الكتب والدواوين فى المذهب الاباضى . وليس ببعيد أن يكون نفاث قد تآمر مع الخلافة على بث الشقاق فى الدولة الرستمية اثر عودته ، واذا كان لم يوفق فى النيل من سلطان تاهرت فى أقاليم الدولة الشرقية فان حسبه نجاحه فى احداث انقسام مذهبى سياسى وتكوين فرقة عرفت (بالنفاثية) ظلت معادية للسلطة الحاكمة فى تاهرت طوال عصر الدولة الرستمية .

وقد وضح تآمر بنى العباس على اسقاط امامة تاهرت فى العصر الرستمى الاخير ، فطائفة الكوفيين بتاهرت لعبت دورا بارزا فى مناوءة الامامة الرستمية فى ذلك الحين ، وتواطأت مع زعماء العامة فى العاصمة الرستمية لاقصاء ابى حاتم يوسف عن السلطة وطرده خارج المدينة (534). وفى وجود بكر بن حماد التاهرتى ـــ أخ محمد بن حماد ـــ زعيم عامة تاهرت ـــ ببغداد (535) قبيل وقوع تلك الاحداث ، وعودته الى تاهرت واشتراكه فى تنحية ابى حاتم ثم اعتذاره اليه راجيا عفوه بعد عودته للسلطة (536) ، ما يشير الى تواطؤ الخلافة العباسية مع المارقين على بنى رستم وتدبيرهم المكايد ضد الدولة الرستمية وهذا كله يؤكد ما ذهبنا اليه من تأصل العداء بين الطرفين .

2 ـــ بنو رستم والاغالبة :

اتخذت العلاقات بين بنى رستم والاغالبة طابعا عدائيا صرفا . وكان لذلك اسبابه المذهبية والسياسية والجغرافية ، فالاغالبة كانوا سنة ، ومذهب مالك المعروف بعدائه لسائر النحل المتطرفة ساد افريقية الاغلبية ، بينما تعصب بنو رستم للمذهب الاباضى ، وهو رغم اعتداله يذهب الى تكفير مخالفيه (537) وفضلا عن ذلك فالاغالبة كانوا عمال الخلافة العباسية وأداتها فى افريقية ، ورمز نفوذها الوحيد فى بلاد المغرب ، ولا غرو فقد قامت سياستهم الخارجية على مصادقة أصدقاء الخلافة ومعاداة أعدائها .

---

(533) انظر : ابو زكريا : ورقة 30 ، 31 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 36 ، 37 النفوسى : ص 206 ـــ 209 .
(534) ابن الصغير : ص 51 ، النفوسى : ص 268 .
(535) المالكى : رياض النفوس : ج 1 ص 409 ، الدباغ : معالم الايمان : ج 2 ص 192 .
(536) النفوسى : صفحة 276 .
(537) المقصود هنا تكفير الحكام فقط وليس الرعية . انظر : البغدادى : الفرق بين الفرق : صفحة 106 .

ومن ثم كان على أمراء بنى الاغلب أن يناهضوا أئمة تاهرت جريا على سنة الخلافة وتنفيذا لمشيئتها، كما لم يتقاعس بنو رستم عن مناجزة جيرانهم الاغالبة باعتبارهم اعداء سياسيين ومذهبيين على الرغم مما عرفوا به من المسالمة والحرص على تحاشى أسباب التطاول والصراع (538) .

لقد فرضت الظروف الجغرافية على الدولتين أن تتخذ العلاقات بينهما شكلا عدوانيا ، فلم يكن ثم محيد عن الصدام امام تشابك الحدود وعدم وضوح معالمها . لقد أحاطت الدولة الرستمية بافريقية الاغلبية من الشرق والغرب والجنوب (539) ، ولم يكن هناك ما يمنع رعايا الدولتين من القبائل البدوية من الحركة والانتقال والاختلاط فى مناطق الحدود (540) ، ومن هنا اختلط الامر على بعض الجغرافيين (541) فنسبوا بعض البلدان والكور الرستمية — كغدامس وتهودة وودان — الى دولة الاغالبة . والذى يعنينا هو أن الصدام بين رعايا الدولتين فى مناطق الحدود كان لا ينقطع ، فاقليم الزاب ونواحى بلزمة شهدت صراعا داميا بين فقهاء المالكية واتباع المذهب الاباضى (542) . وجدير بالتنويه أن جمهور الاباضية بتلك النواحى لم يكن برمته مواليا للرستميين ، فجماعتى الخلفية من زواغة والنكار من هوارة — ومنازلهما جنوبى تونس — (543) كانتا على عداء مع بنى رستم ، وليس من المستبعد أن يكون الاغالبة قد اصطنعوا بعض هذه العناصر لاثارة العراقيل والقلاقل فى الدولة الرستمية ،يفسر هذا قول لوتورنو(544)بأن جماعات الاباضية بنواحى قسطيلية — بلاد الجريد — لم يتعرضوا لاضطهاد الاغالبة . ولكن الذى لا شك فيه أن جمهور الاباضية الوهبية من لواتة وهوارة فى تلك الاصقاع لقى عسفا وعنتا على أيدى بنى الاغلب وعمالهم (545) .

كما كانت حدود دولة الاغالبة الشرقية غير واضحة المعالم ، فقبائل نفوسة الاباضية كانت تضرب قرب طرابلس التابعة لبنى الاغلب ، وامتدت ديارها حتى مشارف القيروان ذاتها (546) . ومن ثم كانت هذه المناطق

---

(538) النفوسى : صفحة 93 ،
Gautier : Op. Cit. P. 294, Vonderheyden : Op. Cit. P. 267.
(539) انظر : الخريطة .
(540) مجهول : الاستبصار : ص 179 .
(541) راجع : ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص 87 .
(542) ابن خلدون : العبر : ج 4 ص 203 ، Masqueray : Op. Cit. P. 220.
(543) ابن عذارى : ج 1 ص 167 ، Lewcki : Etudes Ibadites. P. 73.
(544) انظر : La Revolte d'Abou - Yazid. P. 105.
(545) ابن خلدون : ج 4 ص 203 .
(546) اليعقوبى : البلدان ص 349 .

ميدانا حافلا بالصراع بين الدولتين الاغلبية والرستمية .

وليس صحيحا ما ذهب اليه مؤرخو الغرب (547) من انتفاء طابع العداء بين الاغالبة وبنى رستم وقولهم بأن كليهما نعم بحدود آمنة عازفا عن شهر السلاح فى وجه جاره . حقيقة ، لم يصل التشاحن بينهما الى حد يهدد وجودهما بسبب انشغال الاغالبة بمواجهة مشاكلهم الداخلية فضلا عن النشاط البحرى الذى ضربوا فيه بسهم وافر ، ونفس الشىء يقال عن بنى رستم واهتمامهم بحركة التجارة مع الجنوب . هذا فضلا عن بعد المسافة ووعورة الطرق بين تاهرت وافريقية ، فقد كانت المسافة بينهما مسيرة شهر على ظهور الابل (548) . لكن ذلك لا يعنى قط احجام حكام الدولتين عن الاغارة على أملاك بعضهم البعض على امتداد الحدود ، وخاصة فى الجهات الشرقية ، بل دابوا على بث الفتن واثارة العراقيل وتحريض العناصر المعادية للحكم . واذا كان الرستميون الاوائل قد أحرزوا النصر فى المرحلة الاولى فان الاغالبة ظفروا به بعد ذلك فى أواخر العصر الرستمى .

بدأ النزاع الرستمى الاغلبى فى منطقة طرابلس ، وسببه ان هذه المدينة كانت تابعة للاغالبة ، وقد امتد نفوذ عاملها على بعض بطون هوارة الاباضية الضاربة بجوارها ، وعدتها ثلاثمائة اسرة (549) . وبديهى أن يطمح هؤلاء الاباضية فى الاستقلال عن سلطان الاغالبة للدخول فى طاعة بنى رستم (550) ، فدابوا على اثارة المتاعب فى وجه العامل الاغلبى على طرابلس ، وغمدت جماعات منهم الى الاغارة على المدينة وبث الرعب بين سكانها (551) فكان عاملها يسرف فى الانتقام من الاباضية بها حتى لقد خرجت جموع غفيرة منهم ولجأوا الى الصحراء (552) . ويبدو أنهم استمدوا العون من جيرانهم اباضية نفوسة ، فقد نجحوا عام 196 هـ (812 م) فى اجتياح طرابلس . والحقوا بها الخراب والدمار . وهب

---

(547) انظر : Vonderheyden : Op. Cit. P. 268,
Marcais : La Berberie Musulmane. P. 107,
Huart : Histoire des Arabes. Vol. I. P. 321.

(548) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص 88 .

(549) المالكى : رياض النفوس : ج 1 ص 216 ، Idris : Contribution ... P. 199.

(550) أبو زكريا : ورقة 23 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 30 ، النفوسى : ص 146 .

(551) الانصارى ، نفحات النسرين ورقة 7 — مخطوط ، Brockelman : Op. Cit. P. 150.

(552) النفوسى : صفحة 144 .

ابراهيم بن الاغلب لاستنقاذ نفوذه ، فرمى الثوار بابنه عبد الله الذى افلح فى استرداد المدينة واثخن فى الاباضية تنكيلا ثم حصنها ببناء سور حولها (553) . واستعان الاباضية بالامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن — وكان اذ ذاك بجبل نفوسة — فاستجاب لهم وخرج على راس جيش من نفوسة وغيرها وضرب الحصار حول طرابلس (554) . ولم يستطع عبد الوهاب اقتحام المدينة ، فقد اغلق عبد الله الاغلبى ابوابها وباشر القتال من باب واحد وتمكن جنده من اغتيال بعض مشاهير الاباضية (555) ، كما استطاع عن طريق جواسيسه افساد خطط المحاصرين (556) .

وكاد عبد الوهاب ان يعود من حيث اتى ، لولا ان اسعفه الحظ بموت ابراهيم بن الاغلب واستدعاء ابنه عبد الله الى القيروان لتقلد الامارة (557) . فاضطر عبد الله الى التسليم بمطالب الرستميين فى انضمام اباضية هوارة الى دولتهم وانسلاخهم عن نفوذ عامل طرابلس الاغلبى ، ونص فى الاتفاق على ان « يكون البلد والبحر لعبد الله وما كان خارجا عن ذلك لعبد الوهاب » (558) هكذا انتصر عبد الوهاب بسبب اضطرار عبد الله الى وقف الحرب وعودته الى القيروان ، بل شجعه ذلك على الاجتراء على الاراضى الاغلبية ذاتها فضرب صفحا عن الاتفاق واستولى على قابس — وهى ميناء على البحر كان تابعا للاغالبة (559) — ، وكذلك آلت اليه بعض القرى والحصون الاخرى ثم عبرت جيوشه الى جزيرة جوبة واستولت عليها ، وعاد عبد الوهاب الى جبل نفوسة ومنه الى تاهرت بعد ان ولى عماله على هذه النواحى الجديدة (560) وشغل الاغالبة الاول بمشاكلهم الداخلية عن تصحيح الوضع على حدودهم الشرقية ، كما قنع الرستميون بما احرزوه من مكاسب ، ولم يتمادوا فى سياسة التوسع مغتنمين فرصة ثورات الجند فى افريقية على الامارة الاغلبية . وهذا

---

(553) ابن الاثير : ج 6 ص 60 .

(554) نفس المصدر والصحيفة ، ابو زكريا : ورقة 21 ،
Fournel : Op. Cit. Vol. 2. P. 150.

(555) ابو زكريا : ورقة 23 ، الشماخى : السير ص 160 .

(556) النفوسى : صفحة 145 .

(557) ابن الاثير : ج 6 ص 60 .

(558) نفس المصدر والصحيفة ، الشماخى : السير : ص 161 .

(559) اليعقوبى : البلدان ص 349 ، 350 .

(560) ابن خلدون : ج 6 ص 122 ، الشماخى : السير : ص 161 ، النفوسى : صفحة 146 ، 147 .

ما حدا ببعض الاحزاب المعارضة لعبد الوهاب ان تستنكر فتوره « وقلة محاربته للمسودة (561) .

ودرج افلح بن عبد الوهاب — الذى اشتهر بالدهاء والسياسة — على تحريض اتباعه من البدو الاباضية المقيمين ببلاد الجريد لاثارة القلاقل فى دولة الاغالبة ، ويذكر ابن خلدون (562) انهم تمردوا على العامل الاغلبى بقسطيلية واردوه قتيلا ، وان الامير ابى عقال الاغلبى سير اليهم الجيوش ، واستأصل شأفتهم ومن المشكوك فيه أن يكون أبو عقال قد قضى نهائيا على ثورات الاباضية فى افريقية الجنوبية ، ويبدو أن ذلك كان دافعا لخليفته الامير محمد الاغلبى على الاهتمام بتوطيد نفوذه فى تلك النواحى ففى سنة 239 هـ (854 م) اسس مدينة جديدة سماها العباسية فى بلاد الجريد لمواجهة اخطار الاباضية ، ولتكون قاعدة امامية للاغارة على تاهرت ذاتها فضلا عن منافستها للعاصمة الرستمية فى تجارة العبور (563) غير ان افلح بن عبد الوهاب بادر بمواجهة الخطر الاغلبى ، وافلح فى تدمير العباسية ، واضرم فيها النيران (564) .

كما حاول اباضية نفوسة وهوارة الاستيلاء على طرابلس فى عهد احمد بن محمد الاغلبى (242 — 249 هـ) (857 — 864 م) ولم ينقذها سوى جلب واليها الامدادات من القيروان فحال دون سقوطها سنة 245 هـ (860 م) . وهكذا اتسمت سياسة بنى رستم فى عهدى عبد الوهاب وافلح بالقوة فأمسكا بزمام المبادرة فى صراعهما مع الاغالبة ، ونجحا فى مواجهة اخطارهم بل واقتطاع اجزاء من دولتهم على أن الاغالبة سرعان ما رجحت كفتهم بعد موت افلح بن عبد الوهاب ، اذ منيت الدولة الرستمية بأخطار الصراع العنصرى والطائفى فى الداخل . فلم يعدم الاغالبة وجود صنائع واتباع عملوا لحسابهم فى مناهضة ائمة بنى رستم فى ذلك

---

(561) الشماخى : السير ص 194 . ويعنى الشماخى بالمسودة بنى الاغلب انصار العباسيين .

(562) العبر : ج 4 صفحة 200 .

(563) النفوسى : صفحة 189 ، Mercier : Histoire de l'Afrique Septentrionale. P. 285.

(564) البلاذرى فتوح البلدان ص 277 ، ابن خلدون : ج 4 ص 200 — 201 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 513.

(565) ابن خلدون : ج 4 ص 201 ، السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص 398.

الحيـن (566) . ولا يخفـى دور شخـص يدعـى خلـف الخـادم ــ مـن موالـى الاغالبـة ــ فـى تاليـت الثـوار عـلـى ابـى بكر بن افلح حتى اقصوه عن الامامة وطردوه خارج تاهرت ويحدثنا ابن الصغير (567) انه كان يبذل الاموال للثوار بسخاء ، الامر الذى يدل على تواطؤ بنى الاغلب وتآمرهم على اسقاط الحكم الرستمى .

وفى سنة 267 هـ (881 م)اشتركت جيوش الاغالبة جنبا الى جنب مع اباضية نفوسة فى قتال جيش العباس بن احمد بن طولون ــ الذى خرج من مصر غازيا افريقية ــ ، وهذا لا يعنى عودة الوئام بين بنى رستم والاغالبة فقد قاتلت نفوسة العباس لا « لانقاذ طرابلس وبنى الاغلب من ظلمه » كما ذهب النفوسى (568) ، ولا تلبية لطلب ابن قرهب عامل الاغالبة على طرابلس كما قال سعيد بن مقديش (569) ، وانما لان خطره هدد بنى الاغلب وبنى رستم على السواء (570) . فبعد استيلاء العباس على لبدة ، بطش بجمهور الاباضية هناك « وتعدى سودانه على بعض حـرم البوادى وهتكوا الحجب » (571) ولما كان هؤلاء من رعايا بنى رستم ، فقد استنجدوا بعاملهم على جبل نفوسة ويدعى الياس بن منصور فى الوقت الذى بعث فيه العباس اليه يدعوه للدخول فى طاعته (572) . فهب العامل الرستمى لدرء خطر العباس دون سابق اتفاق مع الاغالبة (573) . مصداق ذلك خـروج عامـل طرابلس الاغلبى على راس جيش انفذ اليه مـن القيروان والتحامه مع ابن طولون قبل قدوم الاباضية من نفوسة (574)

---

(566) ابـن الصغيـر : صفحـة 27 .

(567) سيرة الائمة الرستميين ص 37 ، النفوسى : ص 632 .

(568) انظر : الازهار الرياضية : ج 2 ص 255 .

(569) انظـر : نزهـة الانظـار ص 121 .

(570) Basset : Les Sanctures .. P. 93.

(571) ابـن عـذارى : ج 1 صفحـة 157 .

(572) ابن الداية : سيرة أحمد بن طولون ص 61 . وقد جاء فى خطاب العباس الـى الياس بن منصور « . . اقبل بسمعك وطاعتك والا وطيت بلدك بخيلى ورجلـى وابحت رحمك » وجاء فى رد الياس « . . لقد بلغنى من تبيح افعالك مالا يسعنى التخلف معه عن جهادك . وأنا على اثر رسالتى اليك » راجع : البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص 254 ، النفوسى : ص 258 .

(573) تصور بعض المصادر هذا الحادث باعتباره يخص كلا من الطرفين على حدة ، دون أدنى اشارة الى اشتراكهما فى مواجهته . انظر : الورجلانى : الدليل لاهل العقول ج 3 ص 54 ، الخزرجى : اخبار الدول المنقطعة ورقة 29 ، Lewcki : Etudes Ibadites. P. 49.

(574) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص 254 .

فقد وصلوا فى اليوم التالى (575) ، واشتركوا مع الاغالبة فى قتال العباس (576) . وحين هزم العباس ، استأثر الاغالبة بالمغانم والاموال الطائلة (577) دون الاباضية الذين رفضوها « زهدا وتعففا » على حد قول المصادر الاباضية (578) .

وعمد ابراهيم بن احمد الاغلبى الى اتباع طرق شتى فى صراعه مع الرستميين الذين وقفوا موقف الدفاع . ففى سنة 269 هـ (883 م) اوغلت جيوشه فى مضارب القبائل الاباضية ببلاد الجريد ، وتمكن من وضع حد لشغبهم (579) . وبث الفرقة بين اباضية نفوسة باصطناع مسائل فقهية اختلف شيوخهم حول تأويلها (580) .

ويبدو انه فعل ذلك توطئة للاطاحة بمعقل القوة فى الدولة الرستمية، بغزو جبل نفوسة ، هذا هو ما حدث فعلا سنة 293 هـ (897 م) واختلفت الروايات فى تفسير دوافع هذا الغزو ، فبعضها (581) تعزوه الى اعتراض نفوسة الجيش الاغلبى الزاحف نحو مصر الطولونية ، وبعضها (582) الآخر يزعم أن الامير الاغلبى كان قادما على راس جيش من بغداد لغزو تاهرت فاعترضته نفوسة دفاعا عن عاصمة الرستميين ، بينما يذهب ابن عذارى (583) الى أن جيش ابن الاغلب كان متوجها الى طرابلس لتأديب عاملها ، فاعترضته نفوسة ومنعته من المرور ، فى حين يقول الشماخى (584) باجتماع نفوسة على قتال الامير الاغلبى لانه « افسد

---

(575) نفس المصدر : ص 255 ، النويرى : ج 26 ورقة 7 .
(576) البلوى : ص 255 ، المقريزى : الخطط ج 1 ص 320 .
(577) البلوى : ص 255 ، ابن عذارى : ج 1 ص 158 ، الشماخى : السير ص 225 . الورجلانى : ج 3 صفحة 54 .
(578) النفوسى : ص 257 ، الورجلانى : ج 3 ص 54 ومن المعروف ان المذهب الاباضى يقر الغنيمة فى حالة قتال مخالفيه فى المذهب . انظر : ابو غانم الصفرى : المدونة ورقة 43 ، السوفى : شرح السؤالات ورقة 173 .
(579) ابن خلدون : ج 4 صفحة 203 .
(580) ذكر الشماخى ان ابراهيم بن احمد اهدى نفوسة سيفا ، فاختلف شيوخهم حول كيفية التصرف فيه فرأى البعض رده اليه ، ورفض البعض الاخر ، لانه عون له على باطلة ، بينما قال فريق ثالث بكسره ودفنه ، فاعترض الاخرون على ذلك « لان عطايا الملوك جائزة » ... فوقع بذلك خلاف أفضى الى شقاق بينهم » . انظر : السير : صفحة 264 .
(581) النويرى : ج 22 ورقة 37 ، Fournel : Op. Cit. Vol. 2. P. 8.
(582) ابو زكريا : ورقة 33 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 39 ، النفوسى : ص 281 .
(583) البيان المغرب ج 1 ص 173 ، 174 ، Vonderheyden : Op. Cit. P. 272, Zaki Hasan : Les Tulunde. P. 161.
(584) السير : صفحة 268 .

وتعدى » وعلى الرغم من اختلاف هذه الروايات ، فهى تجمع على اعتراض اباضية نفوسة الجيش الاغلبى عند مكان يقال له قصر مانو — بين قابس وطرابلس (585) — سنة 283 هـ (897 م) فقامت معركة بين الطرفين قضى فيها على غالبية النفوسيين (586) وعلى اثر الاجهاز على نفوسة ، نزل الجيش الاغلبى على اباضية قنطرارة ونفزاوة فبطش بهم واسر جندهم (587) ، وسيق الاسرى الى القيروان حيث عذبوا ثم قتلوا (588). وفى العام التالى بعث الامير الاغلبى جيشا الى نفوسة اثخن فيها ، وعاد بثلاثمائة اسير قتلوا ومثل بهم « فنظمت قلوبهم فى حبال علقت على باب تونس » (589) .

وهكذا — شغلت الامامة فى تاهرت بمشاكل الصراع حول السلطة عن تقديم العون لاباضية المغرب الادنى (590) ، فتركوا وشأنهم يتلقون ضربات الاغالبة حتى وهنوا وضعفوا ، وبضعفهم تداعت الدولة الرستمية (591) ولولا ما حل بدولة الاغالبة من اضطراب سياسى فى عهدها الاخير ، وانصراف امرائها لمجابهة الخطر الشيعى ، لامكنهم غزو تاهرت نفسها ، واسقاط الاسرة الرستمية . لكن الدولتين المتعاديتين جمعتهما فى النهاية وحدة المصير ، فقد وقعتا فريسة للغزو الشيعى سنة 297 هـ (909 م) .

3 — بنو رستم والادارسة :

رغم ما ساد علاقات بنى رستم بالأدارسة من عداء نتيجة خلافاتهم المذهبية والاجتماعية والسياسية فان المصادر الاباضية تلوذ بالصمت التام فلا تذكر شيئا البتة عن هذه العلاقات ،وقد فسر كثيرون من الدارسين(592) هذا الصمت على انه دليل على ما ساد هذه العلاقات من طابع الود وحسن

---

(585) ابو زكريا : ورقة 33 .
(586) نفس المصدر : ورقة 34 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 40 .
(587) نفس المصدر والصحيفة .
(588) الوسيانى : سير ابى الربيع ورقة 3 ، النويرى : ج 22 ورقة 37 .
(589) ابن عذارى : ج 1 ص 174 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 576.
(590) النفوسى ص 286 .
(591) الدرجينى : ج 1 ورقة 41 .
(592) انظر : محمد بن تاويت : دولة الرستميين ص 117 ، محمد على دبور : المغرب الكبير ج 2 ص 387 ، حسن عبد العواد : دولة الادارسة : ص 245 .

الجوار ،لكن كتابا آخرون ذكروا (593) حقيقة هذه العلاقات وانطوائهاعلى الخصومة والعداء . وسبب هذا العداء أن الادارسة كانوا من الشيعة الزيدية بينما كان بنو رستم من الخوارج الاباضية ، كذلك كانت دولة الادارسة دولة حضر ، بينما غلب الطابع البدوى على الدولة الرستمية . هذا فضلا عما كان بينهما من تنافر سياسى — بسبب صداقة بنى رستم لبنى مدرار والامويين فى الاندلس أعداء الادارسة — على الرغم من اشتراكهما فى معاداة الخلافة العباسية .

وجدير بالذكر ان الادارسة — مدفوعين بهذه الخصومة المذهبية والتباين الاجتماعى والعداء السياسى — عولوا على الاغارة علىأملاك دولة الرستميين واقتطاع بعض اجزائها ، بينما ركن الرستميون الى المسالمة لقصور فى قوتهم ، فلم يكن بوسعهم مناجزة جيرانهم الاقوياء ، واذا كانت غزوات الادارسة لم تشكل خطرا على حكومة تاهرت — حسبما اعتقد ماسكراى (594) ، فحسبهم اقتطاع اقليم تلمسان — وسكانه من مغراوة وبنى يفرن الزناتيين — من بنى رستم وضمه الى دولتهم .

ولم يكن ثمة ما يحول دون احتكاك الادارسة بجيرانهم الرستميين ، خاصة وان دولتهم ارتبطت فى قيامها وتوسعها بخوارج المغربين الاقصى والاوسط فغالبية القبائل التى بايعت ادريس الاول كانت على مذهب الخوارج ، فزناتة ، وزواغة ولماية ولواتة وسدراتة ونفزة — وهى اباضية المذهب — رحبت بادريس الاول ودخلت فى طاعته (595) ، وان ظلتبعض بطونها علىمذهبها وولائها لبنىرستم .وكان علىادريس وخلفائه ان يدخلوا فى صراع مع بنى رستم اذا ما ارادوا التوسع شرقا لضم هذه البطون واستئصال شأفة الخوارج فى منطقة تلمسان واسافل شلف ، وقد تحقق لهم ذلك بالفعل فيما يتعلق بأباضية زناتة بالذات (596) .

---

(593) انظــر : Masqueray : Op. Cit. P. L XXIV, Gautier : Op. Cit. P. 295.

(594) انظــر : Chronique d'Abou Zakaria, P. 220.

(595) ابن ابى زرع : القرطاس ص 16 — 18 ، ابن خلدون : ج 4 ص 12 ، الكتانى : المغرب : ورقة 13 مخطوط ، محمد على السنوسى ، الدرر السنية ص 44 ، Gautier : Op. Cit. P. 274.

(596) تصور بعض المصادر أن الادارسة نجحوا فى اقتطاع كافة الاجزاء الشمالية من الدولة الرستمية حتى لاصقت حدودها الشرقية دولة الاغالبة . انظر : عبد الرحمن ابن زيدان : اتحاف أعلام الناس : ج 2 ص 5 ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى : صفحة 221 .Vonderheyden : Op. Cit. P. 274 لكن الواقع ان بنى رستم احتفظوا بنفوذهم على بعض هذه الجهات حيث شكلت أملاكهم حاجزا بين الاغالبة والادارسة . انظر اليعقوبى : البلدان : ص 352 .Gautier : Op. Cit. P. 295

ففي سنة 173 هـ (789 م) توجه ادريس الاول على رأس جيش للاستيلاء على تلمسان واخضاع قبائل مغراوة وبني يفرن وغيرهم من الخوارج الصفرية والاباضية (597) ، وتمكن من دخولها دون كبير جهد (598) .

ونجح في توحيد جموع زناتة في غربي بلاد المغرب تحت لوائه ، واستولى على مدينة ذات اهمية استراتيجية خاصة « فتلمسان قفل بلاد المغرب » (599) ذات شهرة تجارية عريضة (600) ، فضلا عن قوة بشرية كبيرة (601) سلخها عن نفوذ دولتي الخوارج .

ويبدو أن الامام عبد الوهاب الرستمي حاول استعادة نفوذه في هذه النواحي ، لكنه لم يجرؤ على غزو تلمسان (602) . ولم يكن بوسعه سوى تأليب أصهاره من بني يفرن ، فقاموا بالثورة على الادارسة ، وظلوا بمنأى عن نفوذهم الى أن اخضعهم ادريس الثاني سنة 197 هـ (813 م) فدانوا له بالطاعة من جديد وتخلوا نهائيا عن مذهب الخوارج (603) . بل حاول زعماء مغراوة وبني يفرن اغراء بني رستم للدخول في طاعة الادارسة ، فلم يستجيبوا ، وناصبوهم العداء ودخلوا معهم في حروب فتت في عضد بني رستم على عكس ما يذكره مارسيه (604) من « خروج تاهرت ظافرة من هذا الصراع » فالثابت أن الامامة الرستمية لم تقم بمحاولة جدية في هذا الصدد ، واقتصر الامر على مجرد اغارات محدودة قامت بها جماعات من نفوسة ردا على اعتداءات بني يفرن على رعايا الدولة الرستمية (605).

وفضلا عن اغارات بني يفرن ومغراوة على الاطراف الشمالية للدولة الرستمية حرص الادارسة على اثارة العراقيل في تاهرت نفسها ، ولا يخامرنا شك في أن ادريس الثاني كان من وراء تمرد الواصلية على عبد

---

(597) نعلم أن عبد الرحمن بن رستم تزوج من يفرنية وانجب منها ابنه عبد الوهاب ، انظر : ابو زكريا : ورقة 14 ، النفوسي : ص 100 ، Masqueray : Op. Cit. P. 57.

(598) ابن أبي زرع : ص 22 ، الكتاني : الازهار . ص 5 ، الجزنائي : زهرة الآس صفحة 10 .

(599) سعيد بن مقديش : صفحة 18 .

(600) البكري : صفحة 76 .

(601) اليعقوبي : البلدان ؛ صفحة 80 .

(602) ابن الصغير : صفحة 17 .

(603) ابن ابي زرع : ص 69 ، الجزنائي : ص 22 : محمد علي السنوسي : الدرر السنية ص 45 ، سلفاتوركوسا : تواريخ مدينة فاس . ص 4 ،
Mercier : Histoire de l'Afrique . Septentrionale . P. 89.

(604) انظر : مادة بني رستم — دائرة المعارف الاسلامية : ص 93 .

(605) الشماخي : السير ؛ ص 197 — 198 Lewcki : etudes Ibadites. P. 36.

الوهاب الرستمى سنة 195 هـ (606) (811 م) ، فمن المعروف أن طنجة كانت معقلا لواصلية المغرب (607) ، وأن أوربة دانت بمذهب الواصلية ، كما أقبلت بعض بطون زناتة على اعتناقه كذلك (608) ، ومعلوم ان أوربة كانت عصب دولة الادارسة ، وأن ولاء زناتة الغرب تحول الى بنى ادريس .وبديهى الا تقطع الصلة بين الواصلية الضاربين خارج تاهرت وبين معاقلهم فى دولة الادارسة ، وليس غريبا اقدام الادارسة على استغلال هذه الصلة فى اثارة العراقيل أمام خصومهم من بنى رستم ، مصداق ذلك قول أبى زكريا (609) « فتكاثفت كلمة الواصلية ، واجتمعوا من كل نقب ، وجاءوا من كل أوب . . واظهروا مخالفة الامام » .

واغلب الظن أن ثورات هوارة على الائمة الرستميين لم تخل كذلك من تحريض الادارسة ، فمواطنها الاصلية كانت داخل دولة الادارسة (610) حيث اتخذت من جبل ينجان معقلا وملاذا حين تعرضت لبطش عبد الوهاب ابن رستم . ومن المرجح أن تكون حركتها التى انتهت باستيلاء زعيمها محمد ابن مسالة على السلطة فى تاهرت سنة 260 هـ (874 م) قد قامت بمساعدة آل ادريس وتحريض منهم .

ومن المحقق أن تلك المؤامرات التى امعن الادارسة فى نسج خيوطها لم تقابل بأدنى مبادرة من قبل بنى رستم للرد عليها ، وذلك مما يشكك فى تصور جوتييه (611) للعلاقات الرستمية الادريسية على انها موجات من « الافعال وردودها » ، ولا محل لتصديقه فى تعليل انشاء مدينة فاس بخوف ادريس الثانى من تآمر بنى رستم على دولته بالتواطؤ مع العناصر الحانقة على آل ادريس داخل بلادهم .

لم يكن بوسع الائمة الرستميين مجاراة الادارسة فى تدبير المكائد ، واحداث الشقاق ، كما عزفوا نهائيا عن محاولة استرداد نفوذهم المفقود فى الاقاليم الشمالية والساحلية ، على الرغم مما حل بدولة الادارسة من

---

(606) ابو زكريا : ورقة 19 ، محمد على دبوز : ج 3 ص 485 ، حسن عبد العواد : دولة الادارسة : ص 246 .

(607) قدامة بن جعفر : الخراج ص 295 ، النفوسى : ص 116 .

(608) ابو زكريا : ورقة 19 .

(609) السيرة واخبار الائمة ورقة 29 .

(610) ابن خلدون : ج 4 صفحة 14 .

(611) Les siecles obscurs. P. P. 290, 291.

(612) ابن خلدون : ج 4 ص 14 ، Jalien : Op. Cit. P. 344.

ضعف وتفتت أثر وفاة ادريس الثانى سنة 213 هـ (828 م) (612) . فقد آلت تلمسان وما حولها الى آل سليمان (613) واضحت ولاية حاجزة بين الدولتين . وقد تعرضت ولاية تلمسان للتجزئة والتمزق السياسى أيضا ، فقسمت الى ثلاثة اقسام بين أبناء محمد بن سليمان ، اذ استقل ابنه محمد بمدينة تلمسان وعيسى بأرشقول ، اما جراوة فكانت من نصيب ادريس ثم آلت الى ابنه عيسى المكنى بأبى العيش (614) . هذه الفرقة السياسية (615) افضت الى اضعافهم جميعا الامر الذى حدا بفورنل (616) الى الاعتقاد باستعادة زناتة لنفوذها القديم فى هذه الجهات . ومع ذلك لم تسلم الدولة الرستمية من اخطارهم ومؤامراتهم .

لقد ضعفت الدولة الرستمية بعد أفلح ابن عبد الوهاب ، وشغل ائمتها بأحداث تاهرت وما جاورها ، فاجترأ امراء آل سليمان على اقتطاع بعض البلاد والقلاع التابعة لبنى رستم (617) ، كمدينة الخضراء وسوق ابراهيم وغيرها (618) بعد البطش بسكانها من الاباضية (619) ، دون أن يحرك ائمة تاهرت ساكنا (620) . وفضلا عن ذلك فقد اسهموا فى اثارة

---

(613) ينتسب آل سليمان الى سليمان بن عبد الله — اخ ادريس الاكبر — الذى نجا من معركة فخ ولحق بأخيه فى المغرب الاقصى بعد تأسيس دولة الادارسة سنة 172 هـ ولما فتح ادريس تلمسان جعل سليمان واليا عليها . ويخيل الينا انه غادر تلمسان بعد ثورة زناتة بزعامة محمد بن خزر واتجه الى نواحى تاهرت حيث لم يطب له المقام هناك طويلا . ويبدو ان خلافا وقع بينه وبين راشد — مولى الادارسة — بعد موت ادريس الاول جعله لا ينزل وليلى على اثر ثورة ابن خزر ويتجه الى نواحى تاهرت . لكنه ما لبث أن لحق بادريس الثانى حيث شب عن الطوق ، وصحبه فى حملته على تلمسان لاستردادها وقد مات ابان اقامة ادريس الثانى فى تلمسان ، وخلفه ابنه محمد فى ولايتها من قبل ادريس الثانى . انظر : البكرى : ص 77 ، ابن خلدون : ج 4 ص 17 ، سلفاتور كوسا : ص 14 . مبارك الميلى : تاريخ الجزائر ج 2 ص 49 ، Lavoix : Catalogue des Monnaies .. P. 398.

(614) ابن خلدون : ج 4 ص 17 .

(615) من مظاهر استقلال هذه الامارات حرص أمرائها على سك عملة خاصة بهم خالية من أى اشارة الى تبعيتهم للادارسة . وهاك صورة لدينار — ضرب فى سوق ابراهيم فى عهد أحمد بن عيسى : الوجه : لا اله الا الله وحده لا شريك له . الكتابة الدائرية : لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . الوجه الاخر : محمد رسول الله — أحمد بن عيسى . انظر : Lavoix : Op. Cit. P. 397.

(616) Les Berberes. Vol. 2. P. 13.

(617) المقدسى : صفحة 218 .

(618) اليعقوبى : البلدان : ص 352 ، 353 .

(619) النفوسى : صفحة 70 .

(620) يرى الاستاذ محمد على دبوز أن بنى رستم تنازلوا من هذه البلاد طائعين مختارين لآل سليمان العلويين . وهو رأى يجانب الصواب بالقياس الى ما كان بين الطرفين من خصومة سياسية وعداء مذهبى . انظر : المغرب الكبير : ج 3 ص 336 .

الفتن والثورات التى أضعفت الحكم الرستمى فى سنيه الاخيرة ، فبكر بن حماد — اخ محمد بن حماد زعيم الثوار على أبى حاتم يوسف — كان على صلة مريبة بأبى العيش عيسى بن ادريس العلوى حاكم جراوة (621) ، وبأحمد بن القاسم بن ادريس حاكم مدينة كرت (622) . ولما اخفقت الثورة ، واستعاد ابو حاتم الامامة هرب كثيرون من الثوار لائذين بآل سليمان والادارسة (623) .

هكذا — اتسمت علاقات بنى رستم السياسية مع الادارسة بطابع العداء ، وأسفر الصراع بين الدولتين عن تغلب الادارسة واستكانة بنى رستم .

ب — العلاقات الودية :

1) بنو رستم وأباضية الشرق :

سبق القول بأن اباضية الشرق عمدوا الى اساليب الدعوة السرية والتنظيم السياسى على اثر فشل حركة عبد الله بن أباض التميمى فى عهد مروان ابن محمد الاموى ، فطفقوا يرسلون من مركزهم فى البصرة دعاتهم الى الامصار المتطرفة كخراسان وجنوبى الجزيرة العربية والمغرب لنشر المذهب الاباضى واقامة دولة أباضية خالصة ، واسفرت هذه الجهود عن فشل الدعوة فى خراسان ، ونجاحها فى الجزيرة العربية والمغرب .

ففى جنوبى الجزيرة العربية ، قامت دولة أباضية ضمت عمان واليمن وبعض اقاليم الحجاز برئاسة أبى عبد الله بن يحيى الكندى ، المعروف بطالب الحق ، والتى سقطت سنة 130 هـ (748 م) غير أن فلول الاباضية تمركزوا فى حضر موت بزعامة الجلندى الذى قتل سنة 134 هـ على يد الجيوش العباسية (624) . ولم يحل ذلك دون قيام دويلات للاباضية فى عمان . كان

---

(621) ساق بكر بن حماد أبياتا من الشعر امتدح بها أبا العيش تدلل على هذه الصلة ، منها :

سائل زواغة عن طعان سيوفه	ورماحه فى العارض المتهلل
وديار نفزة كيف داس حريمها	والخيل تمرغ فى الوشيح الذبل

انظر : النفوسى : صفحة 70 .

(622) النفوسى : صفحة 74 .

(623) نفس المصدر : صفحة 77 .

(624) ابن الاثير : ج 5 ص 145 ، 169 ، أحمد أمين : ضحى الاسلام : ج 3 ص 338 . ولا صحة للرواية القائلة بمعاصرة الجلندى لامامة عبد الرحمن بن رستم . انظر : اطفيش : الامكان . صفحة 107 .

آخرها امامة الصلت بن مالك التى دالت سنة 280 هـ (625) . (896 م) .
وكانت هذه الحكومات الاباضية فى عمان على نسق الدولة الرستمية فى المغرب ومعاصرة لها . وكانت وثيقة الصلة بجماعة الاباضية الام فى البصرة . فضلا عن مشايخ المذهب بمكة والمدينة (626) ولم يكن هناك ثمة ما يحول دون التقاء أباضية عمان واباضية المغرب — واغلبهم من نفوسة (627) — فى مواسم الحج (628) وان كنا نشك فى وجود صلات وثيقة بينهما ، فالمصادر خلو من ذلك تماما فى الوقت الذى تزخر فيه بالكثير عن صلات أباضية البصرة بعمان وتاهرت وحرصهم على دعم الحكم الاباضى فيها (629) .

لقد ظل التنظيم السياسى السرى لاباضية البصرة قائما يتداول رئاسته فقهاء المذهب جيلا بعد جيل رغم عنف الضربات التى كالها بنو العباس للخوارج فى المشرق . واستمرت صلاتهم بأباضية المغرب ابان مرحلة الثورة وبعدها ، لما جنحوا الى الاستقرار السياسى واقاموا دولة بنى رستم .

وفى كلتى المرحلتين دابوا على دعم أباضية المغرب ماديا وروحيا ، فأرسلوا اليهم الاموال ، وافتوهم فى مشاكلهم السياسية والمذهبية ، وتدخلوا لتسوية خلافاتهم بابداء النصائح وارسال البعوث . كما حرص زعماء أباضية المغرب على الاستنارة بخبرة شيوخهم المشارقة فى السياسة والحكم والاستزادة من تبحرهم فى العلم وتفقههم فى المذهب ، فدابوا على انفاذ بعوثهم للدراسة على مشايخ البصرة ، وحكموهم فيما عن لهم من مشاكل وخلافات ، واستمدوا منهم الكتب والتآليف وخاصة ما تعلق منها بالمذهب الاباضى .

وقد سبقت الاشارة الى دور أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة فى التنظيم والاعداد لامامة أبى الخطاب عبد الاعلى بن السمح ، ومتابعته أحوالها ، وحرصه على تجنيب اباضية المغرب الخلاف والشقاق الذى

---

(625) المسعودى : مروج الذهب : ج 4 ص 245 .
(626) الوسيانى : سير أبى الربيع ورقة 3 ، Masqueray : Op. Cit. P. XIVI
(627) الوسيانى : نفس المصدر والصحيفة .
(628) يذكر مارسيه أنه عن طريق هؤلاء الحجاج انتقلت بعض الانماط الفنية من بلاد المغرب الى مصر ، وخاصة تلك التقاليد الفنية المتعلقة بكنائس المغرب ، فقد وجدت طريقها الى الاديرة المصرية بعد تلونها بلون قبطى خاص . انظر :
La Berberie Musulmane. P. 116.
(629) الشماخى : صفحة 114 .

سببته مسألة الحارث وعبد الجبار .

وبديهى ان تتوطد هذه الصلات بقيام دولة بنى رستم ، وحسبنا أن مؤسسها عبد الرحمن بن رستم تتلمذ فى حلقة ابى عبيدة بالبصرة ، ونجاحه فى تأسيس دولة اباضية بالمغرب اعتبر نصرا لاباضية المشرق ايضا ، فقد نظروا اليه باعتباره « امام الظهور » (630) لسائر اتباع المذهب فى كافة أرجاء العالم الاسلامى .

ويبدو أن جماعة هائلة من أباضية الشرق هرعوا الى تاهرت بعد انشائها هروبا من بطش بنى العباس ورغبة فى العيش فى كنف الدولة الرستمية (631) فقد تطلع أباضية الشرق الى قيام دولة لهم تضم المشرق والمغرب معا (632) ، فانبروا يعضدون الدولة الرستمية ، وبادروا بانفاذ المساعدات المالية ليستعين بها عبد الرحمن بن رستم على مواجهة مشاكل دولته آملين أن تكون نواة للدولة الكبرى المنشودة . وليس أدل على تعاطف ابن رستم مع أباضية الشرق من رفضه لمزيد من هذه الاموال حين تدعمت دولته واشتد ساعدها (633) .

كذلك جزعت جماعة المذهب فى الشرق لما ظهرت الاضطرابات والانشقاقات فى الدولة الرستمية فى عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن وخاصة ما مس الجانب المذهبى منها ، كانشقاقات النكار والخلفية وما انتهت اليه من افتراق الاباضية فى المغرب . وجدير بالتنويه أن المتخاصمين كانوا يحتكمون فى خلافاتهم الى مشايخ المذهب فى الشرق ، فقد هادن يزيد ابن فندين — زعيم النكار — الامام عبد الوهاب ريثما ترد فتوى المشارقة حول الامامة المشروطة ، وسياسة الامام فى تنصيب عماله (634) .

كما احتكم الامام عبد الوهاب وخلف بن السمح أيضا الى فقهاء المشارقة فى مسألتى تعدد الائمة وحق الرعية فى اختيار عمالها (635) . ولم يتوان اعلام المذهب وفقهائه عن البت فى تلك المسائل أو القضايا . وعلى الرغم مما تصوره المصادر الاباضية من أن فتاوى المشارقة كانت فى صالح الامامة ، فلا نعدم وجود ما يشير الى استيائهم من سياسة عبد

(630) ابو زكريا : السيرة : ورقة 18 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 25 .
(631) انظر ابن ثاويت دولة الرستميين : ص 109 .
(632) ابن الصغير : صفحة 10 .
(633) نفس المصدر : ص 14 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 21 .
(634) ابو زكريا : ورقة 15 ، الشماخى : السير : ص 146 .
(635) الشماخى : السير : صفحة 181 .

الوهاب وانتهاكه تعاليم المذهب وخروجه على أحكامه (636) . وعلى اية حال ، فان حرصهم على تحاشى الشقاق ورأب الخلاف أفضى بهم الى تهدئة الخواطر باسداء النصح لاطراف النزاع جميعا (637) .

كان حرص رؤساء التنظيم الام فى البصرة على استمرار الامامة فى تاهرت ودعمها شغلهم الشاغل ، فقد أفتوا بجواز تقاعد الامام عن الحج حرصا على سلامته (638) ، كما كلفوا انفسهم مشقة نسخ آلاف التآليف والتصانيف لتزويد المكتبة « المعصومة » بتاهرت بها (639) . ولا غرو فقد وجدت هذه الكتب اقبالا لدى أباضية المغرب ، فاقبلوا على دراستها وتصدوا للانحرافات المذهبية وخروج الائمة فى سياساتهم عن تعاليم المذهب (640) على هدى ما ورد فيها .

كما حرص المشارقة على انفاذ بعوثهم لتفقد احوال الدولة الرستمية (641) والتدريس فى مساجدها (642) والافتاء فى مشاكلها وقضاياها (643) . وفضلا عن ذلك فقد نقلوا معهم الى المغرب تقاليد الحضارة والفن الشرقى (644) .

ومن المعروف أن المتاجر والسلع الشرقية كانت ترد الى تاهرت عن طريق الاباضية المشارقة ، فيخبرنا الشماخى (645) أن الربيع بن حبيب — خليفة أبى عبيدة مسلم بن ابى كريمة — كان يبعث اخاه بصحبة ما يحتاجه الامام عبد الوهاب من صنوف البضائع والسلع الشرقية .

والمصادر خلو من أية اشارة الى استمرار هذه العلاقات بعد امامة عبد الوهاب باستثناء اشارة عابرة أوردها بعض مؤرخى الاباضية (646) عن اهتمام أفلح بن عبد الوهاب بتواليف أعلام المذهب من المشارقة —

(636) الشماخى : السير ص 147 .
(637) انظر : ملحق رقم (4) .
(638) ابو زكريا : ورقة 23 .
(639) البرادى : رسالة فى بعض كتب الاباضية . ورقة 207 ، الشماخى : السير . ص 162 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 26 .
(640) الوسيانى : سير أبى الربيع ورقة 79 .
(641) الشماخى : السير ، صفحة 165 .
(642) نفس المصدر : صفحة 279 .
(643) نفس المصدر : ص 228 ، الوسيانى : ورقة 2 .
(644) Marcais, G : La Berberie musulmane. P. 116.
(645) السير . صفحة 161 .
(646) انظر : الوسيانى : ورقة 70 ، البرادى : رسالة فى بعض كتب الاباضية ورقة 206 .

وخاصة ما كتبه أبو سفيان محبوب بن الرحيل — وحضه رعيته على اتباع سننهم . ولو صح ذلك ، لكان افلح آخر ائمة بنى رستم الذين اعترف جمهور الاباضية بامامتهم كما يذهب الورجلانى (647) . ونعتقد أن استياء أعلام المذهب فى الشرق من خروج عبد الوهاب على تعاليم المذهب تطور الى رفض وانكار لامامة خلفائه ، فقد تحولت الامامة الى ملك وراثى ، وضاعت هيبتها ، وامتهنت رسومها ، فكان ذلك قمينا بعزوف اباضية الشرق عن مناصرة الدولة الرستمية والاتصال بحكامها .

2 — بنـو رستم وأمويـو الاندلس :

اتخذت علاقات بنى رستم بأموى الاندلس طابعا وديا برغم اختلافهما مذهبيا ، فقد أوجبت الضرورة السياسية عقد أواصر الصداقة بين تاهرت وقرطبة ، اذ اشترك الطرفان فى عداء بنى العباس والاغالبة والادارسة (648) ، وكان الاغالبة على وجه الخصوص خطرا عليهما معا ، فلم يكن ثمة بد من اتصال بنى رستم باحدى القوى الكبرى المعاصرة ، كما كان امويو الاندلس ينشدون عقد صلات مع القوى المناوئة لبنى الاغلب فى المغرب ومن ثم التقى الطرفان حول مصالحهما السياسية المشتركة رغم خلافاتهما المذهبية والتاريخية .

وقد بالغ فورنل (649) وماسكراى فى تقدير مدى ما وصلت اليه هذه العلاقات ، فقالا بوجود « تحالف سياسى رسمى » بين تاهرت وقرطبة ضد عدوهما المشترك ، وبرر فورنل ومارسيه (650) ذلك بما « كان من تحالف تقليدى ، بين اموى الاندلس وبين بربر زناتة الذين كانوا عصب الدولة الرستمية » والثابت ان دولة بنى رستم قامت على أكتاف قبائل نفوسة وهوارة ولواتة ولماية وغيرها (651) ، بينما تحولت قبائل زناتة من مغراوة وبنى يفرن — الضاربة فى شمالى الدولة الرستمية — عن ولائها لبنى رستم ودانت بالطاعة للادارسة (652) . ومن ناحية أخرى لم تتعد علاقات بنى رستم ببنى امية بالاندلس علاقات الود وتبادل السفارات

---

(647) الدليل لاهل العقول ج 2 ص 76 .
(648) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ج 1 ص 32 ، Provencal : Op. Cit. P. 245
(649) انظر : Les berberes Vol. I. P. 514, Chronique d'Abou Zakaria. P. 220.
(650) انظر : Loc. Cit, La berberie musulmane et l'Orient P. 104.
(651) النفوسى : صفحة 4 .
(652) ابن ابى زرع : ص 69 ، سلفاتوركوسا : تواريخ مدينة فاس : ص 4 .

والهدايا ، ولم تصل قط الى درجة التحالف أو القيام بعمل سياسى أو عسكرى مشترك ضد أعدائهما ، رغم تعرض الدولة الرستمية لاغارات الاغالبة والادارسة ، وتهديد الاغالبة للنفوذ الاندلسى فى حوض البحر المتوسط الغربى .

وقد أرجع بعض (653) المؤرخين بداية هذه العلاقات الى وقت مبكر وذكروا ان عبد الرحمن بن معاوية الاموى « لاذ ببلاط بنى رستم حينا من الدهر قبل اجتيازه الى الاندلس » ، وأكد مرسييه (654) — اعتمادا على المقرى — انه قضى زمنا فى تاهرت ونواحيها قبل رحيله الى الاندلس. وقول مرسييه هذا صحيح اذا كان يعنى تاهرت القديمة ، وليست تاهرت التى اقامها ابن رستم سنة 161 هـ (778 م) فمن الثابت أنه نزل عند قبيلة نفزة الضاربة بتلك النواحى وقضى هناك زمنا عند أخواله (655) ، ثم جاز الى الاندلس سنة 138 هـ (755 م) (656) . وقد حاول الميلى (657) تبرير قول دوزى ومؤنس ، فذكر أن عبد الرحمن بن رستم أجاز عبد الرحمن الاموى الى قبائل المغرب الاوسط اعتمادا على نفوذه هناك قبل تأسيسه تاهرت . لكن رواية دوزى ومؤنس وتفسير الميلى غير صحيحة ، فعبد الرحمن بن رستم فضلا عن عدم تأسيسه دولته فى الوقت الذى وطأ فيه عبد الرحمن الاموى أرض المغرب سنة 133 هـ (751 م) ، لم يكن له نفوذ فى بلاد المغرب الاوسط آنذاك ، فصلاته بقبيلة لماية بالمغرب الاوسط لم تقم الا بعد ولايته القيروان كنائب لابى الخطاب المعافرى سنة 141 هـ (658) (758 م) ويخيل الينا أن الامر التبس على دوزى ومن نقل عنه ، فخلطوا بين شخصيتى عبد الرحمن بن رستم وعبد الرحمن بن حبيب أمير افريقية فى ذلك الحين (659) .

والمعقول أن تكون تلك الصلات قد بدأت بعد رحيل عبد الرحمن بن

---

(653) انظر Dozy : Spanish Islam. P. 166. مؤنس : فجر الاندلس : ص 664 .

(654) انظر : Histoire de l'etablissement des Arabes ... P. 76.

(655) كانت أم عبد الرحمن من سبايا نفزة ، انظر : ابن عذارى : ج 2 ص 62 . ابن الابار : الحلة السيراء : ج 1 ص 35 . وقد ذكر ابن الخطيب انه نزل على مغيلة وليس على نفزة . انظر : أعمال الاعلام : ج 2 ص 8 .

(656) ابن الابار : صفحة 35 .

(657) انظر : تاريخ الجزائر . ج 2 ص 16 .

(658) ابن خلدون : ج 6 ص 121 . مارسيه : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الاسلامية . صفحة 92 .

(659) ابن عذارى : ج 2 صفحة 60 .

رستم الى المغرب الاوسط واختطاطه مدينة تاهرت ، فيبدو أن ابن رستم استعان بخبرة الاندلسيين فى انشاء المدينة وتعميرها ، ولا غرو فقد سمى أحد أبواب المدينة « باب الاندلس » (660) ، وان كان بروفنسال (661) قد تشكك فى وجود مثل تلك الصلات المبكرة . لكن وجود مغاربة أباضية فى بلاد الاندلس اذ ذاك يرجح ما ذهبنا اليه ، فقد غص اقليم الجزيرة بالكثيرين منهم ، ومنهم من تقلد بعض الوظائف العامة فى امارتى عبد الرحمن الاول وابنه هشام (662) . ويبدو أن نفوذ هؤلاء الاباضية — ومنهم بعض أفراد البيت الرستمى — (663) قد ازداد بدرجة استثارت الاندلسيين فى عهد الحكم الاول ، فانبرى الشعراء يهيبون به البطش بهم (664) ، فخرج اليهم بنفسه ونزل الجزيرة « وحمل السيف على اكثر اهلها » (665).

وهذا يفسر قول ابن حيان (666) بترحيب عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم بالثائرين على الحكم الاموى ، وتشجيعه عبد الله البلانسى — عم الحكم — للوثوب على الامارة فى قرطبة وانتزاع الحكم من ابن أخيه .

وزالت تلك الجفوة بين تاهرت وقرطبة بعد وفاة الحكم سنة 206 هـ (821 م) ، وعادت الصلات الودية الى سابق عهدها فى عهد عبد الرحمن ابن الحكم (306 — 238 هـ) (667) (821 — 853 م) ، فقد نقل بروفنسال (668) عن ابن حيان أن عبد الوهاب الرستمى ، أوفد سفارة من ابنائه الثلاثة — عبد الغنى ودحيون وبهرام — لتجديد أواصر الود مع عبد الرحمن ، وان الاخير رحب بهم وابتهج لمقدمهم . وذكر ابن سعيد (669) أنه أنفق عليهم « ألف ألف دينار » فضلا عن الهدايا والالطاف التى أنعم بها عليهم قبل رحيلهم الى بلادهم .

واستمرت صلات المودة بعد موت عبد الوهاب بن رستم ، فعول

---

(660) البكرى : ص 66 ، القلقشندى : ج 5 ص 111 .
(661) انظر : Histoire de l'Espagne Musulmane. Vol. I. P. 241.
(662) ابن القوطية : صفحة 71 .
(663) من هؤلاء محمد بن سعيد بن رستم الذى تقلد ولاية شذونه ، ومحمد بن عبد الرحمن ابن رستم ، وقد خدم فى جند الحكم بن هشام .
(664) حث الشاعر عباس بن ناصح الحكم على ذلك بقوله :
صل بالاثيل الذى ربوا لفتنتهم — من قبل ان يرحلوه نحونا جذعا
(665) ابن القوطية : صفحة 71 ، 72 .
(666) انظر : Provencal : Op. Cit. P.P. 152, 244.
(667) ابن عبد ربه : العقد الفريد : ج 4 ص 493 .
(668) انظر : Histoire de l'Espagne musulmane. Vol. I P. 245.
(669) المغرب فى حلى المغرب : ج 1 ص 48 .

عبد الرحمن بن الحكم على « وصل البعوث الى دار المغرب » (670) . فوجدت فى بلاط افلح بن عبد الوهاب أيما ترحاب . وقرب الامير الاندلسى اليه كثيرين من آل البيت الرستمى ، واتخذ منهم الوزراء والحجاب والقواد ، ونعرف أن شخصا يدعى عبد الرحمن بن رستم ولى الحجابة لعبد الرحمن الثانى (671) ، وقيل الوزارة (672) فى رواية اخرى .

ويخبرنا ابن الدلائى (673) أن الامير الاندلسى فوض قائده محمد ابن سعيد بن رستم سنة 229 هـ (844 م) فى قتال المجوس ، وقد تمكن بالفعل من النجاح فى مهمته (674) .

وتوطدت عرى الصداقة بين افلح بن عبد الوهاب ومحمد بن عبد الرحمن الاندلسى (238 — 273 هـ) (675) (853 — 887 م) ، فقد استقرت امور الاندلس فى عهده وازدهرت احوالها (676) ، وتطلع نحو بلاد المغرب لتدعيم صلته مع تاهرت وسجلماسة (677) . وقد زعم بروفنسال (678) أن الامير محمد بعث بهداياه الى تاهرت لما تقلد افلح ابن عبد الوهاب الامامة . كما بعث اليه باخبار انتصاره على المجوس عند نهر الوادى الكبير سنة 230 هـ (855 م) لكن افلح تولى الامامة فى تاهرت سنة 207 هـ (822 م) ولم يتقلد الامير محمد حكم الاندلس قبل سنة 238 هـ (853 م) . وهذا أيضا مما يخطىء قوله عن هزيمة المجوس على يديه ، فالراجح أن ذلك لم يحدث الا سنة 246 هـ (679) (861 م) . ولو صح أن الامير الاندلسى أرسل الى صديقه الرستمى بأنباء انتصاراته سنة 246 هـ ، فان أفلح كان سباقا فى هذا الصدد ، اذ بادر بارسال خبر احراقه مدينة العباسية التى بناها الاغالبة سنة 239 هـ (854 م) الى

---

(670) ابن سعيد : نفس المصدر : صفحة 46 .

(671) نفس المصدر : صفحة 50 ، Marcais, G : La Berberie musulmane. P. 104

(672) مارسييه : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الاسلامية : ص 93 ، Faroughy : Op. Cit. P. 15.

(673) نصوص من الاندلس ص 99 ، 100 .

(674) نفس المصدر والصحيفة ، Provencal : Op. Cit. P. 246.

(675) ابن عبد ربه : العقد الفريد : ج 4 ص 493 .

(676) نفس المصدر : ص 495 ، المقرى : نفح الطيب ج 1 ص 329 .

(677) ابن عذارى : ج 2 ص 161 ، محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الاندلس ج 3 صفحة 23 .

(678) انظر : Histoire de l'Espagne musulmane. Vol. I P.P. 245, 281.

(679) انظر : Condé : Op. Cit. P. 299.

الامير محمد « تقربا اليه » فبعث اليه الاموى مائة الف درهم (680) دليلا على اغتباطه وامتنانه ، وتأكيدا لاواصر الصداقة فى مواجهة الخطر المشترك (681) .

وظلت هذه العلاقات الودية قائمة بعد موت افلح على الرغم مما تعرضت له الدولتين من خطر الفوضى والتمزق السياسى ، ومع ذلك فلا محل لتصديق قول ابن عذارى (682) — ومن نقل عنه (683) — عن دخول الامام الرستمى أبى اليقظان محمد فى طاعة الامير محمد الاندلسى . والمعقول أن يكون الامام الرستمى قد ناشد صديقه أمير قرطبة العون ضد خصومه ليس الا وعلى اية حال ، لم يظفر ابو اليقظان بطائل ، اذ غرقت الامارة الاندلسية فى ذلك الحين وحتى بداية حكم عبد الرحمن الناصر فى مشاكلها الداخلية (684) . على أن تقاعس الامير محمد عن مساعدة صديقه لم يكدر صفو علاقاتهما ، فظلت صلات الود مرعية بين الطرفين ، وليس ادل على ذلك من اسراع عمر بن حفصون — الثائر على أمراء قرطبة — بمغادرة تاهرت خشية ان يقبض عليه امامها ويسلمه لصديقه أمير قرطبة ، وكان ابن حفصون قد نزل تاهرت لائذا بصديق له من بلدة رية ومقيم بتاهرت (685) .

بل نعتقد انه برغم تدهور أحوال الامامة الرستمية بعد أبى اليقظان محمد ، وانشغال الامارة الاموية بالاندلس بمواجهة الثورات التى تفاقمت خلال عهدى المنذر بن محمد وعبد الله بن محمد ، فقد أوجبت الضرورة السياسية مزيدا من توثيق الصلات بين تاهرت وقرطبة . اذ استبدل الخطر الاغلبى بخطر جديد لاحت نذره مهددا كافة القوى السياسية فى المغرب والاندلس على السواء ، وهو الخطر الفاطمى . وهذا ما حدا بأمراء قرطبة الى بث عيونهم فى بلاد المغرب والاستعانة بأصدقائهم حكام تاهرت فى تقصى اخبار الشيعة ومتابعة نشاطهم والاعداد لمواجهتهم (686) .

---

(680) البلاذرى : فتوح البلدان ص 277 .

(681) لا نوافق فورنل قوله بأن هذا الحادث يكشف عن الخيوط الاولى للعلاقات بين تاهرت وقرطبة . انظر : Les Berbers. Vol. I. P. 514.

(682) البيان المغرب . ج 2 صفحة 161 .

(683) انظر : ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 2 ص 22 ، Dozy : Op. Cit. P. 317 Provencal : Op. Cit. P. 281.

(684) انظر المقرى : ج 1 ص 345 وما بعدها .

(685) ابن القوطية : صفحة 110 .

وبديهى ان يفكر الرستميون الاواخر فى الاستعانة بقرطبة للقيام بعمل مشترك ضد الخطر الشيعى (687) . لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، فقد سقطت الدولة الرستمية بتاهرت سنة 297 هـ (909 م) ، وبعدها سقط بنو مدرار والادارسة ، وفتح المغرب برمته على يد الشيعة الفاطميين ، ولم يقم حكام قرطبة بجهود لمجابهتهم الا فى عهدى عبد الرحمن الناصر (678) والحكم المستنصر ، ولا يخفى ما كان من اتصال الحكم المستنصر بالاباضية النكار الذين تصدوا لمقاومة الفاطميين بعد سقوط الدولة الرستمية (689).

وهكذا — تأثرت علاقات بنى رستم — الى حد كبير — بظروف دولتهم الجغرافية ومذهبهم الدينى ومصالحهم السياسية والاقتصادية .

(686) ابن عذارى : ج 1 صفحة 150 . محمود مكى : التشيع فى الاندلس : ص 111.
(687) Brunschvig : Op. Cit. P. 17.
(688) ابن خلدون : ج 4 صفحة 41 .
(689) ابن حيان : المقتبس فى ذكر بلد الاندلس ص 192 .

الباب الرابع

الخوارج والفاطميون في بلاد المغرب

اولا :

الصفرية والفاطميون

أ - الفاطميون وسقوط دولة بني مدرار

ارتبطت نهاية دولتى الخوارج فى المغرب بظهور الدعوة الفاطمية ، فقيام الدولة الفاطمية سنة 297 هـ (909 م) تم على انقاض الدول المستقلة فى المغرب ، ومن بينها دولتى بنى مدرار وبنى رستم الخارجيتين .

ومن المعروف ان بلاد المغرب كانت ميدانا للدعوة الفاطمية منذ وقت مبكر ، فقد عهد محمد الحبيب المقيم بسلمية — من ارض حمص — الى اثنين من دعاته ببث دعوته فى بلاد كتامة ، ونجحا فى التمهيد لما قام به ابو عبد الله الشيعى داعية عبيد الله المهدى فيما بعد (1) . واستطاع ابو عبد الله الشيعى الذى نزل بلاد المغرب سنة 280 هـ (893 م) ان ينشر دعوته بين قبائل كتامة ، كما نجح فى اعداد جيش (2) منهم تمكن بفضله من مناجزة دولة بنى الاغلب فى افريقية سنة 289 هـ (902 م) ، ولم يمض طويل وقت حتى دانت لنفوذه معظم اقاليمها الغربية .

وبعث ابو عبد الله فى استدعاء مولاه عبيد الله المهدى سنة 292 هـ (905 م) فخرج اليه « يتصدى للسلطان ويخاطر فى طلب الملك » (3) برفقة خاصته وثقاة رجاله (4) . وافلت من عمال بنى العباس وعيونهم فى

---

(1) ابن الاثير : ج 6 ص 127 .
(2) ابن عذارى : ج 1 ص 172 .
(3) ابن الابار : الحلة السيراء ج 1 ص 191 .
(4) اصطحب المهدى فى رحلته ابنه ابا القاسم وفيروز داعى دعاته ، وطيب ، وابا العباس محمد بن زكريا وابا يعقوب القهرمانى ، ومحمد بن عزيزة ، وجعفر الحاجب . انظر ، اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص 110 .

مصر والمغرب لما بذله من اموال وهبات (5) ، فضلا عن تشيع بعض هؤلاء العمال لآل البيت (6) . ووصل المهدى الى طرابلس ، وانفذ أبا العباس محمد بن زكريا — اخ ابى عبد الله الشيعى — بصحبة بعض رجال كتامة الى اخيه ليعرفه بوصوله ، واثر الانتصار بطرابلس . لكن ابا العباس وقع فى أسر بنى الأغلب (7) ، فاضطر المهدى لمغادرة طرابلس الى قسطيلية — ببلاد الجريد — واحجم عن التوجه الى الشيعى بكتامة خوفا على حياة اخيه (8) . ولما علم بأن زيادة الله الاغلبى أرسل كتابا الى عامل قسطيلية فى طلبه ، غادرها على التو ، ويمم وجهه شطر سجلماسة فى اقاصى الصحراء ليأمن شر الأغالبة وعمالهم (9) .

وكان على المهدى ان يجتاز اراضى الدولة الرستمية كيما يصل الى سجلماسة ، فمر بوارجلان — شمالى سدراته — وهناك اكتشف أمره ، ولقى عنتا من اهلها (10) ، فغادرها الى سجلماسة (11) .

ونزل المهدى بسجلماسة على اميرها اليسع بن مدرار ، ونعم هناك بحياة آمنة لما قدمه اليه من اموال وهدايا ، « فقربه اليسع وكف عنه » (12) ، كما حظى باحترام اهل المدينة واجلالهم (13) ، وعاش طليقا منعما فسكن القصور واقتنى الخدم والاتباع (14) ، ويخيل الينا ان التشيع وجد طريقه الى سجلماسة قبل مقدم المهدى ، ومن المؤكد انه لم يعدم انصارا واتباعا بين سكانها ، فذلك ما توحى به بعض الروايات الشيعية (15) ، وغير الشيعية (16) ولا غرو فقد كانوا يلجأون اليه للافتاء

---

(5) انظر : افتتاح الدعوة ص 42 ، 43 بملاحق كتاب Ivanov : Ismaili tradition.

(6) انظر : شرح الاخبار ج 5 ص 31 بنفس المصدر السابق .

(7) اليمانى : سيرة جعفر ص 116 .

(8) افتتاح الدعوة ص 43 .

(9) النيسابورى : استتار الامام ورقة 14 ، اليمانى : ص 116 ، افتتاح الدعوة ص 43 ، ابن الابار : ج 1 ص 191 ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص 84 ، العينى : عقد الجمان ج 15 ورقة 153 ، Biquet ; Op. Cit. P. 69.

(10) ابو زكريا : ورقة 35 .

(11) اليمانى : ص 119 .

(12) شرح الاخبار ص 31 ، ابن الاثير : ج 8 ص 13 ، ابن خلدون ج 3 ص 363 المقريزى : اتعاظ ص 84 ، الخطط ج 1 ص 350 .

(13) افتتاح الدعوة ص 43 ، النويرى : ج 26 ورقة 32 ، حسن ابراهيم : عبيد الله المهدى ص 14 ، De Goeje : Memoires sur les carmathes de Bahrin. P. 66.

(14) اليمانى : ص 122 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 42

فيما عن لهم من مسائل فقهية ودينية (17) ، الا أن أبا زكريا (18) ، بالغ فى اظهار مكانة المهدى فى سجلماسة الى حد الزعم بتوليه الوزارة لليسع بن مدرار ، ومبايعة أهل بسجلماسة له بالامارة بعد موت اليسع ، وامتداد نفوذه حتى مدينة فاس عاصمة الادارسة والظاهر أن هذه الرواية تخلط بين مكانة المهدى ابان سنى اقامته الاولى فى المدينة وبين نفوذه غداة توليه الخلافة سنة 297 هـ (909 م) ومع ذلك فلا تخلو هذه الرواية من دلالة على ما تمتع به المهدى فى سجلماسة من هيبة ونفوذ خلال السنوات الثلاث الاولى من اقامته بها .

ولكن جد من الاحداث ما جعل اليسع بن مدرار ينكب المهدى ورجاله ويودعهم السجون . والمصادر تختلف فى اسباب ذلك ، فيذهب البعض (19) ، الى أن اليسع قبض على المهدى على اثر رسالة من الامير الاغلبى زيادة الله الثالث ، وقيل من الخليفة العباسى المعتضد (20) ، أو المكتفى (21) ، بينما رجح آخرون (22) ، أن الرسالة وصلته من الخليفة العباسى والامير الاغلبى معا . ومهما كان الامر فهذه الرسائل لا تنهض دليلا على ولاء اليسع بن مدرار لأمير افريقية أو لخليفة بغداد كما ذهب (23) البعض ، وانه بسبب هذا الولاء قبض على المهدى وأودعه السجن ، فثمة احتمال بان يكون ليهود سجلماسة دور فى هذا الصدد ، والظاهر انهم أوعزوا الى

---

(15) ذكر اليمانى قصة مؤداها ان القائم بن المهدى وضع رجله فى عين ماء آسنة فجرى الماء فيها مدرارا . فلما رآه البستانى صاح « انى بالله وبالمهدى » فاستفسر منه المهدى عن قوله ، فاخبره بانه عرف الامر من اجداده ، فامره المهدى بالكتمان .
انظر : سيرة جعفر ص 120 .

(16) أورد الدرجينى قصة أخرى مضمونها أن احد جيران المهدى بسجلماسة قص عليه حلما وطلب منه تفسيره ، فلما فسره قبل الرجل يده قائلا « يا أمير المؤمنين انت مولاى » : انظر : طبقات الاباضية ج 1 ورقة 42 .

(17) ابو زكريا : ورقة 36 .

(18) نفس المصدر والصحيفة .

(19) انظر : افتتاح الدعوة ص 44 ، ابن الاثير : ج 8 ص 13 ، ابو الفدا ج 2 ص 65 ، النويرى : ج 26 ورقة 32 ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص 84 ، العينى : ج 15 ورقة 153 ، ابن ابى دينار ص 49 ، De goeje : P. 66.

(20) ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، المقدمة ج 1 ص 240 ، القلقشندى : ج 5 ص 266 .

(21) ابن خلدون : ج 3 ص 363 ، الباجى المسعودى : الخلاصة النقية ص 37 .

(22) شرح الاخبار ج 5 ص 31 .

(23) انظر : ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، المقدمة ج 1 ص 240 ، القلقشندى : ج 5 ص 266 ، Bel : Op. Cit. P. 156.

اليسع بالقبض عليه (24) ، بعد ان اخبروه أن أبا عبد الله الشيعى قام بدعوته من اجله ، فقد عاشت اقلية يهودية فى دولة بنى مدرار وهيمنت على مناجم الفضة فى درعة وتجارة الذهب مع الجنوب (25) . ومن الطبيعى ان يجدوا فى الخطر الشيعى تهديدا لمصالحهم ، ولهذا تعرضوا للعسف والاضطهاد على اثر سقوط سجلماسة فى يد الشيعة (26) ، وسواء أكانت الخلافة وعمالها أو يهود سجلماسة هم الذين نبهوا اليسع الى ضرورة القبض على المهدى ، فالذى لاشك فيه أن الامير المدرارى استجاب للامر حرصا على سلامة دولته ليس الا ، بعد ان ادرك ان ابا عبد الله الشيعى يدعو اليه . فكان قبض اليسع على المهدى اذن من قبيل التوافق غير المقصود بين أهداف العباسيين والاغالبة وبين مصالح بنى مدرار التى تهددها خطر الشيعة الاسماعيلية .

لقد كان اليسع يدرك أن المهدى علوى (27) ، لكنه لم يقف على حقيقة علاقته بالدعوة الشيعية فى المغرب (28) . فلما نبه اليها : استدعى المهدى وابنه « واستراب بهما » (29) ، وسأل المهدى عن « نسبه وحاله ، وهل اليه قصد أبوعبد الله ؟ » ، فاعترف المهدى بالنسب اذ لم يسعه انكاره « لكنه انكر صلته بأبى عبد الله الشعيى ، وكذلك فعل ابنه » (30) . ثم امتحن رجاله بالعذاب ، فلم يعترفوا (31) ، وهم باطلاق سراحهم لولا اعتراف أحدهم ويدعى أبو يعقوب القهرمانى (32) . عندئذ تحفظ على المهدى فى منزل اخته وسجن ابا القاسم فى احدى حصون سجلماسة (33) ، « ولم يكن منه فى حقهما ما يكره » (34) ، فكانا مبجلين معظمين فى منزليهما (35) . وليس أدل على ذلك من السماح للمهدى بالاتصال من

---

(24) مجهول الاستبصار ص 202 .
(25) نفس المصدر والصحيفة .
(26) نفس المصدر والصحيفة .
(27) افتتاح الدعوة ص 44 ، Momour : Op. Cit. P. 107.
(28) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج 1 ص 272 .
(29) ابن خلدون : ج 6 ص 131 .
(30) افتتاح الدعوة ص 44 شرح الاخبار ص 32 .
(31) النويرى : ج 26 ورقة 32 .
(32) اليمانى : ص 122 .
(33) افتتاح الدعوة ص 44 ، الاستبصار ص 204 . وذكر ابن عذارى أن المهدى وابنه سجنا فى غرفة واحدة بمنزل مريم بنت مدرار . انظر البيان المغرب ج 1 ص 210 .
(34) النويرى : ج 26 ورقة 32 .
(35) اليمانى : ص 122 .

سجنه ببعض اصحابه وانصاره ، فكان هؤلاء همزة الوصل بينه وبين داعيته ابى عبد الله الشيعى فى كتامة .

وجدير بالتنويه أن الشيعى نجح فى تتبع اخبار المهدى منذ وصوله الى بلاد المغرب ، « فكانت كتبه تترى بطلبه حيثما نزل » (36) ، وكانت رسله على اتصال به بعد نزوله سجلماسة ، تحمل اليه الاموال والهدايا وتخبره بأنباء انتصاراته فى حروبه مع الاغالبة (37) . ولم ينقطع هذا الاتصال بعد سجنه ، فقد كتب الشيعى الى المهدى بعد هزيمته لجيش الاغالبة بقيادة ابراهيم بن حبشى ، وسير الكتاب مع أحد ثقاته ، فدخل السجن متخفيا فى زى قصاب يبيع اللحم ، واوصل الكتاب للمهدى (38) . وذكر جعفر الحاجب (39) أن المهدى اصطفى احد التجار القيروانيين فى سجلماسة ، ويدعى المطلبى ، وكان متشيعا ، وعهد اليه بمهمة مرافقة الشيعى عند قدومه لتحريره من سجنه بسجلماسة . ويخبرنا صاحب كتاب الاستبصار (40) ان المهدى لما اودع السجن بعث لداعيته بكتامة يستنفره لانقاذه على ان الشيعى ما كان بمكنته ان يخف لنجدة المهدى قبل انهاء صراعه مع الاغالبة ، فلما قضى على حكمهم فى افريقية سنة 296 هـ (908 م) شرع على التو فى قتال بنى رستم وبنى مدرار (41) .

استخلف الشيعى على القيروان اخاه ابا العباس وجعل معه ابا زاكى تمام بن معارك (42) وخرج من رقادة فى منتصف رمضان من نفس العام فى جيوش عظيمة يرافقه كبار اصحابه (43) . فاهتزت قبائل المغرب الاوسط لخروجه ، وخافته زناته ، وبادرت القبائل بالدخول فى طاعته (44) . ثم عرج على تاهرت واستولى عليها (45) وهو فى طريقه الى سجلماسة .

---

(36) اليسابورى : استتار الامام ورقة 14 مخطوط .

(37) ذكر ابن عذارى ان احد الهاشميين بسجلماسة اهدى اليه المهدى هدايا كثيرة مما بعثها الشيعى اليه ، وأمره « بالتستر وعدم الظهور فى المعيشة واللبس » خشية العيون والرقباء . انظر : البيان المغرب ج 1 ص 187 ، 188 ،
Vonderheyden : Op. Cit. P. 296.

(38) ابن الاثير : ج 8 ص 13 ، ابن خلدون : ج 4 ص 35 ، النويرى : ج 26 ورقة 32 .

(39) سيرة جعفر ص 125 .

(40) مجهول : ص 204 .

(41) النويرى : ج 22 ورقة 44 .

(42) اليمانى : ص 123 ، ابن الاثير : ج 8 ص 16 ، ابو الفدا : ج 2 ص 65 .

(43) اليمانى : نفس المصدر والصحيفة ، ابن عذارى : ج 1 ص 209 .

(44) ابن الاثير : ج 8 ص 16 ، ابن خلدون : ج 3 ص 364 .

(45) ابن عذارى : ج 1 ص 210 .

وبعث الشيعى برسله الى اليسع يتلطفه ويعده بالانصراف عن بلاده ، اذا ما اطلق سراح المهدى (46) ، فقتل اليسع الرسل ولم يجبه الى طلبه . وعاود الشيعى سياسة الملاينة متجنبا ذكر المهدى « تقية عليه » فقتل اليسع الرسل للمرة الثانية . (47) فلم يجد الشيعى بدا من ضرب الحصار على سجلماسة (48) ، وقد اشتهر ببراعته فى عمليات الحصار فى حروبه حتى لقبه المحدثون (49) بالمحاصر Poliorcete والتحم اليسع بن مدرار بجيوش الشيعى الذى قتل كثيرين من رجاله ، وكاد أن يظفر به لولا حلول الظلام . فعاد بعسكره الى خارج المدينة (50) — مهموما خوفا على حياة المهدى ، بينما لاذ اليسع بالهرب (51) .

والواقع ان خلافا بين المؤرخين حول مصير المهدى ، فمنهم من يؤكد سلامة المهدى لاشتباه اليسع فى شخص آخر — يدعى بسطام — واعتقاده بأنه هو الذى يدعوا له ابو عبد الله الشيعى ، فلذلك لم يستجب لنصيحة اصحابه بقتل المهدى ، واطلقه مع من اشتبه فيهم من الاسرى لينجو بنفسه . ومنهم (53) من ذهب الى أن اليسع قتل المهدى قبل هربه « وأن الشعيى حين اقتحم المدينة فى صبيحة اليوم التالى ، وجد المهدى مقتولا وعنده رجل من أصحابه كان يخدمه — قيل انه يهودى (54) — فخاف ابو عبد الله أن تنتقض عليه كتامة ورجاله ، فأخرج الرجل الى العساكر وقال هذا هو المهدى » . وقد تصدى مأمور لتجريح هذه الرواية على أساس عداء ابن خلكان للفاطميين . وساق فى ذلك عددا من الادلة (55) . ومع

---

(46) اليمانى : ص 123 ، شرح الاخبار ص 33 .

(47) افتتاح الدعوة ص 45 ، ابن الاثير : ج 8 ص 16 ، ابن خلدون : ج 3 ص 364 ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص 90 ، المنصورى : زبدة الفكرة ج 5 ورقة 161 ، الباجى المسعودى ص 37 .

(48) ابن خلدون : ج 3 ص 364 ، النويرى : ج 26 ورقة 32 .

(49) انظر : Vonderheyden : Op. Cit. P. 305.

(50) افتتاح الدعوة ص 45 .

(51) افتتاح الدعوة ص 45 ، ابن الاثير : ج 8 ص 16 ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص 290 .

(52) انظر : شرح الاخبار ص 33 ، اليمانى : ص 124 .

(53) انظر : ابن خلكان : ج 1 ص 272 ، سعيد بن بطريق : ص 78 ، النويرى : ج 26 ورقة 33 ، الخزرجى : ورقة 42 .

(54) مجهول : الاستبصار ص 167 .

(55) هاك موجزا لهذه الادلة :

1) أن عبيد الله المهدى لم يسجن فى سجن المدينة ، وانما أودع فى بيت مريم ابنة الامير المدرارى . =

ذلك لا تزال مسألة مصير المهدى من مشكلات التاريخ الاسلامى . والحاصل — وفقا لغالبية المصادر — ان اليسع بن مدرار غادر سجلماسة سرا مع اهله وذويه لائذا بصنهاجة فى جوف الصحراء (56) ، بينما شغل ابو عبد الله الشيعى عنه — الى حين — بتحرير المهدى .

ولدينا روايتان أيضا عن كيفية تحرير المهدى ، احداهما (57) ترجح قدوم المهدى الى داعيته فى مقره خارج المدينة والتقائه به ، والأخرى (58) ، تذهب الى أن أهل سجلماسة خرجوا فى الصباح الى الشيعى وأخبروه بهروب اليسع ، وارشدوه الى مكان المهدى والقائم ، حيث أطلق سراحهما .

= 2) كان المهدى معروفا لدى أهل سجلماسة ، ولو كان قد قتل ونادى الشيعى بامامة غيره لكشفوا عن هذا الزيف .

3) لم يدخل الشيعى بنفسه لتحرير المهدى ، وانما قدم المهدى اليه على ظهر حصان .

4) من الصعب ان ينصب الشيعى بديلا عن المهدى وهو برفقة قواده واصحابه وسائر اتباعــه .

5) لم يكن تنصيب البديل للمهدى امرا ممكنا فى وجود ابنه ابى القاسم الذى كان على قيد الحيــاة .

6) لو حدث ذلك ، لما لاذ ابو القاسم بالصمت لان الدعاة فى سائر الامصار والذين عرفوا المهدى ما كانوا ليسكتوا عن كشف تلك الخدعة .

7) ولو فرض وتغاضى ابو القاسم عن الامر ، وأن الشيعى لم يكن يعرف شخص المهدى ، فلابد وأن أمرا غريبا كان سيحدث عند لقاء المهدى المزعــوم بابى العباس — اخ الشيعى — وام عبيدة الله المهدى اللذين كانا برقادة .

8) لو أن اليســع قتل المهدى حقيقة لكان قد اشاع الخبر اثناء هربه بين قبائل الصحراء من قبيل التشفى والانتقام .

9) اذا كان هناك ثمة ما يشكك فى أصله غير كونه ينتمى الى على وفاطمة ، لاتخذه الشيعى وأخوه سندا لهما خلال الشهور السبعة التى تآمرا خلالها على المهدى ، فكل ما فاها به آنئذ انه ليس الامام .

10) اجماع المؤرخين على أن ابا القاسم ابنه خلفه بعد وفاته .

11) كان للمهدى اصدقاء ورفاق فى سائر بلاد المشرق والمغرب ، فضلا من عدد مــن الرسل والدعاة بكافة ارجاء العالم الاسلامى فلو انه قتل حقا لاشاع هــؤلاء وأولئك الامر واصبح معروفا لدى المعاصرين . وعلى ذلك ، فان رواية ابن خلكان لا أساس لها من الصدق

انظر :

Momour : Polemics on the origin of the fatimi caliphs. P.P 115, 16, 17.

(56) اليمانى : ص 126 ، افتتاح الدعوة ص 45 .

(57) اليمانى : ص 125 ، الدرجينى : جـ 1 ورقة 42

(58) انظر : افتتاح الدعوة ص 45 ابن الاثير : جـ 8 ص 16 ، ابن عذارى : جـ 1 ص 210 ، ابن حماد : اخبار ملوك بنى عبيد ص 9 ، ابو الفدا : جـ 2 ص 65 ، الاستبصار ص 204 ، ابن خلدون : جـ 3 ص 364 والنويرى : جـ 26 ورقة 32 ، ابن ابى دينار : ص 49 ، العينى : جـ 15 ورقة 154 .

وايا ما كان الامر ، فبعد تحرير المهدى والاحتفاء به ، انفذت الخيل فى اثر اليسع بن مدرار ، وذكر ابن عذارى (59) أن قوما من البربر — يعرفون ببنى خالد — قبضوا عليه وسلموه الى أبى عبد الله الشيعى تقربا اليه .

وسيق اليسع الى المهدى حيث عذب وشهر به فى سجلماسة هو ومن معه ، ثم امر المهدى بقتلهم جميعا ، فقتلوا (60) . وصادر المهدى أموال بنى مدرار (61)، ونهبت كتامة المدينة، وأرغم غالب سكانها على مبارحتها (62) ولم تجد نفعا توسلات شيوخها الى المهدى ليكف رجاله أيديهم عنهم (63) . ولقى اليهود — بصفة خاصة — على أيدى المهدى ورجاله عنتا شديدا ، فتعرضوا لشتى انواع العذاب اعتقادا بأن لهم يدا فى الوقيعة بين المهدى واليسع بن مدرار ، فقتل اثرياؤهم ونهبت أموالهم ، وأرغم من بقى منهم على احتراف المهن الوضيعة (64) . ثم أمر المهدى باحراق سجلماسة فاضرمت فيها النيران (65) .

وغادر المهدى سجلماسة الى رقادة فى ربيع الاخــر سنة 297 هـ (909 م) بعد ان بويع بالخلافة فيها (66) ، وبعد أن عين عليها واليا من

---

(59) البيان المغرب ج 1 ص 211 ، 212 .

(60) اليمانى : ص 131 ، شرح الاخبار ص 33 ، ابن الاثير : ج 8 ص 16 ، ابن خلدون : ج 3 ص 364 ، النويــرى : ج 26 ورقــة 33 ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص 91 .

(61) اليمانى : ص 129 ، 130 ، الخزرجى : ورقة 42 .

(62) مجهول : الاستبصار ص 204 .

(63) اليمانى : ص 130 .

(64) الاستبصار ص 202 .

(65) ابن عذارى : ج 1 ص 210 ، Biquet : Op. Cit. P. 71

(66) ابن غلبون : التذكار ص 18 ، وثمة رواية تقول بانه بويع فى رقادة وليس فى سجلماسة انظر : ابن الابار : ج 1 ص 191 ، النويرى : ج 26 ورقة 31 ، Hassan Ibrahim : Relations between the Fatimids P. 51.

ونعتقد أنه بويع بسجلماسة اولا ، ثم بويع بعد ذلك ببيعة عامة فى رقادة . والواقع ان اقدم عملة وصلتنا عن المهدى مؤرخة بسنة 297 هـ . وخالية من ذكر المدينة التى ضربت بها . كما انها خلو ايضا من ذكر لقب « أمير المؤمنين » الذى نجده على عملة أخرى ضربت بالقيروان سنة 300 هـ .

وهاك صورة للدينار الذى ضرب سنة 297 هـ :

الوجه : لا اله الا الله وحده لا شريك له (فراغ)

الوجه الاخر : لله — محمد رسول الله — المهدى

دائرى : بسم الله ضرب هذا الدينر سنة سبع وتسعين ومئتين (فراغ)

انظر Lane-Poole : Catalogue of the collection of Arabic coins pressente in the khedivial library P. 148.

اما الدينار الذى ضرب بالقيروان سنة 300 هـ فصورته على الوجه التالى :

الوجه : عبد الله — لا اله الا الله وحده — لا شريك له — أمير المؤمنين

دائرى : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . =

تبلـــه (67) .

وهكذا سقطت دولة بنـــى مدرار على يد الفاطميين سنـــة 297 هـ (909 م) ، بعد انتصار كتامة على مكناسة ، وتغلب البرانس على البتر ، وهزيمة الخوارج على أيدى الشيعة .

= الوجه الاخر : الامام ــ محمد ــ رسول ــ الله ــ المهدى بالله .
دائرى : بسم الله ضرب هذا الدينر بالقيروان سنة ثلث ميه
انظر : Lane-Poole : Catalogue of oriental coins in the British museum : Vol. 4. P. 2.

(67) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص 91 ، ابو الفداء : ج 2 ص 65 .

ب - ثورات الصفرية على الحكم الفاطمى :

اندلعت ثورات الصفرية فى سجلماسة على اثر رحيل المهدى منها الى رقادة سنة 297 هـ (909 م) ولم تفلح سياسة القمع والعنف التى لجأ اليها الفاطميون بانفاذ حملاتهم الفينة بعد الاخرى الى سجلماسة ، ولا سياسة اللين والدهاء باصطناع بعض افراد البيت المدرارى وتنصيبهم ولاة يحكمون باسمهم ، فى دعم النفوذ الفاطمى فى تلك الانحاء وتحويل البربر الصفرية عن ولائهم لبنى مدرار .

فقد تضافرت عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية ومذهبية وجغرافية لتزيد فى عداء الخوارج الصفرية للحكم الفاطمى الشيعى واستمرار ثوراتهم عليه . فمن الناحية السياسية ، لم يرضخ الخوارج الصفرية لولاة الفاطميين بعد أن الفوا الاستقلال السياسى فى كنف دولة بنى مدرار لما يزيد على قرن ونصف قرن من الزمان وبديهى — وقد تأصلت فيهم نزعة الاستقلال — أن يرفضوا الاذعان لحكم ولاة غرباء ، تسندهم حاميات من الجند الكتامى (68) . ولا ريب فى أن الظروف السياسية فى بلاد المغرب وتتذاك ساعدت على تفاقم هذه الثورات ، فقد شغل الفاطميون بمواجهة المشكلات العديدة التى واكبت قيام دولتهم عن الاهتمام بدعم نفوذهم فى سجلماسة بأقاصى الصحراء .

ولعل من اهم هذه المشكلات احتدام الصراع بين المهدى وابى عبد الله الشيعى ، وما سببه اغتيال الشيعى من خلاف كتامة على المهدى وثورتهم عليه ، وما تجشمه الاخير من مشاق لقمع هذه الثورة (69) . ومن ناحية

---

(68) البكرى : ص 150 .

(69) ابن خلدون : ج 4 ص 78 .

أخرى تضعضع النفوذ الفاطمى فى المغرب الاقصى باستمالة عبد الرحمن الناصر الاندلسى لمغراوة وبنى يفرن الذين الحقوا عدة هزائم بالجيوش الفاطمية سنة 312 هـ (924 م)، 314 هـ (926 م) (70)، كما استولت جيوشه على مليلة وسبتة — من موانى المغرب الاقصى — سنة 314 هـ (926 م) وسنة 319 هـ (931 م) على التوالى ، ودخل موسى بن ابى العافية امير فاس فى طاعته وعمل على « استمالة اهل العدوة المجاورين له » (71) . وبذلك اصبح الجزء الاعظم من شمال المغرب الاقصى ومساحات شاسعة بالمغرب الاوسط بمنأى عن سيادة الفاطميين ، وظل النفوذ الاموى قائما بالمغرب الاقصى حتى سقوط الخلافة الاموية بالاندلس . واذا كنا لا نجد من الشواهد والقرائن ما ينم عن تضامن الصفرية فى المغرب مع اموى الاندلس بعد سقوط دولة بنى مدرار سنة 297 هـ (909 م) ، فان تغلغل النفوذ الاندلسى فى المغرب الاقصى مكن من اندلاع ثورات الصفرية بسجلماسة على الحكم الفاطمى .

وكانت سياسة الفاطميين الاقتصادية الجائرة من اهم الدوافع لقيام هذه الثورات ، فقد انتهج الفاطميون سياسة مالية متعسفة ، وما لبث المهدى أن تخلى عن سياسة داعيته ابى عبد الله الشيعى المعتدلة (72) ، فاستولى على « اموال الاحباس والحصون » (73) ، واشتط فى جمع الضرائب وتفنن فى زيادتها (74) . وقد تعرضت سجلماسة للسلب والنهب على يد رجاله ، كما كانت ثروات اهلها ، ومناجمها الغنية بالفضة مطمعا لجيوشه . وقيل ان المهدى « تحصل من التبر ومن الحلى وقرمائة وعشرين جملا ادخلها رقادة » (75) .

ومما دفع صفرية سجلماسة الى الثورة ايضا اصرار الفاطميين على نشر المذهب الشيعى ، فقد ذكر ابن عذارى (76) أن المهدى « اظهر التشيع القبيح وسب أصحاب النبى وأزواجه .. ومنع الفقهاء أن يفتى احدهم الا بمذهب زعم أنه مذهب جعفر بن محمد ، منه سقوط الحنث عمن طلق

---

(70) ابن عذارى : جـ 1 ص 266 ، 269 .
(71) نفسه جـ 1 ص 283 .
(72) نفسه ص 191 ، 192 .
(73) سعيد بن مقديش : ص 123 .
(74) ابن حيون : المجالس والمسايرات جـ 1 ورقة 28 . مخطوط .
(75) الاستبصار ص 204 .
(76) البيان المغرب جـ 1 ص 220 .

بالنية ، واحاطة البنات بالميراث ومدحت الشعراء عبيد الله بالكفر فاستجازه » . ومع ما انطوى عليه قول ابن عذارى من مبالغة ، فالثابت أن المهدى عمد الى نشر مذهبه بحد السيف (77) ، وغير من النظم والاحكام بما يتمشى وتعاليم المذهب الاسماعيلى . وبديهى أن يفزع صفرية سجلماسة من هذه السياسة الدينية حتى ليذهب داشراوى (78) الى أن حركة الشاكر لله سنة 332 هـ (945 م) قامت اساسا لمناهضة سياسة الفاطميين الدينية . ولا مراء فى أن الصفرية من الخوارج فضلا عن عدائهم المقيت للشيعة ، نظروا فى انكار وريبة الى سياسة الفاطميين الدينية فاعتقدوا انهم « يدفعون نبوة محمد (ص) ويدعون النبوة بعده ، ويدعون سنته وشريعته ويدعون الى غيرها » (79) . بل ارتبطت العقائد الاسماعيلية فى تصورهم بالخرافات والاساطير فاعتقدوا انهم « يعبدون رأسا عندهم يكلمهم ويسجدون له من دون الله ، وأن هذا الراس ينثر من فيه الدنانير » (80) . ولما كان الصفرية من اكثر فرق الخوارج تطرفا فى محاربة مخالفيهم ، فلم يتوانوا عن الجهر بعدواتهم للفاطميين ، والتمرد على احكامهم ، ومناهضة عمالهم .

وقد كان تعصب الفاطميين لكتامة وصنهاجة واختصاصهم بالمناصب العليا فى دولتهم سببا فى تعميق عدواة مكناسة الصفرية لهم ، فقد اثاروا بسياستهم تلك الصراع بين البربر وبرانسا (81) ، اذ لا يخفى أن غالبية صفرية المغرب كانوا من البربر البتر من مكناسة وزناتة وغيرها ، بينما قامت دولة الفاطميين بالمغرب على اكتاف كتامة من قبائل البرانس ، ومن ثم لم يكن من المقبول أن يرضخ صفرية سجلماسة لوالى المهدى من كتامة وحاميته النى بلغت خمسمائة فارس من رجالات كتامة ايضا (82) .

ولا شك فى ان الظروف الجغرافية ايضا ساعدت صفرية سجلماسة

---

(77) ابن خلدون : جـ 1 ص 131 .

(78) La captivite d'Ibn Wasul. P. 296.

(79) ابن حيون : المجالس والمسايرات جـ 1 ورقة 358 . ولعل السبب فى ذلك يرجع الى ان الفاطميين ــ كما يذهب الدكتور محمد كامل حسين ــ « كانوا يميلون الى صبغ البلاد كلها بصبغة مذهبهم ، احيانا بالترغيب واحيانا بالترهيب ، فكان الدعاة يؤدون واجبهم فى تشكيك المسلمين فى مذاهبهم ، ويحببون اليهم المذهب الفاطمى » .. انظر : فى أدب مصر الفاطمية ص 130 .

(80) ابن حيون : المرجع السابق ورقة 361 .

(81) نفسه ورقة 26 ، Drague : Op. Cit. P. 25.

(82) ابن عذارى : جـ 1 ص 213 .

على القيام بثوراتهم ، فكانت مدينتهم فى اقاصى الصحراء (83) ، والطرق الموصلة اليها من افريقية وعرة . لذا تقاعس الجند الفاطمى عن التوجه لقمع تلك الثورات . ويخبرنا ابن حيون (84) أن الكتاميين كانوا يتثاقلون عن القيام بهذه المهام متذرعين ببعد سجلماسة ومشاق الطريق اليها رغم ما كان يبذله الائمة لهم من وفير العطاء ومعسول الوعود .

قصارى القوى ، ان اشتطاط الفاطميين فى سياستهم الاقتصادية ، وتعصبهم المذهبى واحيائهم النعرات القبلية ، وملائمة الظروف السياسية والجغرافية فى المغرب الاقصى ، كل هذه العوامل دفعت الصفرية الى الثورة على الحكم الفاطمى ونبذ مذهبهم الاسماعيلى ، والتشبث بالولاء لآل مدرار .

والواقع ان حكم الاسرة المدرارية لم يختف بعد مقتل اليسع بن مدرار سنة 297 هـ (909 م) كما اعتقد بعض المؤرخين (85) وانما ظل قائما فى سجلماسة متأرجحا بين الولاء والعداء للفاطميين ، واذا كان الفاطميون قد افلحوا احيانا فى استمالة بعض افراد البيت المدرارى والاغداق عليهم وتنصيبهم ولاة من قبلهم ، فان معظم المدراريين ثاروا على الفاطميين ورفضوا الاذعان لحكمهم واستقلوا بأمر سجلماسة عن نفوذهم .

فبعد مقتل اليسع بن مدرار سنة 297 هـ (909 م) ، ولى عبيد الله المهدى على سجلماسة قائده ابراهيم بن غالب المزاتى . وترك معه خمسمائة فارس من كتامة (86) . وما أن قفل المهدى متوجها الى رقادة حتى ثار الصفرية عليه وقتلوه (87) هو وجنده فى نفس العام (88) . وبايعوا الفتح بن ميمون الملقب بواسول من بنى مدرار . ولم يستطع المهدى استعادة نفوذه على سجلماسة لانشغاله بمواجهة الاضطرابات فى افريقية بعد اغتيال ابى عبد الله الشيعى، فاستقر الامر للفتح بن ميمون « تحت تقية من مطالبة

---

(83) المراكشى : المعجب ص 357 .
(84) المجالس والمسايرات ج 1 ورقة 26 .
(85) انظر : ابو الفدا : ج 1 ص 66 ، ابن ابى دينار : ص 50 .
(86) ابن عذارى : ج 1 ص 213 .
(87) البكرى : ص 150 .
(88) ابن عذارى : ج 1 ص 214 . قتل ابرهيم بن غالب المزاتى سنة 297 هـ وليس 298 هـ كماذهب ابن خلدون وابن الخطيب
انظر : العبر ج 6 ص 131 ، اعمال الاعلام ج 3 ص 145 .

الشيعى » (89) .

ولما مات الفتح سنة 300 هـ (912 م) بايع الصفرية اخاه احمد بن ميمون ، فانفرد بالسلطة تسعة اعوام بمناى عن نفوذ المهدى . وفى سنة 309 هـ (922 م) انفذ المهدى قائده مصالة بن حبوس لدعم سلطانه فى المغرب الاقصى (90) ، فدخل سجلماسة عنوة « واخذ اهلها بالدعوة الشيعية » (91) وقبض على احمد بن ميمون وقتله ، وبعث برأسه الى المهدى (92) ، وحاول استرضاء الصفرية بابقاء الحكم المدرارى ، فلم يعين عليهم واليا من قبله ، بل اصطنع المعتز بن محمد بن سارو بن مدرار — وهو ابن عم احمد بن ميمون — ونصبه واليا عليهم من قبل المهدى « ليأمن جانبهم » (93) . وقد نجحت هذه السياسة — الى حين — فى الحفاظ على النفوذ الاسمى للفاطميين (94) فى سجلماسة ، فظل المعتز بن محمد على ولائه للفاطميين حتى وفاته سنة 321 هـ (934 م) وذلك على عكس رواية ابن خلدون (95) القائلة باستبداده بالأمر من دون الفاطميين . فقد كان ابنه وخليفته محمد الملقب بأبى المنتصر الذى حكم عشر سنوات (96) ، وكذلك حفيده المنتصر سمكو بن محمد الذى حكم شهرين على ولائهما لسلطان الفاطميين (97) .

على أن سياسة الولاء للفاطميين لم تلبث أن تعثرت سنة 332 هـ (945 م) فانتهز محمد بن الفتح بن ميمون — ابن عم المنتصر سمكو — فرصة ضعف ابن عمه الطفل (98) ، وانشغال الفاطميين بثورة ابى يزيد مخلد بن كيداد ، واغتصب الحكم فطرد ابن عمه خارج سجلماسة ودعى لنفسه

---

(89) اخطأ ابن خلدون — ومن نقل عنه — حين زعم ان الفتح بن ميمون كان اباضيا . انظر : العبر ج 6 ص 131 ، السلاوى ج 1 ص 113 .
(90) ابن الخطيب : المرجع السابق ص 146 .
(91) البكرى : ص 150 ، ابن خلدون . ج 6 ص 131 ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 3 ص 46 ، التلقشندى : ج 5 ص 166 .
(92) ابن خلدون : المرجع السابق ص 131 .
(93) البكرى : ص 150 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 146 .
(94) ابن الخطيب : نفس المصدر والصحيفة .
(95) العبر ج 6 ص 131 .
(96) اسقط البكرى حكم هذا الامير . انظر : المغرب ص 151 .
(97) ابن حيون : المجالس والمسايرات ج 1 ورقة 296 . وقد خالف ابن الخطيب سائر المؤرخين فذكر أن المنتصر سمكو اخ محمد بن المعتز وليس ابنه . انظر : اعمال الاعلام ج 3 ص 146 .
(98) البكرى : ص 151 ، ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 146 ، التلقشندى : ج 5 ص 167 ، السلاوى : ج 1 ص 113 .

وخلع طاعة الفاطميين (99) ، كما ضرب السكة باسمه وتلقب بالشاكر لله (100) .

على ان بعض المؤرخين (101) ذهبو الى أن الشاكر لله « أخذ بمذاهب أهل السنة ورفض الخارجية ونادى بالدعوة لبنى العباس » . وغالى البعض (102) الآخر فقال بأنه « كان سنيا على مذهب المالكية » . ونعتقد ان حركة الشاكر لله كانت حركة خارجية صفرية خالصة، تمثل رد الفعل الصفرى ضد الحكم الفاطمى ، فهى تماثل فى هذا السبيل وتعاصر حركة أبى يزيد مخلد بن كيداد الاباضى . ويبدو أن مؤرخى السنة تجاهلوا هذا الامر عن عمد انكارا لفضل الخوارج فى قيادة حركات المقاومة ضد الشيعة ، أو أن الامر التبس عليهم خاصة وأن ابا يزيد قد استنفر السنة فى المغرب للانضمام لحركته (103) ، كما « دعى الشاكر لنفسه مموها بالدعاء لبنى العباس » (104) حتى يؤازره السنة بالمغرب . ومن المستبعد أن يكون الشاكر لله قد تخلى عن المذهب الصفرى واعتنق المذهب المالكى للدخول فى طاعة الخلافة العباسية لان الشاكر لله لم يكن يطمع فى مؤازرة الخلافة العباسية لحركته خاصة وقد زال نفوذها كلية من بلاد المغرب بعد سقوط دولة الاغالبة . ولم يكن بمقدور بنى العباس مناجزة الفاطميين ببلاد المغرب

---

(99) البكرى : ص 151 ، ابن خلدون : ج 6 ص 131 .

(100) اخطأ ابن خلدون ومن نقل عنه فى تلقيبه (بالشاكر بالله) انظر : العبر ج 6 ص 131 ، السلاوى : ج 1 ص 113 . فالصحيح ما ورد بعملته الذهبية والفضية حيث لقب « بالشاكر لله » وهاك صورة الدينار ضرب فى عهده .
كتابة دائرية : بسم الله ضرب هذا الدينر سنة ست وثلثين وثلثمائة.
الوجه الاول الامام — محمد — رسول الله — الشاكر لله .
ويتشكك لافوا فى اتخاذه لقب « أمير المؤمنين » ويذكر انه اكتفى بلقب « امام » لان العملة خلو من ذلك . انظر : Catalogue ... P. 401, 402.
لكن شكوك لافوا لا سبيل لصحتها ، فنجد على دينار ضربه الشاكر لله سنة 245 هـ لقب أمير المؤمنين . وهاك صورته :
الوجه : عبد الله — لا اله الا — الله وحده — لا شريك له — امير المؤمنين
(فراغ غامض)
الوجه الاخر : الامام — محمد رسول الله —الشاكر لله
بسم الله ضرب هذا الدينر سنة خمس واربعين وثلثمائة .
انظر : Lane-Poole : Catalogue of the collection of the Arabic coins presented in the khedivial liberary P. 328.

(101) انظر : ابن خلدون : ج 6 ص 132 ، السلاوى ج 1 ص 113 ؛ الخزرجى : ورقة 47 Bel : Op. Cit. P. 168.

(102) انظر : البكرى ص 151 .

(103) الدباغ : ج 2 ص 185 .

(104) القلقشندى : ج 5 ص 167 .

وتعضيد الحركات المناوئة لهم لبعد المسافة ، ولضعفهم فى العصر العباسى الثانى وخضوعهم لنفوذ الترك . ولو ان الشاكر لله دعى للخلافة العباسية حقا ، لما دعى « لنفسه بالخلافة وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالشاكر لله » (105) وضرب العملة باسمه (106) . ولو كان ينشد التبعية لقوة مناوئة للفاطميين ، لاعلن تبعيته لأموى الاندلس أصدقاء الاسرة المدرارية ، واصحاب النفوذ الفعلى على اغلب جهات المغرب الاقصى . أغلب الظن ان الشاكر لله تشبه بمعاصره الاباضى النكارى ابى يزيد مخلد بن كيداد فى محاولة استمالة السنة بالمغرب وتعضيدهم لحركته ليس الا .

على كل حال — نجح الشاكر لله — بحسن سيرته — (107) وتعصبه لمذهبه وتفقهه فيه « وظنه أن ليس الحق الا ما انتهى اليه » (108) ، فى جمع شمل الصفرية تحت لوائه والانفصال بسجلماسة عن طاعة الفاطميين ويبدو انه فكر فى بسط نفوذه على بعض نواحى المغرب الاقصى ، فحاول غزو امارة نكور سنة 340 هـ (953 م) لكن الصفرية لم يجيبوه الى ذلك وقنعوا باستقلالهم السياسى وحريتهم الدينية محجمين عن الدخول فى مشروعات توسعية (109) . وقد نعم الصفرية فى عهده بالاستقرار والرخاء، اذ نعلم ان العدل ساد بسجلماسة ابان حكمه ، كما كانت عملته «طيبة للغاية » على حد قول السلاوى (110) .

وظل الشاكر لله فى مأمن من الخطر الفاطمى طوال عهد المنصور الذى انصرف لدرء ثورة ابى يزيد فى افريقية ، تلك الثورة التى هددت بالقضاء على دولته . ولما ولى المعز الخلافة سنة 341 هـ (954 م) حاول تاديب امير سجلماسة المدرارى ، فاستنفر كتامة للقيام بتلك المهمة دون طائل ، فقد تثاقلوا عن الخروج متذرعين بمشاق الطريق وبعد المسافة (111) ويبدو أن تغاضى المعز عن ثوار سجلماسة شجع عماله فى المغرب الاقصى

---

(105) ابن الخطيب : اعمال الاعلام جـ 3 ص 148 .

(106) انظر : Lavoix : op : cit. P. 401.

(107) ابن الخطيب : المرجع السابق ص 148 .

(108) ابن حيون : المجالس والمسايرات جـ 1 ورقة 369 ، جـ 2 ورقة 399 .

(109) ابن حوقل : المسالك والممالك ص 57 .

(110) الاستقصا جـ 1 ص 119 . يؤكد ذلك ان العملة التى ضربها سنة 336 هـ كان وزنها كالاتى : D. 19 mm. P. 3 gr 90
والتى ضربها سنة 340 هـ كان وزنها D. 21 mm P. 49 gr 10.
Lavoix : P.P. 401, 402.

(111) ابن حيون : المرجع السابق جـ 1 ورقة 26 .

على شق عصا الطاعة والدخول فى طاعة عبد الرحمن الناصر كما فعل يعلى بن محمد اليفرينى (112) بافكان — بشمال غربى تاهرت — واحمد بن بكر الجذامى امير فاس (113) ودفعه ذلك الى اعداد حملة هائلة لاستعادة نفوذه المفقود فى بلاد المغرب الاقصى سنة 347 هـ (960 م) (114).

وقد عهد المعز الى قائده جوهر الصقلى بقيادة تلك الحملة التى حشد لها اعدادا غفيرة من كتامة (115) وصنهاجة (116) والاولياء (117)، فضلا عن عبيده وغلمانه (118) · واجتمع برؤسائهم وحضهم على الاستماتة فى القتال واعدا اياهم بحسن المثوبة منعما عليهم بجزيل العطاء (119) · ومضى جوهر الى سجلماسة وبعث الى اهلها بالقبض على الشاكر لله وتسليمه، على ان يبذل لهم الامان، دون طائل (120). فضرب الحصار حول المدينة (121) طيلة شهور ثلاثة (122) تمكن الشاكر اثناءها من الهرب بأمواله وذويه وخاصته، ونزل بحصن منيع يعرف بتاسجدلت (123) على بعد اثنى عشر ميلا من سجلماسة (124).

ودخل جوهر المدينة دون مقاومة، واصدر عفوا عاما عن اهلها (125) ليكسب جانبهم وتسلل الشاكر لله الى المدينة فى محاولة لتأليب اتباعه على القائد الفاطمى واسترداد نفوذه، لكن رجلا من مطغرة تربص به وسلمه الى جوهر، فعاد به اسيرا الى القيروان (126) بعد أن عين على سجلماسة

---

(112) ابن خلدون : العبر ج 4 ص 96 ·
(113) ابن حيون : المرجع السابق ج 1 ورقة 22، السلاوى : ج 1 ص 197 ·
Lavoix : Op. Cit. P. 402
(114) ابن حيون نفس المصدر ورقة 25،
(115) ابن حيون نفس المصدر ورقة 31 ·
(116) ابن خلدون : ج 6 ص 132 ·
(117) هم اتباع ابى يزيد مخلد بن كيداد الذين اذعنوا بالطاعة للفاطميين واغلبهم من بنى كملان . انظر : ابن حيون المرجع السابق ورقة 32 .
(118) الشطيبى : الجمان ورقة 197 ·
(119) انظر ملحق رقم 6 ·
(120) ابن حيون : المرجع السابق ورقة 296 ·
(121) الشطيبى : المرجع السابق ورقة 197 ·
(122) ابن الخطيب : ج 3 ص 148 ·
(123) نفس المصدر والصحيفة · ويسميه ابن خلدون « حصن تاسكرات » انظر : العبر ج 6 ص 132 ·
(124) البكرى : 151 ·
(125) ابن حيون : المجالس والمسايرات ج 1 ورقة 296 ·
(126) البكرى : ص 151، ابن خلدون : ج 6 ص 132، ابن الخطيب : ج 3 ص 149، القلقشندى : ج 5 ص 167، السلاوى : ج 1 ص 114، الشطيبى : الجمان ورقة 197 ·

واليا من قبله سنة 347 هـ (960 م) (127) .

وابتهج المعز بانتصارات قائده جوهر واسترداد سجلماسة وغيرها من مدن المغرب الاقصى التى تمردت عليه ، فطير مزهوا انباءها الى الدعاة الاسماعيلية فى الشرق (128) . وآثر المعز الابقاء على حياة الشاكر لله بعد ان شهر به بين أهل القيروان (129) ، فظل مُعتقلا فى سقيفة قصره زمنا (130) . ثم نقل الى رقادة وظل سجينا بها حتى وفاته سنة 354 هـ (967 م) (131) .

ولم تفلح سياسة اللين والتسامح التى اتبعها المعز وقائده جوهر سواء فى معاملة الشاكر لله او فى العفو عن أهل سجلماسة فى جذبهم لموالاة الفاطميين . فالعداء المذهبى المتأصل وتعلق الصفرية بالاستقلال السياسى وبالبيت المدرارى حال دون تحقيق ذلك . فقد تكرر ما حدث على اثر مغادرة المهدى جوهر سجلماسة سنة 297 هـ (909 م) ، اذ ثار صفرية سجلماسة على الوالى الفاطمى واردوه قتيلا ونصبوا عليهم احد ابناء الشاكر لله ولقبوه بالمنتصر لله (132) .

ولكى لا يتعرضوا لطائلة الانتقام ، بادروا فانفذوا رسلهم الى المعز معلنين الابقاء على طاعته والولاء له . ولاذ المعز بالعافية قانعا بولائهم الاسمى له . وطلب الى شيوخهم القدوم اليه برفقة المنتصر لله ، فأجابوه الى طلبه . وقد اورد ابن حيون (133) تفصيلات مستفيضة عن لقاء شيوخ سجلماسة بالمعز وعفوه عنهم ، واقراره المنتصر على الولاية وخلعه عليهم واغداقه على مرافقيه . ومع ذلك لم يستتب الامر للمعز فى سجلماسة ، ولم ينعم صنيعته المدرارى بالحكم طويلا ، فنزعة الاستقلال والكراهية للفاطميين كانت من وراء الثورة التى قام بها اخ للمنتصر — ويدعى أبا محمد — على اخيه وقتله وقيامه بالامر مكانه وتلقبه بالمعتز لله ، واعلانه الخروج عن طاعة الفاطميين سنة 352 هـ (965 م) (134) .

---

(127) ابن حيون : المجالس والمسايرات ج 2 ورقة 296 .
(128) نفس المصدر ورقة 332 .
(129) نفس المصدر ورقة 364 ، 365 .
(130) ابن حيون : نفس المصدر والصحيفة ، Dachraoui : Op. Cit. P. 299.
(131) ابن الخطيب : ج 3 ص 149 .
(132) ابن خلدون : ج 6 ص 132 ، والسلاوى : ج 1 ص 114 . القلقشندى : ج 5 ص 167 .
(133) انظر : ملحق رقم (7) .
(134) ابن خلدون : ج 6 ص 132 ، السلاوى : ج 1 ص 114 القلقشندى : ج 5 ص 167 .

وزال نفوذ الفاطميين نهائيا على سجلماسة منذ ذلك الحين . كما ذوى شأن مكناسة والصفرية ايضا سنة 396 هـ (979 م) لما زحف خرزون ابن فلفول المغراوى الى سجلماسة وقتل ابا محمد المعتز وبعث براسه الى قرطبة . وآلت سجلماسة بذلك الى التبعية لاموى الاندلس « وانقرض امر بنى مدرار ومكناسة من المغرب اجمع ، وادال منهم بمغراوة وبنى يفرن » (135) .

وهكذا ــ لم يستسلم الصفرية للحكم الفاطمى ، ولم تجد نفعا سياسة الفاطميين المتارجحة بين اللين والعنف فى دعم نفوذهم فى سجلماسة معقل الخوارج الصفرية فى المغرب .

(135) نفس المصادر والصفحات ، Bel : Op. Cit. P. 169.

ثانيا :

الاباضية والفاطميون

أ ـ الفاطميون وسقوط دولة بني رستم

سقطت تاهرت فى يد ابى عبد الله الشيعى سنة 297 هـ (909 م) دون قتال ، وذلك لبلوغ الدولة الرستمية فى عصرها الاخير ذروة الضعف والاضمحلال وقد سبق أن اوضحنا مظاهر الفوضى السياسية التى ترددت فيها تاهرت ، من تدهور هيبة الامامة وتضعضع نفوذ الائمة بعد تحكم رعاع العاصمة فى تعيين الائمة وعزلهم ، وارتفاع شأن الفرق والطوائف المذهبية غير الاباضية ، وتدخلها فى شؤون السياسة والحكم وعمالتها لقوى اجنبية بقصد اسقاط الاسرة الرستمية والوثوب على السلطة فى تاهرت . ثم ظهور نفوذ البلاط ونساء الاسرة الرستمية وسيطرتهم على الائمة ، وتطاول عمال الائمة وحراسهم وخدمهم على الرعية فنهبوا الاموال واغتصبوا الحرائر . بالاضافة الى صراع افراد البيت الرستمى حول الامامة وتكالبهم على الظفر بها ، فلم يتورعوا عن تدبير المكائد والمؤامرات من بعضهم البعض وراح بعضهم ضحية هذا الصراع ، وافضى ذلك كله الى انهيار العصبية الرستمية « وبانهيارها شاخت الدولة وهرمت » (136) . هذا الى انحلال

(136) ابن خلدون : المقدمة ص 168 .

نظم الحكم والادارة وضعف الروح العسكرية ، وتراخى قبضة الائمة على اجنادهم فلجأوا الى « استعمال الدرهم والدينار ، بدل الرمح والسنان (137) وترتب على ذلك كله انهيار المجتمع الرستمى واضطراب الامن ، وهو ما عبر عنه ابن الصغير بقوله: « وكان البلد قد فسد ، وفسد اهلها .. واتخذوا للمسكر اسواقا والغلمان اخوانا » « وعجت الطرق بمناسر اللصوص وخاصة من سفهاء زناتة » (139) .

وفضلا عن ذلك كله ، تعرضت الدولة الرستمية لضربة قاصمة قضت على البقية الباقية من قوتها ، بسبب ما حل بأباضية نفوسة سنة 283 هـ (897 م) من كارثة فى موقعة مانو — قلعة بين قابس وطرابلس (140) — حيث اجهز الاغالبة فيهاعلى جيوش نفوسة (141)، ومن بعدهاعلى اباضية قنطرارة ونفزاوة (142) وحرمت الامامة الرستمية فى ذلك الحين من مصدر قوتها ، اذ كان النفوسيون عصب الدولة وعونا لها على ما واجهها من اخطار . ولا غرو ، فقد حرم ابو اليقظان بن ابى اليقظان — آخر ائمة بنى رستم — من جيش يستطيع به التصدى للخطر الشيعى بعد انقطاع الامداد من جبل نفوسة ، وادى ذلك الى سقوط تاهرت سنة 297 هـ (909 م) .

كانت تاهرت اذن على وشك السقوط ، وكان بوسع ابى عبد الله الشيعى داعية الفاطميين — الذى لا نشك فى انه ارسل بعوثه الى تاهرت تدعو للتشيع — ان يطيح بالحكم الرستمى فى وقت مبكر . غير أنه آثر التريث حتى يفرغ من حروبه مع الاغالبة — اعظم القوى السياسية فى المغرب فى ذلك الحين — فلم يقدم على فتح بلاد المغرب الاوسط والاقصى الا بعد سقوط رقادة عاصمة بنى الاغلب سنة 296 هـ (908 م) .

وبعدها شرع فى غزو سجلماسة لتحرير عبيد الله المهدى ، وعرج فى طريقه اليها على تاهرت فدانت له دون مقاومة .

من هذا يتضح ان تاهرت لم تسقط ابان عهد ابراهيم بن أحمد الاغلبى

---

(137) النفوسى : الازهار الرياضية ج 2 ص 278 .
(138) سيرة الائمة الرستمية ص 55
(139) ابن الصغير : ص 49 .
(140) ابو زكريا : ورقة 33 .
(141) نفس المصدر ورقة 34 .
(142) نفس المصدر والصحيفة .

(261 ــ 289 هـ) (875 ــ 901 م) كما ذكر المؤرخون (143) الذين اجمعوا على ان « أبا عبد الله الشيعى نزل كتامة سنة 280 هـ » وأتاه البربر من كل مكان ، وعظم امره وبلغ امره الى ابراهيم بن احمد الاغلبى ، فاستصغر امر ابى عبد الله واستحقره ، ثم مضى ابو عبد الله الى مدينة تاهرت فعظم شأنه ، واتته القبائل من كل مكان ، وبقى كذلك حتى تولى ابو مضر زيادة الله الاغلبى » . وأن كانت تلك الرواية لا تخل من دلالة على تشيع كثيرين من سكان تاهرت وبعض القبائل الضاربة خارجها قبيل الغزو الشيعى . يؤكد ذلك قول ابن الصغير (144) أن خطباء تاهرت « كانوا على منابرهم لا يستعملون الا خطب امير المؤمنين على بن ابى طالب خلا خطبة التحكيم » . ولا يخفى ما قام به هؤلاء الشيعة من دور هدام فى الاحداث السياسية التى حفل بها العصر الرستمى الاخير ، وهو عصر برزت فيه الطوائف والفرق الدينية غير الاباضية كما سبق أن أوضحنا .

والواقع أن المصادر غير الاباضية لا تمدنا الا بالنذر اليسير عن سقوط دولة بنى رستم ، فلم يرد بها اكثر من ان « ابا عبد الله الشيعى وصل الى تاهرت فدخلها بالامان وقتل من بها من الرستمية ، وبعث برؤوسهم الى اخيه ابى العباس ، وطوفت بالقيروان ونصبت على باب رقادة ثم ولى ابو عبد الله على تاهرت ابا حميد دواس بن صولات اللهيصى وابراهيم بن محمد اليمانى المعروف بالهوارى ، وكان يلقب بالسيد الصغير » (145)

وقد سبق أن اوضحنا كيف اغتيل الامام ابو حاتم يوسف على يد ابناء اخيه سنة 294 هـ (906 م) بالتواطؤ مع يعقوب بن افلح ــ عم الامام ــ المقيم بين زواغة ، وكيف اغتصب احدهم ويدعى اليقظان الامامة . وتمخض هذا الحادث عن مزيد من الاضطرابات فى تاهرت قام بها الحزب المشايع لابى حاتم ، وقد تزعمته ابنته المعروفة « بدوسر » . كما واصلت الطوائف والفرق غير الاباضية ــ من المالكية ــ والواصلية والصفرية والشيعة (146) ــ مؤامراتها على حكم اليقظان بن أبى اليقظان . ونعتقد ان اليقظان نجح فى اخضاع تلك الاحزاب المعارضة لحكمه ، ويبدو أنه

---

(143) انظر : ابو الفدا : ج 2 ص 65 ، ابن ابى دينار : ص 48 ، العينى : ج 5 ورقة 153 ، اطفيش : الامكان : ص 58 .

(144) ابن الصغير : ص 59 .

(145) انظر : البكرى : ص 68 ، ابن عذارى : جـ 1 ص 209 ، 210 ، مارسيه : مادة بنى رستم ' دائرة المعارف الاسلامية ص 93 .

(146) ابو زكريا : ورقة 36 .

استعان بعمه يعقوب بن أفلح وانصاره من السمحية الذين نزحوا الى تاهرت.

وقد فشلت دوسر ابنة ابى حاتم يوسف فى الانتقام من قتلة ابيها ، وخبا أمل الطوائف غير الاباضية فى « تبييت خبر الاباضية » (147) ، فلم يجدوا مناصا من مناشدة ابى عبد الله الشيعى وكتامة — القدوم للقضاء على « امارة الفرس » (148) والراجح أن هذه الاتصالات حدثت قبل فراغ ابى عبد الله من قتال الاغالبة ، فلم ير موجبا للتوجه الى تاهرت ، ولما يفرغ بعد من صراعه مع الاغالبة . وعاودت دوسر الاتصال به ، فاستجاب لها ووعدها بتحقيق مطلبها (149) .

وما ان دانت له رقادة بعد هرب زيادة الله الى الشرق سنة 294 هـ (908 م) ، حتى اعد حملة ضخمة توجه على راسها الى سجلماسة حيث قبع عبيد الله المهدى فى سجن اليسع بن مدرار .

تذكر الروايـــة الاباضية (150) أن رؤساء الطوائف غير الاباضيـــة خرجوا اليه على بعد اميال من تاهرت ووعدوه بالعون على فتحها ، وهونوا له من شأن بنى رستم .

وعرج الشيعى على تاهرت — فى طريقه الى سجلماسة — وفتحها ليؤمن ظهره اثناء قتاله مع اليسع بن مدرار . فبعث فى استدعاء اليقظان ابن أبى اليقظان وبنيه ، ولما قدموا اليه ، أمر بقتلهم جميعا (151) .

وقد حرص الشيعى على استئصال شأف بنى رستم حتى لا يناوئه منهم مناوىء ، ولم يسلم من القتل الا من لاذ بالهرب الى وارجلان (152).

وبمقتل أبى اليقظان فتحت تاهرت ابوابها للشيعى دون قتال (153)، وانسابت جيوشه داخلها فاستباحتها (154) سلبا ونهبا وتخريبا (155)

---

(147) ابن الصغير : ص 51 .

(148) ابو زكريا : ورقة 36 ، النفوسى : ص 292 .

(149) ذكرت المصادر الاباضية ان ابا عبد الله استجاب لطلب دوسر بعد أن وعدته بالزواج اذا ما اخذ بثار ابيها . والراجح ان يكون السبب فى ذلك فراغه من حروبه مع الاغالبة ، وعزمه على افتتاح المغربين الاوسط والاقصى . انظر : الدرجينى : ج 1 ورقة 42 ، النفوسى : ص 292

(150) ابو زكريا : ورقة 36 .

(151) نفس المصدر والصحيفة ، ابن عذارى : ج 1 ص 210 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 42 .

(152) ابو زكريا : ورقة 37 ، Biquet : Op. Cit. P. 71.

(153) الدرجينى : ج 1 ورقة 42 ، Biquet : Loc. Cit.
وتصور الرواية الاباضية هرب دوسر — بطريقة روائية — خشية أن يتزوجها الشيعى كما وعدته . انظر : ابو زكريا : ورقة 36 ، النفوسى ص 293 .

(154) النفوسى : ص 292 .

(155) ابو زكريا : ورقة 37 .

« حتى أهلكت الحرث والنسل » (156) .

وامر ابو عبد الله باحراق المكتبة الرستمية المعروفة « بالمعصومة » بعد أن انتقى منها الكتب المتعلقة بالحكم والفنون والرياضيات والصنائع (157) . كما اضرم النيران فى تاهرت أيضا (158) . وغادرها على عجل بعد ان ولى عليها عاملا من قبله (159) ، ويمم وجهه شطر سجلماسة .

ووجه فرقة من فرسانه الى وارجلان فى اثر يعقوب بن افلح الذى هرب اليها مع بعض اصحابه (160) ولم تستطع خيل الشيعى الوقوف له على اثر (161) ، فنجا بذلك من المذبحة التى حلت بأسرته . وقد رحب ابو صالح ماجنون بن مريان — شيخ وارجلان بمقدمه وعبثا حاول اقناعه بتولى « امامة الدفاع » ومناوءة الفاطميين (162) . فقد آثر حياة الزهد والعزلة حتى وفاته (163) .

وبسقوط تاهرت ، وانقراض الرستميين ، انتهى حكم بنى رستم الذى استمر ما يزيد على مائة وثلاثين عاما (164) .

---

(156) الدرجينى : ج 1 ورقة 42 .

(157) ابو زكريا : ورقة 42 .

(158) نفس المصدر ورقة 37 . وقد اعتقد ماسكراى أن المصادر الاباضية تبالغ فى هذا الصدد اظهارا لفظائع الشيعة . انظر : Chronique d'Abou Zakaria. P. 211.

(159) البكرى : ص 68 .

(160) ابو زكريا : ورقة 37 .

(161) تنسج المصادر الاباضية روايات اسطورية حول شجاعة يعقوب بن افلح ومهارته فى الافلات من اعدائه . انظر : ابو زكريا : ورقة 41 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 47 . Masqueray : Op. Cit. P. LXXIV.

(162) ابو زكريا : ورقة 42 ، وروى أنه قال فى هذا الصدد « لا يستر الجمل بالغنم » ، فصارت مثلا . انظر : ابو زكريا : ورقة 42 ، النفوسى ص 293 .

(163) ابو زكريا : ورقة 42 .

(164) البكرى : ص 68 ، ابن عذارى : ج 1 ص 209 .
وقد اختلف المؤرخون فى تحديد سنى حكم الاسرة الرستمية ، نتيجة خلافهم حول بداية حكم عبد الرحمن بن رستم اول ائمتها . وقد ورد باحدى القصائد فى رثاء الدولة الرستمية انها ظلت قائمة مائة وخمسين عاما ، قال الشاعر :

لقد اسسوا تاهرت بالغرب وارتقوا ... مدارج عز الملك فيها وابدعوا
وداموا بها خمسين عاما ومائة ... يحفهم من كان بالقصب يقطع

انظر النفوسى ص 300 .
والصحيح أن عبد الرحمن بن رستم تولى امامة الظهور سنة 162 هـ ، وعلى ذلك فقد استمر حكم الاسرة الرستمية مائة وخمس وثلاثين عاما ، على اساس أن دولتهم سقطت سنة 297 هـ .

لكن سقوط الحكم الرستمى لم يقض نهائيا على النفوذ الاباضى فى بلاد المغرب ، فظلت وارجلان وجبل نفوسة معقلين رئيسيين لاباضيـة المغرب . وقد وجه الفاطميون جهودهم نحو فتح هذين المعقلين ، فبعـد تحرير المهدى من سجلماسة وجهوا جيشا الى وارجلان . وبادر اباضيتها باخلائها والاعتصام بحصن مجاور لها عرف « بكدية بنهادين » (165) بعد شحنه بالمؤن والاقوات . ولم يستطع الجند الفاطمى اقتحام الحصـن ، فآثروا الانسحاب (166) . وبقيت وارجلان معقلا للمقاومة الاباضية ضد الفـاطميين .

اما جبل نفوسة ، فلم يخضع للحكم الفاطمى وذاك لمنعته الطبيعية (167) واضحى بمثابة ملاذ لثوار الاباضيـة فى سائر بـلاد المغرب (168) . وعبثا حاولت جيوش الفاطميين غزو الجبل ، فكانت فى كل مرة تبوء بالفشل .

هكذا ، نجح الفاطميون فى فتح تاهرت دون عناء سنـة 297 هـ واسقطوا حكم بنى رستم ، لكنهم لم يفلحوا فى الاستيلاء على جبل نفوسة ووارجلان لمنعة الجبل وتطرف الواحة فى اقاصى الصحراء . واضحى جبل نفوسة منذ ذلك الحين معقلا للحركات الاباضية المناوئة للفاطميين . كمـا لم يفلح الفاطميون فى ارغام الاباضية فى المناطق الخاضعة لحكمهم علـى انتخلى عن مذهبهم واعتناق المذهب الاسماعيلى . ولم تتمخض سياسـة البطش والتعصب التى جرى عليها الفاطميون الا عن انـدلاع ثـورات الخوارج الاباضية ، تلك التى سببت لهم مزيدا من المتاعب وهددت بزوال دولتهم من بلاد المغرب فى بعض الاحيان .

---

(165) الدرجينى : ج 1 ورقة 42 .
(166) ابو زكريا : ورقة 37 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 42 .
(167) الوسيانى : سير ابى الربيع : ورقة 27 ، على يحيى معمر : الاباضية فى موكب التاريخ ص 145 .
(168) ابو زكريا : ورقة 115 ، Lewcki : Etudes Ibadites. P. P. 49, 50.

ب - ثورات الاباضية على الحكم الفاطمي :

زال الحكم الرستمى من تاهرت سنة 297 هـ (909 م) ، وتبدد شمل الخوارج الاباضية لما تعرضوا له من اضطهاد مذهبى على يد الفاطميين ، والذى لا شك فيه أن الخوارج الاباضية — وهبية ونكارا — رفضوا الاذعان للمذهب الشيعى (169) « واستكانوا الى حين للمسالمة والرضى بالواقع ، انتظارا لسنوح الفرصة » (170) ، بينما لاذت اعداد غفيرة منهم بجزيرتى جربة وصقلية ليأمنوا غائلة الفاطميين (171) .

وكان تفتت القوى الاباضية وتشتتها ما بين جبل نفوسة وواحة وارجلان وبلاد الجريد واحواز تاهرت وجزيرتى جربة وصقلية مما سهل على الفاطميين مواجهة حركاتهم والقضاء عليها . فقد ثار الاباضية بطرابلس سنة 300 هـ (912 م) على ماتنون الاجابى عامل المهدى ، وكانت ثورة اقليمية محضة اذا اقتصرت على أباضية هوارة بناحية طرابلس بزعامة شيخ يدعى محمد بن اسحق المعروف « بابن القرلين » .

ونجح المهدى فى حصار طرابلس بحرا ، كما قطع المؤن عنها ، فاستسلم الثوار بعد ان قدموا لابى القاسم بن المهدى مبلغا باهظا من المال ، وسلموا اليه ثلاثة من زعمائهم قتلوا برقادة (172) .

كذلك قضى بالفشل على محاولة اخرى لجمع شمل الاباضية تحت لواء أحد مشايخهم ويدعى أبو خزر تمهيدا للثورة على الفاطميين . وأنتهت

(169) أبو زكريا : ورقة 115 ، الطاهر الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ص 183 .

(170) الجربى : مؤنس الاحبة ص 59 .

(171) الوسيانى : سير أبى الربيع ورقة 59 ، Julien : Op. Cit. 339.

(172) ابن عذارى : ج 1 ص 233 ، 234 .

به الحال الى الهرب لجبل نفوسة يائسا ، وأصبح الجبل منذ ذلك الحين مقرا للمقاومة الاباضية ضد الحكم الفاطمى (173) .

وقد تمكن اباضية نفوسة من احياء الامامة الاباضية بعد سقوطها فى تاهرت وبايع مشايخهم ابا يحيى زكريا الارجانى — المعروف بأبى بطة — « بامامة الدفاع » (174) وشكلوا حكومة من مشايخ المذهب ، وحاول ابو زكريا — الاغارة على طرابلس لكنه هزم وقتل كثيرون من رجاله (175). وتشجع المهدى فبعث بجيوشه لغزو نفوسة سنة 310 هـ (922 م) فلم تفز بطائل وهزمها الاباضية عند قرية الجزيرة . وعاود المهدى المحاولة فى العام الثانى وتخبرنا المصادر (177) الاباضية أن جيوش المهدى لقيت الهزيمة مرة اخرى عند قرية تيركت بجبل نفوسة ، وان كنا نعتقد أن النتيجة كانت غير ذلك لان ابا زكريا الارجانى قتل فى تلك المعركة (178) ، كما يذكر الشماخى (179) أن مشايخ الجبل دابوا منذ ذلك الحين على دفع المغارم لولاة القيروان الفاطميين الذين كانوا يغالون فى تقديرها ، ويهددون بغزو الجبل اذا ما تقاعس النفوسيون عن دفعها .

ولم يتحرر اباضية نفوسة من هذه الاتاوات « وذل المسودة » الا فى مشيخة زعيمهم ابى الفضل سهل النفوسى (180) . ويبدو أن ذلك لم يتم الا بعد قيام ثورة الاباضية الكبرى بزعامة ابى يزيد مخلد بن كيداد . تلك الثورة التى احتوت كافة العناصر الاباضية — وهبية وخلفية ونفاثية ونكارا — فى سائر بقاع المغرب ، وهددت بزوال النفوذ الفاطمى منها .

لا شك أن حركة ابى يزيد تمثل من الناحية الاجتماعية حلقة من

---

(173) الشماخى : السير ص 320 ، Lewcki : Etudes Idadites P. P. 49, 50

(174) ابو زكريا : ورقة 115 ، الطاهر الزاوى ص 188 ، على يحيى معمر : الاباضية ص 145 ، Lewcki : Etudes Ibadites, P.P. 50, 98, Masqueray : Op. Cit. P. LXXV.

(175) الشماخى : السير ص 318 .

(176) نفس المصدر ص 321 ، وتقع هذه القرية غربى جبل نفوسة . انظر : نفس المصدر والصحيفة ، Lewcki : Op. Cit. P. 50

(177) ابو زكريا : ورقة 117 ، على يحيى معمر ص 154 ، Lewcki : Loc. Cit.

(178) نفس المصادر والصفحات .

(179) السير ص 320 ، 323 .

(180) نفس المصدر ص 275 .

حلقات الصراع التقليدى بين البتر والبرانس كما تصور جوتييه (181) ، كما أنها عبرت عن نزعة الاستقلال عند البربر من الناحية السياسية كما اعتقد بل (182) . اما الناحية الحضارية فانها تمثل صراعا بين اهل البداوة والاستقرار (183) وهى أيضا نزاع بين قوى محلية مغربية فى اطار صراع أعم بين الفاطميين والاندلسيين حسبما اعتقد برنشويج (184) . لكن المؤكد ان ثورة ابى يزيد مخلد بن كيداذ كانت فى المحل الاول رد فعل للخارجية الاباضية فى مواجهة الشيعة الاسماعيلية ، فكانت حربا مذهبية شهر فيها سلاح المبادىء الخارجية للاطاحة بالعقائد الاسماعيلية الغريبة على البربر. واذا كان البربر السنة قد أيدوا حركة ابى يزيد فى مراحلها الاولى ، فذلك لا يعنى أن أبا يزيد كان سنيا » (185) .

كان من أهم ما يميز الحركة طابعها الخارجى الاباضى (186) ، فزعيمها من « اهل الدعــوة » على حد قول احد مؤرخى الاباضية (187)، تلقى تعاليمها بالشرق « ورأس فى الفتيـا فى مـذاهب الاباضيــة مــن الخوارج » (188) وكان أول الامر اباضيا وهبيا ثم تحـول الى مذهب النكار (189) الضاربين بجبل الاوراس وبلاد الجريد (190) . ونعتقد أن هذا

---

(181) اعتقد جوتييه أن الفاطميين عجزوا عن ايجاد حل « للمسألة الزناتية » على الرغم من اعتمادهم على قواد من زناتة كمصالة بن حبوس . ذلك ان كتامة وصنهاجة — وكانتا على هامش الحياة السياسية فى المغرب — سادتا الموقف فى العصر الفاطمى ولعبتا دورا بارزا فى احداث المغرب فى ذلك الحين ومــن ثم اتجهت زناتة بولائها لامــوى الاندلس أعداء الفاطميين نكاية فى كتامة وصنهاجة أعدائها التقليديين . ولما كانت صنهاجة وكتامة من البرانس وزناتة من البتر ، ولما كان ابو يزيد مخلد بن كيداد زناتيا ، فقد نظر جوتييه الى ثورته من خلال الصراع بين البتر والبرانس . انظر :
Les siecles obscurs. P. P. 354, 570.
وقد يؤخذ الاسراف على تصور جوتييه ، فقد انضوى كثير من قبائل البرانس فى حركة ابى يزيد مثل عجيسة واوربة وهوارة . انظر : ابن خلدون : ج 6 ص 145 والمقريزى : اتعاظ الحنفا ص 114 ، التجانى ص 326 ،
Masqueray : Op. Cit. P. 232.

(182) انظــر : La Religion Musulmane. P. 150.

(183) انظر : احمد مختار العبادى : سياسة الفاطميين ص 202 .

(184) انظــر : la Tunisie dans le haut moyenage P. 17.

(185) هكذا ذكر الدكتور مؤنس فى مقدمته لكتا برياض النفوس للمالكى : انظر : ص 23 ، 24

(186) ابن حماد : اخبار ملوك بنى عبيد ص 16 ، Masqueray : Op. Cit. P. 232.

(187) انظر : الشماخى : السير ص 279 .

(188) اطفيش : الامكان ص 46 .

(189) ابو زكريا : ورقة 38 ، 43 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 23 . وجاء فى هجاء احـد الشعراء لابى يزيد هذا البيت :

حـل البـلاء بمخـلـد وجميـع شيعتـه النـواكـر

Cherbonneau : Documents indits sur l'héretique Abou Yezid P. 493.

(190) ابن عذارى : ج 1 ص 166 ، محمد بن تاويت ، دولة الرستميين ص 114 .

التحول تم فى آخر ايام الدولة الرستمية حين ذوى شأن الاباضية الوهبية ، وعلا نجم النكار (191) ، وهم اكثر تشددا ، والتزاما بتعاليم المذهب الاباضى من الوهبية (192) . فأبو يزيد اذن ليس سنيا ، ولم يكن صفريا ايضا كما زعم جوتييه (193) ، او « صفريا نكاريا كما ذهب فورنل (194) نقلا عن ابن خلدون (195) الذى ذهب الى أن « النكارية الخوارج الصفرية » . وانما كان اباضيا نكاريا جمعت حركته سائر فرق الاباضية فى المغرب ، وهذا ما يعنيه قول ابن حوقل : (196)

« خرج ابو يزيد فى اضراب الكفر والنفاق والاباضية والنكارية المراق » .

وجدير بالتنويه ان ابا يزيد حاول استنفار اتباع كافة المذاهب والفرق الناقمة على الشيعة الاسماعيلية والاستفادة منهم . ذكر ابن عذارى (197) انه لم يفصح بادىء ذى بدء عن ميوله المذهبية لنفس الغرض « فدعى الى الحق بزعمه ، ولم يعلم الناس مذهبه ، فرجوا فيه الخير والقيام بالسنة » . حقيقة ان ابا يزيد لم يعلن فى بادىء الامر عن « نكارية » الحركة ، فأذاع أنه « خرج غضبا لله » (198) « لاستخفاف الفاطميين بالشريعة والوضع من النبوة » (199) ، لكن جموع الوهبية والسنة الذين آزروه لم يخف عليهم حقيقة معتقداته ، انما أيدوه لاتفاقهم معه فى الرغبة فى الاطاحة بالحكم الفاطمى رغم ما كان بينهم جميعا من عداء مذهبى . فالاباضية الوهبية بايعوه على شريطة « انهم ان ظفروا بالمهدية والقيروان صارا الامر شورى » (200) والسنة آزروه نكاية فى الفاطميين،

---

(191) ابو زكريا : ورقة 48 ، 49 .
(192) ابن ابى دينار ص 52 ، المقريزى : الخطط : ج 1 ص 351 . وقد ذكر الشماخى أن النكار اعتمدوا فى عقائدهم على اقوال عبد الله بن زيد فى الكلام ، وابى المورج وابن عبد العزيز وحاتم بن منصور فى الفقه . انظر : السير ص 280 .
(193) انظر : Les siécles obscurs. P. 257.
(194) انظر : Les Berbers Vol. 2. P. 225.
(195) انظر : العبر : ج 4 ص 40 ، الاستبصار ص 205 .
(196) المسالك والممالك ص 48 .
(197) البيان المغرب : ج 1 ص 307 .
(198) الخزرجى : ورقة 45 ، ابن الخطيب : رقم الحلل ص 34 .
(199) ابن النديم : الفهرست ص 265 .
(200) ابن خلدون : ج 7 ص 13 .

اذ افتى فقهاؤهم أن قتالهم « أفضل من جهاد اهل الشرك » (201) واجمعوا على الانضمام لابى يزيد لان الشيعة فى نظرهم « كفرة بينما الخوارج من أهل القبلة لا يزول منهم الاسلام » (202) . فانضمام الوهبية الاباضية والسنة للحركة اذن كان بمثابة ائتلاف أو تحالف ضد عدو مشترك .

ومن المحقق ان أبا يزيد تطلع الى تكوين دولة اباضية كبيرة متأثرة بتعاليم المذهب الاباضى ، ولذلك هادن كافة الاحزاب المناوئة للفاطميين واستخدمهم فى الجهاد ضدهم . ولم يكن بوسعه اظهار مراميه الحقيقية فى بداية حركته ، انما آثر التمويه واعمال الحيلة ، فلم يمانع فى قبول اشتراطات الوهبية اعداءه التقليديين ، ولم يجد غضاضة فى خداع السنة حين « أمرهم بقراءة مذهب مالك » (203) .

والحقيقة أن أبا يزيد كان يكن عداء مرا لهؤلاء واولئك لا يقل عن عدائه للفاطميين ، ومن المؤكد انه اضمر بهم غدرا أو على الاقل اضعاف شوكتهم بضربهم بالفاطميين . فقد أرجأ الانتقام من الوهبية الى ما بعد الانتهاء من قتال الشيعة (204) ، كما « مكر بالسنة » (205) أثناء حصار المهدية ، وتخلى عنهم لتحصدهم جيوش القائم الفاطمى .

كما لم يتورع عن اظهار مراميه الحقيقية فى النهاية حين استشعر من نفسه القوة بعد انتصاراته التى احرزها على الجيوش الفاطمية (206) كل ذلك يؤكد الطابع المذهبى للحركة باعتبارها — فى المحل الاول — ثورة

---

(201) الدباغ : ج 2 ص 185 ، القاضى عياض : ترتيب المدارك قسم «1» من جزء «2» ص 64 ، 65 وقد نظر فقهاء القيروان الى ما قام به العبيديون من تغييرات فى العبادات والطقوس على انه من قبيل الكفر . فقد أسقط المروزى عامل المهدى على القيروان صلاة التراويح ، كما أحدث القائم تغييرات جوهرية فى الشرائع والاحكام أثارت غضب فقهاء السنة الذين أخذوا بالشدة والبطش .
انظر : ابن عذارى : ج 1 ص 205 — 208 ، الاستبصار ص 205 ، الدباغ : ج 2 ص 244 .

(202) سعيد بن مقديش ص 125 .

(203) ابن عذارى : ج 1 ص 308 .

(204) قيل ان اصحاب أبى يزيد من النكار طالبوه بقتال الاباضية الوهبية أخذا بثار زعيمهم يزيد بن فندين ، فوافقهم الراى على أن يكون ذلك بعد فراغه من قتال الشيعة .
انظر : ابو زكريا : ورقة 39 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 44 .

(205) سعيد بن مقديش : ص 127 .

(206) ابن النديم : الفهرست ص 266 .

اباضية مضادة للحكم الفاطمى ، ورد فعل خارجــى (207) لسياســة الفاطميين فى بلاد المغرب .

والذى يستقصى نشأة ابى يزيد يلتمس تلك الحقيقة على الرغم مما نسج حولها من القصص والاساطير ، فحتى تلك الاساطير لا تخلو من دلالة على تطلع اباضية المغرب للاطاحة بالحكم الفاطمــى تحت قيــادة ابــى يــزيــد (208) .

على كل حال ــ اجمعت المصادر على انتمائه الى زناتة ، وان اختلفت فى التفصيلات (209) . وعلى الرغم مما احاط حياته الاولى مــن غموض (210) . فقد كشفت المراجع ان اباه كان من قسطيلية ببلاد الجريد، وانه احترف التجارة مع بلاد السودان (211) . وقد ولد ابو يزيد من أم سودانية (212) وأب من زناتة . ونشأ بمدينة توزر ــ من اعمال قسطيلية ــ معقل الاباضية النكار ، الا انه حفظ القرآن ودرس احوال المذهب الاباضى الوهبى (213) . ثم ارتحل الى سجلماسة ودرس على ابن الجمع شيخ

---

(207) مما يؤكد الطابع الخارجى لحركة ابى يزيد عملته التى تضمنت عبارة « لا حكم الا لله » وهاك صورة الدينار ضرب فى عهده :
الوجه : ربنا الله ــ لا حكم الا لله ــ وحده لا شريك له ــ الحق المبين .
الدائرة : بسم الله الرحمن الرحيم ــ ضرب هذا الدينر بالقيروان سنة ثلاث وثلاثين وثــلاثمــائــة .
الوجه الاخر : العزة لله ــ محمد رسول الله ــ خاتم النبيين .
الدائرة الاولى منه الذين آمنوا به وعززوه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه اولئك هم المفلحون .
الدائرة الثانية : محمد رسول الله ــ ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . انظر حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية : ج 1 ص 440 .

(208) انظر : ابو زكريا : ورقة 38 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 23 ،
Le Tourneau : Op. Cit. P. 104.
Cherbonneau : Op. Cit. P. 472.

(209) ذكر ابن حماد انه من بنى جعفر من بطون زناتة ، اما ابن خلدون فقال انه من بنى واركو من بطون بنى يفرن ، وذكر الدرجينــى نقــلا عــن الرقيــق انــه مــن بنى واسـن فى حين قال ابن حوقل بانه من سماطة . انظر : اخبار ملوك بنى عبيد ص 18 ، العبر : ج 7 ص 13 ، طبقات الاباضية : ج 1 ورقة 23 ، المسالك والممالك ص 48 .

(210) ابن حماد ص 17 ، Le Tourneau Op. Cit. P. 104

(211) زهرة المعانى ص 69 من ملاحق كتاب Ivanovva : Ismaili tandition
ابن حماد ص 18 ، ابن عذارى : ج 1 ص 307 ، ابن خلدون : ج 4 ص 40 .

(212) ابن حماد ص 18 . بينما ذكر ابن الاثير وابن خلدون ان امه كانت من هوارة . انظر : الكامل : ج 8 ص 138 ، العبر : ج 7 ص 13 .

(213) ابن الاثير : ج 8 ص 138 ، ابن خلدون : ج 7 ص 13 .

الاباضية هناك لمدة عامين (214) انتقل بعدهما الى تاهرت (215) ، حيث افتى فى الفقه الاباضى الوهبى (216) مدة ثم عاد ادراجه الى توزر ، وفى توزر اختلط بشيوخ النكار فمال الى مقالاتهم وتبحر فى اصول مذهبهم (217). ولا يخالجنا شك فى عودته الى تاهرت بعد ذلك حيث راقب عن كثب الاحداث التى جرت فيها اواخر العهد الرستمى ، ومن المحتمل ان يكون قد أسهم فيها بدور اضعافا للامامة الوهبية .

على كل حال — لم يطب له فيها المقام ، اذ سقطت فى يد الشيعة سنة 297 هـ (909 م) ، فغادرها الى تقيوس (218) من بلاد قسطيلية (219) .

وفى تقيوس عكف على تحفيظ الصبية (220) القرآن وتعليمهم المذهب النكارى فى مكان عرف « بعين النكارة » (221) والراجح انه بدأ منذ ذلك الحين يعد العدة لجمع شمل الاباضية النكار تمهيدا للثورة على الفاطميين . ولو صح قول المقريزى (222) بأنه شرع فى سنة 303 هـ (915 م) فى تجميع الانصار لهذا الغرض ، لكان معناه انه قضى حول ثلاثة عشر عاما فى الاعداد للثورة ، لانه لم يجهر بدعوته الا فى عام 316 هـ (921 م) (223) . ففى ذلك العام كثر اتباعه وانصاره ، واظهر مذهبه النكارى وبدأ « يحتسب على الناس فى افعالهم ومذاهبهم » (224) . وانكر على الفاطميين سياستهم الدينية والمالية (225) .

كان طبيعيا ان يبعث المهدى الى عامله على تقيوس يأمره بالقبض

---

(214) الشماخى : السير ص 279 .
(215) ابن الاثير : ج 8 ص 138 ، ابن خلدون : ج 4 ص 41 .
(216) ابن حماد ص 20 ، Cherbonneau : Op. Cit. P. 478.
(217) ابن خلدون : ج 4 ص 41 .
(218) نفس المصدر ص 40 .
(219) الاستبصار ص 156 .
(220) ابن حماد ص 19 ، ابن الاثير : ج 8 ص 138 .
(221) ابن حيان : المقتبس فى اخبار بلد الاندلس ص 192 ، ابن النديم ص 265 .
(222) اتعاظ الحنفا ص 109 .
(223) ابن حماد ص 19 ، ابن الاثير : ج 8 ص 138 .
(224) ابن الاثير : نفس المصدر والصحيفة .
(225) ابن الخطيب : رقم الحلل ص 34 .

على أبى يزيد (226) . لكنه نجح فى الهرب الى الشرق ، ولم يعد الى المغرب الا بعد وفاة المهدى سنة 322 هـ (934 م) .

نزل أبو يزيد بتقيوس مرة أخرى ، وشرع على الفور فى الاعداد للثورة على القائم ، فبعث رسله الى جبل نفوسة مستنفرا الاباضية الوهبية لشد ازره (227) ، ثم انتقل الى توزر سنة 325 هـ (937 م) حيث ساندته أكثرية من الاباضية النكار — واعلن الثورة من هناك (228) .

وبعث القائم الى والى قسطيلة ليواجه الخطر ألاباضى ، فبعث بدوره الى عامله على توزر — ويدعى ابن فرقان — (229) بالقبض على أبى يزيد ، فاعتقله واودعه السجن . وحاول شيوخ النكار الوساطة لدى ابن فرقان لاطلاق سراح أبى يزيد ، دون جدوى ، فأجمعوا الرأى على تحريره بالقوة (230) ، فكان لهم ما أرادوا (231) .

وعول أبو يزيد على استنفار سائر جماعات الاباضية وجمعهم فى مكان آمن ، فنزل بوارجلان (232) وبعث الى الاباضية بجبال الاوراس يطلب التأييد ، فأجابوه . فغادر وارجلان الى الاوراس ، وانضم اليه بنو برزال — ومواطنهم جنوب المسيلة — وكذلك بنو زنداك من مغراوة (233)، فضلا عن لواتة وبنو كملان (234) . واتفق شيوخ الاباضية — وهبية ونكارا — على بيعة أبى يزيد سنة 331 هـ (944 م) « على محاربة الشيعة.

---

(226) الدرجينى : ج 1 ورقة 23 . وقد ذكر ابن خلدون ان القائم . وليس المهدى — هو الذى بعث الى عامله بالقبض على أبى يزيد . (انظر العبر ج 7 ص 13) ونعتقد ان المهدى كان على علم بنشاط أبى يزيد منذ البداية ، فلم يكن انشاؤه المهدية الا لخوفه من خطر ثورات الاباضية وهذا يفهم ضمنا من الروايات الاسطورية التى نسجت حول انشائها وبديهى أن يبادر بمواجهة ذلك الخطر قبل أن يدهمه ، فكان كتابه الى عامله بتقيوس للقبض على أبى يزيد ، انظر زهرة المعانى ص 69 ، ابن الاثير : ج 8 ص 30 ، Bernard : Op. Cit. P. 131.

(227) وجه أبو يزيد الى أهل الجبل هذه الرسالة .. « قد فاتنا منكم كثير ، وفاتكم منا كثير ، وانه ليس لله علينا أن نشترى حجة » انظر : أبو زكريا : ورقة 38 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 23 .

(228) ابن حماد : ص 20 ، ابن خلدون : ج 7 ص 13 .

(229) ابن خلدون : نفس المصدر والصحيفة .

(230) أبو زكريا : ورقة 38 ، الدرجينى : ج 2 ورقة 44 .

(231) تصور المصادر الاباضية ان أربعة من النكار اقتحموا السجن وقتلوا كل من تصدى لهم حتى تمكنوا من تحرير أبى يزيد ، وهى رواية تغلب عليها الطابع الاسطورى . انظر : أبو زكريا : ورقة 138 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 44 .

(232) ابن خلدون : ج 7 ص 13 .

(233) نفس المصدر والصحيفة .

(234) نفس المصدر والصحيفة .

على أن يكون الامر شورى اذا ظفروا بالمهدية » (235) .

ويمكن تقسيم الصراع بين أبى يزيد والفاطميين الى ثلاثة مراحل اساسية ، بدات المرحلة الاولى منها بحصار جيوش القائم لابى يزيد بالاوراس سنة 331 هـ (944 م) وانتهت بحصار ابى يزيد للمهدية سنة 333 هـ (946 م) ، وفيها كانت الغلبة للثوار . اما المرحلة الثانية ، فكانت الحرب فيها سجالا ، اذ تبادل الطرفان النصر والهزيمة . بدات هذه المرحلة باخفاق ابى يزيد فى افتتاح المهدية وانتهت بحصاره سوسة فى جمادى الاخر سنة 334 هـ (947 م) . وفى المرحلة الثالثة كان افول نجم أبى يزيد وهزيمة جيوشه وانتهاء الامر بقتله ، وفشل ابنه الفضل فى الاخذ بثأره سنة 336 هـ (949 م) .

المرحلة الاولى :

من السمات البارزة لتلك المرحلة بزوغ نجم ابى يزيد واشتداد ساعده بانضمام جموع الاباضية كافة الى حركته فضلا عن مالكية القيروان . وبفضلهم دانت له غالبية مدن افريقية وحصونها بعد حروب حالفه النصر فيها . ولم تجد نفعا محاولات القائم استرداد نفوذه . فقبع بالمهدية متخذا موقف الدفاع . وكاد الحكم الفاطمى أن يزول نهائيا من بلاد المغرب لولا انضمام صنهاجة الى القائم ، اذ ادى انضمامها الى تحول كبير فى مسار الصراع .

فقد عول القائم بادىء ذى بدء على مباغتة أبى يزيد بالاوراس سنة 331 هـ (944 م) ولما يشتد عوده بعد . الا ان أبا يزيد افلح فى فك الحصار الذى ضربته جيوش القائم (236) حول مقره واحرز نصرا على تلك الجيوش ذاع بعده صيته ، فانضمت اليه كثير من القبائل منها مزاتة (237) . وعلى التو شرع ابو يزيد فى فتح مدن افريقية وحصونها الساحلية ، فاستولى على باغاية (238) — جنوبى الاوراس (239) — ومنها توجه الى قسطيلية

---

(235) نفس المصدر والصحيفة .
(236) عن حيل ابى يزيد فى فك الحصار . انظر : ابو زكريا ورقة 39 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 44 .
(237) نفس المصدرين والصفحات .
(238) ابن حماد ص 21 ، ابن خلدون : ج 4 ص ٬
(239) الاستبصار ص 163 .

ففتحها (240) وانضمت اليه جموع النكار فيها ، ونجح فى الحيلولة بينهم وبين مقاتلة الاباضية الوهبية (241) . ثم أمن أهلها وهدم أسوارها (242).

وواصل ابو يزيد فتوحاته فدانت له تبسا ومجانة — بوسط افريقية — كما فتح مرماجنة — جنوبى مجانة — واهدى له رجل منها حمارا أصهب سار يركبه وبه كنى ، فقيل « صاحب الحمار » (243) . وتوجه الى الاربس — شمال غربى القيروان — ففتحها واضرم فيها النيران كما انفذ عسكرا الى سبيبة — قرب القيروان — استولى عليها بعد قتل عاملها (244) .

واحدث سقوط الاربس هلعا كبيرا فى المهدية (245) ، فانفذ القائم جيوشا للدفاع عن رقادة والقيروان ، كما بعث بقائديه ميسور الفتى وبشرى الفتى لمناوءة ابى يزيد . غير أن بشرى هزم عند باجة فوقعت فى يد ابى يزيد وانصرف بشرى الى تونس فاستمال أهلها بالمال ، فبعث ابو يزيد عسكرا فى اثره دارت الدائرة عليه . لكن اهل تونس ثاروا على بشرى وكاتبوا ابا يزيد ، فأمنهم وولى عليهم رجلا منهم يدعى رحمون . ثم توجه ابو يزيد نحو القيروان . فسبقه بشرى اليها وهزم طلائع الجيش الاباضى ، وبعث بالاسرى الى المهدية حيث قتلوا (246) .

واستعان بشرى بكتامة لملاقاة ابى يزيد والحيلولة دون وصوله الى القيروان — فخرجت للقائه ، لكنها عادت مدحورة الى القيروان ، واستولى ابو يزيد على رقادة وعاث فيها فى الوقت الذى كان فيه قائده أيوب الزويلى يدق أبواب القيروان . ثم سقطت القيروان فى صفر سنة 333 هـ (946 م) فى يد ايوب ، فقتل عاملها ، وأمن شيوخها ورفع النهب عنهم (247) . أما ميسور الفتى فقد هزم على يد أبى يزيد عند مكان يقال له الاخوان (248) عند ما حاول استنقاذ القيروان (249) . وطير ابو يزيد انباء انتصاراته

---

(240) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص 109 .
(241) ابو زكريا : ورقة 39 .
(242) ابن الاثير : ج 8 ص 138 .
(243) ابن حماد ص 20 وذكر ابو زكريا ان ابا يزيد كان قد احضر معه حماره المشهور من مصر . انظر : السيرة : ورقة 39 .
(244) ابن الاثير : ج 8 ص 138 ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص 110 .
(245) المقريزى : نفس المصدر والصحيفة .
(246) ابن حماد ص 21 ، ابن خلدون : ج 4 ص 41 ، التجانى : رحلته ص 24 ، 25 .
(247) ابن خلدون : ج 4 ص 41 .
(248) منزل بين القيروان والمهدية . البكرى ص 31 .
(249) ابن عذارى : ج 1 ص 310 ، ابن الاثير : ج 8 ص 139 ، ابن خلدون : ج 4 ص 41 .

تلك الى عبد الرحمن الناصر فى قرطبة (250) .

والواقع أن أبا يزيد بلغ قمة النصر بالاستيلاء علـى القيروان ، اذ انضم اهلها من المالكية اليه وكونوا جيشا قويا انضوى تحت لوائه (251) ، كما هوت مقاومة سوسة — ميناء بشمال شرقى القيروان — امام سرية من رجاله (252) ، لكن لم تدم سيادته عليها طويلا (253) ، وساد الهلع مدينة المهدية اذ أصبحت مهددة بالسقوط ، ولم يستطع القائم مناهضة أبى يزيد ، فخندق على نفسه بالمهدية وناشد زيرى بن مناد شيخ صنهاجة العون ، كما استنهض همة الكتاميين للدفاع عن العاصمة (254) .

ورحل أبو يزيد من القيروان ميمما وجهه شطر المهدية ، وخرجت جيـوش القائم للقائه عند مكان يقال له « الوادى الملح » (255) فبدد ابو يزيد شملها (256) ولم يشأ تعقب فلولهم . بل آثر استجماع كافة قواه لاقتحام المهدية ، فبعث فى استدعاء ابنه فضل الذى وصل مسرعا على راس امداد هائلة من القيروان (257) . واتخذ أبو يزيد معسكره عند مكان يقال له « ترنوط » على بعد ستة أميال من المهدية (258) . لكن تحولا كبيرا فى الموقف افضى الى فشل محاولات أبى يزيد فى اقتحامها .

المـرحلـة الثـانيـة :

كان الصراع فى هذه المرحلة سجالا ، نتيجة حدوث صدع فى معسكر

---

(250) تعتبر علاقة أبى يزيد الودية مع أموى الاندلس امتدادا لعلاقات أباضية تاهرت مع أمراء قرطبة ، وولاء زناتة لاموى الاندلس . غير أن ابن خلدون بالغ فى تقديـر طبيعة هذه العلاقة ، فذهب الى أن أبا يزيد « كان يدعو للناصر صاحب الاندلس » وكان ملتزما لطاعته والقيام بدعوته » . والواقع أن الامر لم يتجاوز « ترحيب أموى الاندلس بثوار المغرب ضد الفاطميين » كما لم يقصد أبو يزيد سوى مناشدة الناصر العون ضد عدوهما المشترك . وجدير بالتنويه أن الرسل الذين أنفذهم أبو يزيد لهذا الغرض لاقوا ترحيبا فى قرطبة وان لم تسفر اتصالاتهم عن نتائج ايجابية . انظر :
Variedades : Al-Hakam II y losberbers P. 316.
Fournel : Op. Cit. Vol 2. P. 338, Brunschrig : Op. Cit. P. 17.

(251) كان أحد بنودهم مكتوب عليه « نصر من الله وفتح قريب على يد أبى يزيد ، اللهم انصره على ساب نبيك » انظر : ابن عذارى : ج 1 ص 309 ، سعيد بن مقديش ص126 .

(252) ابن حماد ص 20 .

(253) التجانى : رحلته ص 27 ، محمد الاندلسى : الحلل السندسية ص 115 .

(254) ابن حماد : ص 20 ، ابن الاثير : ج 8 ص 139 ، التجانى ص 324 .

(255) مكان بين المهدية وتماجر . انظر : البكرى ص 29 .

(256) نفس المصدر والصحيفة .

(257) ابن حماد ص 21 ، ابن خلدون : ج 4 ص 42 ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص 114 .

(258) البكرى ص 31 ، وقيل على بعد خمسة أميال من المهدية . انظر : التجانى : ص 326 .

أبى يزيد ، وتدعيم جيوش القائم فقد دب الشقاق فى صفوف الثوار ، وبارح الاباضية الوهبية والسنة المالكية ومعسكر ابى يزيد ، فى الوقت الذى توافدت فيه جموع كتامة وصنهاجة للذود عن المهدية . ولا غرو فقد أخفق الثوار فى اقتحامها ، وعمدت جيوش القائم الى استرداد نفوذه فى افريقية ، بينما عول ابو يزيد على محاولة اعادة تجميع قواه والاعتماد اساسا على النكار بجبل الاوراس واتسم الصراع بينه وبين القائم بالقسوة والضراوة ، فكانت الحرب سجالا تبادل الطرفان فيها النصر والهزيمة .

فقد عسكر ابو يزيد بترنوط كما سبق القول ، ومنها حاول مرارا غز والمهدية دون جدوى .

ففى المرة الاولى ، وصلت جيوشه الى بابها — عند المصلى — واضحت قاب قوسين من السقوط ، لكن انشغال عسكره بالمغانم واستبسال كتامة فى الدفاع ، ووصول صنهاجة لنجدة القائم ، غير مسار القتال ، فدارت الدائرة على ابى يزيد وكاد أن يقتل فى المعركة . لكنه نجا بأعجوبة ، وعادت جيوشه الى ترنوط (259) .

وحفر ابو يزيد خندقا بترنوط وأرسل يطلب المدد من نفوسة والزاب، وأقاصى المغرب . ولما وصلته الامداد ، كر الى المهدية محاولا اقتحامها للمرة الثانية ، الا أنه عاد مدحورا أيضا . فبعث يستنجد بعامله على القيروان ، فخف الى نجدته ، وزحف أبو يزيد فى آخر رجب سنة 333 هـ (946 م) على المهدية لكنه هزم مرة اخرى . وفى آخر شوال قام بمحاولته الرابعة ،فشدد عليها الحصار ،وهدد من بداخلها بالموت جوعا .لكن القائم نجح فى مواجهة المجاعة لما كان قد اذخره من حبوب ومؤن من قبل ، وأمر كتامة بمهاجمة قسنطينة — أكثر مدن افريقية حصانة ومنعة (260) — فاضطر أبو يزيد الى انفاذ جزء من جيشه للحيلولة دون استيلاء الكتاميين عليها .

ودب الشقاق فى معسكر أبى يزيد ، ففارقه الاباضية الوهبية والمالكية ولم يبق معه سوى النكار من زناتة الاوراس وبنى كملان وهوارة (261) .

---

(259) ابن الاثير : ج 8 ص 140 ، ابن خلدون : ج 4 ص 41 ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص 114 .
(260) الاستبصار ص 165 .
(261) ابن الاثير : نفس المصدر والصحيفة ، التجانى ص 326 .

ورد بعض (262) المؤرخين ذلك الى يأسهم من اقتحام المدينـــة لمناعتها ، وحرمانهم من الاسلاب والمغانم التى كانوا يطمعون فيها .

ونعتقد أن ابن خلدون (263) أصدق فى تفسير ذلك الانشقاق ، اذ ارجعه الى اظهار ابى يزيد حقيقة نواياه ، وغدره بالقيروانيين ، وتنكره لما اخذه على نفسه من عهود ومواثيق . فقد تنافس زعماء هذه الفرق فى الظفر بالسلطة حين اضحى سقوط المهدية وشيكا ، ومن ثم أوقع أبو يزيد بالسنة اثناء القتال مع جيوش القائم ، فأمر رجاله بالتخلى عن القيروانيين اثنـــاء المعركة وتركهم هدفا لسيوف الشيعة « فقتل من شيوخهم اربعة آلاف ما بين عابد وعالم وصالح » (264) وادرك الاباضية الوهبية مرامى أبى يزيد فى الانتقام اذا ما دانت له المهدية ، ففارقـــوه حتـــى « لا يتفـــرغ لافشاء كفـــره » (265) .

ولعل ذلك يفسر غضبة السنة على أبى يزيـــد ودعوتهـــم للخلافـــة العباسية ، وملاحقة أبى يزيد حركتهم ، وقتله زعيمها (266) ، كما يفسر ايضا طلبه الامداد من الاباضية النكار بالاوراس بعد مقاطعة سائر الفرق الاباضية الاخرى حركته (267) . وحين وصلته هذه الامدادات ضرب الحصار من جديد على المهدية ، وكادت تسقط هذه المرة بعد أن غادرها كثيرون من اهلها لائذين بصقلية وطرابلس ومصر ، لولا استبسال فرسان كتامة فـــى الذود عنها (268) والحاقهم الهزيمة بأبى يزيد الذى هـــرب الى القيروان تاركا معسكره غنيمة لجيوش القائم (269) .

لذلك ثارت معظم مدن افريقية على أبـــى يزيـــد ودخلت فى طاعـــة القائم (270) . وحاول أبو يزيد استرداد نفوذه المفقود ، فاسترد تونس فى صفر سنة 334 هـ (947 م) ، ثم فقدها مرة أخرى بعد هزيمته عنـــد اصطفورة ــ على مقربة من تونس ــ واستعادها أيوب بن أبى يزيد مـــن

(262) نفس المصدرين والصفحات .
(263) العبر : ج 4 ص 42 .
(264) سعيد بن مقديش ص 127 .
(265) الاستبصار ص 206 .
(266) ابن خلدون : ج 4 ص 42 .
(267) ابن حماد ص 23 .
(268) نفس المصدر والصحيفة ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص 116 .
(269) ابن خلدون : ج 4 ص 42 .
(270) نفس المصدر والصحيفة .

جديد كما استرد باجة وأضرم فيها النيران (271) .

وطلب القائم العون من عامله على المسيلة — من بلاد الزاب (272) — على بن حمدون (273) لاستنقاذ باجة ، لكن ايوب بن ابى يزيد بدد شمل جيشه . وفى تلك الاثناء نجح القائم فى دخول تونس واقصاء ابى يزيد عنها ، ففر الى القيروان . فى حين نجح على بن حمدون فى بسط نفوذ القائم على مدينتى تيجس (274) وباغاية (275) .

وكان لا بد لابى يزيد ليسترد هيبته أن يحرز نصرا كبيرا يعوضه عن هزائمه السابقة ، فأعد جيشا ضخما مزودا بآلات الحصار والمنجنيقات ، فضلا عن ثمانين الف فارس واتجه نحو سوسة فى جمادى الاخرة سنة 334 هـ (947 م) وضرب عليها الحصار (276) ، دون جدوى .

المرحلة الثالثة :

دارت الحرب سجالا حول سوسة وفى تلك الاثناء توفى القائم فى رمضان من نفس العام (277) . وتولى بعده ابنه اسماعيل الملقب بالمنصور ، وكتم المنصور خبر وفاة والده ، ولم يغير شيئا من رسوم الخلافة كالسكة والخطبة والبنود (278) حتى لا يفت ذلك فى عضد اتباعه .

وبادر المنصور بانفاذ جيشه واسطوله الى سوسة لفك الحصار عنها . وبالفعل تمكن رجاله من هزيمة ابى يزيد واستباحة معسكره ، كما

---

(271) ابن الاثير : ج 8 ص 141 ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص 116 .
(272) الاستبصار ص 171 .
(273) ابن حيان : المقتبس فى اخبار بلد الاندلس ص 35 .
(274) مدينة تقع بين مجانة وقسنطينة . انظر البكرى ص 63 .
(275) ابن خلدون : ج 4 ص 42 ، المقريزى ص 118 .
(276) البكرى ص 35 ، ابن حماد ص 23 .
(277) تخطىء بعض الروايات حين تجعل وفاة القائم اثناء حصار المهدية وليس حصار سوسة . انظر : ابو زكريا : ورقة 40 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 45 .
(278) ابن خلدون : ج 4 ص 43 ويؤكد قول ابن خلدون ان العملة التى ضربها المنصور سنة 336 هـ هى اول عملة ضربها ، اذ ضربت بعد ظفره بابى يزيد فى نفس العام . وهاك صورة لها :
الوجه الاول : الامام — لا اله الا الله — المنصور بالله .
دائرية : بسم الله ضرب هذا الدينر بالمهدية شهر ذى القعدة من سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، الوجه الاخر ، اسماعيل — محمد رسول الله — امير المؤمنين . انظر :
Lane-Poole : Catalogue of oriental coins in the British museum. Vol 4 P. 6.

أبلى اهل سوسة فى المعركة بلاء حسنا (279) .

ونزل أبو يزيد القيروان ، فثار أهلها عليه وطردوه منها ، فلجأ الى سبيبة (280) . وقدم المنصور الى القيروان واجرى على أهلها الارزاق والعطايا (281) ونشب قتال بين ابى يزيد والمنصور فى أرباضها دارت الدائرة فيه على ابى يزيد فى أواخر ذى القعدة سنة 334 هـ (947 م) . غير ان ابا يزيد تمكن من الحاق عدة هزائم بجيوش المنصور ، وبعث بسراياه لقطع الاتصال بين المهدية والقيروان وسوسة ، فوعده المنصور بأن يسلم اليه آله وحرمه بالقيروان على أن يرحل عنها ، فأجابه الى ذلك ، لكنه اخلف وعده ، فقاتله المنصور وهزمه فى خامس المحرم من عام 335 هـ (948 م) (282) .

وعقد المنصور العزم على استئصال شأفة الثوار ، فعبأ جيوشه والتحم معهم فى معركة حاسمة فى نهاية المحرم من نفس العام أجهز فيها على خيرة رجال أبى يزيد (283) ، وانتهب معسكره . وفر ابو يزيد تاركا أثقاله واسلحته لا يلوى على شىء الى باغاية . وتعقبه المنصور ، فاعتصم ببنى برزال من النكار (284) ومرض المنصور فاستقر بالمسيلة ، وقدم عليه زيرى بن مناد فاغدق عليه (285) ، كما وافاه محمد بن خزر الذى كان مواليا لابى يزيد ، فأكرم وفادته ، وعهد اليهما باقتفاء اثر أبى يزيد (286). وبانضمام صنهاجة وعجيسة الى المنصور قضى نهائيا على حركة ابى يزيد بالفشل (287) . فعول ابو يزيد على الهرب الى بلاد السودان لكن أتباعه

---

(279) تغنى الشعراء بشجاعة اهل سوسة فقال أحدهم :

ان الخوارج صدها عن سوسة ... منا طعان السمر والاقدام
وجلاد أسياف تطاير بينها ... فى النقع دون المحصنات رجال

وقال آخر :

مدينة سوسة بالغرب ثغر ... تدين له المدائن والثغور
اتاها الخارجون ليملكوها ... فكان من الاله لها نصير

انظر : التجانى ص 28 .

(280) ابن خلدون : ج 4 ص 43 .

(281) ابن حماد ص 26 .

(282) نفس المصدر ص 27 ، ابن خلدون : ج 4 ص 43 ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص 121.

(283) ابن حماد ص 27 .

(284) ابن خلدون : ج 4 ص 43 .

(285) ابن حماد ص 27 ، Cherbonneau : Op. Cit. P. 485.

(286) الخزرجى : ورقة 45 .

(287) ابن حماد : ص 28 ، احمد مختار العبادى : سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس ص 202 .

منعوه من ذلك . فتحصن بجبل كيانة (288) .

وحاصر المنصور وزيرى بن مناد الجبل وضيقا الخناق على النكار ، فتخلت هوارة عن ابى يزيد وانضمت الى المحاصرين ، وقتل كثيرون من النكار واسر بعضهم . وآوى ابو يزيد الى قلعة (289) براس الجبل علها تعصمه من الوقوع فى يد عدوه ، لكن المنصور اضرم النيران فى الشعراء المحيطة بها وحاول ابو يزيد الهرب ، فوقع مثخنا بالجراح فى قبضة المنصور وظل باسره حتى مات فى المحرم سنة 336 هـ (949 م) متأثرا بجراحه ، ومثل المنصور بجثته وشهر بها (290) . واظهر اغتباطه بموت أبى يزيد فكتب الى سائر عماله بالمغرب بانباء انتصاره . وانبرى الشعراء فى امتداحه مهنئين بالقضاء على الثورة (291) .

وحاول فضل بن ابى يزيد استنفار فلول الاباضية ، وهبية ونكارا ، لمناهضة المنصور . ونجح بالفعل فى جمع أخلاط شتى جعل على راسهم معبد بن خزر الزناتى . وبادر المنصور بانفاذ جيش قاده مواليه شفيع وقيصر ، وجعل معهما زيرى بن مناد ، فبددوا شمل الحشود الاباضية (292) ، وهرب الفضل لائذا بمزاتة . ويبدو أن الاباضية الوهبية خذلوه فى حروبه ، والبوا عليه مزاتة أيضا ، فقاتلوه هو واصحابه من النكار ، وقدموا راسه قربانا للمنصور توددا اليه ، فامنهم ، « وانطفأ ذكر الفضل والنكار » (293) . واغدق المنصور على زعماء مزاتة بالهدايا اعترافا بفضلهم (294) .

---

(288) ابن حماد ص 28 ، التجانى ص 327 .

(289) عرفت هذه القلعة « بقلعة الشاكر » من عمل لهيصة . انظر : ابن الخطيب : اعمال الاعلام : ج 3 ص 154 .

(290) ابن حماد ص 30 ، ابن الطيب : ج 3 ص 45 ، ابن خلدون : ج 4 ص 44 ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص 125 ، التجانى ص 328 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 46 ، Cherbonneau : Op. Cit. P. 439.

(291) قال احد الشعراء بهذه المناسبة :

حل البلاء بمخلد وجميع شيعة النواكر

وقال آخر :

اما النفاق فقد نسخ وابو الكباير قد سلخ

انظر : ابن حماد Cherbonneau : Op. Cit. P. P. 493, 496.

(292) ابن الاثير : ج 8 ص 145 .
ابن خلدون : ج 4 ص 44 .

(293) أبو زكريا : ورقة 41 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 46 .

(294) ابن حماد : ص 32 ، Cherbonneau : Op. Cit. P. 499.

وحاول أيوب بن أبى يزيد ــ الذى كان موفدا فى سفارة من قبل والده الى الاندلس ــ رفع لواء الثورة على المنصور ، لكنه اغتيل على يد رؤساء مغراوة أيضا ، وتقربوا براسه الى المنصور (295) .

هكذا ــ اخفقت ثورة الاباضية الكبرى ، ولو قدر لها النجاح لاضحى زعيمها من مشاهير التاريخ (296) .

لقد وصل ابو يزيد الى اعتاب النجاح (297) ، لكن عوامل شتى حالت دون تحقيقه . فاستبسال صنهاجة وكتامة فى الذود عن الكيان الفاطمى كان عاملا جوهريا وراء فشل الثوار فى الاستيلاء على المهدية آخر معاقل الفاطميين (298) .

ومن المحقق ان ابا يزيد اسهم بسياسته التى اثارت الشقاق بين انصاره فى هذا الفشل ، حقيقة انه نجح بدهائه فى احتواء كافة العناصر الناقمة على الفاطميين وكسبهم الى جانبه ، لكنه لم يستطع الحفاظ على ولائهم لحركته بسبب تنافس هذه العناصر واطماعهم فى الاستئثار بالسلطة بعد هزيمة الفاطميين . فاعمل ابو يزيد الحيلة للتخلص من هذه القوى واحدة تلو الاخرى ليصفو له الجو ، فكانت النتيجة أن فارقته جميعا ، وتخلت عنه فى وقت عصيب كان النصر فيه وشيكا .

ويتحامل المؤرخون جميعا اباضية وسنة وشيعة على الرجل ، ويعزون فشله الى فساد سيرته ، وسوء سياسته ، ومروقه وزندقته . فالورجلانى (299) يعزو اليه « خراب افريقية » ويتهمه بأنه « صنع فيها الاقاويل ، واحتال على اهلها الاباطيل » . وأبو زكريا (300) يصفه بفساد الخلق ، فكان يبيت كل ليلة على اربعة أبكار حسب زعمه . والدرجينى (301) يشبه وحشيته فى حروبه «بما فعله نافع بن الازرق» «والفراعنة وملوك اهل الكفر» ومؤرخو السنة (302) نسجوا من القصص حول هذه المعانى بما لا يقل عن مؤرخى الاباضية « لان مذهبه يستحل اهل السنة ونساءهم » (303)

---

(295) ابن خلدون : ج 7 ص 17 .
(296) Fournel Op. Cit. Vol. 2. P. 275.
(297) ابن الخطيب : رقم الحلل ص 34 ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 79 . Gautier : Op. Cit. P. 361.
(298) ابن حماد : ص 23 ،
(299) الدليل لاهل العقول : ج 2 ص 78 .
(300) السيرة : ورقة 40 .
(301) طبقات الاباضية : ج 1 ورقة 45 .
(302) انظر : ابن الاثير : ج 8 ص 141 ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام : ج 3 ص 54 ، محمد بن محمد الاندلسى : الحلل السندسية ص 115 .
(303) ابن الاثير : ج 8 ص 141 .

وبديهى أن يردد مؤرخو الشيعة نفس العبارات ، فهو فى نظرهم سفاح « كان يعمل اكواما من رؤوس المسلمين ويأمر المؤذنين بالاذان عليها » (304) كما كان « يستبيح نساء المسلمين » (305) ايضا

ولا يخامرنا شك فى تجنى تلك المصادر جميعا على أبى يزيد ، فحروب الاباضية فى المغرب — عموما — انطوت على مثالية مفرطة فى معاملة الخصوم . ونجد مصداقا لذلك فى حروب ابى يزيد مما أورده أولئك المؤرخون انفسهم . فحسبه وفاؤه بالعهود التى كان يقطعها على نفسه ببذل الامان لسكان المدن المفتوحة . ولم يلجأ الى اساليب القمع والبطش الا حين تمردت عليه هذه المدن وانضمت لخصومه . والدارس لشخصية ابى يزيد ونشأته وتربيته يلمس مقدار علمه وتفقهه وما انطوت عليه أخلاقه من شمائل حميدة . وحسبنا زهده وتعففه وارتدائه الثياب الخشنة وركوبه الحمار بدلا من الخيول المطهمة (306) ونعلم خروجه بدعوة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والاحتساب ، فضلا عن تقواه وورعه حتى كان من اهل الفتيا ، ولا غرو فقد عرف « بشيخ المؤمنين » (307) ما أصدق لو تورنو (308) حين قال عنه « كان رجلا مدهشا صاحب دعوة كرس لها حياته ، واستطاع فى سن الشيخوخة أن يصبح زعيما سياسيا نابها ، وقائدا عسكريا حاذقا وحاكما فذا ، لقد كان ابو يزيد مثالا للرجل العظيم » .

وعلى الرغم من فشل ثورة الاباضية الكبرى سنة 336 هـ (949 م)، فقد خلفت آثارا بعيدة الغور فى تاريخ المغرب السياسى . فبالقدر الذى هزت فيه النفوذ الفاطمى وهددت بزواله ، كان خروج الفاطميين من الصراع ظافرين عاملا هاما فى دعم نفوذهم فى بلاد المغرب .

ومن ناحية أخرى نبهت ثورة أبى يزيد خلفاء الفاطميين الى ضرورة تغيير سياستهم فى حكم بلاد المغرب تغييرا تاما (309) ، فشعروا بخطورة النتائج المترتبة على انتهاج سياسة التعصب المذهبى ، ومن ثم ، جنحوا بعد

---

(304) ابن النديم : الفهرست ص 266 ، ابن حوقل ص 48 ، المقريزى : الخطط : ج 1 ص 351 .

(305) ابن حماد ص 20 .

(306) ابن حماد : ص 20 .

(307) النويرى : ج 26 ورقة 36 .

(308) La revolte d'Abou-Yazid au Xme siecle. P. 123.

(309) De goeje. Op ; Cit. 143.

الثورة الى تطبيق « عقيدة التقية » الشيعية (310) . فيخبرنا القاضى عبد الجبار (311) أن « اسماعيل المنصور الخليفة الفاطمى الثالث قد تظاهر بعد هزيمة ابى يزيد بالعودة الى الاسلام ، فقتل الدعاة ، ونفى بعضهم الى الاندلس والى بلاد اخرى . وقال للعامة ، من سمع منكم احدا يسب النبى فليقتله ، وأنا من ورائه ، وقرب اليه الفقهاء والمحدثين ، واستمع اليهم .. كما خفف الضرائب واظهر ولعا بالعفة » .

وفيما يتعلق بمصير الاباضية فى المغرب بعد فشل ثورتهم الكبرى ، فالثابت ان ثورة ابى يزيد تعد آخر الحركات الكبرى لاباضية المغرب ، وباخفاقها لم تقم لهم قائمة ذات شأن بعد ذلك . فبالاباضية الوهبية بجبل نفوسة حاولوا فى عهد بنى زيرى معاودة الثورة ، وبايعوا أحد مشايخهم ويدعى أبو نوح سعيد بن زنفيل بامامة الدفاع ، واتصلوا باخوانهم بوارجلان وافريقية ، وحاولوا الاستعانة بالخلافة الاموية فى الاندلس ، دون جدوى . فقد ادرك ابو نوح « ان البلاد قد تغيرت والمرور قد تمكرت » واضطر الى طلب الامان من المنصور بن بلكين ، فأمنه واكرم وفادته (312) . واعتصمت فلولهم بجبل نفوسة وواحة وارجلان وبعض نواحى بلاد الجريد (313) . وعلى اثر غزو المرابطين وارجلان هربوا فى منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) الى وادى الميزاب ، كما تفرقوا الى بعض جهات مراكش وجبل دمر — شمال غربى جبل نفوسة — وظل قليل منهم بوارجلان (314). اما النفاثية من زواغة ، فاستوطنوا جزيرة جربة — المواجهة لقابس — كما سكن بقايا الخلفية جبل نفوسة (315). ولم يكن هناك ثمة رابطة بين هذه الجماعات ، فعاشت فى شبه عزلة ، ولم تقم بعد ذلك بأدنى دور فى تاريخ المغرب السياسى .

اما النكار ، فعلى الرغم من خفوت صوتهم فى الحياة السياسية فى

---

(310) برنارد لويس : اصول الاسماعيلية ص 183 .

(311) كتاب تثبيت نبوة سيدنا محمد — مخطوط باسطنبول فى مكتبة شهيد على باشا برقم 1575 . وقد اقتبسنا النص السابق نقلا عن برنارد لويس فى كتابه : اصول الاسماعيلية ص 183 .

(312) انظر : ابو زكريا : ورقة 49 وما بعدها .

(313) ابو زكريا : ورقة 115 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 43 ، السلاوى : ج 1 ورقة 116 ، Bel : Op. Cit. P. 150, Faroughy : Op. Cit. P. 15, Basset : Recherches P. 336.

(314) اطفيش : بعض تواريخ وادى ميزاب ص 116 ، Masqueray : Op. Cit. P. LXXV

(315) ابو زكريا : ورقة 32 ، Lewcki : Melanges ... P. 270, Basset : Op. cit. P. 336.

بلاد المغرب لم « تنقطع آثار دعوتهم » — كما ذهب ابن خلدون (316) ، فقد ظل بنو برزال يدينون بمذهب النكار ويثيرون العراقيل فى وجه بن زيرى لصالح أموى الاندلس (317) . وتمركزت فلولهم بين طرابلس وقابس ، كما اقامت جماعات منهم بجبال بجاية وقسنطينة وما ولاها ، فضلا عن بلاد الجريد ، وقد وصفهم التجانى (318) — فى القرن الثامن — بسوء الخلق وحدة الطباع .

اما الخوارج الصفرية ، فقد ذوى شانهم نهائيا من بلاد المغرب فى اواخر القرن الرابع الهجرى (319) .

وهكذا — لم يرضخ الخوارج للحكم الفاطمى بسقوط دولتيهما فى سجلماسة وتاهرت سنة 297 هـ (909 م) وظلت ثوراتهم تقض مضاجع الفاطميين ابتداء من المهدى وانتهاء بالمعز ، وكادت احدى هذه الثورات أن تعصف بحكمهم نهائيا من بلاد المغرب . لكن فشل هذه الثورات افضى فى النهاية الى انتهاء دور الخوارج السياسى فى بلاد المغرب الاسلامى ، ذلك الدور الذى وجه احداث المغرب على مدار قرنين ونصف قرن من الزمان .

---

(316) العبر : ج 7 ص 17 .

(317) ابن حيان : المقتبس فى ذكر بلد الاندلس ص 192 ،
Variedades : Op. Cit. P. P. 216, 217.

(318) رحلة التجانى ص 119 ، 120 .

(319) ابن خلدون : ج 6 ص 1322 ،
Bel : Op. Cit. P. 169.

انتهينا من ابراز دور الخوارج فى الحياة السياسية فى بلاد المغرب . لكن اثرهم كـــان عميقا فى المجتمع المغربى بجوانبه المتعددة فى نواحى الفكر السياسى ونظم الحكم فضلا عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافيـــة .

وليس من شك فى أن الخوارج بفكرهم الثورى الديمقراطى أحدثوا نقلة هائلة فى تاريخ المغرب نتج عنها تطور واضح فى نظمه السياسة ، وازدهار فى الحياة الاقتصادية فضلا عـــن تغيير ملحـــوظ فى جوانبـــه الاجتماعية ، وهو ما سنفصله فيما يلـــى :

الباب الخامس

أثر الخوارج في المجتمع المغربي

أولا :

الفكر السياسى ونظم الحكم

لا شك ان نظرية الخوارج فى الحكم اكثر نظريات الفرق الاسلامية ميلا الى الديمقراطية . فعلى خلاف السنة الذين قصروا احقية الامامة على قريش ، والشيعة الذين جعلوها فى على بن أبى طالب وأعقابه (1) ، اقر الخوارج مبدأ جواز امامة اى مسلم عالم بالكتاب والسنة (2) ونادوا بالغائها اذا ما تحققت العدالة والمساواة (3) . ومن هنا نظر المحدثون (4) الى فكر الخوارج السياسى باعتباره فكرا جمهوريا بالمفهوم الحديث .

ونعتقد أن تصارع الاحزاب الاسلامية حول الزعامة السياسية وما نتج عنه من فتن ومحن المت بالمسلمين ، زهد جماعة القراء الذين (5) اصبحوا فيما بعد زعماء الخوارج فى منصب الامامة على اساس أنها سبب البلاء والنكبات التى حلت بالجماعة الاسلامية على اثر مقتل عثمان . والواقع ان سماحة نظرية الخوارج فى الحكم مستمدة من شدة تدينهم وحرصهم على مراعاة تعاليم الاسلام وما تدعو اليه من مساواة وعدالة . فقد ظهروا

(1) ابن حيون : شرح الاخبار ورقة 87 ـ مخطوط ، اساس التاويل ورقة 188 ، 189 ، 194 .

(2) النوبختى : فرق الشيعة : ص 31 ، الاسفرائينى : التبصير فى الدين ص 46 .

(3) الشهرستانى : الملل والنحل : ص 67 .

(4) انظر : Biquet : Op. Cit. P. 35, Smith : Op. Cit. P. 279. Faroughy : Op. Cit. P. 12.

(5) ابن قتيبة الامامة والسياسة : ج 2 ص 206 ، الدينورى : الاخبار الطوال ، ص 191.

كفرقة سياسية دينية اثناء قضية التحكيم بين على ومعاوية ، فانكروا تحكيم الرجال ونادوا بأن « لا حكم الا لله » (6) ، ورفضوا امامة على ومعاوية ، وانكروا احتكار قريش لها ودعوا الى الثورة على مخالفيهم باعتبارهم كفرة مارقين (7) . وينفى هذا دعاوى البعض (8) بأن فكر الخوارج السياسى محصلة ظروف قبلية كامنة فى كونهم من بدو تميم الذين يقدسون الحياة البدوية ويرفضون الخضوع لسلطان الدولة السياسى. فلم يكن الخوارج جميعا من تميم ، انما انتشر مذهبهم بين قبائل بكر وهمدان والازد وغيرها من القبائل العربية الاخرى (9) .

ففكر الخوارج السياسى اذن مصدره الدين وليس العصبية وهو ما عبر عنه ابن خلدون (10) بقوله « .. الخوارج المستميتين فى شأن بدعتهم لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رياسة ولم يتم امرهم لمزاحمتهم العصبية القوية » انما تولد عن « خلاف اجتهادى فى مسائل دينية ظنية » (11) متعلقة بالامامة ، ذلك هو ما اجمع عليه جمهرة من الدارسين الثقاة (12).

وكان الطابع الدينى سمة مميزة لنشاط الخوارج ونظمهم السياسية فى المشرق ، فقد التزموا بتعاليم المذهب فى اختيار الائمة ، وجباية الاموال والجهاد ومعاملة الخصوم .. الخ . كما كان التطرف الشديد من خصائص فكرهم السياسى ومن اسباب فشلهم ايضا حتى قيل بأن « سياستهم غير سياسية » (13) ، وليس ادل على ذلك من قولهم بالاستعراض ورفض التقية وتشددهم فى قبول المهاجرة (14) .. الخ..

الا أن الطابع الدينى وسمة التطرف فى فكر الخوارج السياسى خفت

---

(6) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ص 46 .
(7) ابن الاثير : ج 3 ص 135 ، احمد امين : ضحى الاسلام ج 3 ص 330 .
(8) راجع آراء بارتولد وكايتانى وماسينيون فى هذا الصدد بمجلة Studia Islamica عدد 1 سنة 1953 فى مقال لبرنارد لويس بعنوان :
Some observations on the
Significance of hersey in the history of Islam P.P. 47, 48.
عمر أبو النصر : الخوارج فى الاسلام ص 18 ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج 2 ص 78 .
(9) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص 364 ، الدينورى : الاخبار الطوال ص 197.
(10) انظر : المقدمة ج 2 ص 69 .
(11) انظر المقدمة ج 2 ص 178 ، 179 .
(12) راجع : لويس : اصول الاسماعيلية ص 5 ، فلهوزن : الخوارج والشيعة : ص 29 ، طه حسين : الفتنة الكبرى ج 2 ص 140 .
(13) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 372 .
(14) قطعة من كتاب فى الاديان والفرق ورقة 97 .

حدتهما فى أواخر القرن الاول الهجرى ، فاتخذت مبادئهم طابعا عمليا وجنحت نحو الاعتدال . وظهر ذلك بشكل واضح فى عقائد الاباضية والصفرية متمثلا فى تجويز التقية (15) والتوسع فى قبول المهاجرة عن طريق الدعوة والتنظيم السياسى (16) ، ثم معايشة الجماعة الاسلامية بترك فكرة تكفير المخالفين فى المذهب (17) .

ووجد فكر الخوارج السياسى فى شكله المتطور طريقه الى بلاد المغرب بانتشار مذهبى الاباضية والصفرية بين البربر فى أوائل القرن الثانى الهجرى . والتزم خوارج المغرب بتطبيق تعاليم المذهب حتى السبعينات من القرن الثانى الهجرى فيما قاموا به من نشاط سياسى وما اقروه من نظم فى الحكم والادارة . فقد كانت تعاليم الخوارج تحض على « الثورة على ائمة الجور » (18) ، وتدعو انصار المذهب الى العمل لاقامة « امامة الظهور » (19) ، اذا ما توافر ما يوجب التولية من العدة والعدد من الرجال (20)، لذلك شرع خوارج المغرب فى « المجاهرة بالعمل » (21) واعلنوا الثورة على ولاة المغرب طوال نصف قرن من الزمان .

وتجلى التزام خوارج المغرب بفكرهم السياسى فى عدة مظاهر ، فقد اختار الصفرية ميسرة اماما لا لانه رئيس مطغرة وانما لعلمه وفقهه وسابقته (22) . ولم يقم ميسرة بثورته الا بعد وقوفه على مسؤولية الخلافة عن مفاسد عمالها فى المغرب (23) وتيقنه من ان خلفاء بنى امية « ائمة الجور » . وضمت الحركة عناصر مستضعفة من غير البربر كالافارقة (24) تطبيقا لمبدأ اللاعنصرية . وخلع الصفرية ميسرة لما اخل بشروط الامامة « وتغير عما كانوا بايعوه عليه » (25) .

ولعل من أهم آثار فكر الخوارج السياسى فى المجتمع المغربى تطبيق

---

(15) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ص 51 .
(16) ابو زكريا : ورقة 6 ، الشماخى : السير ص 124 .
(17) الشهرستانى : صفحة 123 .
(18) البغدادى : صفحة 273 ، Provencal : Op. Cit. P. 41.
(19) نصوص من كتاب متن عقيدة التوحيد . انظر :
Motylinski : l'Aqida des Ibadites. P. 510.
(20) ابو زكريا : ورقة 5 .
(21) مجهول : كشف الغمة ورقة 307 مخطوط .
(22) ابن خلدون : ج 6 ص 150 ، السلاوى : ج 1 ص 97 .
(23) الطبرى : ج 2 صفحة 264 .
(24) ابن عبد الحكم : صفحة 293 .
(25) الرقيق : ص 110 ، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص 259 .

مبدأ وجود امامين فى وقت واحد ، فقد تولى الحارث بن تليد وعبد الجبار ابن قيس المرادى امامة الاباضية فى طرابلس سنة 132 هـ (750 م) احدهما للصلاة والآخر للحرب (26) على غرار المحكمة الاولى حين اقتسم المنصبين عبد الله بن وهب الراسبى وحرقوص بن زهير . وفى احتكام امامى الاباضية الى السيف حين دب الخلاف بينهما حتى قتل كل منهما الآخر — لو صحت رواية البرادى (27) — ما يذكر بخلافات زعماء الخوارج فى المشرق لاسباب فقهية . وفى انقسام جماعة المذهب بالمغرب واقتتالهم بسبب ما نسج حول الحادث من قضايا فلسفية وفقهية (28) ما يؤكد اثر الفكر السياسى للخوارج فى نشاطهم ببلاد المغرب . ومن مظاهر ذلك ايضا اجماع الاباضية على امامة ابى الخطاب عبد الاعلى بن السمح سنة 140 هـ (757 م) على الرغم من كونه عربيا (29) وثوراتهم كانت ضد الحكم العربى ، وقد حرص ابو الخطاب على مراعاة اصول المذهب فيما استنه من نظم ادارية ومالية ، واسترشد فى ذلك بمشورة ابى عبيدة مسلم بن ابى كريمة شيخ فقهاء المذهب بالبصرة (30) .

ونعتقد أن فكر الخوارج السياسى قد تأثر بنظرية الشيعة عن الامامة الظاهرة والامامة المستترة ، فقد فرق فقهاء المذهب (31) الاباضى بين امامة الدفاع وامامة الظهور . اذ حينما يتعرض الخوارج لمحن سياسية ، يختارون اماما فى الخفاء تكون مهمته جمع شمل الانصار وتسيير امورهم والفصل فى قضاياهم واعداد العدة للظهور اذا ما واتت الظروف وانقشعت المحنة . هذا هو ما حدث بعد مقتل أبى الخطاب عبد الاعلى بن السمح سنة 142 هـ (759 م) وتعرض الخوارج لبطش الجند العباسى فاختاروا أبا حاتم الملزوزى اماما للدفاع فى الوقت الذى كان فيه عبد الرحمن بن رستم يعد العدة لامامة الظهور (32) . وتكرر الامر بعد سقوط دولة بنى رستم وتنكيل الفاطميين بالخوارج فاجتمع الاباضية فى نفوسة على ابى يحيى الارجانى وبايعوه بامامة الدفاع على امل ان يلتئم شمل انصار المذهب

---

(26) ابن عبد الحكم : صفحة 302 .

(27) انظر : الجواهر المنتقاة : ورقة 87 ، Masqueray : Op. Cit. P. 23

(28) انظر : الشماخى : السير " ص 125 .

(29) نفس المصدر والصحيفة .

(30) انظر ملحق رقم : (1)

(31) انظر : نصوص من متن عقيدة التوحيد — Motylinski : L'Aquida des Ibadites. P. 510

(32) ابو زكريا : ورقة 11 .

فى بلاد المغرب فيقيموا امامة الظهور (33) .

وظهر اثر فكر الخوارج السياسى فيما قام به الصفرية والاباضية من ثورات وما خاضوه من حروب التزموا فيها جميعا بتعاليم المذهب . فالخوارج الصفرية فى المغرب كانوا يقتدون بأهل النهروان « فى التحكيم ورفع المصاحف وحلق الرءوس » (34) فى حروبهم . ونظر التطرف مبادئهم فى معاملة الخصوم (35) ، اتسمت حروبهم بالعنف والقسوة (36) فكانوا « يقتلون الاطفال والولدان » (37) ويستحلون سبى النساء والذرارى (38). اما الاباضية فكانوا اقرب الى الاعتدال سواء فى خوض الحروب أو معاملة الخصوم ، فكانوا لا يشهرون الحرب على اعدائهم الا بعد اعلامهم واخذ الحجة عليهم ، ولم يتبعوا المدبر أو يجهزوا على الجرحى ، كما لم يخربوا الزروع ولم يهدموا سوى الحصون والاسوار وتعففوا عن الغنائم من غير السلاح والعتاد ، ولم يقتلوا الاطفال أو يسبوا النساء ، تمسكا بتعاليم المذهب (39) . يظهر ذلك فى حروب الحارث وعبد الجبار فى طرابلس (40)، ومعاملة ابى الخطاب عبد الاعلى بن السمح للقيروانيين (41) ، ومعاهدة ابى حاتم الملزوزى مع جميل بن صخر (42) .

وظل التزام خوارج المغرب بعقائد المذهب فى سياساتهم ونظمهم خلال السنوات الاولى من حكم ائمة بنى مدرار بسجلماسة وبنى رستم بتاهرت ، اذ طغت تعاليم المذهب على دوافع العصبية والعنصرية .

فالخوارج الصفرية بايعوا عيسى بن يزيد الاسود من موالى العرب بالامامة سنة 140 هـ (43) (757 م) انطلاقا من مبدأ جواز تولية غير العرب من المسلمين . وفى انشاء سجلماسة ما ينم على بروز العامل الدينى المذهبى ، اذ شيدت لتكون مجمعا للخوارج الصفرية » (44) من سائر

---

(33) نفس المصدر : ورقة 115 . Lewcki : Etudes Ibadites. P.P. 50, 98.
(34) مجهول : اخبار مجموعة . صفحة 32 .
(35) الشهرستانى : صفحة 121 .
(36) Gautier : Op. Cit. P. 269.
(37) اخبار مجموعة : صفحة 29 .
(38) الرقيق : صفحة 117 ، 141 .
(39) السوفى : شرح السؤالات ورقة 57 ، الشهرستانى : ص 121 .
(40) انظر : ابن عبد الحكم : ص 301 .
(41) ابو زكريا : ورقة 8 ، الشماخى : السير : ص 129 .
(42) ابن الاثير : ج 5 ص 222 ، ابن خلدون : ج 4 ص 193 .
(43) ابن خلدون : ج 6 صفحة 130 .
(44) المقدسى : احسن التقاسيم ص 219 .

العناصر وكافة العصبيات المغربية . ونفس الشيء يقال عن الاباضية ، فقد بايعوا عبد الرحمن بن رستم بالامامة — وهو من الفرس — لفضله وعلمه وسابقته وكفاءته وسلامة حواسه واعضائه (45) . لقد بويع ابن رستم اماما للدفاع سنة 144 هـ (761 م) — على اثر مقتل ابى الخطاب — فى المغرب الاوسط فى نفس الوقت الذى كان فيه ابو حاتم الملزوزى اماما للدفاع أيضا فى طرابلس وجبل نفوسة (46) . اذ ان الفقه الاباضى يجوز بيعة امامين فى وقت واحد « ما وجد بين حوزتيهما عدو يخشى بأسه ، أو لشقة البعد بينهما » (47) . ولم يحل ذلك دون تعاونهما لاقامة امامة الظهور التى تقلدها ابن رستم سنة 162 هـ (179 م) ، فقد كان ابو حاتم يبعث الى عبد الرحمن بزكاة امواله (48) . وبيعة ابن رستم الثانية تمت بموافقة «اهل الحل والعقد » من مشايخ المذهب واجماع جمهور الاباضية (49) ، ووفقا لشروط الامامة فى الفقه الاسلامى (50) .

وكما أسست سجلماسة لتكون مقرا للخوارج الصفرية ، اقيمت تاهرت لتكون « حصنا وحرزا للمذهب الاباضى » (51) الذى كانت تعاليمه مرعية فى سياسة الدولة ونظمها فى عهد عبد الرحمن بن رستم حتى اطلق عليها بعض الدارسين (52) « مملكة الله » .

والواقع انه ليست لدينا معلومات عن النظم الادارية والمالية فى سجلماسة ، لكن المصادر حفلت باشارات عن نظم الدولة الرستمية . ويتضح منها أن عبد الرحمن بن رستم راعى تعاليم المذهب الاباضى فى سياسته الداخلية . لقد استفاد عبد الرحمن من خبرة الفرس فى هذا الصدد (53) لكنه لم يسمح لهم بأى تفوق سياسى أو تمييز اجتماعى فى دولته (54) ، فكان يختار عماله وقضاته وأصحاب شرطته ومحتسبيه ممن يثق فى علمهم وصلاحيتهم . وكان نظام الجباية والصدقات ونواحى انفاقها كل ذلك يجرى حسب شرائع المذهب ووفقا لتعاليمه . وليس ادل

---

(45) ابن خلدون : المقدمة ج 2 ص 522 .
(46) البرداى : الجواهر المنتقاة ورقة 88 .
(47) اطفيش : الامكان ص 107 ، 108 .
(48) ابو زكريا : ورقة 115 .
(49) نفس المصدر : ورقة 11 .
(50) الماوردى : الاحكام السلطانية : ص 6 .
(51) ابو زكريا : ورقة 13 .
(52) انظر : Mercier : l'Etablissement des Arabes P. 133.
(53) ابن الصغير : ص 16 ، محمد بن تاويت : دولة الرستميين ص 113 .
(54) Smith : Op. Cit. P. 279.

على ذلك من قول ابن الصغير (55) المالكى « .. وقضاته مختارة وبيوت امواله ممتلئة ، واصحاب شرطته والطائفون به قائمون بما يجب ، واهل الصدقة على صدقاتهم يخرجون فى اوان الطعام فيقبضون أعشارهم فى كل هلال .. (هكذا بالاصل) من اهل الشاة والبعير يقبضون ما يجب على أهل الصدقات لا يظلمون ولا يظلمون . فاذا حضر جميع ذلك صرف الطعام الى الفقراء وبيعت الشاات والبغير ، فاذا صارت أموالا ، دفع منها الى العمال بقدر ما يستحقون على عملهم ، ثم نظر فى باقى سائر المال ، فاذا عرف مبلغه ، أمر باحصاء من فى البلد وفيما حول البلد ، ثم أمر باحصاء الفقراء والمساكين فاذا علم عددهم أمر باحصاء ما فى الاهراء من الطعام ، ثم أمر بجميع ما بقى من مال الصدقة فاشترى منه اكسية صوفا وجبابا صوفا وفراء وزيتا . ثم دفع فى كل أهل بيت بقدر ذلك ، ويؤثر بأكثر ذلك اهل الفاقة من مذهبه ثم ينظر الى ما اجتمع من مال الجزية وخراج الارضين، وما اشبه ذلك فيقتطع لنفسه وحشمه وقضاته واصحاب شرطته والقائمين بأموره ما يكفيهم فى سنتهم ، ثم ان فضل فضل صرفه فى مصالح المسلمين ».

وفى تصرف عبد الرحمن بن رستم فى الاموال التى بعثها اليه خوارج المشرق مع بعثتهم الاولى اليه ، واجتماعه برؤساء القبائل وشيوخ المذهب فى المسجد الجامع وانفاقه هذه الاموال وفقا لنصيحة أهل الرأى منهم « ثلث فى الكراع وثلث فى السلاح وثلث فى فقراء المسلمين » (56) ما يقيم الدليل على مراعاته تعاليم المذهب فى سياسته الداخلية . ولا غرو فقد حظى حكمه برضى الشراة فى المغرب وشيوخ المذهب فى المشرق « فوصلوه بكتبهم ووصاياهم » (57) .

على أن خوارج المغرب لم يلتزموا بالفكر السياسى عند الخوارج ، ولم يراعوا تعاليم المذهب وشرائعه بعد انتهاء حكم مؤسسى دولتيهما فى سجلماسة وتاهرت . ففى سجلماسة برزت النعرات العنصرية والعصبيات وتحكمت فى مقاليد الحكم ونظم الادارة . اذ ان الامامة تحولت الى ملك وراثى احتكرته قبيلة مكناسة فى أسرة بنى مدرار (58) بعد صراع مع زنوج السودان وتنحية

---

(55) سيرة الائمة الرستميين : ص 15 ا 16 .
(56) النفوسى : صفحة 91 .
(57) الشماخى : السير . صفحة 141 .
(58) ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، Bel : Op. Cit. P. 167.

عيسى بن يزيد الاسود وقتله سنة 155 هـ (59) (772 م) . ومنذ ذلك الحين درج أمراء البيت المدرارى على انتهاك تعاليم المذهب وتقاليد الامامة حتى ان أحدهم خلع نفسه ليظفر احد ابنائه بالحكم كيدا فى ابنه الآخر (60). وبلغ الخروج على المذهب مداه بتولية الاطفال والنساء مقاليد الحكم ، فقد تولى المنتصر سمكو بن محمد الحكم سنة 332 هـ (945 م) ولما يتجاوز الثالثة عشرة من عمره تحت وصاية جدته (61) . ولعل مما يؤكد تحول الامامة فى سجلماسة الى ملك وراثى اتخاذ أمراء سجلماسة القابا على غرار العباسيين كالمنتصر والمعتز ، وتخليهم عن حياة الزهد والبساطة التى اتسم بها ائمة الخوارج واقبالهم على حياة البذخ والثراء واقتناء الاموال (62) والتشبه بالملوك والامراء .

وقد حدث فى تاهرت بعد موت عبد الرحمن بن رستم نفس ما حدث فى سجلماسة بعد مقتل عيسى بن يزيد الاسود ، اذ تحولت الامامة الى ملك وراثى (63) واتخذ الائمة الوزراء والحجاب (64) . وغدت وظائف الدولة حكرا على عصبيات بعينها استأثرت بها من دون العناصر الاخرى .

والمصادر الاباضية (65) تحاول اظهار شرعية امامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، فتذكر انه « اجمع عليه اهل الشورى ، ثم بويع بعد ذلك بيعة عامة لم يتخلف عنها احد » التزاما بنصيحة والده الذى اشار قبل موته بجعل الامامة شورى بين سبعة أشخاص (66) يختارون الاصلح من بينهم على غرار ما فعله عمر بن الخطاب .

---

(59) البكرى : صفحة 149 .

(60) راجع : البكرى : ص 150 . ابن عذارى : ج 1 ص 216 .

(61) البكرى : صفحة 151 .

(62) ابن عذارى : ج 1 ص 216 ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام : ج 3 ص 143 .

(63) ابن الصغير : صفحة 16 ، 20 .

(64) وزر لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم السمح بن ابى الخطاب ومزور بن عمران . انظر : النفوسى : ص 165 . وهذا ينفى زعم هوبكنز أن بنى رستم لم يعرفوا نظام الوزارة على أساس أن ابن الصغير — حسب قوله — لم يشر الى ذلك . انظر Hopkines : Medieval Moslem government. P. 5 والواقع ان ابن الصغير يذكر « . . وقد ابتدر اليه (يعنى احد الذين رشحوا لتولى القضاء) اصحابه فاحاطوا به وقالوا له ان فلان بن فلان القاضى توفى ، وقد اجمع راى المسلمين ووزراء الامام عليك . . . . » مما يدحض زعم هوبكنز . انظر : سيرة الائمة الرستميين . ص 47 .

(65) انظر : أبو زكريا : ورقة 14 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 21 ، النفوسى : ص 99 .

(66) وكان هؤلاء السبعة هم : مسعود الاندلسى وابو قدامة اليفرنى ويزيد بن فندين وعمران ابن وران الاندلسى وسعدوس بن عطية وشكر بن صالح الكتامى ومصعب بن سدمان . انظر : أبو زكريا : ورقة 14 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 21 .

والواقع أن اختيار عبد الوهاب لم يكن على سنة ما فعله عمر بن الخطاب ذلك ان عمرا اوصى قبل موته بأن يكون ابنه عبد الله حكما فى مجلس الشورى دون أن يكون له أحقية تقلد الخلافة . أما عبد الوهاب فقد اختير للامامة قسرا ، ذلك أن رأى أهل الشورى كان فى جانب مسعود الاندلسى ، فقد « مال الاكثرون والعامة الى تولية مسعود وبادروا الى مبايعته » (67) . لكن تعصب بنى يفرن وحرصهم على اختيار عبد الوهاب افضى الى تنصيبه . ذلك أن أم عبد الوهاب كانت يفرنية ، واستطاع أبو قدامة اليفرنى ان يحول جماعة الشورى عن مسعود الاندلسى ليجعل الامامة من نصيب عبد الوهاب وما تسوقه المصادر (68) الاباضية من تبرير عدم اختيار مسعود الاندلسى بأنه اختفى زهدا فى الامامة وهربا من مهامها ، امر غير مقبول .

وقد اثار تنصيب عبد الوهاب حفيظة الجانب المتشدد فى جماعة الشورى والذى مثله يزيد بن فندين ، اذ اعتبر تولية عبد الوهاب انتهاكا لتعاليم المذهب وخروجا على سنن السلف . وبذلك لم يجمع جماعة الشورى على امامة عبد الوهاب « لان الاجماع الذى هو شرط الامامة معناه اتفاق مجتهدى الامة » كما تنص تعاليم المذهب الاباضى (69) . وقد مثل جماعة ابن فندين الذين عرفوا بالنكار الفرقة المحافظة على تعاليم المذهب والملتزمة حدوده ، فنادوا بوجوب جماعة يسترشد الامام برأيها ولا يقطع أمرا الا بمشورتها وبذلك تكون الامامة « مشروطة » (70) كما نادوا بضرورة مراعاة اصول المذهب فى اختيار الولاة والعمال ، وانكروا احتكار الفرس ونفوسة وظائف الدولة (71). ودعوا الى اختصاص أهل الخبرة والحصافة بها من بين جمهور الاباضية دونما تفرقة أو تمييز عملا بشرائع المذهب (72) . وكان

---

(67) الشماخى : السير ص 145 .
(68) ابو زكريا : ورقة 14 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 21 ، النفوسى : ص 99 .
(69) الشماخى : مقدمة اصول الفقه . ورقة 64 .
(70) ابو زكريا : ورقة 14 ، الشماخى : السير ص 145 .
(71) ابن الصغير : ص 22 ، النفوسى : ص 114 .
(72) ذكر ابو غانم الصفرى فى مدونته انه سال احد فقهاء المذهب الاباضى هذا السؤال : اى الرجلين أحب أن يستعمل ، الرجل الصالح الذى لا قوة له بالعمل ، أو الرجل الذى هو دونه فى الصلاح وهو أقوى على العمل ، فأجابه القوى العالم بالعمل أحب أن يستعمل . (انظر : مدونة ابى غانم ورقة 1) وهذا يفند دعاوى مؤرخى الاباضية الذين حاولوا تبرير اختصاص عبد الوهاب ذويه واتباعه بوظائف الدولة « لانهم من اهل العلم والبصيرة فى الدين » . انظر : ابو زكريا : ورقة 15 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 22 ، النفوسى : ص 102 .

أنتصار الامام عبد الوهاب على جماعة النكار يعنى التغلب على الطابع الدينى فى نظم الحكم الرستمية وتحول الامامة الى سلطة مركزية أشبه ما تكون بالملكية المطلقة .

فقد آلت الامامة الى افلح بن عبد الوهاب بعد وفاة ابيه تلقائيا وقد حاول مؤرخو الاباضية (73) تبرير ذلك ، فذهبوا الى ان اهل الحل والعقد بادروا بتنصيب افلح اثر موت والده مخافة خطر العدو المتربص بتاهرت . وجدير بالتنويه انهم لم يذكروا شيئا عن هذا العدو المزعوم الا أنه مقيم بجبال تاهرت . والواقع أن جماعة النكار التى كانت تسكن تلك الجبال كانت قد تشتت شملها وعادت فلولها الى مواطنها الاولى منذ عهد عبد الوهاب . كما لم يحدث فى آخر سنى حكمه سوى تمرد خلف بن السمح الذى لم يكن خطرا مباشرا على مركز الامامة فى تاهرت ذلك ان حركته اقتصرت على نواحى طرابلس وجبل نفوسة وقد فات هؤلاء المؤرخون ان عبد الوهاب عقد ولاية العهد لافلح قبل وفاته ، وعقب انتصاره على بدو هوارة حيث قال « لقد استحق افلح الامامة » وبعدها « انقطع اليه المنقطعون ودارت الحوائج والعطاء من تحت يديه » (74) ، كما كان افلح صاحب السلطة فى تاهرت أثناء غياب والده بجبل نفوسة وصراعه مع الاغالبة حول طرابلس ، الامر الذى يؤكد ثبوت مبدأ التوريث فى الامامة الرستمية .

كما جرى افلح على سنة والده فى « استعمال العمال والجباية ومطالب بيت المال » (75) ، مما أثار حفيظة الفقهاء فثاروا بقيادة نفاث بن نصر لانتهاك الامام رسوم الامامة وتقاليدها (76) . الا أن أفلح ارغم — امام ظهور خطر القبائل والعصبيات — على التراجع فى سياسته ، وعاد الى تطبيق مبدأ اللامركزية والمساواة — فأخذ بنصائح اهل الراى والمشورة من شيوخ القبائل فى تعيين الولاة والعمال (77) كما الزم عماله ضرورة مراعاة فقه المذهب فى نظام الجباية فى نفس الوقت الذى اتاح لهم فيه مزيدا من السلطات داخل عمالاتهم (78) . يتضح ذلك من رسالة له لاحد عماله

---

(73) انظر ابو زكريا : ورقة 26 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 32 ، الشماخى : السير ، صفحة 192 .
(74) ابن الصغير : صفحة 23 .
(75) النفوسى : صفحة 195 .
(76) ابو زكريا : ورقة 30 .
(77) ابن الصغير : صفحة 23 .
(78) النفوسى : صفحة 188 .

جـــاء فيهـــا :

« واما ما ذكرته من ان اجعل لك سبيلا واطلق يدك ، وأن الحاضر يرى مالا يراه الغائب فلعمرى انه لكذلك ، ولكن ليس فى هذا (يقصـــد الخراج) ،انما هى اسهم جعلها الله واوقفها ،وهى وسخ اموال الناس وليس لنا فيها قضاء ولا زيادة ولا نقصان ولا أمر ولا نهى الا على قدر الاجتهاد »(79) فاتباع افلح هذه السياسة لا يرجع الى حرص منه على مراعاة تعاليم المذهب بقدر اضطراره الى الاخذ بالتقاليد والاعراف البدوية .

ومن مظاهر ذلك اضراره الى تعيين محكم الهـــوارى قاضيا على الرغم من « انه انشأ فى بادية ولا يعرف لذى القدر قدره ولا لذى الشرف شرفه » (80) وكان رؤساء القبائل هم الذين « انزلوه فى الدار المعروفة بدار القضاء ، واجروا عليه من بيت المال قوته » (81) .

لقد اخذت الامامة الرستمية منذ ذلك الحين توفق بين مطالب الحكم وبين الاعراف البدوية والتقاليد الفارسية وتعاليم الطوائف المذهبية المختلفة فى تاهرت . وتجلى الاثر الفارسى فى الاصرار على مبدأ الوراثة والاخذ بالنظم والرسوم الفارسية فى الحكم والادارة . فبعد موت افلح بن عبد الوهاب آلت الامارة الى ابنه ابى بكر رغم اعتراض الفقهاء (82) . وليس كما يذهب النفوسى (83) بانه اختير نتيجة اجماع اهل الحل والعقد من رؤساء القبائل والعصبيات وشيوخ المذهب . كما تولى ابو حاتم يوسف الامامة بعد أن عهد والده اليه بولاية العهد (84) . ومن مظاهر التأثر بالتقاليد الفارسية ايضا تعويل ائمة بنى رستم على اتخاذ الكتاب والحجاب والحراس ، فضلا عن نظم السجلات واستخدام الخاتم وغيرها من النظم التى تأثرت بالتقاليد الفارسية فى الادارة (85) .

ثم ازداد اثر الطوائف غير الاباضية فى أواخر عصر بنـــى رستم . فاضطر ابو اليقظان محمد الى الانتقاص عن سلطات بعض القبائل التى

(79) نفس المصـــدر والصحيفـــة .
(80) ابـــن الصغيـــر : صفحـــة 24 .
(81) نفس المصـــدر صفحـــة 25 .
(82) نفس المصدر : صفحـــة 31 ، 47 .
(83) الازهـــار الرياضيـــة : ج 2 ص 222 .
(84) ابـــن الصغيـــر : صفحـــة 50 .
(85) نفس المصـــدر : صفحـــة 42 ، 47 .

كانت تستأثر بالمناصب العامة (86) وجعلها مشاعا بين كافة الفرق والطوائف من غير الاباضية ، كما اتخذ مجلسا للمشورة يضم الى جانب شيوخ القبائل واعلام المذهب الاباضى ، كثيرين من الكوفيين والمالكية والواصلية (87) . ولا شك ان سلطان هذه الطوائف قد زاد ابان امامة يعقوب بن افلح الذى تولاها بفضل رؤساء تلك الطوائف وخاصة الكوفيين (88) . كما اضطر أبو حاتم يوسف الى اشراك كافة رؤساء الفرق فى الحكم « اباضية وغير اباضية » (89) .

ومع ذلك لم تجد سياسة الرستميين الاواخر فى التوفيق بين مطالب الحكم وبين مصالح القوى المختلفة فى تاهرت فى تحقيق الاستقرار السياسى، اذ ان القبائل البدوية طمعت فى تولى السلطة وقدر لها ان تحقق هدفها بنجاح محمد بن مسالة الهوارى فى اغتصاب الحكم فى تاهرت مدة ثمانية اعوام(90) كذلك تربص الفرس للاستيلاء على الحكم ابان الصراع بين الامام أبى بكر ابن افلح وبين الجند والعرب لكن خاب أملهم (91) . ولا يخفى دور الفرق والطوائف غير الاباضية فى احداث تاهرت فى العصر الرستمى الاخير من أجل « تبييت خبر الاباضية » (92) .

ووقف الرستميون مكتوفى الايدى أحيانا أمام هذه المؤامرات ، اذ لم يكن للامامة جيش ثابت يتصدى لتلك المشكلات . ويذهب بل (93) الى ان افتقار بنى رستم الى مثل هذا الجيش يعزى الى انشغال الائمة بالمسائل العلمية والفقهية ، وميلهم للمسالمة وزهدهم فى اثارة الحروب » . والواقع أن السبب الحقيقى يكمن فى استحالة تكوين جيش موحد فى ظل عصبيات وعناصر مختلفة ومتناحرة « فكان لكل قبيلة رجالها وخيلها وسلاحها وكراعها » (94) . لذلك كان « الاجناد هم بطانة السلطان واولاده وحشمه » (95) فضلا عن أحلافه من القبائل وخاصة نفوسة التى كانت

(86) ابن الصغير : ص 41 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 91 .
(87) ابن الصغير : ص 44 ، البرادى : نفس المصدر والصحيفة .
(88) ابن الصغير : ص 56 ، النفوسى : ص 275 .
(89) البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 103 .
(90) ابن الصغير : ص 39 ، النفوسى : ص 236 .
(91) ابن الصغير : صفحة 37 .
(92) نفس المصدر : صفحة 51 .
(93) انظر : La religion Musulmane .. P. 149
(94) الشماخى : السير : صفحة 148 .
(95) ابن الصغير : صفحة 27 .

موالية للامامة وتواق الائمة بالامداد فى أوقات الخطر والازمات (96) .

ثم تضاءل نفوذ اتباع الائمة من « الرستميـة والسمحيـة » (97) وانهارت قوة نفوسة بعد موقعة مانو سنة 269 هـ (883 م) التى قضى فيها الاغالبة على خيرة الجند النفوسى ، فأصبحت الامامة الرستمية لعبة فى أيدى يد القوى المتنازعة فى تاهرت .

وبسبب افتقار ائمة بنى رستم الى جيش ثابت لجأوا الى وسائل مختلفة لمواجهة الثورات الداخلية ولو كان ذلك خروجا على الفكر الاباضى فقد درجوا على اصدار نداءات الى الرعية يدعون فيها الى الكف عن الفتن والتزام « سنة السلف الصالح » فى نفس الوقت الذى كانوا فيه ينتهكون تعاليم المذهب ويخرجون على سنة أسلافهم من أقطابه .

فعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم رغم التزامه بمبدأ الوراثة فى الحكم لنفسه ولابنائه من بعده بعث نداء الى اهل جبل نفوسة وناحيـة طرابلس يحضهم فيه على « تقوى الله والاتباع لما أمر به » (98) وحـرم عليهم ما استحله لنفسه ونهاهم عن طاعة خلف بن السمح الذى خلف والده فى ولاية تلك النواحى .

وافلح بن عبد الوهاب اقتفى اثر والده حين ثار عليه نفاث بن نصر لخروجه عن تعاليم الاباضية فكتب خطابا « الى سائر المسلمين فى شأن نفاث » يخاطبهم فيه بقوله : « .. وأنتم محقوقون باتباع آثار سلفكم والسلوك على مناهجهم ، وان تفعلوا بهذا التائه المتخبط ما كان يفعله سلفكم بمن كان قبله » (99) . كذلك كان شأن محمد بن افلح الذى وجه نداء الى رعاياه يحضهم فيه على « اتباع الماضيين من السلف والمتقدمين من الائمة والصالحين من أهل الدعوة » (100) .

وضرب بنو رستم صفحا عن جوهر التعاليم الاباضية التى تدعو الى « الامر بالمعروف وبالنهى عن المنكر » ولجأوا الى الاساليب السياسيـة الملتوية كالتجسس وبذل الرشاوى والخداع فضلا عن الاغتيال السياسى . فعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم حين اعيته الحيل فى قمع ثورة خلف

---

(96) الشماخى : السير : صفحة 155 .
(97) ابن الصغير : صفحة 27 ، 36 .
(98) انظر : ملحق رقم (3) .
(99) النفوسى : صفحة 199 .

ابن السمح بث عيونه وجواسيسه للوقيعة بين خلف واتباعه (101) ، كما بعث سرا الى بعض رجال خلف يؤلبهم عليه ويمنيهم بالاموال والضياع (102) . واخذ ابنه افلح من بعده بمبدأ « فرق تسد » فأرشى ما بين كل قبيلة ومجاورها (103) « والقى موجبات التخالف بين كل مقدم وأتباعه ، وبث الجواسيس بطرق سياسية وتدبيرات باطنية كفته مؤونة القتال » (104) . وعول الرستميون الاواخر على « استعمال الدرهم والدينار بدل الرمح والسنان » (105) فى كسب الانصار ومواجهة الخصوم. وشاع الاغتيال كأسلوب جديد اتبعه بنو رستم للتخلص من مناوئهم ، واستشرى هذا الداء ولم يسلم منه افراد البيت الرستمى نفسه ، فقد اغتال ابو بكر بن افلح محمد بن عرفة صهره وساعده فى ادارة شؤون دولته وسط سخط الفقهاء وتبرمهم (106) ، كما لقى ابو حاتم يوسف بن محمد حتفه على ايدى بعض المتآمرين من افراد اسرته من اجل الوصول الى الحكم (107) .

وهكذا اختفى — تقريبا — اى اثر لفكر الاباضية فى نظم الحكم الرستمية بعد موت عبد الرحمن بن رستم (108) مؤسس الدولة ، وتحولت الامامة الاباضية الى ملك وراثى غلب عليه الطابع البدوى ، وتأثر بالتقاليد الفارسية وتعاليم الفرق والمذاهب الاخرى غير الاباضية .

ومع ذلك فقد ترك الخوارج آثارا واضحة فى الفكر السياسى ونظم الحكم ببلاد المغرب ، خاصة فى الفترة ما بين اوائل القرن الاول الهجرى ومنتصف القرن الثانى .

---

(100) انظر : ملحق رقم (5) .
(101) يفهم ذلك من رواية للنفوسى تقول ان شخصا من انصار الامام عبد الوهاب كان يندس بين أصحاب خلف ويكاتب الامام بكل ما يسمعه . انظر : الازهار الرياضية ج 2 صفحة 155 .
(102) الوسيانى : سير ابى الربيع ورقة 30 .
(103) ابن الصغير : صفحة 27 .
(104) النفوسى : صفحة 183 .
(105) نفس المصدر : صفحة 278 .
(106) ابن الصغير : صفحة 34 .
(107) ابن عذارى : ج 1 ص 278 .
(108) ابن الصغير : صفحة 56 .

ثانيا :

الحياة الاقتصادية

احدث الخوارج اثارا بعيدة المدى فى احوال بلاد المغرب الاقتصادية. والشائع أن هذا هذه الاثار كانت سيئة للغاية ، اذ تمخض عنها خراب وركود وكساد فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة . غير أن مسؤولية الخوارج فى هذا الصدد مبالغ فيها ، ذلك أن احوال المغرب الاقتصادية كانت سيئة ، منذ حكم البيزنطيين ، وزادت سوءا نتيجة استنزاف طاقاته وموارده فى الحروب الطويلة التى استغرقتها الفتوح العربية وما ارتبط بها من ثورات ضد الفاتحين ، كتلك التى قام بها كسيلة والكاهنة ، وما تمخض عن هذه الثورات من تخريب المزارع واحراق الاشجار ، فضلا عما أزهق فيها من أرواح (109) مما زاد فى تفاقم أحوال البلاد الاقتصادية .

وليس من شك فى أن سياسة بعض عمال بنى أمية فى المغرب زادت الامر سوءا (110) ، فقد أرهقوا الاهلين بالمغارم والجبايات ، وحفلوا باشباع نهم الخلفاء فى دمشق ، واهملوا سبل الاصلاح الاقتصادى . وحسبنا أن البربر اعتنقوا مذهب الخوارج لتخليصهم من جور بنى أمية وسوء سياستهم الاقتصادية (111) .

غير أن ثورات الخوارج زادت — دون شك — فى تفاقم الازمات

(109) ابن عذارى : ج 1 صفحة 83 .
(110) نفس المصدر : صفحة 52 .
(111) نفس المصدر والصحيفة .

الاقتصادية ، اذ استمرت قرابة نصف قرن من الزمان أرهقت خلالــه خزائن الولاة بروانب الجند وأعطياتهم (112) ، وخربت المزارع والمناجم ، وكسدت التجارة وتهددت الطرق بالاخطار .

ومن الانصاف ان نذكر ان مسؤولية الولاة فى هذا الصدد لا تقــل عن مسؤولية الخوارج ، وأن الصفرية من دون الاباضية (113) اسهموا بنصيب كبير فيما حل بالبلاد من تخريب ، فقد درجوا فى حروبهم على نهب الاموال واحراق الزارع والضياع . وليس ادل على ذلك من تخريب الزروع على مسيرة يومين من طنجة اثناء حصارهم بلج بن بشر ورجاله بطنجة سنة 123 هـ (114) (741 م) . وفظائعهم بالقيروان سنة 139 هـ (756 م) سبق التنويه بهــا .

الا ان ثورات الخوارج عموما — صفرية واباضية — ، استنزفت جهود الولاة ومواردهم المالية ، فقد انفقوا الكثير على اعداد الجيــوش ومضاعفة الاعطيات لمواجهة هذه الثورات (115) . كما اسفرت عن هدم العمائر والاسوار مما جشم الولاة عناء ترميمها او اعادة بنائها . وفضــلا عن ذلك فقد ازهقت اعداد من البشر اجمع المؤرخون على كثرتها ، فضلا عما كان يحــدث من امراض واوبئة اودت بحياة الكثيرين نتيجة تعفن جثث القتلــى (116) .

وأدى ذلك كله الى حدوث الازمات والمجاعات (117) ، حتى ألف الناس اكل الاعشاب والدواب والكلاب (118) وخاصة اثنـــاء فتــرات الحصـــار الطويـــل (119) .

وليس ادل على سوء احوال بلاد المغرب الاقتصادية آنذاك مـــن استعانة ولاة المغرب بأموال مصر لمواجهة خطر الخوارج ، فكانت تــرد اليهم اعانة سنوية قدرها مائة الف دينار (120) . ومع ذلك لم يكن بوسعهم

---

(112) البلاذرى : فتوح البلدان ص 275 ، ابن تغرى بردى : ج 2 ص 20 .
(113) الدرجينــى : ج 1 ورقــة 14 .
(114) مجهــول : اخبــار مجموعــة : صفحــة 35 .
(115) الرقيــق : ص 119 ، ابن عذارى : ج 1 ص 59 .
(116) الــرقيــق : صفحــة 125 .
(117) نفس المصــدر : صفحــة 118 .
(118) اخبــار مجموعــة : صفحــة 37 ، 38 .
(119) ابــن عــذارى : ج 1 صفحــة 76 .
(120) ابــن الاثيــر : الكــامــل : ج 5 صفحــة 63 .

القيام بأعباء الحكم والنهوض بأحوال البلاد الاقتصادية ، واقتصرت جهودهم على النواحى العسكرية كبناء الاسوار واقامة الحصون والقلاع (121) . وغنى عن البيان أنه لم يقدر لولاة القيروان الاهتمام بالنواحى الاقتصادية الا بعد ضعف شوكة الخوارج بها ، فلم نسمع عن جهود لهم فى هذا الصدد الا فى عهد محمد بن الاشعث أول من قمع حركات الخوارج فى العصر العباسى ، لكن الازدهار الاقتصادى الذى احدثه لم يستمر طويلا (122) اذ سرعان ما اندلعت ثورات الخوارج بعد رحيله الى المشرق .

وتتضح الآثار السيئة لثورات الخوارج على أحوال المغرب الاقتصادية من جهود يزيد بن حاتم فى مواجهة المجاعات والازمات الاقتصادية ، فقد اهتم بزراعة الاراضى وجعل غلتها مباحة للناس (123) ، وكانت مراعية الخاصة ومراعى اسرته تقدم ذبائح الابل والغنم للرعية (124) . واليه يرجع الفضل فى الاهتمام بالحرف والصناعات واقامة الاسواق ، وتنسيقها (125) للخروج بالبلاد من الكبوة الاقتصادية التى أحدثتها ثورات الخوارج . لكن هذه الجهود الكبيرة لم تحقق للبلاد النهضة الاقتصادية المرجوة ، وحسبنا على ذلك دليلا أن كثيرين من ولاة القيروان من بعده كانوا يعجزون عن دفع رواتب الجند واعطياتهم (126) .

كان التدهور الاقتصادى اذن يعزى الى الاضطراب السياسى ممثلا فى ثورات الخوارج . فلما انتهت تلك الثورات واستقرت أحوال بلاد المغرب السياسية بقيام الدول المستقلة ، قدر للبلاد أن تشهد ازدهارا ملموسا فى كافة النواحى الاقتصادية . ونحن فى غنى عن رصد هذا الازدهار الاقتصادى فى دولتى الاغالبة والادارسة ، انما نقرر أن هذا الازدهار شمل ايضا دولتى الخوارج الصفرية والاباضية .

لقد قامت دولتى الخوارج فى مناطق صحراوية ، ومع ذلك واكب قيامها ازدهارا فى الزراعة والصناعة ورواجا فى التجارة . ففى مجال

---

(121) الرقيق : ص 24 ، البكرى : ص 24 ، 25 .
(122) ابن عذارى : ج 1 صفحة 84 .
(123) نفس المصدر ص 93 .
(124) نفس المصدر والصحيفة .
(125) الرقيق : ص 149 ، النويرى : ج 22 ورقة 23 .
(126) ابن عذارى : ج 1 صفحة 111 .

الزراعة ، استفاد بنور مدرار من مياه نهر ملوية (127) فى تحويل البقعة التى اقاموا فيها عاصمتهم الى سهل فيضى (128) صيروا فيها الخلجان وشقوا القنوات لتوصيل المياه الى مساحة واسعة (129) قسموها الى حياض تشبه حياض البساتين (130) ومهدوها للزراعة . واستكثروا من الغروس فزرعوا اشجار النخيل والاعناب (131) على مساحة بلغت اربعين ميلا (132) . فاشتهرت سجلماسة لذلك بوفرة كرومها وفاكهتها (133) .

وفضلا عن ذلك زرعوا سائر المحاصيل « حسب زروع مصر » « وربما زرعوا سنة عن بذر وحصدوا ما راع من زرعه وتواترت الشقوق بالمياه فكلما اغدقت الارض سنة فى عقب اخرى ، حصدوا الى سبع سنين بسنبل لا يشبه سنبل الحنطة ولا الشعير ، بحب صلب المكسر لذيذ المطعم ، وخلقه ما بين القمح والشعير » (134) . واشتهرت سجلماسة الى جانب ذلك بالحنطة والشعير والقطن والكمون والكراوية وغيرها (135) ، حتى لقد وصفها الادريسى (136) بأنها « كثيرة الخضر والنبات » . ولا شك ان اعدادا هائلة من البربر فى سجلماسة تحولوا الى مزارعين (137) وان بقى بعضهم على حرفة رعى الماشية والابقار (138).

كما اهتم ائمة بنى رستم بالزراعة ايضا ، فاختاروا موضع عاصمتهم فى مكان « جيد الهواء ، كثير المياة ، خصب الارض » (139) وقد توافرت المياه لاقليم تاهرت لوقوعه بين نهرين هما مينة وتاتش ويصبان فى وادى شلف (140) . فضلا عن مياه الامطار التى اشتهرت بها تاهرت حتى

---

(127) البكرى : صفحة 148 .
(128) نفس المصدر : صفحة 149 .
(129) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 3 ص 139 .
(130) مجهول : الاستبصار : صفحة 201 .
(131) نفس المصدر والصحيفة .
(132) ابن حوقل : صفحة 65 . Julien : Op. Cit. P. 339.
(133) الاستبصار : صفحة 201 ،
(134) ابن حوقل : صفحة 90 .
(135) الادريسى : صفة المغرب ص 60 ، ابن مقديش : ص 11 ، القلقشندى : ج 5 صفحة 164 .
(136) الادريسى : نفس المصدر والصحيفة .
(137) البكرى : صفحة 148 .
(138) ابن خلدون : ج 6 ص 120 ، Fournel : Op. Cit. Vol I. P. 352.
(139) النفوسى : صفحة 6 .
(140) البكرى : ص 67 ، ابن خلدون : ج 6 ص 121 ،

صارت مضرب الامثال (141) . وقد عنى الرستميون بالاستفادة من هذه المياه فشقوا القنوات وأقاموا الطواحين على الأنهار (142) . فزرعوا الكتان والسمسم وسائر الحبوب على اختلافها ، الى جانب غرس الاشجار واقامة البساتين على مساحات رحبة (143) ، حتى عرفت تاهرت بأنها «بلخ المغرب» (144) . كما ازدهرت الزراعة أيضا فى واحة وارجلان اعتمادا على مياه الآبار ، فاشتهرت بأشجار النخيل والزيتون والحبوب (145) . أما الزراعة فى جبل نفوسة ، فقامت على مياه الامطار ، لكن رعى الاغنام والماشية كانت الحرفة السائدة بين سكانه (146) . كما اشتهرت الدولة الرستمية بمراعيها الواسعة وكانت تاهرت منتجعا للقبائل الرعوية فى شمالى الصحراء (147) . ولكثرة مراعيها وصفها ابن حوقل (148) بأنها «أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين» .

وقيام دولتى الخوارج فى سجلماسة وتاهرت واحتوائهما عناصر غير مغربية كاليهود والاندلسيين والفرس والعرب المشارقة ، ووفرة المناجم وخاصة فى درعة الغنية بالذهب والفضة (149) ساعد على استغلال مقدرات البلاد الاقتصادية استغلالا طيبا فقد أحسن اليهود استغلال تلك المناجم (150) . كما أن أمراء بنى مدرار حرصوا على الافادة من الاندلسيين فى دعم دولتهم «واقامة المصانع والقصور» (151) .

ويخيل الينا أن الاندلسيين المقيمين بسجلماسة لعبوا دورا واضحا فى هذا الصدد اذ كانت طوائف منهم تحتكر حرف الحدادة ، والصناعات المرتبطة بأعمال البناء (152) ، وقد شاركهم اليهود هذه المهن فى العصر

---

(141) ابن عذارى : ج 1 ص 280 .
(142) ابن الصغير : صفحة 10 .
(143) اليعقوبى : البلدان : ص 358 ، البكرى : ص 67 .
(144) الاصطخرى : المسالك والممالك ص 34 ، المقدسى : احسن التقاسيم ص 228 .
(145) الادريسى : صفحة 121 .
(146) ابو زكريا : ورقة 26 . Bernard : Op. Cit. P. 134.
(147) الادريسى : صفحة 87 ،
(148) المسالك والممالك : صفحة 86 .
(149) ابن الفقيه مختصر البلدان ص 80 .
(150) مجهول : الاستبصار ص 202 .
(151) السلاوى : ج 1 صفحة 112 .
(152) البكرى : صفحة 149 ، Fournel : Op. Cit, Vol I, P. 553.

الفاطمى (153) . وعرفت سجلماسة فى عهد بنى مدرار بصناعة الثيـاب والازر الصوفية حتى كانت تضارع مثيلاتها المصرية كما يقول البكرى (154) هذا الى جانب الصناعات الاخرى كصناعة السكر وتكرير الملح (155) ، والاحـذيـة (156) .

واستفاد بنو رستم من خبرة الفرس ، فاشتهرت تاهرت بالمنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية والقوارير الزجاجية وأوانى الخزف البراقة، والتحف المعدنية والعطور (157) . وكانوا يسكون النقـود والـذهب المجلوب من بلاد السودان (158) ، وان كنا نفتقر الى وجود عمـلات رستمية كتلك التى خلفها بنو مدرار .. وقد استعاض بنو رستم عن كثير من السلع المصنوعة باستيرادها من بلاد الاندلس (159) .

أما الدور البارز الذى لعبه الخوارج فى حياة المغرب الاقتصادية ، فكان فى مجال التجارة ، اذ قامت الدولتان المدرارية والرستمية بدور الوسيط فى التجارة عبر الصحراء شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . فلم تحل العلاقات السياسية غير الودية بين دولتى الخوارج وبين اعدائهـم السيـاسيين والمذهبيين دون استمرار الصلات التجارية مع سائر دول المغرب والاندلس فضلا عن المشرق الاسلامى وبلاد السودان .

فكانت القوافل تترى من بغداد والبصرة الى بلاد المغرب مـارة بالانبار وهيت والرقة وحران والرها وتل موزن وحلب ودمشق وطبريـة والرملة والفسطاط والاسكندرية ،ومنها الى برقة ثم الى الدولة الرستمية ودولة بنى مدرار (160) . كما كان الطريق البحرى بين موانىء دولة بنى مدرار على ساحل الاطلنطى وبين موانـىء الانـدلس كاشبيليـة وشاطبة (161) غاصا بالسفن من الدولتين . أما دولة بنى رستم فكان اتصالها بالاندلس عن طريق مرسى فروخ (162) على البحر المتوسط الذى

---

(153) مجهـول : الاستبصـار صفحـة 202 .
(154) المغـرب : صفحـة 148 .
(155) القلقشنـدى : ج 5 صفحـة 164 .
(156) الشماخى : ص 248 .
(157) النفـوسى : صفحـة 137 .
(158) نفس المصـدر : صفحـة 89 .
(159) البكـرى : صفحـة 81 .
(160) انظر : قدامة بن جعفر : الخراج : ص 227 ، 228 .
(161) الحميرى : ص 21 ، ابن الدلائى : ص 18 ، 19 ،
Provencal : Op. Cit. Vol. I. P. 248.
(162) البكرى : ص 81 ، الادريسى : ص 100 .

يواجه موانىء شاطبة وتدمير ومرسى أتلة الاندلسية (163) ٠

لذلك ربطت دولتى الخوارج بين دول المشرق والمغرب والانـــدلس وبين افريقية جنوبى الصحراء عن طريق منافذهـــا المنتشرة على حافـــة الصحراء والتى تعتبر محطات لرحيل القوافل الى بلاد السودان ٠ فكانت سجلماسة همزة الوصل بين بلاد المغرب والاندلس وبين بلاد السودان الغربى كما قامت الدولة الرستمية بنفس الدور بين هـــذه البـــلاد وبين السودان الاوسط ٠

فعلى الرغم من سوء العلاقات السياسية بين تاهرت وسجلماسة وبين بغداد والقيروان وفاس ، فان قوافل التجار المشارقة كانت تجتاز بلاد المغرب الى سجلماسة التى غصت بالعراقيين من بغداد والكوفـــة والبصرة ، وكانت هذه القوافل تحمل سلع المشرق الى بلاد المغرب وتعود محملة بالمتاجر السودانية فى صحبة اهل سجلماسة (164) ٠ كذلك أقام بتاهرت طائفة من التجار العراقيين كان لهم مساجدهم ومنازلهم وفنادقهم واسواقهم الخاصة (165) ٠ وقد اهتم ائمة بنى رستم بتجـــارة الشرق فشاركوا فيها وأشرفوا عليها بأنفسهم ، واولوا التجار رعايتهم ، وكفلوا لهم الحماية والامان (166) ٠

وتوطدت الصلات التجارية بين القيروان وسجلماسة وتاهـــرت ؛ فكانت القوافل تخرج من تاهرت الى القيروان مارة بهاز والمسيلة وادنة وطبنة وباغاية ومجانة ومرماجنة وسبيبة (167) وفى سجلماسة كـــانت القوافل تخرج الى تاهرت ومنها الى القيروان ، والمسافة بين سجلماسة وتاهرت تقرب من خمسين مرحلة ، وبينها وبين القيروان تبلغ نحـــوا من ثمانين مرحلة (168) ٠ وعلى ذلك فقد كان فستق قفصة يباع فـــى اسواق سجلماسة (169) ، كما لاقت سلع سجلماسة ــ كالسكر والكمون والكراوية والاحذية ــ رواجا فى اسواق القيروان (170) ٠ ووفدت السلع

---

(163) اليعقوبى : البلدان : ص 354 ، البكرى : ص 18 ، ابن الدلائى : ص 18 ٠
(164) ابـــن حوقـــل : صفحـــة 43 ٠
(165) ابـــن الصغيـــر : صفحـــة 13 ٠
(166) نفس المصـــدر : صفحـــة 50 ٠
(167) البكرى : صفحـــة 143 ، 146 ٠
(168) الاصطخـــرى : صفحـــة 37 ، 38 ٠
(169) البكـــرى : صفحـــة 41 ٠
(170) الادريسى : صفحـــة 61 ٠

السودانية الى دولة الاغالبة عن طريق تاهرت وسجلماسة . ولا غرو فقد وفدت الى تاهرت جموع غفيرة من تجار القيروان حيث حظوا بحرية المتاجرة فى اسواقها (171) وكان عدل الائمة الرستميين ، وترحيبهم بالتجار وشهرة تاهرت التجارية مما حبب كثيرين من هؤلاء التجار فى الاقامة بتاهرت (172) .

ولم نعدم وجود صلات تجارية بين دولتى الخوارج والادارسة . حقيقة أن العلاقات التجارية بين تاهرت وفاس كانت فى نطاق محدود ، لكن المصادر (173) تشير الى انتظام القوافل بين سجلماسة وفاس فالطريق كان ممهدا بين المدينتين ، ويبدأ من فاس الى صفرو فقلعة مهدى ، فتادلة ، فوادى شعب الصفا ، ثم يمر عبر الجبل الكبير الى الجنوب حيث توجد سجلماسة (174) . وكانت القوافل ترتاد هذا الطريق ، فتخرج من باب الفوارة بفاس الى مدينة سجلماسة (175) . وقد وفد كثيرون من صفرية فاس الى سجلماسة عاصمة صفرية المغرب طلبا للعلم والتجارة (176) . كما كان للتجار المدراريين نشاط واسع فى اسواق مدينة فاس (177) .

وكان طبيعيا ان تتوثق الصلات التجارية بين دولتى الخوارج والدولة الاموية بالاندلس لما كان بين الطرفين من علاقات سياسية ودية . وحسبنا ان غلال سجلماسة وتاهرت كانت تسهم فى حل الازمات الاقتصادية بالاندلس (178) . وقد تبادل بنو مدرار مع أموى الاندلس السلع والمتاجر ، فكان المدراريون يصدرون القمح والسكر والكرم والتمر (179) فى مقابل الثياب والطرز القطنية والكتانية والحريرية التى اشتهرت بها قرطبة (180) .

هذا فضلا عن التسهيلات الواسعة التى قدمها حكام تاهرت

---

(171) ابن الصغير : صفحة 13 .
(172) الشماخى : السير : صفحة 158 .
(173) ابن حوقل : ص 72 ، الادريسى : ص 76 ، ابن ابى زرع : ص 53 .
(174) ابن ابى زرع : صفحة 53 .
(175) ابن حوقل : صفحة 65 .
(176) الادريسى : صفحة 60 .
(177) الجزنائى : زهرة الاس : ص 29 .
(178) جغرافية المامون : ورقة 197 ، Conde : Op. Cit. P. 291.
(179) جغرافية المامون : ورقة 199 .
(180) الحميدى : صفة جزيرة الاندلس : صفحة 21 .

وسجلماسة لتجار الاندلس أثناء رحلاتهم الى بلاد السـودان (181) ٠ وكثيرا ما آثر بعض التجار والحرفيين الاندلسيين الاقامة فى تاهرت والعمل فى أسواقها وجوانيتها (182) . بينما كان البعض الآخر يعمل فى نقل المتاجر بين الدولتين ، اذ فى مقابل القمح الذى كان يصدر الى قرطبة استورد الرستميون كثيرا من السلع والامتعة المصنوعة فى بلاد الاندلس (183) ٠

اما عن تجارة الخوارج مع بلاد السودان ، فقد شكلت حجر الزاوية فى نشاطهم الاقتصادى ٠ وجدير بالذكر ان شعوب السودان كانوا أخلاطا شتى من العناصر الزنجية القاطنة بين البحر الاحمر شرقا والبحر المحيط غربا (184) ، وبين المناطق الصحراوية أو شبه الصحراوية فى الشمال وبين نطاقات الغابات الاستوائية فى الجنوب (185) ٠ ويمكن التمييز بين هذه العناصر ، فمن الشرق الى الغرب توجد شعوب النوبة — جنوبى مصر — ثم زغاوة وصوصو وكوكو — بالسودان الاوسط (186) — أما السودان الغربى ، فقد سكنه شعب التكرور واهل غانة . أما شعب التكرور فقد استوطن ضفتى السنغال ، بينما كان شعب غانة يتكون من عناصر متعددة ٠ فعلى طول الضفة اليسرى لنهر النيجر نزل شعب سنغى وبين السنغى والتكرور تقع ديار الشعوب المتكلمة بلغة الماندى ، وبين السنغى فى الشمال ونطاق الغابات فى الجنوب عاش أجداد الشعوب المتكلمة بلغة الجور حاليا (187) ٠ ويصف صاعد الاندلسى (188) هذه الشعوب بالفوضى والهمجية على الرغم من « وجود سياسة ملوكية تضبطهم وناموس الهى يحكمهم . فقد كانت هذه الشعوب تعيش فى شكل جماعات يرأسها أكبر الرجال سنا ٠ ولكل منها كهنوته وطواطمه (189) ٠

---

(181) ابن الدلائى : صفحة 18 ، 19 ٠
(182) ابن القوطية : ص 110 ، ابن الفرضى : ج 1 ص 179 ، ابن بشكوال : الصلة . ج 1 صفحة 76 ٠
(183) ابن الدلائى : ص 19 ، Provencal : Op. Cit. P. 245.
(184) البكرى : صفحة 149 ٠
(185) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية : ج 1 ص 218 ٠
(186) اليعقوبى : تاريخه . ج 1 ص 156 ، المقدسى : ج 1 ص 241 ، ابن خلدون : ج 6 صفحة 199 ٠
(187) انظر : حسن محمود المرجع السابق : ص 223 ، 224 ٠
(188) طبقات الامم : صفحة 12 ٠
(189) حسن محمود : المرجع السابق ص 225 ٠

اذ كانوا « على المجوسية وعبادة الدكاكير (190) .

تقع مواطن هذه الشعوب بمحاذاة الصحراء الكبرى ، ويفصلها عن بلاد البربر سلسلة من الفواصل الجبلية تتخللها بعض المفاوز التى تعد وسيلة الاتصال الوحيدة بينها وبين بلاد المغرب (191) ومن الطبيعى أن تتدعم العلاقات بين البربر والسودان بقيام دولة بنى مدرار فى سجلماسة وبديهى أن تتوطد صلاتها خاصة ببلاد التكرور وغانة المعروفة ببلاد السودان الغربى (192) . وحسبنا أن عناصر سودانية أسهمت فى اقامة هذه الدولة وتصدت لزعامتها حتى كان أول أمرائها سودانيا يدعى عيسى بن يزيد . واستقرت هذه العناصر فى سجلماسة ، وكان لهم حصن خاص يعرف « بحصن السودان » (193) . ولا شك فى أنهم ساعدوا على توثق الصلة بين وطنهم الام وموطنهم الجديد ، فكانت سجلماسة حلقة اتصال بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربى (194) . وجدير بالذكر أن القوافل كانت تقطع الطرق بين سجلماسة وغانة فى زمن يتراوح بين شهرين (195) وثلاثة (196) ، وكان برير زويلة ومسوفة وجدالة يصحبون هذه القوافل (197) بين سجلماسة وسائر بلاد السودان الغربى عبر المفاوز والقفار (198) . ومن المعروف أن درعة كانت مركز خروج القوافل من دولة بنى مدرار (199) ، بينما عرفت « أبو الاتن » بأنها أولى المراكز السودانية التى تنزلها هذه القوافل (200) .

وقد عقد بنو رستم الصلات مع شعوب السودان جميعا ابتداء

---

(190) مجهول : الاستبصار ص 217 .
(191) الاصطخرى : ص 35 ، حامد عمار : علاقات الدولة المملوكية بالدول الافريقية : ص 7،
(192) المامون : جغرافيته ورقة 198 ، سر الختم عثمان : العلاقات بين مصر والسودان : صفحة 25 .
(193) المقدسى : ص 219 .
(194) الاصطخرى : ص 35 ، حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام فى القارة الافريقية : صفحة 75 .
(195) البكرى : ص 149 ، الاستبصار ص 200 ، 201 .
(196) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص 87 .
(197) ابن بطوطة : تحفة النظار ج 1 ص 295 : حسن محمود ، الاسلام والثقافة العربية فى افريقية .. ج 1 ص 222 .
(198) اليعقوبى : البلدان . ص 360 .
(199) البكرى : صفحة 149 .
(200) ابن بطوطة : ص 298 ، وجدير بالذكر أن طريقا آخر كان يصل بين مصر وغانة لكنه اهمل بسبب تعرض القوافل فيه لسوافى الرياح وقطاع الطرق واصبح طريق سجلماسة لذلك اشهر الطرق واكثرها ارتيادا . انظر : ابن حوقل : ص 42 .

من زغاوة (الكانم) شرقا حتى ساحل غانة غربا ، لكن هذه العلاقات توطدت بشكل اساسى مع شعوب السودان الاوسط وخاصة مع الكانم وساعد الامتداد العريض للدولة الرستمية على تعدد الطرق والمسالك الى السودان (201) ، فلم يعدم الرستميون وجود مدن عديدة متناثرة على حدودهم الجنوبية كزالة (202) ووارجلان (203) أو أجلة (204) وغدامس وزويلة (205) ، كانت مراكز لانطلاق القوافل الى هذه البلاد .

وزالة مدينة صغيرة تقع على عشرة مراحل غربى وارجلان ، اهلها من هوارة ، معروفة بأسواقها العامرة (206) . وكانت مدخل القوافل الى ساحل غانة فيما عرف « بمملكة الدمدم » (207) أما وارجلان فمدينة صغيرة لكنها متحضرة ، اشتهرت بوفرة نخيلها وغلاتها ، وغصت بالاسواق والتجار ، ومنها توجه التجار الى بلاد كوكو (208) والتكرور (209) وغانة (210) . وغدامس ، بلد كبير كثير النخيل ايضا ، اهلها من الملثمين كلمتونة ومسوفة ، وهى محطة للعبور الى بلاد السودان الاوسط حيث يربطها طريق ممهد ببلدة تادمكة (211) . وكانت زويلة مركزا للتجارة مع بلاد الكانم ، واشتهرت بتجارة الرقيق حيث غصت أسواقها بالعبيد الزواغيين (212) .

من هذه المنافذ أو الموانىء الداخلية — ان صح القول — خرجت قوافل المدراريين والرستميين الى بلاد السودان محملة بالملح والنحاس والودع (213) ، لتعود بالذهب والابنوس وسن الفيل والجلود الشركية ، فضلا عن الرقيق الاسود (214) .

---

(201) ابن الصغير : ص 13 ، النفوسى : ص 88 .
(202) الادريسى : صفحة 132 .
(203) بوفيل : الممالك الاسلامية فى غرب افريقية ص 160 .
(204) الادريسى : صفحة 132 .
(205) اليعقوبى : البلدان : صفحة 345 .
(206) الادريسى : صفحة 132 .
(207) الاستبصار : صفحة 225 .
(208) جغرافية المامون ورقة 201 ، ابن بطوطة : ص 318 .
(209) الشماخى : السير ص 273 .
(210) الادريسى : صفحة 121 .
(211) الاستبصار : صفحة 145 .
(212) اليعقوبى : البلدان : صفحة 345 .
(213) القلقشندى : ج 5 صفحة 164 .
(214) ابن الفقيه : 87 ، جغرافية المامون ورقة 198 ، الاصطخرى : ص 35 .

والى سجلماسة وتاهرت كانت تفد القوافل وتخرج محملة بتلك السلع الى المشرق وسائر دول المغرب والاندلس (215) .

وجدير بالذكر ان ائمة بنى رستم شاركوا رعاياهم هذا الدور « فكان عبد الوهاب فى أيام ابيه تاجرا » (216) ، وكانت قوافله تسافر الى بلاد كوكو (217) . ولدينا من الروايات ما يؤكد اشتغال افلح بن عبد الوهاب وابى اليقظان محمد بن افلح (218) وابى حاتم يوسف بن محمد (219) بالتجارة كذلك . كما رحب ائمة بنى رستم وعمالهم بتجار السودان ، ففتحوا لهم الاسواق واحسنوا معاملتهم وقدموا اليهم التسهيلات التجارية ، فأعفوا بضائعهم وسلعهم من الضرائب والرسوم (220) . وعامل حكام السودان الرعايا الرستميين بالمثل ، فرحبوا بسفارات الائمة وكفلوا الامان للتجار . ويحدثنا ابن الصغير (221) ان الامام افلح اوفد سفارة من قبله الى احد ملوك السودان ، وبعث اليه بالهدايا السنية حفاظا على مصالحه التجارية .

هذه الصلات التجارية دعمت علاقات المودة ووشائج الصداقة بين الطرفين ، فكان رعاياهم يختلطون ببعضهم البعض ، ووجدت اقليات لكل منهما فى بلاد الآخر (222) ، ويرجح لويسكى (223) وجود جماعات من السودان بجبل نفوسة فى القرن الثانى الهجرى اعتمادا على نص اورده الشماخى ذهب فيه الى ان كثيرين من اهل الجبل اجادوا لغة الكانم.

ولا غرابة اذا ما ادركنا تسامح الخوارج مع أعدائهم السياسيين والمذهبيين ، وترحيبهم بالغرباء فى بلادهم . وليس أدل على ذلك من وجود طوائف اليهود فى سجلماسة وتاهرت ففى دولة مدرار احتكر اليهود

---

(215) Bernard : Op. Cit, P. 134..

(216) الشماخى : السير : صفحة 158 .

(217) اورد الوسيانى رواية ذكر فيها أن افلح بن عبد الوهاب أراد مرافقة قوافل والده الى بلاد كوكو ، فأخذ الامام عبد الوهاب يختبره فى الفقه وخاصة فى مسألة الربى ، فأجاب عن كافة الاسئلة فيما عدا سؤال واحد . فأمره ابوه بعدم السفر حتى تزداد خبرته بأمور التجارة . انظر : سيرة أبى الربيع . ورقة 25 .

(218) انظر : الدرجينى : ج 2 ورقة 136 .

(219) انظر : ابن الصغير : صفحة 50 .

(220) الشماخى : السير : صفحة 273 ، 274 .

(221) سيرة الائمة الرستميين : صفحة 31 .

(222) الوسيانى : ورقة 4 .

(223) انظر : Etudes Ibadites. P. 96.

استغلال مناجم الفضة والذهب في درعة (224) وفي تاهرت عاش الرهادنة في احيائهم الخاصة ــ الجيتو ــ وهيمنوا على كثير من مناشط التجارة (225) ولا غرو فقد ذكر ابن الصغير (226) أن عاصمتى دولتى الخوارج غصتا بجموع التجار من سائر ارجاء العالم الاسلامى على اختلاف مللهم ونحلهم.

ولا شك في أن الخوارج جنوا أطيب الثمار من التجارة ، فيخبرنا ابن حوقل (227) أن اهل سجلماسة حققوا ثراء عريضا بزوا به « سائر اهل المغرب » ولا غرو ، فقد كانت معاملاتهم التجارية تصل الى آلاف الدنانير (228) . كما ذكر ابن الصغير (229) أن « سكان تاهرت علت وجوههم سيماء الحضارة والرفاهية ، وبدت من محياهم آثار النعمة والغنى » .

وليس أدل على هذا الازدهار الاقتصادى من طيب العملة التى سكها ائمة الخوارج وجودتها (230) ، مما يؤكد ان الخوارج وان تسببوا في في تفاقم ازمات بلاد المغرب الاقتصادية في عصر الثورات يعزى الفضل اليهم في انعاش احوالها الاقتصادية في عصر الاستقرار السياسى .

على أن سقوط دولتى الخوارج على أيدى الفاطميين سنة 297 هـ (909 م) واندلاع ثورات الخوارج من جديد ضد الحكم الفاطمى أصاب الازدهار الاقتصادى الذى شهدته البلاد . وتفاقمت الاحوال وازدادت سوءا بسياسة العسف الاقتصادى التى اتبعها الفاطميون . فقد انسابت جيوش أبى عبد الله الشيعى في تاهرت بعد فتحها ، « واهلكت الحرث والنسل » (231) ، ولما سقطت سجلماسة نهب الفاطميون أهلها واستولوا على اموال بنى مدرار (232) ، ثم أضرموا فيها النيران (233) وفرض

---

(224) الاستبصار : صفحة 202 .

(225) ابن الصغير : صفحة 46 ، 57 .

(226) سيرة الائمة الرستميين ص 16 ، Faroughy : Op. Cit. P. 14.

(227) المسالك والممالك . ص 42 ، ياقوت : ج 3 ص 46 .

(228) نقل القلقشندى عن ابن سعيد نصا يقول فيه « رايت صكا لاحدهم على آخر مبلغه اربعون الف دينار » وذكر ابن حوقل انه راى صكا كتب بدين على أحد التجار موقع عليه بشهادة العدول ، قيمته اثنين واربعين الف دينار . انظر : صبح الاعشى : ج 5 ص 164 ، المسالك والممالك ص 42 .

(229) سيرة الائمة الرستميين : صفحة 13 .

(230) السلاوى : ج 1 صفحة 119 ، La voix : Op. Cit. P. 402.

(231) ابو زكريا : ورقة 37 .

(232) اليمانى : سيرة جعفر : صفحة 130 .

(233) ابن عذارى : ج 1 ص 210 ، Biquet : Op. Cit. 71.

عمال الفاطميين سياسة مالية جائرة على البلاد التى فتحوها « فاستولوا على اموال الاحباس والحصون (234) » ، واشتطوا فى فرض المغارم والجبايات فاثقلوا صفرية درعة بالاعباء ، كما لقى اباضية نفوسة عنتا شديدا وارغموا على دفع الاموال الباهظة والرشاوى لعمال القيروان (235) .

وكانت سياسة العسف الاقتصادى تلك من اسباب اندلاع ثورات الخوارج على الفاطميين . ولا شك أن هذه الثورات استنزفت جهود الطرفين معا ، ونتج عنها مزيد من تخريب الطرق واحراق المزارع وتدمير المدن الى جانب ازهاق الارواح والدماء ، مما تسبب فى حدوث المجاعات وانتشار الاوبئة التى أدت الى تفاقم الازمات الاقتصادية .

لكن ثورات الخوارج — برغم فشلها — اجبرت الفاطميين على التخلى عن سياستهم الاقتصادية الجائرة « فخففوا الضرائب والجبايات » (237) وجنحوا الى الاعتدال فى حكم المغاربة .

وهكذا اثر الخوارج فى احوال بلاد المغرب الاقتصادية تأثيرا عميقا فبسببهم تفاقمت هذه الاحوال وازدادت سواء فى عصر الثورات ، وبفضلهم ازدهرت كافة النواحى الاقتصادية فى عصر الاستقرار السياسى .

---

(234) سعيد بن مقديش : نزهة الانظار ص 123 .
(235) ابن حيون : المجالس المسايرات ج 1 ورقة 28 .
(236) الشماخى : السير : صفحة 320 ، 323 .
(237) لويس : أصول الاسماعيلية : ص 183 . نقلا من كتاب تثبيت نبوة سيدنا محمد — مخطوط باسطنبول فى مكتبة شهيد على باشا برقم 1575 .

ثالثا :

الحياة الاجتماعية

ترك الخوارج آثارا هامة فى كيان المجتمع المغربى ، واحدثوا تطورات واضحة فى مواقف قواه الاجتماعية ذلك لان فكر الخوارج السياسى قوامه المساواة بين كافة العناصر والاجناس دون تفرقة أو تمايز . وانتشار مذهب الخوارج فى بلاد المغرب فى النصف الاول من القرن الثانى الهجرى احدث انقلابا فى موازين القوى الاجتماعية ببلاد المغرب ، اذ هوت بعض العناصر التى كانت تحتكر السلطة السياسية وصعدت عناصر كانت مغلوبة على امرها لتقف على قدم المساواة مع القوى الاخرى أو نالت حظها فى بعض الاحيان فى قيادة الثورات وتولى مقاليد الحكم والسياسة .

لقد كان المجتمع المغربى قبيل انتشار مذهب الخوارج مجتمعا متمايزا غير متجانس . وكانت قواه وعناصره فى صراع طائفى وعنصرى دائم ، فالعرب تمتعوا بوضع ممتاز باحتكارهم شؤون الحكم وهيمنتهم على السلطة . ومع ذلك دب الشقاق والصراع على الصدارة بين العرب اليمنية والعرب القيسية مما اضعف العنصر العربى عموما فى اواخر العصر الاموى .

اما البربر — سكان البلاد الاصليين — فعلى الرغم من انهم يمثلون السواد الأعظم من السكان لم يكن لهم وزن كبير فى الحياة السياسية ورغم ما كان بينهم وبين العرب من عداء لم يسلموا من آفة الخصومات القبلية كالصراع بين « بربر الوبر » و « بربر المدر » ، أى بين عنصرى البتر والبرانس ، وهو صراع قديم متوارث ظل قائما طوال العصر الاسلامى .

الى جانب العرب والبربر وجدت ببلاد المغرب اقليات ضئيلة من الافارقة والسودان واليهود ولم يكن لتلك الاقليات كبير وزن فى الحياة السياسية فى عصر السيادة الاموية والتعصب للعرب . فالافارقة اصلا من البربر الذين اختلطوا بالروم واعتنقوا ديانتهم ، او من الاجانب الذين طال استيطانهم فى بلاد المغرب حتى اصبحوا « افارقة » . وقد اعتنق هؤلاء واولئك الاسلام على امل الاحتفاظ بمكانتهم الاجتماعية المتميزة التى تمتعوا بها فى العصر البيزنطى ، لكن بعض ولاة بنى امية اضطهدوهم وعاملوهم معاملة الموالى (238) .

اما السودان ، فكانوا يجلبون من افريقية جنوبى الصحراء عن طريق الغزوات العربية لاطراف بلادهم ، او يجلبون كرقيق عن طريق التجارة (239) . وقد اختلط كثيرون منهم بالبربر ، واعتنق بعضهم الاسلام.

وكانت ببلاد المغرب اعداد غفيرة من اليهود هاجروا اليها فى العصر الرومانى . وظل هؤلاء يعيشون عيشة العزلة عن المجتمع المغربى ، وشكلوا اقلية كان لها دور كبير فى النشاط الاقتصادى . واذا كانوا قد تمتعوا بالحرية الدينية بعد الفتح الاسلامى باعتبارهم اهل ذمة ، فقد تعرضوا لكثير من مظالم الولاة الامويين (240) .

كانت ثورات الخوارج فى المغرب تمثل فى بعدها الاجتماعى صراعا بين العرب والبربر بسبب سياسة بنى امية فى التعصب للعنصر العربى ، ولهذا حرص ثوار الخوارج على « الفتك بأمر العرب » (241) عموما ، والقرشيين منهم بوجه خاص (242) . ولعل فى قول هشام بن عبد الملك عقب هزيمة العرب فى موقعة الاشراف سنة 123 هـ (741 م) « والله لاغضبن غضبة عربية » (243) ما يشير الى ذلك الطابع العنصرى للصراع .

والذى نؤكده ان هذا الصراع تمخض عن اضعاف شوكة العرب ، فقد قتل كثيرون منهم فى معارك الاشراف « التى فنى فيها حماة العرب

(238) انظر : البكرى : المغرب : ص 6 ، مؤنس : ثورات البربر ص 153 .
(239) انظر : اليعقوبى : البلدان ص 345 .
(240) Julien : Op. Cit. P. 203
(241) ابن خلدون : العبر ج 6 صفحة 111 .
(242) ابن عذارى : ج 1 ص 70 ، ابن خلدون : المرجع السابق ص 112 .
(243) الرقيق : ص 159 ، ابن عذارى : ج 1 ص 83 .

وفرسانها وكماتها وأبطالها » (244) وبقدورة التى كان فيها مصير الجيش العربى « ثلث مقتول وثلث منهزم ، وثلث مأسور » (245) والقيروان سنة 139 هـ (756 م) التى اجهزت فيها ورفجومة « على كل من بالمدينة من القرشيين » (246) .

ثم كان سقوط الخلافة الاموية وقيام الدولة العباسية سنة 132 هـ (750 م) واعتماد العباسيين على الجند الخراسانى والفارسى فى مواجهة ثورات الخوارج فى البلاد (247) اذ الثابت أن اعدادا كبيرة من الجند الخراسانى والفارسى وفدت الى بلاد المغرب فى حملات محمد بن الاشعث سنة 142 هـ (759 م) ويزيد بن حاتم سنة 154 هـ (771 م) وهرثمة بن اعين سنة 179 هـ (765 م) وقد نافس هؤلاء الجند العرب مكان الصدارة .

اما البربر فان اعتناقهم مذهب الخوارج ساعد على توحيد شملهم تحت لواء واحد . فقد جمعتهم جميعا بترا وبرانس مبادىء الخوارج التى تحض على العدل والمساواة . واختفت — الى حين — نزعات الخصومة والتناحر بين بربر الوبر وبربر المدر واشتركوا جنبا الى جنب فى الثورة على العرب (248) . وقيام دولتى الخوارج اكد هذه الوحدة للبربر ، فدولة بنى مدرار ضمت صفرية المغرب من البتر والبرانس على السواء ، وتكاتفت مكناسة وزناتة من البتر مع صنهاجة وزويلة ومسوفة ولمتونة من البرانس على تأسيسها (249) . والدولة الرستمية عاشت فى كنفها قبائل هوارة ولواتة ومكناسة ومزاتة ولماية وغيرها (250) .

كما ادى انتشار مذهب الخوارج الى ظهور عنصرى الافارقة والسودان بعد أن كانا على هامش الحياة السياسية من قبل . فاعتناق الافارقة المذهب الصفرى ، أهل زعيمهم عبد الاعلى بن جريج لتولى حكم طنجة من قبل ميسرة (251) وتغلغل المذهب ذاته بين السودان أفضى الى

---

(244) ابن عبد الحكم : ص 294 ، الرقيق : ص 111 .
(245) مجهول : اخبار مجموعة : صفحة 34 .
(246) المالكى : رياض النفوس : صفحة 107 .
(247) الرقيق : ص 159 ، ابن عذارى : ج 1 ص 83 .
(248) راجع : ابن عبد الحكم : ص 294 ، ابن الاثير : ج 5 ص 70 .
(249) اليعقوبى : البلدان ص 359 ، ابن خلدون : ج 6 ص 129 .
(250) ابن خلدون : ج 6 صفحة 121 .
(251) ابن عبد الحكم : ص 293 ، ابن عذارى : ج 1 ص 52 .

تقلد زعيمهم عيسى بن يزيد الاسود رئاسة دولة بنى مدرار سنة 140 هـ (757 م) (252) .

وقد ادى قيام دول الخوارج المستقلة فى بلاد المغرب الى انشاء مدن اسهمت فى تحقيق الاستقرار الاجتماعى والبشرى (253) .

ففى واحة تافيلالت أسس الصفرية سجلماسة سنة 140 هـ (254) (757 م) واخذت المدينة الصغيرة التى لم تكن عند نشأتها سوى « مجمع للصفرية » تتسع ويزداد عمرانها شيئا فشيئا ، اذ اقبلت القبائل على سكناها ، فبنت الضواحى والارباض (255) ، واعتادت حياة الاستقرار ، وترك معظمها حرفة الرعى الى الاشتغلال بالزراعة والصناعة والتجارة . وادى ذلك الى عمران اقليم تافيلالت بعد أن كان يعانى نقصا فى السكان .

فقد جذبت المدينة الجديدة بطون مكناسة الضاربة فى وادى ملوية (256) ونواحى تازا وتسول بالمغرب الاقصى (257) فهجروا مواطنهم واستقروا بها . كما وفدت اليها بطون من صنهاجة اللثام من مسوفة ولمتونة (258) وزويلة (259) وغيرها . كذلك نزحت جماعات من الجنوب من بلاد السودان لتسهم فى عمران الاقليم وتقيم فيه بصفة دائمة . وقد اغرى ازدهار المدينة بعض العناصر الاندلسية ، فهجرت بلادها واقامت بسجلماسة ايضا (260) ونظرا لاهمية موقعها التجارى الممتاز ، ولوفرة مناجم الذهب والفضة باقليم تافيلالت ، فقد قصدها اليهود طمعا فى الثراء وطلبا للامن والاستقرار (261) .

ولا شك أن هجرة القبائل الى سجلماسة ادى الى تحولها من حياة البداوة الى حياة الاستقرار وغيرت الكثير من مظاهر حياتها الاجتماعية فى عاداتها وتقاليدها (262) واختلطت بعناصر اخرى وافدة كالسودان

---

(252) البكرى : صفحة 149 ، Fournel : Op. Cit. Vol I. P. 352.

(253) ابن خلدون : المقدمة : صفحة 112 .

(254) البكرى : صفحة 148 .

(255) الادريسى : صفحة 160 .

(256) اليعقوبى : البلدان : صفحة 359 .

(257) ابن خلدون : ج 6 ص 129 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 351.

(258) مجهول : الاستبصار ص 201 ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 271 .

(259) المقدسى : صفحة 231 .

(260) ابو العرب تميم : صفحة 80 .

(261) الاستبصار : صفحة 202 .

(262) البكرى : صفحة 148 .

والاندلسيين .

وقيام الدولة الرستمية سنة 162 هـ (779 م) كان له آثاره الاجتماعية فى حياة سكان بلاد المغرب الاوسط ، فقد تحول اقليم تاهرت من غابات وغياض وآجام للوحوش والزواحف (263) الى مدينة عامرة آهلة بالسكان مزدانة بالعمائر والزروع . كما تحولت غدامس ووارجلان وودان وزويلة من مجرد قرى مغمورة على حافة الصحراء الى منافذ وثغور داخلية آهلة بالحركة والنشاط بفضل تجارة بنى رستم مع بلاد السودان (264) . وترتب على ذلك انتقال السكان من حياة البداوة والترحال الى حياة الحضارة والاستقرار . فقبائل هوارة ومزاتة ولواتة وسدراتة ولماية انفت معظم بطونها احتراف الرعى واقدمت على الاشتغال بالزراعة والتجارة وتركت مواطنها الاصلية لتستقر فى تاهرت وما حولها « واتخذت العير والخيول ونالها من الكبر ما نال أهل المدينة » (265) . وما لبثت ان تطلعت الى السلطة فشاركت فى الفتن والثورات على ائمة بنى رستم ، وقدر لبعضها الظفر بالحكم كما حدث بالنسبة لمحمد بن مسالة الهوارى (266) .

ولما كان ائمة بنى رستم من الفرس ، فقد جذبت تاهرت كثيرا من العناصر الفارسية حيث شكلوا قوة اجتماعية لها وزنها حتى كانوا اشبه « بدولة داخل الدولة » وليس ادل على نفوذهم من أن زعيمهم ابتنى سوقا « لم يكن صاحب شرطة الامام افلح ليجرا على دخوله أو يتخلله ، هيبة وخوفا » (267) .

هذا وقد احتوت دولة بنى رستم جماعات كبيرة من العرب نزحوا الى تاهرت لشهرتها التجارية ، او فرارا من الاضطهاد المذهبى أو هربا من افريقية بعد فشل ثوراتهم على الامارة الاغلبية . وكان لهم دور بارز فى أحداث الدولة الرستمية فى عصرها الاوسط (268) . الامر الذى اثر تأثيرا عميقا فى حياة المجتمع الرستمى . ونعتقد أن العناصر الاباضية

---

(263) ابو زكريا : ورقة 13 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 99 .
(264) انظر : الادريسى : ص 132 ، اليعقوبى : البلدان ص 345 :
(265) ابن الصغير : صفحة 27 .
(266) انظر : النفوسى : صفحة 336 .
(267) ابن الصغير : صفحة 27 .
(268) النفوسى : ج 2 صفحة 182 .

الوافدة لعبت دورا بارزا فى هذا الشأن باعتبارها أكثر حضارة ورقيا من القبائل البدوية سكان البلاد الاصليين ، ومن مظاهر ذلك تحول البلاط الرستمى عن حياة الزهد والتقشف الى حياة الترف والدعة لقد كان عبد الرحمن بن رستم — أول ائمة بنى رستم — ورعا زاهدا ، فبيته لم يكن به الا « حصيرا فوقه جلد ووسادة ينام عليها ، وسيفه ورمحه ، وفرس مربوط فى ناحية من داره » (269) اما خلفاؤه فقد عاشوا حياة خلفاء المشرق وملوك الفرس ، فامتلكوا القصور والضياع والمنازل والحصون التى اقاموها بنواحى تسلونت خارج تاهرت (270) ، واقتنوا الجوارى والغلمان (271) والعبيد والحشم (272) وكان لخيولهم وخدمهم وعبيدهم منازل خاصة بحصن نماليت خارج المدينة (273) . وانصرف معظم الرستميين الى حياة الترف والدعة والولع بالفنون والآداب (274) كما تطرق الفساد الى « الرستمية » فكانوا يخالطون العيارين والشطار وينادمون الفتيات ، ويعتدون على الحرائر (275) .

كما تشبه بنو رستم بالمشارقة فى اقامة الاسمطة « والجفان » لاطعام الفقراء أيام الاعياد والمناسبات الهامة (276) . فكانت تقام الاحتفالات التى يحضرها وفود من كافة انحاء الدولة ، وكان عمال الامام ورؤساء القبائل ينزلون فى « دار الضيافة » ويعودون الى عمالاتهم أو الى مضاربهم بعد أن تجرى عليهم الارزاق وتوزع عليهم الهدايا والالطاف (277) .

وفضلا عن ذلك كان اختلاط البربر بالعناصر الوافدة له حسناته كما كان له مساوئه أيضا ، فقد أقام البربر فى ظل الحكم الرستمى « قصورا منظمة وابنية مبهجة وقبابا مرتفعة ، وأسواقا مزدحمة ، ومساجد متعددة بمنارات عالية ، وحمامات متقنة . واتخذوا الفرش والستائر المزخرفة والخيل المسومة ، وتنوعت الالبسة وتعددت اللغاة والازياء » (278) يقابل

---

(269) ابن الصغير : صفحة 11 .
(270) نفس المصدر : صفحة 48 .
(271) نفس المصدر : صفحة 25 .
(272) ابن الصغير : ص 34 ، النفوسى : ص 266 .
(273) ابن الصغير : صفحة 52 .
(274) نفس المصدر : صفحة 31 .
(275) نفس المصدر : صفحة 49 .
(276) نفس المصدر : صفحة 26 .
(277) نفس المصدر : صفحة 47 .
(278) نفس المصدر : ص 56 ، النفوسى : ص 85 .

ذلك تحلل المجتمع الرستمى وتفشى الرذائل فيه « فقد ظهر المنكر ، وكثر الفسق وشرب الخمر » (279) وهو ما عبر عنه ابن الصغير (280) بقوله « فسد البلد وفسد اهلها . . فاتخذوا للمسكر اسواقا والغلمان اخدانا » وعجت الطرق بمناسر اللصوص وخاصة « من سفهاء زناتة » (281) وهذا هـو الذى اثار ثائرة شيـوخ المذهب فتبرمـوا بهـذه المفاسد واظهروا سخطهم عليهـا (282) .

وجدير بالذكر ان من اهم اثار الخوارج فى المجتمع المغربى بروز دور المراة ، فكما اشتهرت بعض نساء الخوارج فى الشرق — كغزالة أم شبيب ابن يزيد الشيبانى (283) — فى فنون السياسة والحرب ، واسهام بعضهن فى النشاط السرى الخاص بالتنظيم والدعوة (284) ، برزت كثيرات من نساء الخوارج فى المغرب فى نواحى السياسة والثقافة . فقد تولت جـدة المنتصر سمكو بن محمد الوصاية عليه وامسكت بزمام السلطة فى سجلماسة حين كان قاصرا (285) . واخت الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بزته فى علم الفلك وتفوقت عليه فى قراءة الطوالع والنجوم (286) . وكانت غزالة زوجة أبى اليقظان محمد « مالكة لامره » (287) حتى لقد أرغمته على تقليد ابنها أبى حاتم يوسف ولاية العهد (288) . ولا يخفى دور دوسر ابنة أبى حاتم يوسف فى احداث العصر الرستمى الاخير ، تلك التى أودت بالدولة الرستمية (289) .

---

(279) الشماخى : السير : صفحة 263 .
(280) سيرة الائمة الرستميين : صفحة 55 .
(281) نفس المصدر : صفحة 49 .
(282) تانف احد هؤلاء الفقهاء من تبرج نساء قصطالية قائلا « ما اكثر اماء هذا البلد » . انظر : الشماخى : السير ص 281 .
(283) الطبرى : ج 6 صفحة 275 .
(284) الشماخى : السير : صفحة 108 ، 109 .
(285) البكرى : صفحة 151 .
(286) الشماخى : السير : صفحة 193 .
(287) النفوسى : صفحة 264 .
(288) ابن الصغير : صفحة 50 .
(289) ابو زكريا : ورقة 36 .

رابعا :

الحياة الثقافية

ترك الخوارج آثارا واضحا فى الحياة الثقافية ببلاد المغرب . اذ ان مذهب الخوارج تضمن آراء خاصة تفرد بها عن سائر المذاهب الاسلامية الوافدة الى المغرب . ولما كانت هذه الآراء تمثل فى جوهرها عـودة الى تعاليم الاسلام الصحيحة ، فقد اقبل المغاربة على اعتناقها اكثر من اقبالهم على اى مذهب آخر . وقد سبق التعريف بدور دعاة الخوارج فى بث مذهبهم بين شيوخ القبائل الذين تحولوا الى دعاة للمذهب بين قبائلهم حتى عمت الدعوة سائر بلاد المغرب فى النصف الاول من القرن الثانى الهجرى .

وانتشار مذهب الخوارج استلزم تبصير المغاربة بفقهـه وآرائـه وعقائده ولم يقدر لدعاة الخوارج الاول كعكرمة مولى ابن عباس وسلمة بن سعيد وابن مغيطر ان يقوموا بهذا الدور . فاختار المغاربة بعض رجالهم وأوفدوهم فى بعثة الى البصرة للدراسة والتعلم والتعمق فى أصول المذهب وفروعه . واستمرت مهمتهم خمس سنوات عادوا بعدها الى المغـرب « حملة للعلم » . ثم قاموا بتدريس ما حصلوه بالمشرق فى حلقاتهم التى انتشرت فى جهات كثيرة من بلاد المغرب الادنى وافريقية . وفى تلك الحلقات تلقى الاتباع الاصول والفروع والسير والتوحيد والشريعة وآراء الفرق

الى جانب علوم اللغة والفلك والرياضيات (290) ، فكانت بمثابة مدارس للعلوم النقلية والعقلية فى آن واحو ، ومراكز لتعريب البربر ونشر الحضارة العربية أيضا .

ولم تنقطع الصلة بين خوارج المشرق والمغرب فكانت كتب فقهاء المذهب فى الشرق وتصانيفهم تفد الى المغرب بشكل دائم (291) . كما داب فقهاؤهم ومحدثوهم على القدوم الى المغرب للتدريس والافتاء (292). وفى نفس الوقت لم تنقطع بعوث المغاربة الى المشرق للاخذ عن اعلام المذهب فى العراق ومصر والحجاز (293) .

ولا شك أن ذلك الاتصال الثقافى بالمشرق أثرى الحياة الثقافية فى بلاد المغرب . فظهر كثيرون من الاعلام المغاربة فى العلوم الدينية والدنيوية . كالشيخ مهدى النفوسى المتكلم (294) وابن يانس ذائع الصيت فى التفسير والفقه وأبو حسن الابدلانى (295) وعبد العزيز بن الاوز (296) ، ويعقوب بن سيلوس قاضى وارجلان (297) وغيرهم ممن أثروا بتآليفهم ومصنفاتهم الحياة الثقافية ببلاد المغرب وقد الف هؤلاء بالعربية والفارسية ومنهم من ترك كتبا بلغة البربر كابن سهل الفارسى (298) .

ولا شك أن انتشار آراء الخوارج بين البربر أحدث ثورة فكرية فى بلاد المغرب ، وساعد على ذلك التنافس الفكرى بين الخوارج وبين غيرهم

---

(290) الدرجينى : ج 1 ورقة 3 ، البرادى : الجواهر المنتقاة : ورقة 106 ، Masqueray : Op. Cit. P. IXI.

(291) ذكر مؤرخو الاباضية أن أباضية البصرة نسخوا لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم آلاف الكتب لتزويد المكتبة المعصومة بتاهرت . وأورد بعضهم أن ديوان نفوسة كان يحوى ثلاثمائة وثلاين ألف جزء من مؤلفات المشارقة . انظر : الشماخى : السير . ص 162 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 26 ، البرادى : رسالة فى بعض كتب الاباضية . ورقة 207 .

(292) الوسيانى : سير ابى الربيع ورقة 2 .

(293) نفس المصدر ورقة 13 . كانت مواسم الحج فرصة مواتية لالتقاء الاباضية من كافة الامصار الاسلامية ، وقد حرص المغاربة على الاستفادة من لقائهم بأعلام المذهب فيما يعن لهم من مسائل علمية وفقهية كان يفتى فيها مشاهير الفقهاء كشميب بن المعرف فى مصر ومحبوب بن الرحيل بمكة والربيع بن حبيب وغيرهم من العراق .

(294) ابو زكريا : ورقة 20 .

(295) الشماخى : السير : صفحة 155 .

(296) النفوسى : صفحة 70 .

(297) نفس المصدر : صفحة 48 .

(298) نفس المصدر : صفحة 68 .

من اتباع المذاهب والفرق الاسلامية الاخرى التى وفدت الى بلاد المغرب . واهم الملاحم الفكرية التى جرت فى هذا الصدد كانت مع السنة المالكية والمعتزلة ، ثم مع الشيعة الفاطميين .

فقد غلب مذهب مالك على افريقية وساد ما عداه من المذاهب الاخرى . الا ان مذهب الخوارج تسرب اليها بشقيه الصفرى والاباضى وتذكرت كتب الطبقات (299) أن حلقات الصفرية والاباضية كانت تعقد فى مساجد افريقية ، بل فى جامع القيروان ذاته . حيث دأب فقهاء الخوارج على تدريس تعاليم المذهب ومناظرة مخالفيه ومع ما عرف عن المالكية من تعصب وبغض لمخالفيهم ، فقد سمحوا للخوارج بممارسة نشاطهم فى افريقية حتى تولى سحنون القضاء فحظر عليهم ذلك ، وبدد حلقاتهم وشتت شملهم (300) . ودرج من جاء بعده من القضاة المالكية على اضطهاد الخوارج فى افريقية واذلالهم .

وعلى خلاف ذلك حظى المالكية فى دول الخوارج بتسامح الى أبعد الحدود حتى ان بعض شيوخهم تولوا المناصب العامة فى تاهرت فى أواخر حكم بنى رستم (301) وليس ادل على هذا التسامح مما يرويه ابن الصغير (302) — وهو مالكى عاصر ائمة بنى رستم الاواخر — عن الحرية التامة التى تمتع بها المالكية فى ممارسة شعائرهم فى كافة مساجد تاهرت فيما عدا المسجد الجامع . ويحكى ابن الصغير (303) كثيرا عن محاوراته

---

(299) ابو العرب تميم : ص 120 ، الدباغ : ج 2 ص 55 .
(300) المالكى : ج 1 ص 409 ، الدباغ : ج 2 ص 192 .
(301) الشماخى : السير : ص 263 ، البرادى : الجواهر المنتقاة : ورقة 103 .
(302) سيرة الائمة الرستميين ص 57 .
(303) وهاك مثالا لمناظرة بين ابن الصغير مع ابى الربيع سليمان الهوارى الاباضى يقول ابن الصغير : « قال الاباضى : من اين زعمت وزعم اصحابك وغيرهم من الحجازيين والعراقيين ان الرجل اذا زوج ابنته البكر وهى صغيرة وأدركت أن لا خيار لها فى نفسها ، وأنتم تقولون أن الرجل اذا زوج أمته وعتقت ان لها الخيار . ولا فرق بين الامة والصغيرة لان الامة لم يكن لها حكم فى نفسها وانما كان الحكم لسيدها ، فلما عتقت وصار الحكم اليها جعلتم لها الخيار ، والصغيرة لم يكن لها حكم فى نفسها وان الحكم لابيها ، فلما أدركت صار الامر اليها ، فلم منعتموها ما أجزتم للامة والمعنى واحد »
فقلت له : انما أجزنا نكاح الصغار لان النبى (ص) تزوج عائشة بنت أبى بكر بنت سبع وبنى بها وهى بنت تسع .
فقال لى : دعنى من هذا ، فانى لا أجامعك عليها ، ولكن كلمنى من القرآن أو من باب النظر مع انى لو منيت لك الخبر ما كان لك فيه حجة لانك تعلم أن الله احل لرسوله من النساء ومن عددهن أكثر مما أحل لامته ، فان كان عندك حجة غير هذه فاذكرها ، ولا فلا تقم لك حجة =

ومساجلاته مع مشايخ الاباضية فى كثير من المسائل الفقهية والمذهبية دون أن يتعرض لارهاب أو بطش ·

ولما كان المذهب الاباضى اقرب مذاهب الخوارج الى مذهب أهل السنة ، فلم يجد فقهاء القيروان ما يحاول دون التحالف مع الاباضية لمناوءة المذهب الشيعى (304) . وقد ظهر هذا الائتلاف بشكل واضح فى ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد ·

أما المعتزلة أو الواصلية فكانت مضاربهم بالمغربين الاوسط والاقصى حيث شكلوا اقليات لها ثقلها فى دول الادارسة وبنى مدرار وبنى رستم · ففى سجلماسة اقامت اعداد غفيرة منهم وتمتعوا بحرية وتسامح فى رحاب بنى مدرار على الرغم من تطرف المذهب الصفرى (305) · وليس أدل على ذلك من سماح المدرارين لهم بأن « يبعثوا بزكاة أموالهم الى رئيسهم بتاهرت يصرفها حيث شاء » (306) .

و فى تاهرت وما حولها كان يقيم ما يربو على ثلاثين الف من

= قلت له : فان أوجدتك صحة عقدها من القرآن اترجع ·
فقال : فاذكر لى ذلك ·
فقلت له : قال الله تبارك وتعالى : « واللائى يئسن من المحيض من نسائكم الى واللائى لم يحضن » ·
فقال لى : عجبا منك ، انا أسالك عن عقد النكاح وفسخة وأنت تخبرنى عن عدد المويسات وعدة اللائى لم يحضن ·
فقلت : هيهات ابا الربيع غاب عنك المراد ·
وما غاب عنى من ذلك ·
قلت : اخبرنى عن هذه العدد الموضعات من طلاق أم من غيره ·
قال من طلاق ·
قلت : فهل يقع طلاق من غير أن يكون عقد نكاح ؟
قال : لا .
قلت : فى المويسات فمنهن اللائى قد بلغن من السنين مالا يحضن مثلهن ؟
قال : نعم ·
قلت : واللائى لم يحضن من الصغر ؟
قال : نعم ·
قلت : ما وجب الله عليهن عددا ؟
قال : نعم ·
قلت : امن طلاق أم من غير طلاق ·
قال : من طلاق ·
قلت : فيكون طلاق من غير عقد نكاح ؟ فسكت ولم يرد جوابا . انظر : سيرة الائمة الرستميين : صفحة 50 ، 51 ·

(304) سعيد بن مقديش : صفحة 125 ·
(305) البغدادى : صفحة 103 ·
(306) البرادى : الجواهر ورقة 93 ·

الواصلية (307) . وعلى الرغم مما قاموا به من دور معاد لائمة بنى رستم وتمردهم فى عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، فقد حظوا بتسامح دينى الى ابعد الحدود · وحسبنا ما كان يحدث بين شيوخهم وزعماء الاباضية من محاورات على غرار ما كان يحدث بالشرق بين زعيمهم واصل بن عطاء وبين ابى عبيدة مسلم بن ابى كريمة شيخ اباضية الشرق (308) . ونستشف من المصادر الاباضية أن فقهاء المعتزلة بزوا مشايخ الاباضية فى تاهرت ، وافحموا الامام عبد الوهاب ذاته فى مساجلاتهم معه · فلم يستطع عبد الوهاب محاجاتهم فى كثير من المسائل الجدلية المتعلقة بالعقائد والشرائع ، بدليل استعانته بمشايخ المذهب فى جبل نفوسة فى هذه المساجلات (309) . وكانت المعارك الجدلية بين الاباضية والمعتزلة لا تفتر ابدا (310) · ومع ذلك نعم المعتزلة فى العصر الرستمى الاخير بتسامح كبير فكانوا يلتقون فى مناظرات ومساجلات مشهورة مع مشايخ الاباضية على نهر مينة خارج تاهرت ، وكان قطب الاباضية المدافع عن مذهبهم ويدعى عبد الله بن اللمطى له معهم مواقف مشهودة ، اشاد بها ابن الصغير المالكى (311) .

اما التشيع فقد أخذ سبيله الى دولتى الخوارج فى عصرهما الاخير ، فالمذهب الشيعى وفد الى سجلماسة قبل وصول المهدى اليها (312)، ولم يعدم المهدى وجود انصار واتباع فى سجلماسة كانوا يستفتونه فى امور دينهم ودنياهم ابان وجوده بها (313) .

وتحدث ابو زكريا (314) عن وجود كثير من الشيعة فى تاهرت فى عصر الرستميين الاواخر . والحق — اننا لم نقف على اى نشاط فكرى واضح للشيعة فى تاهرت . وان كانت كتب الاباضية تحفل بكثير من

---

(307) البكرى : ص 67 ، ابن خلدون : ج 6 ص 121 .
(308) الدرجينى : ج 1 ورقة 105 .
(309) الشماخى : السير : صفحة 155 .
(310) ابو زكريا : ورقة 20 .
(311) فى احدى المساجلات سال شيخ المعتزلة عبد الله بن اللمطى : هل تستطيع الانتقال من مكان لست فيه الى مكان لست فيه ، فقال ابن اللمطى : لا . فقال : هل تستطيع الانتقال من مكان لست فيه الى مكان أنت فيه ، قال : لا . فقال : هل تستطيع الانتقال من مكان أنت فيه الى مكان لست فيه ، فقال : خرجت منها . . انظر : ابن الصغير : ص 45 ، الشماخى : السير ص 223 .
(312) اليمانى : سيرة جعفر ص 120 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 42 .
(313) ابو زكريا : ورقة 36 .
(314) نفس المصدر والصحيفة .

المساجلات والمناظرات بين الاباضية والشيعة بعد سقوط دولة بنى رستم سنة 297 هـ (909 م) ولعل من اكثرها طرافة ما حدث بين أبى نوح وسعيد بن زنفيل الاباضى وبين ابو تميم المعز لدين الله الفاطمى من مواقف تدل على حصافة الشيخ الاباضى من ناحية وتبجيل المعز للعلماء والفقهاء من ناحية أخرى (315) ·

ولا شك ان المحاورات والمساجلات بين شيوخ تلك المذاهب وبين فقهاء الخوارج اثرت الحياة العقلية فى بلاد المغرب بوجه عام . وهذا ما عبر عنه النفوسى (316) بقوله :

« .. وكثرت الآراء والاقوال ، وانتحل البحث فى المذاهب وعظم الجدل حول مسألة الامامة ، فقام كل فريق يطلب الاختصاص بها ويدعى انه اولى وأحق بها ، ويقيم على ذلك الحجج والادلة » · والفضل يعزى الى حكام الخوارج فى اتاحة الحرية الدينية لتنافس تلك الطوائف وتصارع آرائها · وكان من اثر ذلك ان كثرت الفرق المنشقة على الائمة كالنكار والخلفية والنفاثية ، لكن هذه الانشقاقات غذت فكر الخوارج ، وأمدته بآراء واجتهادات جديدة . كآراء يزيد بن فندين فى الامامة المشروطة ، واجتهادات فرج بن نصر (317) المعروف بنفاث فى تطوير العقائد الاباضية (318) ·

---

(315) لما قبض على ابى نوح وجىء به الى المعز مكبلا بالاصفاد ، قال المعز : ان القيود دخلت فى رجلك بالعلم ولا تخرج الا بالعلم . قال أبو نوح : عسى الله ان يجعل ذلك كفارة لذنوبى . فغضب المعز وقال : افنحن مسيئون فيك ، قال أبو نوح : قلت ليس فى ذلك ما يدل على اساءتك ، الا ترى أن الله يبتلى عباده فيصبروا فيؤجروا ، وليس فى ذلك ما يثبت الاساءة لله . فزال غضبه . فطلبته العفو ، فعفى .. وقربه .. وفى احدى مجالس المعز مع العلماء والفقهاء ومن بينهم أبى نوح ، سأل المعز : ما الدليل ان لهذه الصنعة صانعا ، ، واجاب جلساؤه بأجوبة غير مرضية . فقال ابو نوح ، فرايت ابا تميم كانه يريد الجواب . وتأدب أبو نوح وقال : جوابك مفهوم من سؤالك ، لان الصنعة بنفسها دليل الصانع ، ولا صنعة بغير صانع . فأعجب المعز بلباقته . انظر الشماخى : السير ص 352 وما بعدها .

(316) انظر : الازهار الرياضية : ج 2 ص 115 ·

(317) وليس ادل على مكانة فرج بن نصر العلمية من رحلته الى بغداد ومواقفه ومحاوراته فى بلاط العباسيين مع فقهائهم وعلمائهم ومحدثيهم ، وظفره لذلك برضى الخليفة ورعايته . عن هذه الرحلة انظر : أبو زكريا : ورقة 29 ، 30 . وجدير بالذكر أن نفاثا نسخ ابان وجوده ببغداد ديوان جابر بن زيد فى الفقه وعاد به الى المغرب . انظر : أبو زكريا : ورقة 30 ·

(318) راجع : النفوسى : الازهار الرياضية : ج 2 ص 195 ؛
Lewcki : Melanges Berberes Ibadites. P. 280.

وكان أئمة الخوارج يقدرون العلم والعلماء ، فقد عرف عن حكام سجلماسة « حب العلم والرغبة فى طلبه وتحصيله » (319) . كما كان البيت الرستمى « بيت العلوم جامعا بفنونها من علوم التفسير والحديث ، وعلم اللسان وعلم النجوم ، والاصول والفروع والفرائض » (320) . وعبد الرحمن بن رستم بويع بالامامة « لعلمه وفضله » وحسبه أنه كان من « حملة العلم الخمسة » الى المغرب . وعبد الوهاب بن عبد الرحمن كان له خلواته العلمية الخاصة الى جانب مجالسه العامة التى كان يرتادها طلبة العلم من سائر أرجاء دولته (321) . وأبو بكر بن أفلح عرف بشغفه بالآداب والتواريخ (322) وكان أبو اليقظان محمد « يدرس فى حلقات ثلاث ثلاثة انواع من العلم » (323) . وكانت مكتبة الاسرة الرستمية ــ المعروفة بالمعصومة تحوى أمهات الكتب الدينية الى جانب مصنفات الفنون والرياضيات والصنائع (324) .

وقد اضحت سجلماسة وتاهرت من المراكز الثقافية الكبرى فى بلاد المغرب وامها طلاب العلم من سائر انحائه وخاصة تاهرت « التى تعددت بها اللغات واللهجات (325) وجاب علماؤها مدن الشرق والمغرب رغبة فى طلب العلم وتحصيله (326) كما خرج منها أيضا طلاب العلم الى القيروان وقرطبة (327) .

والى الخوارج يعزى الفضل فى وضع البذور الاولى لنشر الاسلام فى بلاد السودان الواقعة جنوبى الصحراء ذلك أن الجهود السابقة التى بذلها عقبة بن نافع لم يقدر لها النجاح (328) ، كما أن غزوات عبد الرحمن ابن حبيب وعبيد الله بن الحبحاب لاطراف بلاد السودان لم تتمخض عن شيء

---

(319) اسماعيل حامد : نبذة فى تاريخ الصحراء التصوى . ص 7 .
(320) الدرجينى : ج 1 ورقة 25 .
(321) النفوسى : صفحة 197 .
(322) ابن الصغير : صفحة 31 .
(323) الدرجينى : ج 1 ورقة 136 .
(324) ابو زكريا : ورقة 42 .
(325) الشماخى السير : صفحة 263 .
(326) من هؤلاء بكر بن حماد التاهرتى الذى سمع بالمشرق وساجل شعراء العراق كدعبل الخزاعى وعلى بن الجهم ثم نزل القيروان وفاس وناظر علماءها وترك أشعار تنم من علو مكانته العلمية والادبية . انظر : النفوسى : ص 71 وما بعدها .
(327) الضبى : بغية الملتمس ص 364 ، ابن بشكوال : الصلة ج 1 ص 86 .
(328) عبيد الله بن صالح : نص جديد : ص 218 .

سوى الحصول على المغانم (329) . كما قام أبو القاسم سمكو بن واسول أمير سجلماسة بنشر الاسلام على المذهب الصفرى بين الجماعات السودانية التى كانت تعمل فى نقل التجارة عبر الصحراء ، ومعروف أن كثيرين منهم آثروا الاستقرار بسجلماسة بعد اسلامهم . وبفضل بنى مدرار انتشر الاسلام بين قبائل صنهاجة اللثام من مسوفة ولمتونة التى كانت تضرب بنواحى سجلماسة على طول المفازة بينها وبين بلاد غانة (330). وقد ازدادت اعداد هؤلاء بسجلماسة حتى وصف البكرى (331) سكانها « بأنهم يلتزمون النقاب » . ولما كان لهم دورهم الهام فى الوساطة بين بلاد المغرب من ناحية وبين أقاليم افريقية الغربية من ناحية أخرى تسرب الاسلام عن طريقهم الى تلك الجهات وانتشر لاول مرة بين جماعات التكرور واهل غانة (332) .

اما الاجزاء الوسطى من بلاد السودان — وهى بلاد الكانم أو زغاوة — فقد بلغتها الدعوة الاسلامية عن طريق تجار بنى رستم ، اذ أن الرستميين كانوا على صلات تجارية وطيدة مع هذه البلاد ، ومن المحقق أن تلك الصلات أسفرت عن انتشار الاسلام بين بعض الزواغيين على خلاف ما هو شائع عن بقاء زغاوة على « الشرك » حتى قيام دولة المرابطين (333) وما ذهب اليه بعض الدارسين (334) من أن انتشار الاسلام فى بلاد الكانم كان على يد المصريين . والواقع أن بنى رستم وضعوا البذور الاولى لحركة انتشار الاسلام فى تلك النواحى (335) . ولدينا من الادلة ما يؤكد ذلك ، اذ نعلم أن قاضى جبل نفوسة — ويدعى عمروس ابن فتح — « بعث عالما كبيرا من أهل الدعوة » الى زغاوة استقر هناك

---

(329) ابن خلدون : ج 4 صفحة 189 .

(330) الاستبصار : ص 201 ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 71 .

(331) المغرب : صفحة 148 .

(332) الاشعرى : مقالات الاسلاميين ص 128 ، حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية . ص 221 . والواقع أن انتشار الاسلام لم يتم بصورة واسعة فى هذه الجهات الا فى عهد المرابطين . انظر : الاستبصار . ص 217 ، حسن محمود : المرجع السابق . ص 234 .

(333) المأمون : جغرافيته أ ص 204 .

(334) حامد عمار : علاقات الدولة المملوكية بالدول الافريقية ص 12 .

(335) اطفيش : بعض تواريخ اهل وادى ميزاب : ص 116 .

وطاب له المقام (336) . كما أورد الشماخى (337) رواية تدل على اعتناق احد ملوك زغاوة الاسلام على يد احد مشايخ نفوسة . وقد اخذ لويسكى (338) بهذه الرواية وكذلك ماسكراى (339) الذى اكد أن الاسلام وصل حتى بلاد غانة عن طريق التجار الاباضية من رعايا الدولة الرستمية.

ولعل من اهم آثار الخوارج فى الحياة الثقافية فى بلاد المغرب تصديهم لمواجهة حركة التشيع التى قام بها الفاطميون الذين حاولوا نشر مذهبهم بوسائل العنف والشدة .

يتضح ذلك من سياستهم فى محاولة طمس معالم تراث الخوارج ببلاد المغرب كاحراق المكتبة المعصومة بتاهرت واهدار كتبهم بها (340) . وقد اشترك السنة مع الخوارج فى محاربة التشيع وكان انتصارهم وشيكا لولا فشل ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد ، واخفاق حركة الشاكر لله بسجلماسة . اذ لو قدر نجاح هاتين الحركتين لزالت الدعوة الشيعية الاسماعيلية من بلاد المغرب . وبنهاية نفوذ الخوارج السياسى فى بلاد المغرب انحسرت ثقافتهم وتراثهم ، وانحصر فى بقاع مغلقة فى جبل نفوسة وواحة وارجلان ووادى الميزاب .

واذا كانت المادة تعوزنا لدراسة اثر الخوارج فى العمارة والفنون فى بلاد المغرب ، فالراجح انهم تأثروا فى هذا الصدد بمؤثرات شرقية (341)، واندلسية (342) . فكانت عمائر سجلماسة وابنيتها على نمط اندلسى نتيجة جهود العناصر الاندلسية الوافدة اليها فى تعميرها . وقد وصف ابن

---

(336) الوسيانى : سير أبى الربيع " ورقة 4 .

(337) تنص هذه الرواية على أن « أبا يحيى النفوسى سافر الى بلاد السودان ، فالفى ملكهم ناحل الجسم ضعيف القوى . فقال له : ما بك ؟ قال خوف الموت . قال فأخبرته عن الله وصفاته سبحانه والجنة والنار والحساب وما أعد الله للمطيع والعاصى فكذبنى وقال : لو صح عندك ما تقول لما بلغت الينا تطلب الدنيا . فما زلت اذكر نعم الله وآلائه حتى أسلم وحسن اسلامه » . انظر : الشماخى : السير ص 312 .

(338) Etudes Ibadites. P. 71.

(339) التقى ماسكراى بأحد كبار مشايخ وادى ميزاب الاباضية واسمه الشيخ عبد الله . وقد اكد له الشيخ الاباضى تلك الحقيقة ، واخبره أن جماعات من الاباضية لا تزال موجودة فى غانة حتى الوقت الحاضر . انظر :
Chronique d'abou Zakaria. P. 279.

(340) ابو زكريا : ورقة 42 .

(341) Marcais, G : La Berberie musulmane .. P. 116.

(342) ابو العرب تميم : صفحة 80 .

حوقل (343) الكثير منها بأنها قريبة الشبه بأبنية الكوفة . وتفيض كتب الرحالة (344) بوصف روعة هذه العمائر من قصور وأسوار وحصون ومساجد .

كذلك تأثر فن العمارة الرستمى بمؤثرات فارسية (345) سواء فى انشاء المدن وتخطيطها (346) ، او فى تشييد المساجد والعمائر والقصور (347) . بينما ظهر الاثر الاندلسى واضحا فى القلاع والحصون التى انتشرت خارج تاهرت (348) ابان الصراع بين القبائل والعناصر المختلفة فى العصر الرستمى الاخير ، ومن ناحية أخرى ذهب جورج مارسيه (349) الى ان بعض المؤثرات المغربية فى العمارة انتقلت الى مصر عن طريق الحجاج المغاربة .

تم بحمد الله

---

(343) المسالك والممالك : صفحة 65 .
(344) انظر : المقدسى : احسن التقاسيم ص 219 ، سعيد بن مقديش : نزهة الانظار : صفحة 11 .
(345) Faroughy : Op. Cit. P. 14.
(346) ابو زكريا : ورقة 13 .
(347) ابن الصغير : صفحة 26 . وقد كشفت اثار بناء يعتقد انه مسجد فى سدراته بصحراء الجزائر فى عصر متاخر تدل على تاثر الرستميين بالفن الفارسى . انظر : السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص 582 .
(348) ابن الصغير : صفحة 38 ، 39 .
(349) انظر : La Berberie musulmane .. P. 116.

الخاتمة

تمخضت الدراسة عن عرض لتاريخ الخوارج السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى فى بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى . ونعتقد انه بفضل المادة التاريخية الجديدة التى توافرت للبحث أمكن دراسة الموضوع وجمع شتاته للمرة الاولى فيما نعلم .

فدعوة الخوارج فى بلاد المغرب لم تحظ من قبل بعناية الدارسين وقد تناولنا هذا الموضوع فى ضوء اعتبارين اساسيين ، احدهما متعلق بالتطور السياسى الذى حدث للخوارج فى الشرق فى أواخر القرن الاول الهجرى والانتقال الى مرحلة الدعوة والتنظيم السرى فى أطراف العالم الاسلامى بعد فشل ثوراتهم وملاحقتهم فى قلب الدولة الاسلامية . والثانى يكمن فى ملاءمة ظروف بلاد المغرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية لتقبل مذهب الخوارج وانتشاره بين البربر ، فقد كان الفكر السياسى للخوارج فى صورته المتطورة اواخر القرن الاول الهجرى متسقا مع ظروف بلاد المغرب وآمال البربر واهدافهم . وقد أمكن الوقوف على طبيعة التنظيم السياسى لخوارج الشرق ونظامه وقياداته ودعاته واساليب الدعوة والبلاد التى توجه الدعاة اليها . كما حددنا توقيت نزول دعاة الخوارج — الصفرية والاباضية — الى بلاد المغرب وتوضيح جهودهم فى نشر المذهب بين البربر ، مع اسباب التنافر بين الفرقتين وعدم تعاون دعاتهم فى بلاد المغرب ، فالصفرية اتجهوا الى المغربين الاوسط والاقصى والاباضية مارسوا نشاطهم فى المغرب الادنى وافريقية .. ثم ابرزنا دور دعاة الصفرية فى نشر المذهب بين قبائل مطغرة ومكناسة وزناتة وبعض قبائل صنهاجة اللثام من مسوفة ولمتونة وجدالة فضلا عن بعض العناصر

من غير البربر كالعرب والافارقة وزنوج السودان . كذلك اتضح دور دعاة الاباضية فى بث دعوتهم بين قبائل نفوسة وهوارة وزناتة وسدراتة وزواغة ولواتة ومطماطة ، وجهودهم فى تثبيت دعائم المذهب وتفقيه معتنقيه والاستعانة فى ذلك براس تنظيمهم فى البصرة . كما نوقشت آراء المستشرق جوتييه فى تفسير انتشار مذهب الخوارج فى بلاد المغرب وقد كشفنا عن نسبة تلك الآراء الى المستشرق اميل ماسكراى ، كما اوضحنا ما انطوت عليه من غلو واسراف .

اما عن ثورات الخوارج فى عصر الولاة ، فقد تعرض بعض الدارسين لها ، غير انه تسنى لنا الوقوف على مادة جديدة لم يطلع احد عليها من قبل سواء ما كان منها متعلقا بمصادر السنة او ما كتبه مؤرخو الخوارج وفقهائهم ، وبفضلها ربطنا بين اسباب ثورات الخوارج فى المغرب وبين فكرهم السياسى المتمثل فى الدعوة « لامامة الظهور » من ناحية ، وبينها وبين تفاقم المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى بلاد المغرب من ناحية اخرى . وفى عرضنا لثورات الصفرية والاباضية ، امكن سد كثير من الثغرات فى تاريخ هذه الثورات فضلا عن تصويب العديد من التواريخ المتعلقة بتوقيت الوقائع والاحداث ، او الخاصة بتسلسلها مع توضيح العلل وتقصى الاسباب . وقد راعينا تتبع تطور هذه الثورات وفق منهج موضوعى دون اخلال بالاطار الزمانى والمكانى للاحداث . وأثبتنا النتائج التى تمخضت عن ثورات الخوارج مع تحليل عوامل نجاحها او فشلها ، فربطنا بين هذه العوامل وبين موقف الخلافة فى الشرق واهتمامها بشؤون المغرب او انصرافها عنه . كذلك امكن الربط بين تأجج هذه الثورات او خفوتها وبين شخصية ولاة القيروان وسياساتهم وما كانوا عليه من قوة او ضعف . واوضحنا عوامل القوة والضعف فى ثورات الخوارج فعرضنا لقياداتهموخططهم واسلحتهم، كما تحدثنا عن خلافاتهموتعليلها تعليلا اجتماعيا ومذهبيا ، وعدم التعاون بين فرقتى الخوارج واسبابه ، ثم بين زعماء الفرقة الواحدة منها ، وبين كل منها وبين نظيرتها فى الشرق وما ترتب على ذلك كله من نتائج وآثار .

أما عن دولتى الخوارج فى بلاد المغرب فقد امكن توضيح الظروف التى قامتا فيها وقد استرشدنا بمنهج ابن خلدون فى التاريخ لدولة بنى مدرار من حيث قيامها اعتمادا على عصبية ممثلة فى قبيلة مكناسة ، مع ابراز العامل المذهبى الكائن فى تجمع صفرية المغرب الاقصى تحت زعامة امام من

الزنوج تطبيقا لمبدأ المساواة فى فكر الخوارج السياسى . وعرضنا لانشاء سجلماسة ، وحققنا الكثير من الروايات التى نسجت حول اختطاطها ، وكذلك اختيار الامام ودلالته المذهبية والإجتماعية . وعللنا سبب الثورة على الامام الاول وكيف انتقلت الامامة الى مكناسة ، واوضحت أن ذلك يمثل نقلة هامة فى الفكر السياسى عند الخوارج وخروجا على تعاليم المذهب ، وانتصارا لعامل العصبية من جديد . ثم عرضنا لجهود أبى القاسم سمكو ابن واسول المكناسى ثانى الائمة والمؤسس الحقيقــى للدولــة فى تثبيت دعــائم دولتــه .

وعالجنا سياسة بنى مدرار الداخلية فى ضوء الصراع الاجتماعى من ناحية والمذهبى من ناحية اخرى ، اما اولهما فيكمن فى الصراع بين مكناسة وزنوج السودان ، بينما تمثل الصراع المذهبى فى ثورات الاباضية علــى آل مدرار الصفرية . وابرزنا كيف كان عهد اليسع بن ابى القاسم سمكو يمثل العصر الذهبى للدولة المدرارية التى ظلت قوية بعد موته حتى بلغت شأو قوتها على عهد اليسع بن مدرار الذى حاول التوسع ومد رقعة دولته على حساب جيرانه الادارسة . لكن مشروعاته توقفت لظهور الخطر الشيعى الذى دهم سجلماسة سنة 297 هـ (909 م) . كما ارخنا لعلاقات بنى مدرار الخارجية فى ضوء طابع دولتهم الصحراوى الداخلى وظروفها السياسية ومذهبها الدينى ومصالحها الاقتصادية ، وكيف انتهج بنو مدرار سياسة عدائية مع العباسيين والاغالبة والادارسة ، وعقدوا أواصر الود والصداقة مع بنى رستم واموى الاندلس . وناقشنا عديدا من الروايات القديمــة والآراء المستحدثة التى تعرضت بالاشارة احيانا الى علاقات بنى مدرار مع بعض هذه القوى بشكل مخالف لما ذهبنا اليه .

وفى تناول دولــة بنى رستم اوضحنا ظروف قيامها فى ضوء محنة الخوارج الاباضية فى بلاد المغرب اذ ذاك ، وابرزنا دور عبد الرحمن بن رستم فى تجميع اباضية المغرب الاوسط بعد تشتت شمل اباضية افريقية والمغرب الادنى على ايدى الولاة العباسيين . ثم جهوده فى تأسيس تاهرت وما تضمنه تأسيسها من مغزى سياسى ومذهبى وحسمنا مشكلــة امامــة عبد الرحمن بن رستم التى اختلف حولها القدامى والمحدثون ، وانتهينا الى انه بويع بالامامة مرتين — استرشادا بفقه الاباضية — الاولى على انه « امام دفاع » قبل اختطاط تاهرت ، والثانية « كامام ظهور » بعــد اختطاطها . ثم عرضنا لجهوده فى تثبيت دعائم دولته بتقرير نهج سياستها الخارجية القائم على سياسة المهادنة ، ومواجهة مشاكلها الداخلية مــن

حيث فرض سلطان الامامة على القبائل داخل حدودها ، وانماء عمران تاهرت ، وارساء نظم الحكم والادارة .

وفى دراسة سياسة بنى رستم الداخلية ،أوضحنا ما تفردت به منشيوع الفتن والقلاقل الداخلية بصورة أكثر بروزا من اية دولة من دول المغرب الاخرى المعاصرة لها . وارجعنا هذه الاضطرابات السياسية الى أسباب فقهية مذهبية ، او عوامل عنصرية وقبلية ، أو نتيجة لموقف الفرق والطوائف المذهبية غير الاباضية وكلها تنطوى على أسباب اقتصادية. وانتهينا الى تحديد أدوار ثلاثة واضحة فى تاريخ التطور السياسى لدولة بنى رستم ، كان الدور الاول فيها — ويشمل عهدى عبد الوهاب بن رستم وابنه افلح — يمثل سطوة الامامة وقوتها ، وقدرتها على احباط كافة الحركات المناوئة ذات الطابع المذهبى سواء بالقوة كما فعل عبد الوهاب ، او عن طريق السياسة كما فعل افلح . أما الدور الثانى، فيشمل عهدى أبى بكر بن افلح واخيه ابى اليقظان محمد ، وهو يمثل الصراع العنصرى والقبلى . وفيه خفت صوت الامامة ووهنت قوتها ، ونجحت بعض العناصر فى اغتصاب السلطة فى تاهرت . ولم يحل دون سقوط الامامة سوى ضعف العصبيات من جراء الصراع بينها واسلوب الموازنة الذى اتبعه ابو اليقظان محمد فى موقفه من هذه العصبيات . أما الدور الثالث من حكم بنى رستم — ويشمل امامتى أبى حاتم يوسف بن محمد واليقظان بن ابى اليقظان — فيتسم بتداعى الامامة واضمحلالها وتحكم عامة تاهرت فى تعيين الائمة وعزلهم ، وانفصام الصلة بين عاصمة الدولة واقاليمها الشرقية . كما زاد الحالة سوءا تفاقم الخلافات داخل البيت الرستمى وقيام أفراد البيت بتدبير المؤامرات والاغتيالات ضد بعضهم البعض لتولى الحكم . وقد تضافرت هذه العوامل جميعا على سقوط الدولة الرستمية سنة 297 هـ (909 م) .

أما علاقات بنى رستم الخارجية فقد تأثرت — شأنها شأن بنى مدرار — بوضع الدولة الجغرافى ومذهبها الدينى وظروفها السياسية ومصالحها الاقتصادية وانتهينا الى أن سياسة بنى رستم الخارجية فى جوهرها سياسة دفاعية ، فلم يتطاولوا على جيرانهم الا بما تقتضيه ضرورة الدفاع عن حدودهم بل تثاقلوا فى بعض الاحيان عن رد خطر جيرانهم الادارسة . كما أن صلاتهم الودية لم تتعد مجرد تبادل السفارات والهدايا ولم تصل قط لدرجة التحالف او التعاون لمواجهة العدو المشترك . ومع

ذلك أمكن تقسيم هذه العلاقات الى شقين ، عدائية وودية . فعلاقات بنى رستم بالعباسيين والاغالبة والادارسة كانت ذات طابع عدائـــى . امـــا علاقاتهم مع بنى مدرار وبنى أمية بالاندلس واباضية الشرق ، فقد اتسمت بالطابع الودى . وقد ناقشنا الكثير من الروايات والآراء لقدامى المؤرخين ومحدثيهم فى هذا الصدد .

وقد أمكن الربط بين ظهور الدعوة الفاطمية فى بلاد المغرب وبيــن سقوط دولتى الخوارج فى تاهرت وسجلماسة سنة 297 هـ (909 م) . فاتضح ان التشيع وجد طريقه الى سجلماسة قبل قدوم المهدى اليهــا واقامته بها . وان المهدى عاش طليقا بالمدينة حتى تيقن أميرها اليسع بن مدرار من أن ابى عبد الله الشيعى يدعو اليه ، فقبض عليه واودعه السجن، على خلاف ما ذكره بعض المؤرخين من أن اليسع نفذ بذلك مشيئة الخليفة العباسى والامير الاغلبى فى القيروان . وقد فندنا هذا الزعم واثبتنا ان اليسع فعل ما فعله بالمهدى خوفا من الخطر الشيعى على دولته . وتتبعنا الاتصالات بين ابى عبد الله الشيعى وبين المهدى بسجلماسة حتى فرغ الشيعى من القضاء على دولة الاغالبة ، وتوجه الى سجلماسة لتحرير المهدى . وقــد عرضنا للروايات المتضاربة حول مصير المهــدى فى ضوء المادة التاريخية المتاحة . ثم اشرنا الى تخريب الشيعة الفواطم لسجلماسة والقبض علــى اليسع بنى مدرار وقتله سنة 297 هـ .

وبعد ذلك تناولنا ثورات الصفرية على الحكم الفاطمى مع بيــان اسبابها وارجعناهــا الى عوامــل سياسية واقتصادية واجتماعية ومذهبية وجغرافية . ثم سياسة الفاطميين فى مواجهة ثورات الصفرية وما انطوت عليه من تهديد وترغيب وفشل تلك السياسة فى دعم نفوذهم بسجلماسة . وعرضنا هذه الثورات ابتداء بالثورة على ابراهيم بن غالب المزاتى سنة 297 هـ وانتهاء بثورة الشاكر لله الذى توفى سنة 352 هـ . ولحملتــى الفاطميين اللتين قمعتا الثورتين ، الاولى بقيادة مصالة بنى حبوس سنة 309 هـ ، والثانية بقيادة جوهر الصقلى سنة 347 هـ ، وما درج عليــه الفاطميون فى الفترة ما بين الحملتين من اصطنــاع بعض افــراد البيت المدرارى ليحكموا سجلماسة باسمهم ، وفشلهم فى ذلك . وقد بينا ما وقعت فيه بعض الروايات من خطأ فى تحديد سنى حكم بنى مدرار فى العهد الفاطمى، واسمائهم والقابهم ودرسنا ذلك فى ضوء كتب السكة ، ومقارنة الروايات المتضاربة ثم ناقشنا آراء البعض حول حركة الشاكر لله المدرارى وفندنا

الزعم بأنه لم يكن خارجيا صفريا ، واثبتنا أن ثورته تمثل رد الفعل الصفرى للسياسة الفاطمية فى المغرب الاقصى . وأوضحنا كيف انتهى الامر فى سجلماسة بضعف النفوذ الفاطمى ثم انقراض بنى مدرار بعد ذلك . كما تناولنا سقوط الدولة الرستمية على يد الفاطميين سنة 297 هـ بعد أن أوضحنا بايجاز مظاهر الفوضى السياسية والاجتماعية والمذهبية فى تاهرت فى العصر الرستمى الاخير الامر الذى جعلها لقمة سائغة للشيعة الفواطم ، فقد سقطت تاهرت على يد أبى عبد الله الشيعى دون قتال . الا أننا خطأنا بعض الروايات القائلة بفتح الشيعة تاهرت قبل سقوط دولة الاغالبة ، واثبتنا أن ذلك الفتح لم يتم الا بعد سقوط دولة الاغالبة نفسها . وخلال مناجزة الشيعى للاغالبة كانت الطوائف والفرق غير الاباضية وبعض العناصر الرستمية المعادية لحكم اليقظان بن أبى اليقظان دائبة الصلة بأبى عبد الله تستحثه القدوم لفتح تاهرت . وبالفعل عرج أبى عبد الله على المدينة فى طريقه الى سجلماسة وفتحها وخربها وقتل من وقع فى يده من بنى رستم . لكن جيوشه فشلت فى اسقاط بعض المعاقل الاباضية الاخرى كوارجلان وجبل نفوسة .

وقد استرشدنا بفكر الخوارج السياسى فيما يتعلق بامامة الدفاع فى أوقات المحن والملمات فى دراسة الاباضية وثوراتهم على الفاطميين . واوضحنا فشل هذه الثورات نتيجة تفتت شمل الاباضية من ناحية ، ومناهضة الفاطميين لنشاط الاباضية فى افريقية والمغرب الادنى من ناحية اخرى . ثم عرضنا للثورة الاباضية الكبرى التى تزعمها أبو يزيد مخلد بن كيداد وفسرنا دوافعها السياسية والاقتصادية والدينية ، وفندنا الروايات التى تنفى عن الحركة طابعها الاباضى . وناقشنا موقف أبى يزيد من الاباضية غير النكار والسنة ونجاحه فى ضمهم لحركته فى مقاومة الشيعة الفواطم . كما تناولنا نشأته وثقافته ورحلته الى الشرق وإعداده للثورة وقيامه بها . وقد حددنا مراحل ثلاثة اساسية فى مسارها كانت المرحلة الاولى فى صالح أبى يزيد والثوار ، بينما كانت الحرب سجالا بين الفاطميين والثوار فى المرحلة الثانية . اما الثالثة فقد تبدد فيها شمل أبى يزيد وأبنائه الذين تصدوا لقيادة الحركة من بعده حتى قضى عليها بالفشل . ثم عرضنا لدوافع تحامل المؤرخين على أبى يزيد واتباعه سواء اكان هؤلاء المؤرخون سنة أم شيعة أم اباضية وهبية واثبتنا تعصبهم وتجنيهم على الرجل وحركته . ثم تناولنا النتائج والآثار التى تمخضت عن ثورة أبى يزيد على سياسة الفاطميين فى المغرب وعلى مصير نشاط الخوارج . وانتهينا الى أن حركة

الشاكر لله المدرارى الصفرى وثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد الاباضى النكارى كانتا آخر حركات الخوارج البارزة فى تاريخ المغرب الاسلامى . واختتمنا البحث بدراسة اثر الخوارج فى المجتمع المغربى ، وقد أمكن تتبع تطور فكر الخوارج السياسى واثره على ما قام به الخوارج من نشاط فى مجالات الحكم والادارة . وانتهينا الى ان الخوارج التزموا بتعاليمهم المذهبية فى هذا الصدد حتى منتصف القرن الثانى الهجرى ، ثم تحولوا عن فكرهم السياسى فيما بعد واتخذت نظمهم ورسومهم وسياساتهم طابعا دينويا صرفا متاثرين بالانماط الشرقية العربية والفارسية والاعراف البدوية والقبلية المغربية .

وفيما يتعلق بأثرهم فى حياة بلاد المغرب الاقتصادية ، ناقشنا الرأى الشائع عن مسؤولية الخوارج وحدهم عما حدث ببلاد المغرب من خراب اقتصادى ، واوضحنا أن جذور تفاقم الاحوال الاقتصادية فى المغرب ترجع الى الحكم البيزنطى ، والفتح الاسلامى ثم سياسة بعض الولاة الامويين . لكننا لم ننكر اسهام ثورات الخوارج فى سوء الاحوال الاقتصادية فى المغرب فى عصر الولاة . غير أن قيام دول الخوارج افضى الى ازدهار هذه الاحوال وانتعاشها فى نواحى الزراعة والصناعة والتجارة . ثم عرضنا لموقف الخوارج من سياسة الفاطميين المالية واثر ثوراتهم فى حمل الفاطميين على انتهاج سياسة معتدلة .

اما عن اثر الخوارج فى الحياة الاجتماعية فى بلاد المغرب فقد ابرزنا التحولات الكبرى التى أحدثتها آراء الخوارج فى المساواة وتحقيق العدالة الاجتماعية من اعادة تشكيل مواقف القوى والعناصر المختلفة فى المجتمع المغربى من عرب وبربر فضلا عن الاقليات الاخرى كالاندلسيين والافارقة وزنوج السودان واليهود ، ثم اوضحنا الآثار والنتائج التى ترتبت على قيام دولتى الخوارج من حيث التحول من حياة البداوة الى حياة الاستقرار ، وهجرات القبائل واعادة توطنها ، وانشاء المدن وامتداد العمران ، وقدوم عناصر شرقية واندلسية للاقامة فى كنف الدولتين الجديدتين ، وما نتج عن ذلك من تلاحم أنماط الحياة البدوية فى المغرب واختلاطها بالانماط الحضارية الوافدة ، وانصهارها جميعا فى بوتقة مغربية ، وما تمخض عن ذلك كله من آثار طيبة أو سيئة فى المجتمع المغربى .

وفيما يتعلق بأثر الخوارج فى الحياة الثقافية ببلاد المغرب ، فقد افضى انتشار مذهب الخوارج بصورة واسعة الى نتائج ثقافية غاية فى

الاهمية فقد وفدت مؤثرات اسلامية شرقية لتسهم فى دعم الاسلام والثقافة العربية فى بلاد المغرب . واخذت هذه الافكار تتصارع مع التيارات الاخرى الوافدة ممثلة فى فكر السنة والمعتزلة والشيعة ، ونجم عن ذلك اثراء الحياة الثقافية فى المغرب . وقد عرضنا للمساجلات والمناظرات بين اقطاب هذه الفرق ووقفنا على كثير من نصوص تلك المساجلات بين فقهاء الخوارج ومشايخ الفرق الاخرى اثبتناها فى الحواشى . كذلك عرضنا للانشقاقات المذهبية فى فرق الخوارج نفسها فى جوانبها الفكرية واوضحنا اثرها فى اثراء افكار الخوارج ومعتقداتهم ، وما اضافته بيئة المغرب الى رصيد هذه الافكار والمعتقدات . كما عرضنا لاعلام المفكرين فى صنوف العلم المختلفة ، ودور ائمة الخوارج فى تشجيع النشاط الثقافى ، والصلات الثقافية بين عاصمتى دولتى الخوارج وبين مراكز الثقافة فى المغرب والاندلس ، فضلا عن بلاد الشرق الاسلامى . ثم ابرزنا دور الخوارج فى وضع البذور الاولى لحركة انتشار الاسلام فى افريقية جنوبى الصحراء ، وهو أمر لم يفطن اليه الدارسون من قبل . وعرضنا فى ايجاز لدور الخوارج فى مجال الفن والعمارة فى المغرب ، وتأثرهم بمؤثرات شرقية فارسية واندلسية .

الملاحق

ملحق رقم «1»

رسالة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة الى شيوخ الاباضية بالمغرب

بسم الله الرحمن الرحيم (1) . صلى الله على سيدنا محمد النبي الامى وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

اتانى كتابكم تذكرون فيه ما من الله به عليكم من جمع كلمتكم وائتلاف امركم فى كثرة من بحضرتكم من اهل الخلاف لكم . ولعمرى ما اكثرتهم وان كثروا باكثر ممن كان قبلهم على من كان قبلكم من سلفكم ، فاقتدوا بهم يهون عليكم كثرتهم على اخلافكم . نسأل الله العون والتوفيق فى جميع اموركم ، وان يكفنا واياكم بأسهم ، وان يجعل لنا ولكم ولجميع المسلمين الدائرة عليهم ويشفى صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم . فلعمرى لقد اسرنى ما انتهيتم اليه من امركم ، وان كان ذلك لم يخف عنا ، غير انا لم نظن الذى كتبتم به الى . والله يستتم لكم الخير كله بعونه وتوفيقه .

اتانا كتابكم بمسائل ، فمنها ما رايت ان اجيبكم فيها ، ومنها ما رايت

---

(1) ابو عبيدة مسلم بن ابى كريمة ، رسالة فى احكام الزكاة . مخطوط بدار الكتب المصرية — رقم 21582 ب ورقة 114 .

الا نجيبكم فيها من غير هوان ولا تقصير الا الذى رأيته أصلح لجماعتكم واقوم لشأنكم وارفق لضعيفكم واعطف فى الذى أجيبكم فيه ، فمـا كـان من صواب فمن الله ، وما كان من خطأ فى رواية او خبـر أو غير ذلك فمـن نفسى .

استغفر الله من جميع ما ليس هو له رضى . .

ذكرتم فى كتابكم العشر وكيف جمعه ، واعلموا رحمكم الله انه (1) .. الـخ .

ملحق رقم ((2))

رسالة حنظلة بن صفوان الى الخوارج الصفرية بطنجة

بسم الله الرحمن الرحيم .

من حنظلة بن صفوان الى جميع اهل طنجة :

اما بعد – فان اهل العلم بالله وبكتابه وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قالوا انه يرجع جميع ما انزل الله عز وجل الى عشر آيات : آمره ، وزاجره ، ومبشرة ، ومنذرة ، ومخبرة ، ومحكمة ، ومشتبهة ، وحلال ، وحرام ، وامثال .

فآمرة بالمعروف ، وزاجرة عن المنكر ، ومبشرة بالجنة ، ومنذرة بالنار ، ومخبرة بخبر الاولين والآخرين ، ومحكمة يعمل بها ، ومتشابهة يؤمن بها ، وحلال امر ان يؤتى ، وحرام امر ان يجتنب ، وامثال واعظة .

(2)

فمن يطع الآمرة وتزجره الزاجرة ، فقد استبشر بالمبشرة ، وانذرته المنذرة . ومن يحلل الحلال ويحرم الحرام ، ويرو العلم فيما اختلف فيه الناس الى الله ، مع طاعة واضحة ونية صالحة ، فقد افلح وانجح ، وحيا حياة الدنيـا والآخـرة .

---

(1) يستطرد فى الاجابة على تساؤلاتهم وفقا لتعاليم المذهب الاباضى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (1) .

(3)

رسالة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الى أباضية طرابلس

بسم الله الرحمن الرحيم .

من أمير المؤمنين عبد الوهاب الى جماعة المسلمين بحيز طرابلس

اما بعد — فانى آمركم بتقوى الله تعالى والاتباع لما أمركم بـــه ، والانتهاء عما نهاكم عنه . وقد بلغنى ما كتبتم الى به من وفاة السمح ، واستخلاف بعض الناس خلفا ، ورد أهل الخير ذلك . فان من ولى خلفا من غير رضى أمامه فقد اخطأ سيرة المسلمين ومن أبى توليته فقد أصاب .

فاذا اتاكم كتابى هذا ، فليرجع كل عامل استعمله السمح الى عمله الذى ولى عليه ، الا خلف بن السمح حتى يأتيه أمرى . وتوبوا الى ربكم لعلكـم تفلحـــون (2) .

(4)

رسالة الربيع بن حبيب الى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ويزيـــد بـــن فنـــديـــن

بسم الله الرحمن الرحيم — وصلى الله على بنينا محمد وآله الطاهرين

اما بعد — فقد بلغنا يا اخواننا ما كان قبلكم ، وفهمنا ما كاتبتمونا به . اما ما كتبتم به من أمر الشرط ، فليس من سيرة المسلمين أن يجعلوا الشرط فى الامامة ان لا يقضى أمرا دون جماعة .

ولو صح فى الامامة شرط لما اقيم لله حق ولا حد ، ولعطلت الحدود ، وبطلت الاحكام وضاع الحق . على أن الامام اذا قدم اليه سارق فلا يصيب ان يقيم عليه حدا فيقطع يده حتى تحضر الجماعة التى ذكرناها ، أو زنى احد فلا يرجم ولا يجلد حتى تحضر ايضا ، ولا يجاهد الامام عدوا الا ينهى

---

(1) المالكى : رياض النفوس : ج 1 ص 67 .

(2) انظر : ابو زكريا : السيرة واخبار الائمة : ورقة 25 . مخطوط بدار الكتب المصرية — رقم 9030 ح ، الشماخى : السير : ص 180 ، 181 ، الدرجينـــى : طبقات الاباضية : ج 1 ورقة 31 وجه — مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 12561 ح .

عن فساد الا بحضرة الجماعة المعلومة ، والجماعة يتعذر اتفاقها ، فالامامة صحيحـــة والشرط باطـــل .

واما ما ذكرتم من تولية رجل من المسلمين اذا كان فيهم من هو اعلم منه ، فذلك جائز اذا كان الثانى من القناعة والفضل . فقد ولى أبو بكر وزيد ابن ثابت افرض منه ، وعلى بن أبى طالب اقضى منه ومعاذ بن جبل اعلم منه ، وهذا ليس فيه اختلاف ، لقول الرسول (ص) افرضكم زيد واقضاكم على واقرأكم ابى ، واعلم امتى بالحلال واكرام معاذ بن جبل . وقوله (ص) معاذ بن جبل سيد العلماء سيحشر غدا يوم القيامة أمام العلماء وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته (1) .

(5)

رسالة محمد بن افلح الى رعايـــاه

من محمد بن افلح الى جميع من بلغه كتابنا هذا من المسلمين .

سلام الله عليكم . فانى احمد الله اليكم الذى لا اله الا هو ، واسأله الصلاة على نبى الرحمة وهادى الامة صلى الله عليه .

اما بعد ـــ فان افضل ما يتواصى به العباد وتحاضوا عليه ، تقوى الله ولزوم طاعته والزجر عن معصيته والترغيب فيما يورث الثواب مـــن القول الطيب والعمل الصالح . وعليكم معاشر المسلمين بالتهىء للقدوم على الله والتأهب والاعداد ليوم تشخص فيه الابصار وتتغير فيه الالـــوان ، ويشيب فيه الولدان ، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد . واعلموا رحمكم الله أن اهل العلم بالله القائمين بهذه الدعوة قـــد انترضوا وقلت الخلوف منهم ، فرحم الله امرىء مسلـــم احتسب نفسه وارصد لله فى طلب العلم ، والنقص على من حاد الله وعدل عن منهاج رسوله (ص) وطريق المحقين من عباده حتى تكون كلمة الله هى العليـــا والبـــاطـــل زهـــوقا .

وعليكم معاشر المسلمين باتباع الماضين من أسلافكم والمتقدمين من ائمتكم الصالحين من اهل دعوتكم ، فاقتفوا آثارهم ، واهتدوا بهداهم ،

(1) أبو زكريا : السيرة واخبار الائمة : ورقة 16 .

واحذروا الزيغ عن طريقهم والميل عن منهاجهم ، وخالفوا أهل البدع المضلة والاهواء المزلة . فمن اراد أن يبدل دينكم ، ويلبسكم شيعا ، ويلبس عليكم أمركم ممن اتبع هواه واستحوذ عليه الشيطان ونبذ ما جاء به القرآن، فالبس علي الضعفاء أمرهم وزين بدعته فى قلوبهم فأخدع من لا بصيرة له ولا علم له بما مضى عليه الائمة الراشدون رحمة الله عليهم ، والسلف الصالحون من أهل دعوتكم ، فأضل كثيرا ، وضل عن سواء السبيل .

ونحن ذاكرون لكم ما فيه الكفاية ان شاء الله . وبه نستعين وعليه نتوكل وما توفيقنا الا بالله (1) .

(6)

خطبة المعز لدين الله الفاطمى فى مشايخ كتامة يحضهم على قتال الشاكر لله المدرارى .

« . . وهذا الذى كنت ذكرته لكم من غير مجلس ومقام انى لو ندبت من عسيت أن اندبه منكم لوجدت فيه ما أريده . . »

بارك الله فيكم وأحسن صحابتكم والخلافة عليكم ، فقد صدقتم ظنى فيكم واملى عندكم وانتم من معدن البركة وعنصر الخير . بكم بدأ الله اظهار امرنا ، وبكم يتم ويصلحه بحوله وقوته . وقد علمت مسارعتكم الى ما ندبتم اليه . واجابتكم لما اردتم له ، وارجو أن تبلغوا من ذلك بحسب الامل فيكم ، ويرفع الله عز وجل بذلك درجاتكم ويعلى به ذكركم . أنتم البنون والاخوة والاقربون ، ما يعد لكم عندى احد ولا يبلغ مبلغكم من قلبى بشر ، وما ذلك الا لمالى فى قلوبكم . وما نصر الله وليا من أوليائه قبلنا بمثل نصرتكم لنا ، على ذلك مضى أمركم ، وعليه انتم على محبتنا ونصرتنا وموالاتنا تتناسلون وتنشؤون ، وبها غذيتم وعليها فطرتم ، فأبشروا بما قسم الله عز وجل من الفضل لكم ، فانتم حزب الله وانصاره وجنده وأحباءه .

والله ما أردت بهذا البعث الذى بعثتكم فيه شرا استدفعه ، ولا دفع مكروه اخافه ولا استكثارا من الدنيا اصيبها . اما المكروه ، فقد علم الخاص والعام والقريب والبعيد أن غاية امانى من حولنا من أهل الارض من المتغلبين ممن دان بملة الاسلام والمشركين ان يسلموا منا ، ويعانوا أمر باسنا ، وما احد منهم أمسى وأصبح اليوم — بحمد الله — يطمع فى شيء

(1) البرادى : الجواهر المنتقاة فى اتمام ما اخل به كتاب الطبقات لابى العباس الدرجينى ورقة 93 ، 94 — مخطوط بدار الكتب المصرية — رقم 21791 ب .

مما عندنا . وأما اكتساب حطام الدنيا ، فهذا نحن ننفق من أموالنا على هذا البعث مالا نرى نرتجع مثله ، وان مكننا الله وأيدنا ونصرنا . ولكنا أردنا بذلك وجوها منها : ما افترضه الله عز وجل علينا من جهاد من خالف أمرنا وتسمى بأسمائنا ، وادعى ما جعل الله عز وجل لنا . ومنها أن الله عز وجل قدامتحن عباده بالجهاد فى سبيله معنا ، فنحن ننبذهم اليه لنعلم المجاهدين منهم والصابرينوليرفع الله عز وجلبه درجاتهم ويجزلمثوباتهم وينقلحالاتهم فكم منكم اليوم من ينفذ فى هذا الجيش تابعا يعود متبوعا ، ومرءوسا يصير رئيسا . انما ترفعكم عندنا وعند ربكم نياتكم واعمالكم ، وبها تتوسلون الينا والى بارئكم . لولا السنة التى أمر الله عز وجل باتباعها ــ التى لا يصلح العباد الا بها ــ ما قدمت عليكم أحد منكم ولا من غيركم ، اذ كل واحد منكم عندى يستحق ان يكون المقدم . ولكن لا يصلح الناس الا برئيس ، وقد قدمت عليكم من علمتموه . أقمته فيكم مقام نفسى ، وجعلته معكم كأذنى وعينى ، وكل امرىء منكم على نفسه بصير . وقد أمرت لكم بأجزل العطاء ، اعطيته من قبلكم الى ابعد من مسافتكم ، وقد علمتم انه لم يعط من قبلكم احد قبلى مثل ما أعطيتكم . ولا استكثرت لكم ذلك ، بل استقله اقلكم والذى لكم عند الله وعندى فى الذى تستقبلونه اجل واكبر .

فسيروا على بركات الله ويمنه وسعادته ونصره وتأييده . كونوا عندما رجوتكم له من العناء والكفاية وصلاح الحال بينكم . احسنوا عشرة بعضكم لبعض ، وعشرة من تصحبونه من غيركم . وانزلوا من ينفذ معكم من عبيدى منازل اخوانكم . واجمعوا معهم كلمتكم ، فهم لكم عضد ولحمة ، وموالاتى تجمعكم واياهم ، فلا تجعلوا بينكم وبينهم فرقا .

احسن الله لكم الصحابة وعليكم الخلافة . . » (1)

(7)

حديث المعز لدين الله الفاطمى الى المنتصر لله المدرارى وشيوخ الصفرية بسجلماسة

« . . يا اهل سجلماسة ، فعلتم ما فعلتم فى أيام المهدى بالله واقتدر

---

(1) ابن حيون : المجالس والمسايرات : ج 1 ورقة 27 ــ 31 مخطوط بجامعة القاهرة رقم 26060 .

عليكم مرة بعد اخرى ، فعفا عنكم ، واحسن اليكم لحلوله فيكم ومجاورته اياكم مدة اقامته فيكم ، كما يرعاه من أحله الله محله من كرم الطباع وحسن صنيع من غير يد كانت له عنده ، ولا فعل من الجميل تقدم لكم لديه . فصفح وأحسن ، وعفا واجمل ، فما رعيتم ذلك حق رعايته ، ولا فهتم بشكره .

ثم لفق فيكم ناعق من الشيطان فلبيتموه ، ودعاكم اليه داع فأجبتموه قام فيكم دعى فيما ادعاه يتوثب على ما تولاه ، قد عرفتم نسبه ودريتم سببه فتغلب على ظاهر امركم ، وتحلى بالرياسة والتصنع لكم ، وتسمى بأمير المؤمنين وامام المسلمين لكم . على علم لا تشكون ويقين لا تمترون ان ذلك لا يجوز ولا يحل تسليمه . فسلمتموه لمثله له واطعمتموه وتوليتموه وابتعتموه ، ففارقتم جماعة المسلمين ، وخرجتم من حزب المؤمنين ، واحدثتم حدثا عظيما فى الدين . وانتهى الينا من امركم وامره ما لم يسعنا تركه والغفلة عنه ، لما افترضه الله علينا عز اسمه من القيام بحقه فى أرضه ، وجهاد من صدف عن دينه وعن سنة رسوله . وحل محلكم ومحل هـذا الفاسق فيكم . فأنهضنا اليكم جيشا من اوليائنا وانصار دولتنا وعبيدنا مع عبد أمرناه عليهم وتقدمنا اليه فى الاعذار والانذار اليكم فى الانابة والتوبة قبل الوقوع بكم . فلم يزل مع طى المراحل نحوكم يتابع الكتب مع رسولـه كيدا فى الحجة عليكم ، مرة بالوعد ومرة بالوعيد ، وتارة باللـين وتارة بالتشديد ، يدعوكم الى الطاعة والنزوع عما انتم عليه من المعصية والضلال، والقبض على عدو الله فيكم ان تمادى على ما هو عليه من الغى والضلال ان استطعتموه ، والبراءة منه وتركه بجانب ان لم تقدروا عليه . ووصلت كتبه اليكم ، وادى اليكم من اختار به منكم . وكل ذلك وانتم على باطلكم مصرون ، وبالفاسق المضل لكم متمسكون . الى ان وصلت جيوشنا بقربكم ، وانتشرت عساكرنا ببلدكم ، وعاين من عاينكم من عيون عدو الله من جمعها وعتادها وقوتها ما أنهاه اليه ، وقد علم أنه لا طاقة لكم ولا له بعسكر من عسكرها . فلما نزلت بداركم وانتم مع الفاسق على ما انتم عليه . نهض موليا وهاربا متسللا بين اظهركم ، وقد كنتم تقدرون على أخذه لو اردتموه ، ويمكنكم منعه من ذلك ومن حصاره فى داره متى احببتموه لو أخذتم بحظكم فى ذلك ففعلتموه . لكنكم اقمتم مصرين على طاعته وتوليه الى أن نزع عنكم واقدرنا الله بفضله واحسانه عليه كعادته الجميلة بلا صنع ولا لغيركم فى ذلك ، واقدرنا عليكم وامكننا منكم ، وانتم على ما انتم عليه من غيكم وضلالكم وما تستوجبون به اجتياحكم ودماركم . فسار عبدنا فيكم بما أمرناه

من العفو والصفح والرحمة وانصرف عنكم ، فأحدثتم بعده ما احدثتم . فماذا تستحقون أن يفعل بكم ؟ فقال قائلهم : أن يعاقب امير المؤمنين فنحن اهل العقوبة ، وان يعفى فهو اهل العفو والفضل والرحمة .. فدعا منتصر بن احمد بن المعتز فقربه اليه وامره بالجلوس . فقبل الارض مرارا وشكر لامير المؤمنين . ثم عطف على الوفد فقال : قد كنتم تستحقون اليم العذاب والنكال، ولكنا للذى جبلنا عليه من الصفح والعفو والرحمة قد عفونا ما سلف من ذنوبكم ما استقمتم واصلحتم ، وقد استعملنا عليكم عبدنا هذا — وأومى الى منتصر — فقبل وقبلوا الارض مرارا .. وأمر بصرفهم الى موضع انزلهم فيه وخلع على منتصر وفعل كذلك بجماعة من وجوههم .. » (1)

(1) ابن حيون : المجالس والمسايرات : ج 1 ورقة 298 — 304 .

المصادر

ا ــ المراجع العربية المخطوطة :

1 ــ **ابن أبى كريمة :** ابو عبيدة مسلم بن ابى كريمة (تاريخ اواخر القرن الثانى الهجرى) : رسالة فى أحكام الزكاة . مخطوط بدار الكتب ــ رقم 21582 ب .

2 ــ **ابن حيون المغربى :** القاضى ابو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور ابن حيون (ت 363 هـ) : شرح الاخبار فى فضائل النبى المختار وآله المصطفين الاخيار من الائمة الاطهار عليهم السلام . مخطوط بدار الكتب رقم 7062 ح .

3 ــ **ابن حيون المغربى :** اساس التأويل الباطنى . مخطوط بدار الكتب رقم 24346 ح .

4 ــ **ابن حيون المغربى :** المجالس والمسايرات . ج 1 ، 2 . مخطوط بجامعة القاهرة ــ رقم 26060 .

5 ــ **ابن العربى :** ابو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافرى (ت 543 هـ) . القواصم والعواصم ــ مخطوط بدار الكتب ــ رقم 22031 ب .

6 ــ **ابن فضل الله العمرى :** شهاب الدين ابو العباس أحمد بن يحيى (ت 749 هـ) . مسالك الابصار ج 5 ــ مخطوط بدار الكتب رقم 4376 ج .

7 ــ **ابن وردان :** تاريخ الاغالبة فى مملكة تونس ــ مخطوط بدار الكتب ــ رقم 2199 تاريخ ــ يتمورية .

8 ــ **ابــو زكــريــا :** يحيى بن ابى بكر (ت النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) . السيرة واخبار الائمة ــ مخطوط بدار الكتب ــ رقم 9030 ح .

9 ــ **الانصــــارى :** احمد بن الحسين النائب الانصارى : نفحات النسرين والريحانى فيمن كان بطرابلس من الاعيان ــ مخطوط بدار الكتب ــ رقــم 1071 ح .

10 ــ **البــرادى :** ابو القاسم بن ابراهيم البرادى (ت 697 هـ) . الجواهر المنتقاة فى اتمام ما اخل به كتاب الطبقات لابى العباس الدرجينى . مخطوط بدار الكتب . رقم 8456 ح .

11 ــ **البــرادى :** رسالة فى ذكر كتب الاباضية . مخطوط بدار الكتب ــ رقــم 21791 ب .

12 ــ **البيــاسى :** يوسف بن محمد بن ابراهيم الانصارى (ت 653 هـ) الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام مخطوط بــدار الكتب ــ رقــم 8739 ح .

13 ــ **جعفر بن احمد بن عبد السلام :** (ت اواخر القرن الحادى عشــر الهجرى) . ابانة المناهج فى نصيحة الخوارج . مخطوط بــدار الكتب ــ رقــم 25499 ب .

14 ــ **الخــزرجــى :** جمال الدين ابو الحسن على بن ظافر (ت 623 هـ) اخبار الدول المنقطعة . مخطوط بدار الكتب ــ رقم 890 تاريخ .

15 ــ **الــدرجينــى :** ابو العباس احمد (ت منتصف القــرن السابــع الهجرى) طبقات الاباضية ج 1 ، 2 . مخطوط بدار الكتب ــ رقم 2561 ح .

16 ــ **الشمــاخــى :** ابو العباس احمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت 928 هـ) : شرح مقدمة اصول الفقه . مخطوط بــدار الكتب ــ رقــم 21587 ب .

17 ــ **السوفــى :** ابو عمر عثمان بن خليفة المرغنى (ت اواخر القرن السادس الهجرى) : شرح السؤالات ــ مخطوط بدار الكتب ــ رقــم 21789 ب .

18 ــ **الصغــرى :** ابو غانم : مدونة ابى غانم الصغرى ــ مخطوط بدار الكتب ــ رقم 21582 ب .

19 ـ **العينـــى :** بدر الدين أبى محمد محمود بن احمد (ت 855 هـ) : عقد الجمان فى تاريخ اهل الزمان . ج 11 ، 13 ، 15 مخطوط بدار الكتب ـ رقم 1584 تاريخ .

20 ـ **القاضى عيــاض :** عياض موسى اليحصبى (544 هـ) : ترتيب المدارك وتعريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك . قسم 1 من ج 2 . مخطوط بدار الكتب ـ رقم 96730 ح .

21 ـ **المــأمـــون :** الخليفة عبد الله المأمون بن هرون الرشيد : جغرافية المأمون . مخطوط بدار الكتب ـ رقم 1949 ط .

22 ـ **مجهــــول :** تاريخ مدينة فاس وبناء جامع القرويين والاندلسيين ـ مخطوط بدار الكتب ـ رقم 4419 ح .

23 ـ **مجهــــول :** قطعة من كتاب فى الاديان والفرق . مخطوط بــدار الكتب ـ رقم 22298 ب .

24 ـ **مجهــــول :** كشف الغمة لاخبار الامة . مخطوط بدار الكتب ـ رقــم 12968 ح .

25 ـ **مجهــــول :** محاورة بنى شيعى وخارجى فى شأن الشيخين أبى بكر وعمر وشأن الحكمين وما قيل فى ذلك ـ مخطوط بدار الكتب ـ رقــم 19882 ب .

26 ـ **محمد الشطى المغربى :** الجمان فى اخبار الزمان ـ مخطوط بدار الكتب ـ رقم 1416 تاريخ .

27 ـ **المنصــورى :** ركن الدين بيبرس الدوادار (ت 729 هـ) : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة . ج 4 ، 5 ـ مخطوط بجامعة القــاهرة ـ رقم 24027 .

28 ـ **النــاصرى :** عثمان بن عبد العزيز بن منصور (ت 1259 هـ) : منهج المعارج لاخبار الخوارج ـ مخطوط بــدار الكتب ـ رقــم 2144 تاريخ ـ تيمورية .

29 ـ **النــويــرى :** شهاب الدين احمد (ت 732 هـ) : نهاية الارب فى فنون الادب . ج 22 ، 26 ـ مخطوط بدار الكتب ـ رقم 549 معــارف عامــة .

30 ـ **النيسابــورى :** احمد ابراهيم (ت أواخر القرن الرابع الهجرى) : استتار الامام ـ مخطوط بدار الكتب ـ رقم 11497 ح .

31 ــ **الوسيـــانـــى :** ابو الربيع عبد السلام (ت 471 هـ) : سير أبى الربيع بن عبد السلام الوسيانى ــ مخطوط بدار الكتب ــ رقــم 9113 ح .

ب ــ المراجــع العربيــة المطبوعــة :

32 ــ **ابــن الآبـــار :** ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ابى بكر القضاعى (ت 658 هـ) : الحلة السيراء ج 1 ، 2 القاهرة 1963 .

33 ــ **ابــن أبــى دينــار :** ابو عبد الله محمد بن ابى القاسم القيروانى (ت 1092 هـ) ، المونس فى أخبار افريقية وتونس . تونس سنة 1350 هـ .

34 ــ **ابــن أبــى زرع :** ابو الحسن بن عبد الله بن ابى زرع الفاسى (ت 720 هـ) : الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ج 1 . الرباط سنة 1936 م .

35 ــ **ابــن الاثيــر :** محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحــد الشيبانى (ت 630 هـ) : الكامل ج 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 7، 8 . القاهرة سنة 1303 هـ .

36 ــ **ابــن بشكـــوال :** ابو القاسم خلف بن مالك (ت 578 هـ) : الصلة فى تاريخ ائمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وادبائهم ــ ج 1 ، 2 . القاهرة سنة 1955 م .

37 ــ **ابــن بطـــوطـــة :** محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى (ت 1377 م) : تحفة النظار فى غـــرائب الامصـــار وعجائب الاسفـــار ج 2 .

38 ــ **ابن تغرى بردى :** جمال الدين ابى المحاسن يوسف (ت 874 هـ) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ــ ج 1 ، 2 ، 3 . القاهرة سنـــة 1963 م .

39 ــ **ابــن حـــزم :** على بن احمد بن سعيد (ت 456 هـ) : جمهـــرة انساب العرب . القاهرة سنة 1962 م .

40 ــ **ابــن حـــزم :** الفصل فى الملل والنحل . القاهرة سنة 1317 .

41 ــ **ابــن حـــزم :** نقط العروس فى تاريخ الخلفاء . القاهرة سنة 1951

42 ــ **ابــن حمـــاد :** محمد بن على (ت 628 هـ) : اخبار ملوك بنــى

عبيد وسيرتهم . الجزائر سنة 1346 هـ .

43 ــ **ابــن حــوقــل :** ابو القاسم بن حوقل (ت النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) : المسالك والممالك . ليدن سنة 1873 م .

44 ــ **ابــن حيــان :** حيان بن خلف بن حسين (ت 469 هـ) : المقتبس فى تاريخ رجال الاندلس نشر منشور انطونيا . باريس سنة 1937 م.

45 ــ **ابــن حيــان :** المقتبس فى اخبار بلد الاندلس تحقيــق الحجــر التونسى بيروت سنة 1965 م .

46 ــ **ابــن خرداذبــة :** ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت حول سنة 300 هـ) المسالك والممالك . ليدن سنة 1889 م .

47 ــ **ابــن الخطيب :** لسان الدين محمد بن الخطيب السليمانى (ت 940 هـ) اعمال الاعلام فيمن بويع قبــل الاحتلام مــن ملــوك الاسلام . ج 2 . بيروت سنة 1956 م .

48 ــ **ابــن الخطيب :** تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط . وهــو الجزء الثالث من كتاب اعمال الاعلام . الدار البيضاء سنة 1964 .

49 ــ **ابــن الخطيب :** رقم الحلل فى نظم الدول . تونس سنة 1316 هـ .

50 ــ **ابــنخلــدون :** عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ) : العبــر ديوان المبتدأ والخبر . المقدمة ، ج 3 ، 4 ، 6 ، 7 . بولاق سنة 1284 هـ ، القاهرة سنة 1957 م .

51 ــ **ابــن خلكــان :** شمس الدين ابو العباس احمد (ت 681 هـ) : وفيات الاعيان ج 1 القاهرة سنة 1910 م .

52 ــ **ابــن الدايــة :** سيرة احمد بن طولون . برلين سنة 1894 م .

53 ــ **ابــن الدلائــى :** احمد بن عمر بن انس العذرى (ت 478 هـ) : نصوص من الاندلس من كتاب ترصيع الاخبار وتفريع الآثار ، والمسالك الى جميع الممالك . مدريد سنة 1965 م .

54 ــ **ابــن رستــه :** ابو احمد بن عمر : الاعلاف النفسية ج 7 ليدن سنــة 1891 م .

55 ــ **ابــن سعيــد :** على بن موسى بن محمد (ت 673 هـ) : المغرب فى حلى المغرب ج 1 . القاهرة سنة 1964 م .

56 ــ **ابــن الصغير المــالكــى :** انظــر : Motylinski

57 ــ **ابــن طبــاطبــا** : محمد بن على . الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية . القاهرة سنة 1938 م .

58 ــ **ابــن عبــد الحكم** : عبد الرحمن بن عبد الحكم بــن أعين (ت 257 هـ) : فتوح مصر والمغرب . القاهرة سنة 1961 م .

59 ــ **ابــن عبــد ربــه** : احمد بن محمد (ت 327 هـ) : العقد الفريد ج 1 ، 2 ، 3 ، 4 . القاهرة سنة 1940 م .

60 ــ **ابــن عــذارى** : محمد بن عذارى المراكشى (نهاية القرن السابع الهجرى) : البيان المغرب فى اخبار المغرب ج 1 ، 2 بيــروت سنــة 1950 م .

61 ــ **ابــن غلبــون** : محمد بن خليل : التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الاخبار . القاهرة 1349 هـ .

62 ــ **ابــن فرحــون** : برهان الدين بن على (ت 799 هـ) : الديباج المذهب فى معرفة اعيان المذهب 1351 هـ .

63 ــ **ابــن الفــرضى** : عبد الله بن محمد بن يوسف (ت 304 هـ) : تاريخ العلماء والرواة للعلــم بالانــدلس ج 1 ، 2 . القاهــرة سنــة 1954 م .

64 ــ **ابــن الفقيــه** : ابو بكر احمد بن محمد : مختصر كتاب البلــدان ليدن سنة 1302 هـ .

65 ــ **ابــن قتيبــة** : عبد الله بن مسلــم (ت 276 هـ) : الامامــة والسياسة ج 1 ، 2 . القاهرة .

66 ــ **ابــن قتيبــة** : المعارف . القاهرة سنة 1960 م .

67 ــ **ابــن القوطيــة** : محمد بن عمر بن عبد العزيز (ت 267 هـ) : تاريخ افتتاح الاندلس بيروت سنة 1957 م .

68 ــ **ابــن كثيــر** : عماد الدين ابى الفدا اسماعيل بن عمر (ت 774 هـ) البدايــة والنهاية ج 9 .

69 ــ **ابــن النــديم** : محمد بن اسحــق (ت 385 هـ) : الفهــرست القاهرة سنة 1348 هـ .

70 ــ **ابــو العــرب** : محمد بن احمد بن تميم (ت 333 هـ) : طبقات علماء افريقية . باريس سنة 1915 م .

71 ــ **أبــو الفــدا :** عماد الدين اسماعيل (ت 732 هـ) المختصر فى اخبار البشر ج 1 ، 2 . القاهرة .

72 ــ **ابو الفــرج الاصفهانى :** على بن الحسين بن محمد بن احمد (ت 356 هـ) : مقاتل الطالبين . النجف الاشرف سنة 1353 هـ .

73 ــ **أحمــد أميــن :** ضحى الاسلام ج 3 . القاهرة سنة 1936 م .

74 ــ **احمد مختــار العبادى :** سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس ــ صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ــ مجلد 5 ــ عدد 1 ، 2 سنة 1957 م .

75 ــ **الادريسى :** الشريف محمد الادريسى (ت 558 هـ) : صفة المغرب وارض السودان ومصر . ليدن سنة 1894 م .

76 ــ **ارشيبيــا لدلونس :** القوى البحرية والتجارية فى حوض البحــر الابيض المتوسط . القاهرة سنة 1960 .

77 ــ **أرنولد :** سير توماس : الدعوة الى الاسلام . القاهرة سنة 1957 م.

78 ــ **الازدى :** محمد بن ابى نصر فتوح بن عبد الله (ت 488 هـ) : جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس . القاهرة سنة 1966 م .

79 ــ **الاسفــرائييــن :** ابو المظفر الاسفرائى (ت 471 هـ) : التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين . القــاهرة سنــة 1955 م .

80 ــ **اسماعيل حامد (ناشر) :** نبذة فى تاريخ الصحراء القصوى . باريس سنــة 1911 م .

81 ــ **الاشعــرى :** ابو الحسن الاشعرى : مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين . بفنساون سنة 1963 م .

82 ــ **أطفيــش :** محمد بن يوسف (ت 1304 هـ) : الامكان فيما جــاز ان يكون أو كان . الجزائر سنة 1304 هـ .

83 ــ **أطفيــش :** بعض تواريخ اهل وادى ميزاب . الجزائر سنة 1326 هـ.

84 ــ **الانــدلســى :** محمد بن محمد الاندلسى : الحلل السندسية فــى الاخبار التونسية . تونس سنة 1287 هـ .

85 ــ **الانصــارى :** احمد النائب : المنهل العذب فى تاريخ طــرابلس الغرب ج 1 . بيروت .

86 ـ **الباجى المسعــودى** : محمد الباجى المسعودى (ت 1253 هـ) : الخلاصة النقية فى أمراء افريقية . تونس سنة 1283 هـ .

87 ـ **باسيــه : رينيــه** : R. BASSET : مادة ادريس بدائرة المعــارف الاسلامية . مجلد 1 .

88 ـ **برنــارد لــويس** : أصول الاسماعيلية . القاهرة سنة 1947 م .

89 ـ **البغــدادى** : عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت 429 هـ) : الفرق بين الفرق . القاهرة .

90 ـ **البكــرى** : ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيــز (ت 460 هـ) : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب باريس سنة 1911 م .

91 ـ **البــلاذرى** : احمد بن يحيى بن جابــر (ت 248 هـ) : انساب الاشراف ج 11 . جريفزفالد سنة 1883 م .

92 ـ **البــلاذرى** : انساب الاشراف ج 1 . القاهرة سنة 1959 م .

93 ـ **البــلاذرى** : فتوح البلدان ج 1 . القاهرة سنة 1956 م .

94 ـ **البلــوى** : ابو عبد الله بن محمد المدينى (ت حول منتصف القرن الرابع الهجرى) : سيرة احمد بن طولون دمشق سنة 1358 هـ .

95 ـ **البــوعيــاشى** : احمد بن عبد السلام . الريف بعد الفتح الاسلامى . تطوان سنــة 1954 م .

96 ـ **بــوفيــل** : الممالك الاسلامية فى غرب افريقيا واثرها فى تجــارة الذهب عبر الصحراء . القاهرة سنة 1968 م .

97 ـ **التجــانــى** : عبد الله بن محمد بن احمد (ت 717 هـ) رحلته تونس سنة 1958 م .

98 ـ **الجــربــى** : محمد ابو راس (ت 1222 هـ) : **مؤنس الاحبــة** فى اخبار جربة . تونس سنة 1958 م .

99 ـ **الجزنــائــى** : على الجزنائى (ت أواخر القرن الثامن الهجرى) : زهرة الآس فى بناء مدينة فاس . الجزائر سنة 1923 م .

100 ـ **حامد عمار (دكتور)** : علاقات الدولة المملوكية بالدولة الافريقية ـ رسالة ماجستير .

101 ـ **حسن ابراهيم حسن (دكتور)** : انتشار الاسلام فى القارة الافريقية القاهرة سنة 1964 م .

102 ـ **حسن ابراهيم حسن (دكتور)** : تاريخ الدولة الفاطمية . القاهرة

سنة 1958 م .

103 ــ **حسن ابراهيم حسن (دكتور) :** تاريخ الاسلام السياسى : ج 1 ، 2 ، 3 . القاهرة سنة 1958 م .

104 ــ **حسن ابراهيم حسن (دكتور) :** عبيد الله المهدى . القاهرة سنة 1947 م .

105 ــ **حسن أحمد محمود (دكتور) :** انتشار الاسلام والثقافة العربية فى افريقية . القاهرة سنة 1963 م .

106 ــ **حسن أحمد محمود (دكتور) :** قيام دولة المرابطين . القاهرة سنة 1957 م .

107 ــ **حسن الباشا (دكتور) :** الالقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار . القاهرة سنة 1957 م .

108 ــ **حسن حسنى عبد الوهاب :** ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية ج 1 ، 2 . تونس سنة 1966 م .

109 ــ **حسن على حسن عبد العواد :** دولة الادارسة بالمغرب ــ رسالة ماجستير .

110 ــ **حسين مؤنس (دكتور) :** فجر الاندلس .

111 ــ **حسين مؤنس (دكتور) :** ثورات البربر فى افريقية والاندلس ــ مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الاول مجلد 10 ج 1 . مايو سنة 1948 م .

112 ــ **الحميرى :** محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت القرن التاسع الهجرى) : صفة جزيرة الاندلس القاهرة سنة 1937 م .

113 ــ **الخشنى :** محمد بن الحارث بن أسد (366 هـ) : طبقات علماء افريقية . باريس سنة 1915 م .

114 ــ **الدباغ :** عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الانصارى (ت 696 هـ) : معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان ج 1 ، 2 ، 3 . تونس سنة 1320 هـ .

115 ــ **ديموميين :** G. Dymombyne : مادة بنى الاغلب بدائرة المعارف الاسلامية ــ مجلد 2 .

116 ــ **الدينورى :** احمد بن داود (ت 282 هـ) : الاخبار الطوال .

117 ــ **الرازى :** فخر الدين الرازى (ت 606 هـ) : اعتقادات فرق

المسلمين والمشركين . القاهرة سنة 1938 م .

118 ـ **الرفـاعـي :** عبد الله محمد سراج الدين (ت 885 هـ) : صحاح الاخبار فى نسب السادة الفاطمية الاخيار بمباى سنة 1306 هـ .

119 ـ **الـرقيـق :** ابراهيم بن القاسم القيروانى (ت النصف الاول من القرن الخامس الهجرى) : تاريخ افريقية والمغـرب . تـونس سنـة 1968 م .

120 ـ **سر الختم عثمان :** العلاقات بين مصر والسـودان فى العصـور الوسطى رسالة ماجستير .

121 ـ **سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) :** تاريخ المغـرب العربـى القاهرة سنة 1965 م .

122 ـ **سعيد بن بطريق :** البطريرك افيتشيوس (ت 328 هـ) : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق . بيروت سنة 1905 م .

123 ـ **سعيد بن مقديش :** نزهة الانظار .

124 ـ **السـلاوى :** احمد بن خالد الناصرى (ت 1319 هـ) : الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ج 1 . الدار البيضاء سنة 1954 م .

125 ـ **سلفاتور كوسا (ناشر) :** تواريخ مدينة فاس .

126 ـ **سهير القلماوي (دكتور) :** ادب الخوارج من العصر الاموى ـ رسالة ماجستير ـ القاهرة سنة 1945 م .

127 ـ **السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :** المغرب الكبير . القـاهـرة سنـة 1966 م .

128 ـ **السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :** تاريخ المسلمين وآثارهم فـى الاندلس . القاهرة سنة 1962 م .

129 ـ **السيـوطـى :** جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر (ت 911 هـ): تاريخ الخلفاء . القاهرة سنة 1964 م .

130 ـ **الشمـاخـى :** احمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت 928 هـ) : السير . القاهرة ـ طبع حجر .

131 ـ **الشهـرستـانـى :** محمد بن عبد الكريم (ت 548 هـ) : الملل والنحل ج 1 . القاهرة سنة 1956 م .

132 ـ **صاعـد الانـدلسى :** صاعد بن احمد (ت 462 هـ) : طبقات الامم. القاهرة سنة 1915 م .

133 ـ **الضبـى :** احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة (ت 599 هـ) : بغية الملتمس فى تاريخ رجال الاندلس . مدريد سنة 1884 م .

134 — **الطاهر أحمد الزاوى :** تاريخ الفتح العربى فى ليبيا . القاهرة سنة 1963 م .

135 — **الطبـــرى :** محمد بن جرير (ت 310 هـ) : تاريخ الرسل والملوك ج 4 ، 5 ، 6 ، 7 ، 8 . القاهرة سنة 1963 م .

136 — **طه حسين (دكتور) :** الفتنة الكبرى ج 1 ، 2 . القاهرة سنـــة 1959 م . سنة 1961 م .

137 — **عبد الرحمن بن زيدان :** اتاحف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ج 1 ، 2 . الرباط سنة 1929 ، سنة 1930 م .

138 — **عبد العزيز بنعبد الله :** تاريخ المغرب ج 1 . الـــدار البيضـــاء سنـــة 1965 م .

139 — **عبد المنعم ماجد (دكتور) :** التاريخ السياسى للدولة العربية ج 2 القاهرة سنة 1957 .

140 — **عبيد الله بن صالح :** نص جديد عن فتح العرب للمغرب . صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد — مجلـــد 2 سنـــة 1954 م .

141 — **عريب بن سعد القرطبى :** (ت 366 هـ) : صلة تاريخ الطبرى . القاهرة سنة 1939 م .

142 — **على يحيى معمر :** الاباضية فى موكب التاريخ ج 1 . القـــاهـــرة سنـــة 1964 م .

143 — **عمر أبو النصر :** الخوارج فى الاسلام . بيروت سنة 1956 م .

144 — **فلهـــــوزن :** يوليوس ، تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الاموية . القاهرة سنة 1958 م .

145 — **فلهـــــوزن :** أحزاب المعارضة السياسية الدينية فى صدر الاسلام الخوارج والشيعة ، القاهرة سنة 1958 .

146 — **قدامة بن جعفر** (ت 320 هـ) : الخراج وصنعة الكتابة . ليـــدن سنـــة 1889 م .

147 — **القلقشنـــدى :** ابو العباس احمد (ت 821 هـ) : صبح الاعشى فى صناعة الانشا . ج 3 ، 5 ، 13 . القاهرة سنة 1922 م .

148 — **الكتـــامـــى :** محمد بن ادريس الحسنى (ت 1345 هـ) : الازهار

العاطرة الانفاس بذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس

149 ـ **الكرخي :** ابراهيم بن محمد الفارس الاصطرخي (ت النصف الاول من القرن الرابع الهجري) : المسالك والممالك . القاهرة سنة 1961 م .

150 ـ **كولين :** G. S. Colin : مادة سجلماسة بدائرة المعارف الاسلامية .

151 ـ **الكندي :** محمد بن يوسف (ت 350 هـ) : الولاة والقضاة . بيروت سنة 1908 م .

152 ـ **ليفي ديللا فيدا :** G. Levi. Della Vida :مادة الصفرية بدائرة المعارف الاسلامية .

153 ـ **مارسيه :** G. Marcais : مادة بني رستم بدائرة المعارف الاسلامية .

154 ـ **المالكي :** عبد الله بن ابي عبد الله (نهاية القرن الرابع الهجري) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية ج 1 القاهرة سنة 1951 م .

155 ـ **الماوردي :** علي بن محمد بن حبيب (ت 450 هـ) الاحكام السلطانية والولايات الدينية . القاهرة سنة 1960 م .

156 ـ **مبارك الميلي :** تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج 1 ، 2 . الجزائر سنة 1350 هـ .

157 ـ **المبرد :** أبو العباس محمد بن يزيد (ت القرن الثالث الهجري) الكامل في اللغة والادب والنحو والتصريف . ج 1 ، 2 ، 3 . القاهرة سنة 1936 م .

158 ـ **مجهول :** اخبار مجموعة في فتح الاندلس . مدريد سنة 1867 م.

159 ـ **مجهول :** العيون والحدائق في اخبار الحقائق ليدن .

160 ـ **مجهول :** (ت القرن السادس الهجري) : الاستبصار في عجائب الامصار . الاسكندرية سنة 1958 م .

161 ـ **مجهول :** (ت القرن الثامن الهجري) : نبذ تاريخية في اخبار البربر في القرون الوسطى . الرباط سنة 1934 م .

162 ـ **محمد أبو زهرة :** المذاهب الاسلامية . القاهرة سنة 1959 م .

163 ــ **محمد بن تاويت التطوانى** : دولة الرستميين أصحاب تاهــرت ــ صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد مجلد 5 ــ عـــدد 1 ، 2 ــ سنة 1957 م .

164 ــ **محمد جمال الدين سرور (دكتور)** : الحياة السياسية فى الدولــة العربية الاسلامية . القاهرة سنة 1960 م .

165 ــ **محمد جمال الدين سرور (دكتور)** : الدولة الفاطمية فى مصر . القاهرة سنة 1965 م .

166 ــ **محمد ضياء الدين الريس (دكتور)** : النظريات السياسية الاسلامية القاهرة سنة 1967 م .

167 ــ **محمد عبد الله عنان** : دولة الاسلام فى الاندلس ج 1 . القاهــرة سنـــة 1943 م .

168 ــ **محمد على دبــوز** : تاريخ المغرب الكبير ج 2 ، 3 . القاهرة سنة 1963 م .

169 ــ **محمد على السنوسى** (ت 1272 هـ) : الدرر السندسية فى اخبار السلالة الادريسية . ليبيا سنة 1349 هـ .

170 ــ **محمد كامل حسين (دكتور)** : فى ادب مصر الفاطمية . القاهرة سنـــة 1963 م .

171 ــ **محمود اسماعيل عبد الرازق** : سياسة الاغالبة الخارجيـــة ــ القاهرة سنة 1972 م .

172 ــ **محمود على مكى (دكتور)** : التشيع فى الاندلس الى نهاية ملوك الطوائف صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ــ مجلد 2 ــ سنـــة 1954 م .

173 ــ **المــراكشى** : عبد الواحد بن على التميمى (ت 647 هـ) : **المعجب** فى تلخيص اخبار المغرب . القاهرة سنة 1949 م .

174 ــ **المسعــودى** : على بن الحسين بن على (ت 346 هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ، 3 ، 4 . القاهرة سنة 1964 م .

175 ــ **المقــدسى** : شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد (ت 388 هـ) احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم . ليدن سنة 1909 م .

176 ــ **المقـــرى** : احمد بن محمد (ت 1041 هـ) : نفح الطيب مـــن

غصن الاندلس الرطيب ج 1 ، 4 . القاهرة سنة 1946 م .

177 ـ **المقـريـزى** : تقى الدين أحمد بن على (ت 845 هـ) : اتعاظ الحنف بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا . القاهرة سنة 1948 م .

178 ـ **المقـريـزى** : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ج 1 ، 2 . بـولاق سنة 1270 هـ .

179 ـ **نصر بن مزاحم المنقرى** : اخبار صفين .

180 ـ **النفـوسى** : سليمان بن عبد الله البارونـى (ت 1359 هـ) : الازهار الرياضية فى ائمة وملوك الاباضية ج 2 .

181 ـ **النـوبختـى** : الحسن بن موسى (ت 288 هـ) : فرق الشيعة . النجف سنـة 1951 م .

182 ـ **النيسابـورى** : احمد بن ابراهيم (ت أواخر القرن الرابع الهجرى) استتار الامام . مجلة كلية الاداب بالجامعة المصرية مجلـد 4 ، ج 2 ـ ديسمبر سنة 1936 م .

183 ـ **الورجلانـى** : يوسف بن ابراهيم : الدليل لاهل العقول . ج 1 ، 2 ، 3 . القاهرة سنة 1306 هـ .

184 ـ **ياقوت الحمـوى** : شهاب الدين ابو عبد الله الحموى الـرومى (ت 636 هـ) : معجـم البلـدان ـ مجلـد 1 ، 3 . طهـران سنـة 1965 م .

185 ـ **اليعقـوبـى** : احمد بن أبى يعقوب بن واضح (ت 284 هـ) : انبلدان . ليدن سنـة 1891 م .

186 ـ **اليعقـوبـى** : تاريخه ج 2 ، 3 . النجف الاشرف سنة 1358 هـ .

187 ـ **اليمـانـى** : محمد بن مالك بن أبى الفضائل الحمادى (ت حول اواسط القرن الخامس الهجرى) : كشف اسرار الباطنية واخبار القرامطة . القاهرة سنة 1955 م .

188 ـ **اليمـانـى** : محمد بن محمد : سيرة جعفـر الحـاجب . نشر ايفانوفا تحت عنوان مذكرات فى حركة المهدى الفاطمى . مجلـة كلية الآداب بالجامعة المصرية ـ مجلد 4 ـ ج 2 ـ سنة 1936 م.

ج — المراجـع الأوربيـة :

189 — **Basset, Rene** : Les sanctuaires du Djebel Nefousa. Journal Asiatique, Tome 13,14 Paris, 1899.

190 — **Basset, Rene** : Recherches sur la religion des Berberes. Revue de l'histoire des religions. Tome 61, Paris 1910

191 — **Bel, Alfred** : La religion musulmane en Berberie. Vol. 1, Paris, 1938.

192 — **Bernard, Augustin** : Les capitales de la Berberie. Recueil de memoires et de textes publie en l'honneur du 14e congres des Orientalistes. Alger. 1905.

193 — **Biquet, Faure** : Histoire de l'Afrique septentrionale sous la dominition musulmane. Paris.

194 — **Bonet, Maury** : L'Islamisme et le Christianisme en Afrique Paris, 1906.

195 — **Brockelmann, Karl** : History of the Islamic people. London, 1949,

196 — **Brunschvig, R** : La tunisie dans le haut moyen age. Le Caire, 1948.

197 — **Cambridge Medieval** : history, Vol. 2.

198 — **Cherbonneau, M** : Documente inedits sur l'heretique Abou-Yezid Mokhalled Ibn Kaidad de Tademket Traduits de la chronique d'Ibn Hammad. Journal Asiatique, Tome 20 Paris, 1852.

199 — **Conde** ; History of the dominion of the Arabs in Spain Vol. I, London.

200 — **Dachraoui, Farhat** : La captive d'Ibn Wasul, Le rebelle de

Sidjilmassa d'apres le cadi An-Numan. Les Cahiers du Tunisie, 1956.

201 — **De goeje M.J.** : Memoires sur les Carmathes de Bahrin et les Fatimids Leiden, 1886.

202 — **Despois, Jean** : Le Djebel Nefousa. Paris, 1935.

203 — **Dozy, E.** Spanish Islam. London, 1913

204 — **Drague, G** : Esquisse d'histoire religeuse du Maroc. Paris, 1951.

205 — **Faroughy, Dr. A** : A Persian dunasty in North Africa ; The Rustamides.
The Islamic review, April, 1952, England.

206 — **Fournel** : Les Berberes. Vols. 1, 2, Paris, 1895.

207 — **Gibb** : Mohammedanism. London, 1945.

208 — **Hassan Ibrahim** ; Relations between the Fatimids in North Africa and Egypt and the Omayyads in Spain during the 4 th century A.H. Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University. Vol 10, Part, 2 Cairo 1948.

209 — **Hitti, P. K.** : History of the Arabs. London, 1964.

210 — **Hopkins** : Medieval Moslem government in Barbary unitill the 6 th century of Hijra. London, 1958.

211 — **Houdas, O.** Essai sur l'ecriture Maghrebine. Nouveau melanges Orientaux. Publications de l'ecole des langues Orientales vivantes, 2 serie, Vol. 19

212 — **Huart, C.** Histoires des Arabes. Vol. I. Paris, 1912

213 — **Idris, H.R.** : Contribution a l'histoire de l'Ifrikiya
Revue des etudes Islamiques, Année, 1935,
Cahier 2 Paris, 1935.

214 — **Ivanovv, W** : Ismaili tradition concerning the rise of the Fatimids. Bombey, 1942.
وبملاحق الكتاب نصوص من الجزء الخامس عشر من كتاب شرح الاخبار ، وكتاب افتتاح الدعوة ، وكتاب زهرة المعانى .

215 — **Julien, Andre** : Histoire de l'Afrique du Nord. Paris, 1931

216 — **Lammens, H** : Etudes sur le siecle des Omayyades. Beyrouth, 1930.

217 — **Lane-Poole, S** : Catalogue of the collection of Arabic coins in the British museum, Vol. 4. London, 1879.

218 — **Lane-Poole, S** : Catalogue of the collection of Arabic Coins presented in the Khedivial liberary of Cairo. London, 1897,

219 — **Lavoix, M.H** : Catalogue des monnaies Musulmane de la Bibliothèque Nationale. "l'Espagne et Afrique" Paris, 1891.

220 — **Le Tourneau, R** : La revolte d'Abou-Yazid au Xme siecle Les cahiers de tunisie, 1953 Tunis, 1953.

221 — **Lewicki, T** : Etudes Ibadites Nord Africaine. Warszaw, 1955.

222 — **Lewicki, T** : De quelques textes inedits en vieux Berberes provenant d'une chronique ibadites anonyme.
Revue des etudes Islamiques, Annee 1934,
Cahier 3 Paris, 1934.

223 — **Lewicki, T** : Melanges Berberes Ibadites. Revue des etudes Islamiques Annee 1936, Cahier 3, Paris, 1936.

224 — **Lewicki, T** : Une chronique Ibadites "Kitab-as-syar" d'as-Samachi. Revue des etudes Islamiques, Annee 1934 Tome 8 Paris, 1937.

225 — **Mamour, P.H.** Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs London, 1934.

226 — **Marcais, G** : L'Afrique du Nord Francaise dans l'histoire. Paris, 1937.

227 — **Marcais, G** : La Berberie Musulmane et l'orient au moyen age, Paris, 1946.

228 — **Marcais, W** : Comment l'Afrique du Nord a ete arabise Annales de l'institut d'etudes orientales, Annee, 1938 Tome 4

229 — **Masqueray, E.** Chronique d'Abou Zakaria Alger, 1878.

230 — **Mercier, E.** Histoire de Constantine, 1903.

231 — **Mercier, E.** Histoire de l'Afrique septentrionale Vol. I, Paris, 1888.

232 — **Mercier, E.** Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique Septentrionale Constantine, 1875.

233 — **Motylinski, A. De. C.** : Chronique d'Ibn Saghir sur les Imams Rostimides de Tahert. Actes du 14 congres international des orientalistes.
Alger, 1905, Vol. 3, Part 2.

234 — **Motylinski, A. De. C.** : L'Aqida des Abadhites Actes du congres international des orientalistes, Alger, 1905.

235 — **Muir, W** : The caliphates ; its rise, decline and fall.
Beirut, 1963.

236 — **O' Leary. de lacy** : A short history of the Fatimid Khalifate.
London, 1923.

237 — **Provencal, E.L.** : Histoire de l'Espagne musulmane Vol. I, Alger, 1950.

238 — **Scott, S.P.** : History of the Moorish empire in Europe Vol. 2, London, 1904.

239 — **Smith, P** : The Ibadites. The Moslem world, Vol. 12 July, 1922.

240 — **Van Berchem, Max** : Titres Califiens d'Occident. Journal Asiatique, Tome, 9 Paris, 1907.

241 — **Variedades** : Al-Hakam II y los berbers regum untexto inedito de Ibn Hayyan. Al-Andlus, Vol. 13, Madrid, 1948.

242 — **Vonderheyden, M** : La Berberie orientale sous la synastie de Benou' L'Arlab. Paris, 1927.

243 — **Zaki. M. Hassan** : Les Tulunides Paris, 1933.

الفهرس

المقدمـــــة 5

البـــاب الاول :

دعوة الخوارج فى بلاد المغرب 23
1) احوال الخوارج فى المشرق الاسلامى حتى اوائل القرن
الثانى الهجرى 24
2) بلاد المغرب قبيل ظهور الخوارج 31
3) انتشار مذهب الخوارج فى بلاد المغرب 42

البـــاب الثانى :

ثورات الخوارج فى بلاد المغرب فى عصر الولاة 59
1) ثورات الخوارج الصفرية 62
2) ثورات الخوارج الاباضية 82
3) نتائج ثورات الخوارج فى بلاد المغرب 96

البـــاب الثالـــث :

دول الخوارج فى بلاد المغرب 109
1) دولة بنى مدرار الصفرية .
أ) قيام دولة بنى مدرار 112
ب) سياسة بنى مدرار الداخلية 122
ج) علاقات بنى مدرار الخارجية 128
2) دولة بنى رستم الاباضية .
أ) قيام دولة بنى رستم 144

ب) سياسة بنى رستم الداخلية 154
جـ) علاقات بنى رستم الخارجية 183

البـــاب الرابـــع :

الخوارج والفاطميون فى بلاد المغرب 209
1) الصفرية والفاطميون .
ا) الفاطميون وسقوط دولة بنى مـــدرار 210
ب) ثورات الصفرية على الحكم الفاطمى 219
2) الاباضية والفاطميون .
ا) الفاطميون وسقوط دولة بنى رستم 229
ب ــ ثورات الاباضية على الحكم الفاطمى 235

البـــاب الخامـــس :

اثر الخوارج فى المجتمع المغربى 255
1) الفكر السياسى ونظم الحكم 257
2) الحياة الاقتصاديـــة 271
3) الحياة الاجتماعية 285
4) الحياة الثقافيـــة 292
الخاتمـــة 303
الملاحـــق 311
المصـــادر 319

* *

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء



صدر عن :

تاريخ الشعر العربي	الدكتور نجيب محمد البهبيتي
أبو تمام الطائي	الدكتور نجيب محمد البهبيتي
المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ	الدكتور نجيب محمد البهبيتي
المعلقات سيرة وتاريخاً	الدكتور نجيب محمد البهبيتي
من أدب الدعوة الإسلامية	الدكتور عباس الجراري
في الشعر السياسي	الدكتور عباس الجراري
صفحات دراسية	الدكتور عباس الجراري
زهر الأكم في الأمثال والحكم	تحقيق الدكتور محمد حجي
رسائل أبي علي اليوسي	تحقيق الأستاذة فاطمة خليل
كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة	تحقيق الدكتور سامي النشار
الشهب اللامعة في السياسة النافعة	تحقيق الدكتور سامي النشار.
وقعة وادي المخازن	الدكتور إبراهيم شحاتة
تاريخ سبتة	الأستاذ محمد بن تاويت
الروايات التاريخية لتأسيس سجلماسة وغانة	الأستاذ محمد الحمداوي
قضايا في التاريخ الإسلامي	الدكتور محمود إسماعيل
سوسيولوجية الفكر الإسلامي	الدكتور محمود إسماعيل
فلسفة فرانسيس بيكون	الدكتور حبيب الشاروني
روضة التعريف بالحب الشريف	تحقيق الدكتور محمد الكتاني
دراسات في أصول تفسير القرآن	الدكتور محسن عبد الحميد
تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية	الدكتور يونان لبيب رزق

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

الايداع القانوني رقم 1985/597